النبوغ المغربي

في الأدب العربي

النبوغ المغربي

في الأدب العربي

تأليف

عبد الله كنون

الجزء الأول

مقدمة الطبعة الثانية

هذا الكتاب

لما ألفتُ هذا الكتاب ، لم أكن أهدفُ به الى تمييز أدب المغرب بميزةٍ ليست في الأدب العربي العام ، ولا الى تخصيصه ببحث مستقل يجعله في نظر المغاربة أو غيرهم كتاباً خاصاً بأدب قطر من أقطار العروبة على حِدَته ، وانما كان مقصودي الأهم من تأليفه ، هو بيان اللَّبِنَة التي وضعها المغرب في صرح الأدب العربي الذي تعاونت على بنائه أقطارُ العروبة كلُّها ، وذكر الأدباء المغاربة الذين لم يُقصِّروا عن إخوانهم من المشارقة ومغاربة بقيّة أقطار المغرب العربي في العمل على ازدهار الأدبيات العربية على العموم .

وذلك لأني رأيت منذ نشأتي الأولى إهمالَ هذا الجزء من بلاد العروبة في كتب الأدب وكتُب تاريخ الأدب ، حتى لقد تُذكر تونس والجزائر ، وبالحرَى القيروان وتِلمسان فضلاً عن قرطبة واشبيلية ، ولا تُذكرُ فاس ومرّاكش بحال من الأحوال . وظننتُ أولاً أن ليس لبلادي في هذا المجال مشاركة ، وإنما حسبُها ميادينُ البطولة والجهاد والفتح ، ولذلك لا يسعُ المؤرخين وكتّاب التراجم الا أن ينوهوا بشخصيات يوسف بن تاشفين ، وعبد المؤمن بن علي ، ويعقوب المنصور ، وأبي الحسن المريني ، وأضرابهم من أبطال المعارك وأرباب الحكم والسلطان ، ويُثنوا على أعمالهم ومساعيهم في خدمة الاسلام ، وتوطيد دولته ؛ في حين أنهم لا يُعيرون اهتماماً لرجال العلم والأدب ، ولا يُعرِّجون على ما كان لهذا الوطن العزيز من صَولة في عالم الفكر ومَيدان العِرفان .

ثم لما بحثتُ ونقبتُ ، وجدتُ كنوزاً عظيمة من أدبٍ لا يقصُر في مادّته عن أدب أيّ قطر من الأقطار العربية الأخرى ، وشخصياتٍ علميّة وأدبيّة لها في مجالي

الانتاج والتفكير مقامٌ رفيع . ولكنّ الاهمال قد عفّى على ذلك كله ، وعدمَ الاهتمام بجمعه في كتاب ، والتّنبيه عليه في خطاب أدّى الى وَأده ، فاحتاج الى من يبعثُه من مرقده .

وقد شمَّرتُ عن ساعد جِدّي ، وأنا يافِع لم يَبقَل بعدُ عارضي ، فتتبعت جميعَ ما وصلت اليه يدي من آثار أدبية مغربيّة ، وأخبار عن أدباء المغرب وعلمائه ، ممَّا وقفتُ عليه في الكتب والأوراق والمحافظ ، أو تلقّفته من أفواه المشائخ والأدباء والأقران ، وجمعتُ ذلك كلّه في كتاب النبوغ ودفعتُ به الى المطبعة منذ بضع وعشرين سنة ، لعلّي أرفعُ الضيمَ عن بلادي ، وأُثبتُ مركزها في حظيرة العلم والأدب ، على ما هو عليه مركزها في السياسة والحرب أو أعظمَ .

ولقد وُفّقتُ الى ما أردتُ أو بعضٍ مما أردتُ ، على ضعف وسائلي المادية والأدبية في ذلك الحين ، فكان للكتاب صدًى بعيدٌ في الداخل والخارج ، نبّه الزّملاء والناشئين بعدُ الى العناية بهذه الناحية من تاريخهم ، وأثارَ اهتمام الباحثين والمَعْنيّين بهذه الشؤون في الشرق والغرب، حتى قال فيه أميرُ البيان المرحوم الأميرَ شكيب أرسلان « ان من لم يقرأه فليس على طائل من تاريخ المغرب العلمي والأدبي والسياسي » وصار العلامة الأستاذ كارل بروكلمان ، الحجةُ في تاريخ الأدب العربي يعتمده في مُلحقات كتابه العظيم ، عن تاريخ هذا الأدب . ولا يُمكِنُني في هذه العُجَالة أن أستوعِبَ أسماءَ جميع الأدباء والكُتّاب الذين تناولوه بالنقد والتقريظ في مُختَلِف الصحف والمجلات منذ صدوره الى الان . ولكني أُشير الى إقرار العالم الايطالي الشهير جيوفاني بيانكي في مقال له بمجلة الشرق الحديث[1] عن الكتاب «بإبرازه للمساهمة التي أبداها المغرب في الآداب العربية ،تلك المساهمة التي أهمِلتْ حتى اليوم ، ولم تُقدَّر كما كان ينبغي » وهذه هي الغاية التي من أجلها الفتُ النبوغ . وكذلك أشير الى ما جاء في مقال عنه للدكتور محسن جمال الدين ، نُشِر بمجلة الأديب البيروتية منذ عهد قريب[2] وهو قوله : « ان فضيلة هذا الكتاب في أنه يختص بدراسة

١ – انظر ترجمته في مجلة العالم العربي (عدد اول سنة ثانية) بقلم المستشرق « اميليو بوسي » ، وكان الكاتب اطّلع على الترجمة الاسبانية للكتاب .

٢ – عدد سبتمبر ١٩٥٨

أدب بلاد المغرب الأقصى وتاريخه ويستخرج النصوص من خزائنهـا النادرة ، ذات المخطوطات النفيسة ، ويعرضُ لنا نماذجها الحسنة . ودراسة شخصياتها المعتبرة ، وهو بعيد عن ابتذال القول وضعف الرأي ... والذي يدرس منا كتاب « النبوغ المغربي » فستُدهشه هذه الوفرة الزاخرة من اسماء الرجال والمؤلفات والنصوص ، ويتأكد بعدها أن أغلب أصحاب حِرْفة الأدب عندنا أو حَمَلَة العلم في جامعاتنا ، لم يسمعوا بها أو يقتنوا من آثارها ، أو يحفظوا بعض أشعارها ونثرهـا ، وما عملُ المؤلف المفضال ، والصديق الكريم الا صيْحَةً داوية ، ودعوةً حارّة ، وغَرْساً مُثمِراً لجيله الحاضر ، ولأجيالنا القادمة في الوطن العربي كافّة ، وفي عالم الحضارة العالمية الواسعة » وهذا وصفٌ للمجهود الطائل الذي بذَلَتْه في تأليف النبوغ ، بقلم استاذ جامعي يعرِف قيمةَ البُحوث المبتكرة التي لم تُنسَجْ على منوال سابق .

وكان المرحوم الاستاذ سعيد حِجّي يُعلِنُ عنه في جريدة المغرب عند صدوره بهذه العبارات « حادث خطير في تاريخ المغرب ، ظهورُ كتاب النبوغ المغربي في الأدب العربي ، أول كتاب من نوعه ، وأوفاهُ في موضوعه » ، وألقى بأحد نوادي سلا محاضرةً عنه بعنوان (خطوة عظيمة في تاريخ الفكر المغربي) نشرها في العدد الثامن وما بعده من الملحق الثقافي لجريدة المغرب .

ثم كانت موافقةً عجيبةً أن أُعلنَ في مصر عن جائزة للدولة قدرهـا خمسمائة (٥٠٠) جنيه ، خُصِّصَتْ لمن يؤلف عن الأدب العربي في القطر المصري ، من الفتح الاسلامي الى العصر الحاضر . . فكتب الأستاذ حِجّي مُعلـّقاً على هذا النبأ بالملحق المذكور ما يلي : « من حُسن الصُّدَف أن تهتم وزارة معارف مصر بوضع جوائز عن الأدب المصري في الماضي ، في نفس الأسبوع الذي يصدر فيه كتاب مغربي عن الأدب المغربي في ذلك الماضي ، فيكون المغرب أسبق الى تلك المفخرة من كل الأمم الناطقة بالضاد ولكن يجب أن نتساءَل ماذا ينالُ مؤلفنا من تقدير ادارة العلوم والمعارف ، وما يستحقه من تشجيع من جمهور المثقفين ؟ فنحن نُهيبُ بتلك الادارة الى الاهتمام بهذا المؤلـّف الحافل ، ونرجو أن تشتري منه بضع مئات من النسخ تقديراً لمجهودات مؤلفه الثمينة ، وتشجيعاً لمثل هذه المباحث القيمة . » وقد كان الجوابُ على هذا النّداء النبيل هو صُدورُ قرار عسكري بمَنْعِ رَواج الكتاب ، ومُعاقبةِ من تُضْبَط عنده نسخة منه . ونصُّ ما كتبتْه جريدة السعادة ،

لسانُ حال حكومة الحماية ، بعددها رقم ٤٥٩٢ في هذا الصَّدَد تحت عنوان بلاغ عسكري (أصدر سعادةُ الجنرال خليفةُ سعادة القائد الأعلى للجنود بالنيـــابة أمراً يقضي بمنع الكتاب الُمعنْوَن بالنبوغ المغربي في الأدب العربي الصّادر باللغة العربية في تطوان من الدُّخُول الى المنطقة الفرنسية بالمغرب الأقصى ، وكذلك بيعه وعرضه وتوزيعه ، ومن خالف ذلك يُعاقبُ بمقتضى القوانين المقرَّرة » . .

واذا كان لهذا القرار دَلالةٌ فهي تأكيدُه لكون الكتاب عملاً وطنيا فوق كونه عملاً أدبياً ولذلك استحق أن يحظَى من الاستعمار الفرنسي الغاشم بهـــذا الجزاء الظالم . . وكان أنْ ثارتْ ثائرةُ الصحف الوطنية بتطوان ضد هـــذا التدخل العسكري الاستبدادي في شؤون الفكر والثقافة ، فكتبت كل من جريدة « الحرية » وجريدة « الوحدة المغربية » مقالات نارية تنتقد فيهـــا القرار المذكور وتُنَدِّد بالحريَّة الفرنسيّة المزعومة ، مما جعل الصحافة الاستعمارية تُصاب بالسُّعار ، فتصُبُّ جامَ غضبِها على الوطنية المغربية عموماً ، وتخصَّني بحملات عدائية انتهزها الأذنابُ والمنافقون ، فلم يقصروا في الأذى والضرر .

ومن الانصاف أن أقول ان هذا كان في الجنوب أو المنطقــة السلطانيّة إذ ذاك . وأما في الشمال أو المنطقة الخليفيه ، فقد تلـُقـّي الكتاب بقبول حسن من لدن السلطة ، واقتنت منه ادارة المعارف كميّةً من النسخ ، وزَّعتهـــا على المكتبات والمعاهد في المنطقة . ثم لما تُرجِمَ إلى الاسبانية بمعرفة الاستاذين خيرُونيمُو كريُّو أورد ونييز ومحمد تاج الدين بوزيد ، قابلته المحافلُ الأدبية في أسبانيا بمزيد من التقريظ والتقدير ، وبلغ الأمر أن وصلتني رسالة من وزارة الخارجية الاسبانية بتاريـخ ١٨ نوفمبر ١٩٣٩ تعلمني بان وزارة المعارف العمومية لهذه البلاد ، قد منحتني درجـــة دكتوراه شرف للآداب من جامعة مدريد بمنـــاسبة صدور كتابي النبوغ المغربي في ترجمته الاسبانية ، وتدعوني الى زيارة اسبانيا في رحلة تستغرق شهراً على نفقة الحكومة . وجاءت هذه التحية الكريمة في الوقت المناسب ، فمحَتْ من نفسي آثار المعـاملة السيئة التي عومل بها الكتاب من السلطات الفرنسية وعُمَلائها ، وردَدتُ الجـواب بالشكر وعِرْفان الجميل ولكني أجّلتُ السفر الى أن يشاء الله تجنُّباً للقِيل والقال .

هذه قصّةُ كتاب النبوغ المغربي باختصار ، من لدن التفكير في وضعه وجمعه ،

الى ما بعد طبعه ومنعه . والآن وقد مرت على ظهور طبعته الأولى هذه المدة الطويلة ، وكثر الطلب عليه من مختلف الجهات وخصوصاً بعد استقلال المغرب ، وتوجُّه الأنظار الى هذه البلاد التي كانت محاطة بستار حديدي من نظام الحماية ، يمنع الاتصال بينها وبين شقيقاتها العربيات ، والأوطان الاسلامية الأخرى ، وسائر العالم الحر ، فان الحاجة أصبحت جِدّ ماسَّة إلى إعادة طبعه ، وتقديمه وثيقة وسنداً الى جميع هؤلاء الذين يهمهم الوقوف على تاريخ المغرب الفكري وماضيه الحضاري . ولكن بعد مراجعته طبعاً وتجديد النظر في محتوياته من مادة وفكرة وترتيب ، ضرورةَ أنَّ المعلومات التي كانت لدينا زمنَ تأليفه هي غيرُ المعلومات الآن ، والتفكيرُ وسائر وسائل العمل ، قد تطورت بتطور الزمن ، فلم يكن بُدّ من ادخال تعديل جوهري عليه يتلخص فيما يلي :

أولاً -- اضافة المواد الجديدة التي وقفنا عليها بعدُ ، سواء فيما يرجع الى تراجم الأشخاص أو الآثار الأدبية ، أو الدراسات الموضوعية التي تناولناها في مُختَلِف العصور ، فقد ظهرت في عالم الطباعة كتب مهمة لها اتصال وثيق بموضوعنا كمجموعتي رسائل موحدية ، ورسائل سعدية ، ورابع البيان المغرب لابن عذاري ، ومُغرب ابن سعيد ، والغصون اليانعة ، ورايات المبرّزين له ، واطّلعنا على الحماسة المغربية للجرّاوي ، ونثير الجُمَان لابن الأحمر والمدارك للقاضي عياض ، ورحلة ابن رُشَيد ، وغير ذلك من المخطوطات النادرة التي تحتوي على موادّ أساسية في الموضوع كان من الضروري أن تُضاف الى أماكنها وتُكمّل عناصر البحث .

ثانياً -- تصحيح بعض الأغلاط التي وقعت لنا في كتابة بعض التراجم ، ونسبة بعض الآثار الأدبيَّة والعلميَّة لغير مَن هي له ، والحكم في بعض المسائل بما ظهر لنا خلافه وما الى ذلك . ويُقوّي الداعيَ الى هذا التصحيح أننا رأينا الذين كتبوا في موضوع الأدب المغربي يقلّدوننا في تلك الأغلاط ، سواء الذي صرّح منهم باعتبار النبوغ من مراجعه ، والذي لم يُصرّح بذلك ، وهو أمر مؤسف يدلُّ على ضعف الهمَم ، وكلال العزائم ، في الذين تصدّوا حتى الآن لهذا البحث ، على الرغم من تيسير صِعَابه ، وتذليل عِقابه . ولذلك كان لزاماً علينا أن نُبادرَ بتصحيح كلّ غلط من هذا القبيل ولو للمحافظة على هذه الثقة (العمياء) التي وضعها فينا الزملاء الكرام.

ثالثاً – تحرير بعض الفصول من التأثير السياسي ، والعاطفي الذي كتبت به ، نتيجةً لما كان المغرب يمرُّ فيه من ظروف سياسيّة ، وأحوال اجتماعيّة مُعاكسة لمطامحه العليا ، وآماله الكبرى ، في الوحدة والاستقلال ، والتطور داخلَ إطار العروبة والاسلام .. ومن أخطر ذلك السياسة البربرية التي انتهجها الاستعمار الفرنسي للتفرقة بين عناصر المواطنين المغاربة ، وتأليب بعضهم على بعض أخذاً بمبدأ فرِّق تَسُدْ .. فكان الكتاب كلما سنحت الفرصة ، يحملُ على هذه السياسة حملةً شعواء ، ويوجّه القارىء المغربي في الاتجاه السليم الجافي لهذه العنصريّة المقيتة ، والذي هو الحقُّ والصواب ، فالآن لمّا شالتْ نعامة الاستعمار ، وفشلت سياستُه في هذا الصَّدد ، لم يبق موجبٌ لذلك التوجيه ، أو على الأقل للّهجة الشديدة التي كتِبَ بها ذلك التوجيه .

رابعاً – تحوير في التصميم الذي وُضِعَ عليه الكتاب ، فنحن لقلّة المعلومات التي كانت عندنا عن العصر المرابطي أو لضُعفِ استعدادنا في استخراج هذه المعلومات من تضاعيف الكتب والمراجع العامة ، كنا أدمجنا هذا العصر في العصر الموحدي . والآن وقد توفّرت لدينا معلومات قيمة عن المرابطين وعهدهم، فصَلْنا عصرَهم عن عصر الموحدين ، وخصّصناه بدراسات مهمة عن الاتجاه السياسي ، والحركة العلميّة ، والحياة الأدبيّة ، وميّزناه بخصائصه التي ينفردُ بها عن العصرالموحدي. وبالطبع فقد خلّصنا هذا العصر أيضاً من الاشتباكات التي كانت تجمع بينه وبين العصر المرابطي ، لمّا كانا مُتداخلَين ؛ وبذلك نكون قد أعدْنا كتابة العصر الموحدي من جديد ، كما أننا كتَبْنا العصرَ المرابطي كله ابتداءً .

ويُضافُ الى هذا التحوير تقسيمُ الكتاب الى ثلاثة أجزاء ، فالجزءُ الأول للدراسات ، والثاني للمُنْتَخَبات النثْرية ، والثالث للمُنتخبات الشعرية ، وقد كان قبْلُ مُقسّماً الى جزئين فقط يجمع الجزءُ الثاني بين دفّتَيْه المنتخبات الشعرية والنثْرية معاً .

والى هذا فقد أضفنا زياداتٍ كثيرة الى غالب الفصول ، وخاصّة فيما يتعلّق بنهضة الفنون ومُشاركة المرأة في مختلف مجالات النشاط الفكري للشّعب . وبعضُ الكلمات في هذا الصّدَد ، وهي جُهْدُ مقلّ ، تفوق ما كُتِبَ بشأنه في بعض التواريخ العامّة الأدب العربي جملةً .

ولا حاجة بي إلى القول إنّ روح البحث المجرّد التي سيطرت على الكتاب في طبعته الأولى هي التي تتقمّصُه في طبعته الثانية ، وأن التثبت والتحرّي وعدم إلقاء الكلام على عواهنه ، هي الموازينُ القِسْط التي تحكّمتْ في كل جملة من جُمَلِه ، إن لم أبالغ فأقول في كل كلمة من كلماته . ومع ذلك فما أُبرّئهُ من نقص ، ولا أُحاشيه من خطأ ، لعلمي بأن الكمال لله . وأن العصمة لا تكون الا لِنَبيّ . والله المسؤول أن يكسُوَه حلل القَبول ، وأن يجعله سادّاً للفراغ الذي يشعر به الجميع في هذا الباب « ولولا فضلُ اللهِ عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحدٍ أبداً ولكنّ الله يُزكّي من يشاء ، والله سميعٌ عليم » .

طنجة في ربيع الثاني ١٣٨٠
وأكتوبر ١٩٦٠

عبدالله كنون الحسني

عرض وتحليل

عَرضٌ وتحليل

بقلم المرحوم الأمير شكيب أرسلان

كتب أمير البيان الأمير شكيب أرسلان رحمه الله بحثاً مستوفى عن كتاب النبوغ المغربي حين صدوره في صورة عرض وتحليل . ونحن نثبت هنا القسمين المنشورين منه بجريدة « الوحدة المغربية » الغراء الصادرة بمدينة تطوان في عددها ٢٢٤ و ٢٣٤ المؤرخين في ٤ صفر و ٢٩ ربيع الثاني ١٣٦١ ، ونقدمها بين يدي الكتاب تتويجاً له وتحلية :

١

قرأتُ الجزء الأول من هذا الكتاب الممْتِع الذي أخرجه للنـــاس َفذّاً في بابه السيد الشريف ، والعلامة الغطريف الأستاذ عبدالله كنون من مفاخر القطر المغربي في دوْرنا الحالي . وقد كنتُ أعهد نفسي من بين المشارقة ، الرجل الذي اطّلع أكثر من غيره في تاريخ المغرب وأهله ، وأنعم النظر فيما يتعلق بثقافتـــه وسياسته وسائر شؤونه ؛ ولكني رأيتُ نفسي بعد أن طالعت هذا الكتاب الصغيرَ َحجْمُه ، الكبير قدْره كأني لم أعلم عن المغرب قليلاً ولا كثيراً ، وكدتُ أقول إن َمن لم يطّلع عـلى هذا الكتاب لا يحِقُّ له أن يدّعي في تاريـخ المغرب الأدبي علماً ، ولا أن ُيصدر على حركاته الفكرية ُحكماً . وكما قيل في كتاب « نفح الطيب » للعلامة المقري أنه كتاب نفـــح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وكلام وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، الذي من لم يقرأه فليس بأديب ، يمكنُ أن يقال إن من لم يقرأ كتاب «النبوغ المغربي في الأدب العربي » فليس على طائل من تاريـــخ المغرب العلمي والأدبي والسياسي ؛ بل هذا الكتاب في موضوعه أجدر بالاطلاق الشامل من كتاب « نفح الطيب » في موضوعه ؛ وذلك بأن نفح الطيب على جلالة قدره حشر بين دفّتيه غثّاً وسميناً ، وعالياً ونازلاً ، وأطـال حيث ينبغي الاختصار ، وأوجز حيثُ النفوس تشتاق الى

الاطالة والاكثار . وأيضاً فقد يكون الأديب أديباً ولم يقرأ « نفح الطيب » ، فأما « النبوغ المغربي في الأدب العربي » فهو خلاصة مَنْخولة ، وزُبْدة مخوضة ، استخلصها صاحبها من مئات الكتب المصنّفة ، وألوف من الأحاديث التي لـَقِفَها من أفواه العلماء الذين أخذ عنهم ، وقلما رأيتُ مؤلفاً جمع المعنى الكثير في اللفظ القليل ، وجاء في ضمن ٢٥٠ صفحة بالعريض الطويل في درجة هذا التأليف الذي هو ثمرة تحقيق وتدقيق ، ودرس عميق لم يخرج الى قراء العربية أحسن منه في بابه .

أشار العلامة مصنف «النبوغ العربي» في مقدمة كتابه الى جمعه فيه بين العلم والأدب والتاريخ والسياسة ، والى تصويره الحياة الفكرية في المغرب ، من لدن قدوم الفاتح الأول الى يوم الناس هذا ، ولـَعَمْري إن من قرأ هذا الوعدَ الذي جزم به المؤلف اعتقد في البدء أنه بالغَ فيه جداً ، وحمّل نفسه إدّاً ، وزعم الإحاطة بموضوع تعجِز عنه الجملة ، ولا تفي به الكتب الجـَمَّة ، وادَّعى فتحَ مغالِقَ تنُوءُ مفاتِحُها بالعُصْبة . إلا أنه عندما يبدأ القارىء بالمطالعة ، يجد المؤلف قد وعد فانجز ، وقرب الأقصى بلفظ مُوجز ، وكان فعله محققاً لقوله ، وقد مزج في كتابه بين الحركات الفكرية والحركات السياسيّة مزْجاً عجيباً ، حقّق فيه الصلة الطبيعية التي لا تكاد تنفك في كل دَوْر من أدوار الأمم بين العلم والسياسة ، بحيثُ لا يرقى الواحد منها إلا رقي الآخر برُقيّه كاللازم والملزوم . وهو وإن لم يكن توخّى ذكر الفتوحات والمغازي ، ولا حاولَ استقصاء مآثر السيف في جانب مآثر القلم ، فقد ضمّن في تضاعيف كلامه على تطور الحركات العقليّة في المغرب من لَدُن الفتح العربي الى الآن ، لمحة دالّةً يفهم منها القارىء تطور السياسة وتعاقب الدول المختلفة التي سادت المغرب من ذلك اليوم الى الآن ، فلا يسير المطالع لهذا الكتاب إلا على ضوء من أول الكتاب إلى آخره ، ولا يكادُ يُشكِلُ عليه فيه مسألة ، ولا يستعجمُ موضوع ، ولا يفتقر مقامٌ الى مقال . وهو مع هذا كله من الكتب المختصرة ، فكأنما أراد به صاحبه لا مثالاً للتاريخ فحسب ، بل مثالاً للبلاغة .

ومن أول ما شغل المؤلف به ذهن القارىء قضيّة خفاء الأدب المغربي على المشارقة ، وإنكار كثير من هؤلاء لكثير من مزايا إخوانهم المغاربة . وهو غيرُ ملوم في الاحتفال بهذه القضية ، وفي كونه نصَّ عليها في أول كتابه ، لأن للمغاربة حقاً

في المطالبة بمكانهم في الأدب العربي الذي هم من جملة حَمَلة ألويتِه ، بل من نخبة عُمَّار أنديته ، ولكن الأمر على حد ما قال الشاعر :

والنَّجمُ تستصغرُ الأبصارُ رؤيته والذنبُ للطَّرْف لا للنجم في الصغر

فالمشارقة الذين يعزُو إليهم إخوانهم المغاربة جهل مقامهم في الادب ليس منهم واحدٌ يلزُّ في جملة العلماء المحققين، وانما هم من صغار المتأدبة الذين علموا شيئاً وغابت عنهم اشياء . ولم تكن قبل اليوم علاقاتُ العالم بعضها ببعض كما هي في هذا العصر، الذي جعلت فيه الاختراعات العلمية ومظاهر أسرار الكهربائيّة ، القاصي قريباً والمجهول معلوماً والبلدان النائية بلداً يكاد يكون واحداً ، والأسفار المشتطة سفراً قاصدا . وقد كان المغرب من قبل في زاويةٍ من الأرض ليس وراءها الى الغرب سوى بحر الظلمات . نعم لم يزل المغرب كما كان من الجهة الجغرافية، ولكنه أصبح اليوم قريباً بالباخرة والطائرة، والسِّلكي واللاّسِلْكي والهاتف والراديو ؛ فصار الشرقيُّ يعرفُ عن المغرب وأهله في اليوم الواحد ما لم يكن يعرفه في السنة بطولها . فالان إذا جهل الشرقي أحوال المغرب وعميت عليه مآثره ، يكون جديرا باللوم ، وحقيقاً بالرثاء لقصور معارفه . فأما عمَّا مضى فلا يتوجه اللوم وأسبابُ الاتصال قليلة ، ووسائل التعارف محدودة .

ولا تنسَ الانحطاط الذي طرأ على العالم الاسلامي شرقيّه وغربيّه ، فانه في مقدمة أسباب جهل بعض أجزائه بأحوال البعض الآخر . ولا تنسَ أيضاً تكالب الاستعمار الأوربي ، وكون أهمّ شروطه الفصل والقطع والضرب بالأسداد بين البلاد المستعمَرة وأخواتها ، والأمم المستضعفة ومن تمتُّ اليهم بصلة دين أو نسب أو لغة . فهذا كله جعل أمور المغرب مجهولةً عند غير المحققين من أهل الشرق . ولو كان الاستقلال السياسي موفوراً للعالم الاسلامي ، لمَا وقع من التجاهل والتناكر هذا الذي وقع أخيراً وجعل الأخ لا يعرف شيئاً عن أحوال أخيه ؛ فقد عهدنا عندما كان الاسلامُ اسلاماً ، وكانت الرجال رجالاً أن الحركات الفكريَّة إذا شاعت في المشرق شاعت في المغرب ، وإذا نبغ شاعر أو كاتب في أحدهما تناقل الناسُ أقواله للآخر ، واذا كتب الإمام الغزالي كتاباً في أقصى الشرق تدارسهُ الفقهاء في أقصى الغرب ، وعمِلَ به الموحدون والغزالي بعدُ في الحياة . وإذا ألَّف سعدُ الدين التَّفتازاني كتاباً في خُراسان أو ما يليها تكلَّم عليه ابنُ خلدون في فاس أو تونس في عُرض كلامه على مَلَكة المشارقة في العلوم العقليّة ، والتفتازاني لا يزال حيّاً . واذا ألّف ابن هشام كتاباً في النحو وهو

في مصر ، ولم تكن المطبعة قد عُرِفت يومئذٍ ، لم تمضِ أشهرٌ حتى امتلأت أسواق الورّاقين في مدن المغرب بنُسخ هذا الكتاب وابنُ هشام يومئذ حيّ ؛ وجعله مثل ابن خلدون موضوعاً في مقدمته لذكر ملكة المتأخرين في علوم العربيّة ، وهَلُمَّ جرّاً . فالرُّقيُّ الفكري متّصِلٌ بالاستقلال السياسي اتصال النتيجة بالمقدّمة . ولقد فُقدت في الأدوار الأخيرة من العالم الاسلامي أسبابُ الاتصال بما طرأ من التفكُّك ، ومصير بلاد الاسلام طرائقَ قِدداً ، تليها دولٌ مختلفة ، أكثرها خارج عن الاسلام ، بل أكثرها عدوٌّ للاسلام كاشحٌ يعمل لمحوه من الدنيا . ومن المعلوم أنه لا يعمل للاسلام غيرُ دول الاسلام نفسها ، فلا عجَب بعد هذا أن يجهل بعضُنا مكانَ بعض وأثرَ بعض ؛ بل العجبُ أن تعلم اليدُ اليمنى باليد اليسرى ونحن على ما نحن عليه من تفكك الأجزاء وتقطُّع الأوصال ، والسياسة كما قلنا هي والأدب شريكا عِنَان ، وفرَسا رِهَان .

وقد أصاب الأستاذُ صاحب « النبوغ المغربي » في عدم إطلاقه القول على المشارقة أنهم جاهلون بأقدار المغرب ، فانه قيّدَ ذلك بقوله « انكار كثير من المشارقة لكثير من مزايا المغاربة » وفي هذا القيد قد أخرَج محرِّر هذه السطور من هذه الجملة الخاسرة ، فاني على ما بي من قصورٍ وتقصير ، وعيوبٍ تضيقُ فيها المعاذير ، أقدِرُ أن أدّعي بحقّ سبقَ غيري من جميع العالم العربي الى معرفة مزايا المغرب وأهلِه ، وإيجاب عَدمِ التفرقة بحال من الأحوال بين مغرب ومشرق ، أقول هذا من باب التحدث بنعمة الله .

٢

عالج السيد عبدالله كنون في صدر كتابه هذا حادثين جليلين هما من أهم حوادث الفتح الاسلامي في العالم ، وهما إسلامُ البربر ، هذه الأمة العظيمة التي لولا دخولها في الاسلام لكانت بلاد شماليّ افريقيا كلها أقطاراً معادية للاسلام ، مُناوئة للعروبة بخلاف ما هي عليه الآن من الاعتصام بها وتكوينهما جزءا لا ينفكُّ من أجزاء العالم الاسلامي ولا يقلُّ شأناً فيه عن مصر والشام وجزيرة العرب والأناضول وفارس وهلمَّ جرًّا ؛ بل حصناً منعاً تتكسر على جوانبه هجمات الأمم التي لا تطيق وجود الاسلام في الأرض . وكذلك حادثُ استعراب البربر الذين أصبحوا بتأثير الدين

الحنيف واللسان العربي الشريف كتلة واحدة هم والعرب ، يعـادون من عاداهم ويوالون من والاهم ، ويكونون دائماً يداً واحدة على من سواهم ، وإن وجـدت في الأحايين بين الفريقين منازعات ومشاجرات فلا تكون إلا من قبيل تنازع قبائـل العرب أنفسهم بعضها مع بعض ، أو من باب المنازعات العائلية التي لا تمنع أصحابها من الاتحاد على الأجنبي وتناسي جميع الأحقاد بإزاء الخطر العام ، وهـذا على حدّ المثل العامي القـائل ... (أنا وأخي على ابن عمي ، وأنا وابن عمّي على الغريب .) ولله در القائل ..

وذَوِي ضِبَابٍ مُضمِرِين عَداوَةً قَرْحى القُلوب مُعاوِدِي الأَكْنَادِ
ناسَيْتُهم بَغْضَـاءَهُم وَتَرَكْتُهم وهُمُو إذَا ذُكِرَ الصَّدِيقُ أَعَادِي
كَيْمَا أُعِدُّهمُو لِأَبْعَـدَ مِنْهمُو ولَقد يُجَاءُ إلى ذَوِي الأَحقَادِ

بل البربرُ في المواقف العامة هم أقربُ إلى العرب من العرب بعضهم إلى بعض . ولئن كان التاريخ قد روى بين العرب والبربر مخاصماتٍ شعبية عامـة كما جرى في الأندلس مثلاً بعد فتحها بقليل وأوجب نكوصاً كانت عواقبهُ السيئة فيما بعد . فقد ندر وقوع هذه الحوادث ذات الشكل العام بين الأمتين وغلب عليهما الشعور بالوحدة الاسلامية حتى صارتا مِصْدَاق قوله تعالى : « انّ هذه أُمتكم أُمّةً واحدةً وأنا ربُّكم فاعْبُدون » .

ولا ننسى ما قام به البربر في التاريـخ الاسلامي من جـلائل الأعمال في الذبّ عن حوض هذه الملّة ، سواء على أيدي المرابطين أو الموحـدين أو بني مرين أو غيرهم ، مما يجعلهم في مقدمة صفوف المجاهدين الذين تتبـاهى بمآثرهم أمة محمد ، وعلى كل حال يمكننا أن نقول بحسن اهتـداء البربر وتآخيهم مع إخوانهم العرب حملة القرآن الأوّلين إمتـدّتْ جزيرة العرب من شرقيّ البحر الأحمر الضيّق إلى شرقيّ الأوقيانس الاطلنطيقي الواسع ، فصارت هذه الأقطار كلها سلسلةً عربيّةً إسلاميّةً غير منفصلةٍ ولا متعصّبة . وهذا قد وفّاه حقّه الاستاذ كنون ، وأوضح أسباب انتشار الاسلام من أول الفتح بين الأمة البربرية ، وذكر من

هذه الأسباب التي أوجبت إقبال البربر على هذا الدين زرافاتٍ ووحداناً ، ونبذهم ما عداه ، ما لا يقدرُ العدو الألدُّ والخصمُ الأعنَد ان يُكابر فيه او يتعامى عنه ، وذكر الخلفاء الذين في أيامهم ازداد انتشار الاسلام بين البربر مثل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، الذي أرسل اليهم طائفةً من الفقهاء يعلمونهم القرآن وأصول الدين . ولا عجب وهو الخليفة العادل الوَرِع المقرون اسمُه باسم عمر بن الخطاب رضي الله عن الاثنين ، حتى قيل في عدلهما َعـدلُ العُمَرين ، وسارت الأمثال في ورَع الثاني كما سارت في ورَع الأول ، وروى المؤرخون أنه لما كثر اسلام القِبْط في مصر وارتفعت الجزية عمن أسلم منهم ، شكا عاملُ مصر الى عمر بن عبـد العزيز نُقصان الجباية عما كانت عليه ، وذلك بسبب ُفشُوِّ الاسلام في القبط ، فأجابه بتلك الكلمة الشهيرة... ويحك إنَّ محمداً لم يجيء جابياً ، وإنما جاء هادياً . اذن كان جديراً بهذا الخليفة الورع أن يهتمَّ بالاستقصاء في اسلام البربر ، والإمعان في تأديبهم بآداب القرآن حتى غرَس فيهم هذه النَّجابة المعروفة ، وأوقدَ في قلوبهم هذه الحميَّةَ الاسلامية التي لم تفارقهم من ذلك اليوم . وذكر مآثر موسى بن نُصَير رحمه الله في هذا البـاب حتى لم يمض الا قليل فظهر الطابعُ العربي على البربر ، ونبغَ فيهم العلماء والخطباء بالعربية الفصحى ، وحسبُك شاهداً طارق بن زياد الذي خطب قبل الموقِعة التي هُزم َفيهـا لُذَرِيق ملك الأندلس، تلك الخطبة الطنَّانة التي لو حاول مثلها قُسُّ بن ساعدة ، أو سَحْبان وائل ، لم يأت بأفصح ولا بأبلغ منهـا ، ولقد كنتُ أُفكر مليّاً في أمر هذه الخطبة وأقول في نفسي .. هنا لغزٌ من ألغاز التاريـخ لا ينحلُّ معناه بالسهولة فقد اتفقت الروايات على كون طارق بن زياد بربرياً ُقحّاً ، وكذلك اتفقت الروايات أيضاً على كونه هو لا غيره صاحب الخطبة الرنانة المعدودة من انموذجاتِ الخطب العربية فكيف يمكن التلفيق بين هذين الأمرين المتناقضين،وأنَّى لطارقٍ البربريّ مثلُ هذه العربية، وكنتُ أُفكر في أنَّ طارقاً قد يكون أحسن تعلم العربية كما أحسن ذلك كثيرٌ من أبناء جيله ، وكما تعلـَّمت العربية رجالُ فارس حتى ُبزوا في العربية أقرانهم من أنفس العرب ، ولكني لم اكن مستريح البال من جهة إتقـان طارق للعربي الفصيح وبلوغه فيه هذه الدرجة العليا، وكان يحزّ في صدري أن تلك الخطبة كانت بلاغتُها في المعنى، وانما وضعها رواة العرب في هذا القالب الفصيـح الذي سحر الألباب ، وما زلتُ

متردداً في هذا حتى جاءني ثَلَجُ اليقين على يد الأستاذ عبدالله كنون الذي جزم بأن هذه الخطبة النادرة انما كانت من جملة ثمرات انطباع البربر بالطابع العربي البحت[١] .

ثم أشار الأستاذ الى مثار الخلاف لأوّل الفتح بين العرب والبربر ، فلم تأخذه العصبيّة للعرب الذين هو منهم ، بل من أشرف بيوتاتهم ، سبيل المؤرخ الصادق الذي لا يحابي في الحق ، بل سبيل المسلم العامل بمقتضى شريعته ، الحافظ قوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » الرّاوي حديث رسوله صلى الله عليه وسلم وهو : « ليس مِنّا من دَعا الى عصَبيّة . » فذكر أن مثار النزاع بين الأمتين كان استبداد العرب بوجوه المنافع ، واستئثارهم بمناصب الدولة من أيام الامام ادريس رضي الله عنه ، فكان هذا الأمر سبباً للتنافس بين الفريقين في المغرب ، وأنا أقول ان هذا الأمر نفسه قد كان سبباً لتنافسهما في الأندلس منذُ اوائل الفتح ، حتى إن فريقاً من البربر بلغ منهم السُّخط أن تركوا الجهاد في الطّرف الشمالي من بلاد الجلالقة حيث كان منهم العدد الأغلبُ من المجاهدين ، فأصبحت تلك الثغور عورة ، ورجع الأسبان فاستولوا عليها ، وكان بذلك مبدأ المقاومة الاسبانية ونموّ شوكتها ، ولم تزل مع الزمن تنمو

---

١ – يستشكل بعض الباحثين صدور خطبة طارق بن زياد منه وهو بربري قُحّ ، يُستَبعد أن تكون له هذه العارضة القوية في اللغة الغربية ، حتى يأتي بتلك الخطبة البليغة . وهو استشكال في غير محله ، (أولا) لأن طارق بن زياد ان كان أصله بربرياً فقد نشأ في حجر العروبة والاسلام ، بالمشرق ولم يكن هو الذي أسلم أولاً بل والده ، بدليل اسمه زياد فانه ليس من أسماء البربر ، ولا شك أنه كان من مُسلمَة الفتح المغربي الأول ، وأنه انتقل الى المشرق حيث تولاه موسى بن نُصير ونشأ ولده في هذا الوسط العربي الذي كوّنه وثقّفه . (ثانياً) لأن نبوغ غير العرب في اللغة العربية منذ اعتناقهم الاسلام أمر غير بدْع حتى يستغرب من طارق ، وهو قد نشأ في بيت اسلامي عربي . فعندنا سلمان الفارسي الذي قضى شطر حياته في بلاد عجمية فلما أسلم بعد ذلك تفتّق لسانه بالعربية الى أن قال فيها الشعر ، وبيته المضروب به المثل في الاعتزاز بالاسلام واعتباره هو نسبه الذي يفخر به، اذ افتخروا بقيس أو بتميم، لا يخفى على أحد.

ونمثل ببربري آخر ، غير طارق وهو عِكرمة مولى ابن عباس الذي قال فيه الشعبي : ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة ؛ ومقامه في العلم والرواية لا يُجهَل ، (ثالثاً) لأنه ليس في الخطبة من صناعة البيان ما يمنع نسبتها لطارق ، وبلاغتها في نظرنا انما ترتكز أولا وبالذات على معانيها ، والمعاني ليست وقفاً على عربي ولا عجمي . نعم يمكن أن يكون وقع في هذه الخطبة بعض تصرف من الرواة بزيادة أو نقص ، ونحن قد صححنا فيها بالفعل احدى العبارات التي لم تكن واضحة الدلالة على معناها ولكن هذا لا ينفي أصل الخطبة ولا يصح أن يكون حجة للتشكك في نصها الكامل. هذا رأينا ولكل وجهة ، والأمير شكيب رحمه الله لشدة المودة التي كان يخصنا بها جعلنا حجة في صحة نسبة الخطبة لطارق ولسنا هناك .

وتزداد حتى آلت الى ما آلت اليه ، مما لا حاجة الى ذكره ، ولو كان قومُنا العرب عملوا يومئذ بقاعدة المساواة الاسلامية ولم يحابوا أنفسهم على اخوانهم الجــدد ، ولم يجعلوا في الاسلام عالياً ونازلاً لما كان وقع ذلك الخرق الذي انتهى في الاندلس بذهاب المُلْك ووقوع الهُلْك ، ونجمت عنــه في افريقيا نفسهــا أضرارٌ جسيمة لا شك فيها .

وقد ذكر صاحب النبوغ المغربي هذه الحقائق في عرض كلامه على تاريخ الحركة الفكرية في ذلك القطر العظيم ، وذلك لما تقدّم لنــا من اتصال الحركة الفكرية بالحركة السياسية والحركة الاجتماعية الى الحد الذي لا يمكن معه ذكر احداهما من دون ذكر الاخرى ، ونبّه الأفكار الى نكتةٍ هي من الأهمية بمكان ، وهي السؤالُ لماذا لم يكن في المغرب الاندماج تاماً كما وقع في الشام والعراق والاندلس حيث قــد القت العروبة بجرانها وعمت السّهل والوعر ، ولم يبقَ ثمّة الا اقطار عربية لا تفترق عن جزيرة العرب في شيء ؟ فاورد على الفرق الواقع أسباباً معقولة سنخوض فيهــا بفصل تال .

●



أول تقريظ

أول تقريظ

كان أول تقريظ للنبوغ المغربي هو ما كتبه صديقنا العلامة الأديب السيد الحاج محمد بن اليمني الناصري حين اطلع عليه وهو يطبع بتطوان . فنحن اعتزازاً بصداقة هذا الأخ الكريم واعتداداً برأيه الجميل في الكتاب نسجل تقريظه هنا في المقدمة وفاء وذكرى . ونصه :

كل من درس تاريخ الادب العربي في المغرب الاقصى على وجه العمَوم فانه لا بد ان يخرج بنتيجة طيبة تقضي بان منْبِتَ المغاربة منبتٌ طيِّب يخرج نباته باذن ربه بل يشهد لأهله الأباة الأحرار بالنبوغ الفطري ، والتفوق الفكري ، والذكاء النادر ، والذهن الحاضر .

ومن كابر في ذلك فليستعرض امامه ما تدفقت به يراعةُ صديقنا الاستاذ الاكبر ، الذي أعظمَ التاريخ عملَه وأكبر ، المرشد المهذب ، والناصح المشذب ، ذي الاعمال الجليلة والخلق السني ، ابي محمد سيدي عبدالله الكنوني الحسني ، لا زال يرْتع في بُحبُوحة العيش الهني، في هذه الصفحات البيض التي بيَّض بها وجهَ وطنه،واستخدم في استخراج دفائنها فائق مواهبه وفطنه ، فسدَّ بها في الادب العربي اكبر ثَلْمَه ، وسجَّل بها في سجل الخلود نُبله وعلمه ، بيَّضَ الله وجهه يوم تبيضُ وجوه وأتاه في نفسه وشعبه ما يؤمله ويرجوه ، على اكمل الوجوه .

ايها الصديق العزيز :

لقد فُقتَ بهذا العمل الجليل شيوخك واقرانك حتى برَزْتَ في الميدان ، على الشيوخ والكهول والشبان ، فكنت لهم في هذا البحر الخضم اعظم ربّان ، اذ مثّلتَ النهضة المغربية فكرياً وأدبياً وسياسياً في الإبّان ، فاستحققتَ ان يُرفع ذكرك ، ويحلّق بأفكارنا فِكرُك ، فنقول :

يَا بَنِي ٱلضَّاد تَحَلَّوْا بالنبـوغ المغـربيِّ
فَهْوَ واللهِ مِثَـالٌ للشُّفُوف العَـربيِّ
مَثَّلتْه صَفَحَـاتٌ من مُحِيـطٍ أدَبِيّ
يتجـلَّى فيـه ذَوْقٌ للفتى الحُرّ الأَبِيّ
مُوقِظِ ٱلشَّعْب بشِعْرٍ مُشْعِـرٍ كلَّ غَبيّ
وبنَـثْر كنَثِيرٍ من صَحَاح الجوْهَرِيّ
بَذَّ أعـلامَ علُومٍ فضلُوا كلَّ سَرِيّ
إذْ أتى بالعَمـل الفـذِّ الجليـل العبقَرِيّ
وتحرَّى صَوْبَ صِدْقٍ فيـه بالحُرّ حَرِيّ
فلْيَعِشْ حُرّاً طلِيقاً في سمَا الفِكْر السَّنِيّ
رَافِلاً في خَيْر عَيْشٍ كامِلِ القَصْدِ هَنِيّ

وكتبه عن عجل صبيحة ٢١ صفر الخير عام ١٣٥٧ هـ وهو على جنـاح السفر عبد ربه تعالى محمد بن اليمني الناصري الرباطي عفا الله عنه .

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

فاتحة الكتاب

هذا كتابٌ جمعنا فيه بين العلم والادب والتاريخ والسياسة ورمينا بذلك الى تصوير الحياة الفكرية لوطننا المغرب وتطورها في العصور المختلفة من لدن قدوم الفاتح الاول الى قريب من وقتنا هذا ؛ فالحركة العلمية وما طرأ عليها من نشاط وفتور ، في جميع العصور ، مبسوطةٌ فيه أحسن البسط. والسياسة واتجاهاتها التي كانت تتخذها بحسب طبيعة كل دولة مفصلة فيه تفصيلاً مستوفى . وهكذا التاريخ بقسميه السياسي والأدبي ؛ ومنه التراجم . وقد احتوى جملةً وافرةً من تراجم الملوك والوزراء والقواد والفاتحين والعلماء والأدباء والفقهاء والمتصوفة وغيرهم .

والأدب لا نقول الا أنه الروح المتغلغلة فيه والحلة التي يبدو فيها للناس بل نقول اننا ما تعرضنا لغيره من الابحاث الاخرى الا لنربط حلقات البحث الموصل الى اكتناه حقيقة ماضينا الادبي وتجليته على منصة العروس ليشاهده من كان يجادل فيه ومن ثم كان اسم هذا الكتاب (النبوغ المغربي في الادب العربي) .

وقد كثر عتب الادباء في المغرب على اخوانهم في المشرق لتجاهلهم إياهم، وانكار كثيرٍ منهم لكثيرٍ من مزاياهم ، ولكن أعظم اللوم في هذا مردود على اولئك الذين ضيعوا أنفسهم وأهملوا ماضيهم وحاضرهم حتى اوقعوا الغير في الجهل بهم والتقول عليهم ، وهو معذور وحسبه انه لم يقصر تقصيرهم بل سعى فأخفق ولا عيب على من بلغ جهده . ونحن نعتقد اننا بتقديم هذا الاثر الضئيل الى الدوائر العلمية سنزيل كثيراً من التوهم والتظنن في تاريخ المغرب الادبي وسنرفع حجاب الخفاء عن جانب مهم من الحياة الفكرية لاهل هذا القطر. وسوف ينقضي تجني اخواننا من بحاث الشرق

على آثارنا وتحاملهم على آدابنا لان ذلك لم يكن منهم عن عمد وسوء قصد وانما هو ارتياء واجتهاد .

* * *

أما عن ترتيب الكتاب فاننا جعلناه على جزأين وخصصنا الجزء الاول للبحث والاستنتاج والثاني للآثار الادبية . ثم الجزءُ الأول خمسة عصور : عصر الفتوح، ونعني بها الفتوح الاولى وفتح مولاي ادريس. وعصر الموحدين وفيه الكلام على المرابطين . وعصر المرينيين وفيه الكلام على الوطاسيين . وعصر السّعديين . وعصر العَلويين . والجزء الثاني قسمان : قسم المنثور وقسم المنظوم . وانما اخّرنا الآثار الادبية الى الجزء الثاني ولم نذكر ادبيات كل عصر معَه رغبـــة في عدم توقف المطالع وتلهيه عن مواصلة البحث وتكوين فكرة عامــة عن جميع العصور مع ما في ضم تلك الآثار بعضها الى بعـض من تأليف مجموعة ادبية نفيسة تكون وحدها دليلاً ناطقاً على ما للوطن العزيز من ماض ادبي حافل . هذا على كثرة ما اغفلناه منها (لأن قُرَيْشاً قصُرَتْ بهم النفقة) ولولا ذلك لخرَجتْ هذه المجموعة مُضاعفة عمّا هي عليه .

وفضيلةُ هـذا الكتاب في أنه ليس لقطر من أقطار العروبة اليوم نظيره ، اذ أن جميع كتب الادب وتاريخه عامةً تنتظم البلاد العربية جمعاء – ما عدا المغرب بالطبع . وعملٌ مثلُ هذا لا يخفى على العارف ما يقتضيه من جهود جبّارة ومشاقّ عظمى واذا تذكـّرَ – مع ذلك – ان مصادرَ هذا البحث الجليل،هي أقلُّ من القليل، ومع قلـّتها فان كثيراً منها محفوظ في الخزائن الخاصة التي لاطمع في الوصول اليها بمجان او مال ، فانه يكون أسبق منا الى طلب المخارج والتماس المعاذر فيما عسى أن يكون وقع لنا من التقصير والزّلل والخطأ والوهم ولا سيما مع السُرْعة في اخراجه للناس لشدة الحاجة اليه وكثرة الطلب عليه وكان يلزمُ ان يبقى سنين طويـــلة تحت التهذيب والتنقيح .

وهناك نقطة سوف لا يُماري أحدٌ من قراء هذا الكتاب في أنه امتاز بهـــا عن كثير مما تُخرجُه مطابعُنا في هذه الايام وهي أنه ليس فيه حرف واحد كـُتِبَ

انتصاراً للنفس او تعريضاً باحد تملُّقاً لشخص أيّاً كان ، ولست أبالي بعد هــذه ما يوجَد فيه من عيب او يوصَف به من نقصان .

* * *

ولا اضع القلم من يدي قبل ان اتوجه بكلمة شكر وثناء الى الاخ العالم المؤرخ الواعية السيد عبد السلام ابن سودة الذي أمدَّني بكثير من الفوائد والمعــلومات ، وسوَّغني من الخزانة السّوديّة القيِّمة كلَّ ما لم يكن في اختها الكنونية من الاصول والمستندات . وإني احمد الله على أن لم يجعل عليَّ لأحد – غيره – مِنّةً في هذا الامر ، وأغناني عن « مَدَرَةٍ » الخزائن الذين هم مُصيبة العلم في هذا القطر ، حتى المكتبة العامة بالرباط على مساس الحاجة الى كثير مما فيها لم يقدَّرْ لي أن ارجع اليها في شيء للحجز بيني وبين السفر في غالب المدة التي كنت أشتغل فيها بهذا الكتاب .

ولا أبخسُ بقية الخلصاء ، حظوظهم من الشكر والثناء ، كالاديب السيد محمد العربي الزكاري الذي نقل الكتاب بخطه الجميل من مبيَّضته والاستاذ الكبير الحاج محمد بنونة الذي اعتنى بتصحيح جلّه ، على كثرة شغله وكتب اسمه بالقلم الكوفي الجميل ، والعلامة السيد محمد داود الذي صحح بعض الملازم ايضا ولم يزل مهتما بأمره منذ الايام التي كان يصدرُ فيها السلام حتى لقد همَّ بطبعه على نفقته وتقديمــه هدية لمشتركي مجلته لو لم يضطرَّ الى توقيفها بعد . والشريفين المرحوم السيد عبــد السلام القصري والسيد محي الدين الريسوني والسيد محمد العرفاوي والسيد عبدالله بنــاني والسيد عبد السلام الطنجي والسيد محمد العربي ابن جلون، كلُّ واحد على ما بذل من جُهْدٍ او مال في سبيل اخراج هذا الكتاب والحرص على اتمام طبعه منــذ اكثر من ثلاث سنين حين قُدِّمَ إلى المطبعة – فالله تعالى يجازيهم جميعا عن العلم والأدب خيرا .

واني لأسجّل لهم هذا الذكر الحسن هنا قياماً بالواجب الذي يحتّمه الاخلاص والمروءة والدين، فما شكر اللهَ من لم يشكُر الناس . نسأله تعالى أن يلهمنا رشدنا ويقينا شرَّ أنفسنا وينفعنا بما علّمنا ويزيدنا عِلماً وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .

عصر الفتوح

الفاتحون الحقيقيون

لم يتمَّ فتح المغرب كلّه الا في زمن يزيد بن معاوية سنة ٦٢ هـ ، على يد عُقبة بن نافع ، ذلك البطل العظيم الذي غامر بنفسه ، وأقحمَها المخاطر في سبيل نشر الدعوة الاسلامية وبثّها بهذه الأصقاع . ففي الحقيقة إن هذا الفتح الأول لبلاد المغرب ، وما كان سابقاً عنه ، إنما هو مقدمة وتمهيدٌ له .

وأول ما فُتحَ من البلاد طنجة ، ثم وَليلي[1] ، وهما اذ ذاك حاضرتا المغرب ، ثم استرسلت الفتوح بعدُ في سائر القبائل المغربية ، التي كانت تنقطع الاطماع دونهـا لتحصّنها ومناعتها وشدة بأسها ، والتي طالما حاولت إيقاف جيش الفتح الاسلامي عند حدّه ؛ فقاتلها عُقبةُ قتالاً ذريعاً واستنزلها على حُكمه . ثم تقدم إلى السّوس ؛ ففتح تارودانت عاصمته ، ومضى لا يلوي على شيء ، حتى وقف بساحـل المحيط الأطلسي ، حيث رفع يده الى السماء وقال : « اللّهُمَّ اشهَد أني بذلت المجهود ، ولولا هذا البحر لمضيتُ في البلاد أُقاتل من كفَر بك ، حتى لا يُعبد احدٌ من دونك . » فانتشر الاسلام بالمغرب من أقصاه الى أقصاه ، وبدأ يُصارع الوثنية المستحكمة فيه . ولولا قتل عُقبة بتَهوذة من مدن الزّاب ، بعد ذلك بسنتين لما بقيَ لهـا معه ظهورٌ ألبتّة في المـدة القريبة . ولكنَّ وقوع ذلك الحادث المؤلم في مثل تلك الظروف الحرجة ، كان ضربة لازب على عدم نجاح الآمال المتعلـّقة باستقرار الحالة ، بعد الفتح ، واستتباب الأمن والراحة المتيسّر في ظلها كلُّ عسير ، والممكن معهما تذليلُ جميع الصعوبات القائمة بأعمال الفاتح الكبير .

اضطرب الحبل بعد موت عُقبة بن نافع ، وانتقضَت الامور بافريقية الشمالية ، وعمّت الفوضى وغلبت الفِتن . وجرت بعد ذلك حوادثُ كثيرة لا شأن لنا بها ؛

---

١ – هي المدينة الرومانية الأثرية المسماة « فلو بيليس » *Volubilis* الواقعـة بقربة من زرهون ، وكانت عند قدوم الامام ادريس ما تزال عامرة .

فكان من النتائج المحتمة الوقوع أن توقفت دواليبُ الحركة الاسلامية ، وضعُفت العوامل والأسباب الباعثة ، والمشوّقة الى الدخول في الإسلام ، حتى ارتدّ عنه مَن كان أسلم حديثاً ، ولم تُخالطْ بشاشتُه قلبَه .

وفي زمن الوليد بن عبد الملك سنة ٨٧ هـ ، قَدِم موسى بنُ نُصَيْر والياً على افريقية . فقبَض على زمام السلطة بيدٍ من حديد ، وضبَط الشؤون واستصلح الأحوال ، فأصبحت البلاد تمرحُ في بحبوحة الأمن والنظام ، وتتمتع بسكينة وطمأنينة لا عهد لها بهما من قبل . فكان هذا هو الفتح الثاني الحقيقي ، وقد قاتل المرتدّين عن الاسلام ، وبذَلَ قصْرَه في حملهم على الرجوع إليه ، والتمسُّك بحبله المتين . وكان يشتري العبْدَ يظن انه يقبل الاسلام من بعد أن يُجرِّب فطنته ويُمَحِّص عقله ، ثم يُمضيَ عِتْقَه ويتولاه .

وهكذا شيَّد صرْح الاسلام في « افريقية[1] » والمغرب ، وأقام دعائمه على السياسة الحكيمة والسِّيرة العادلة ، فلم يبق يُخشى عليه الانتقاضُ بعدَ هذه الجهود العظيمة ، والمتاعب الجسيمة .

وفعلاً فقد استمرّ الحالُ على ذلك سنينَ عديدة ، انصرف العزم فيها الى تعمير الخراب وتجديد المندثر . وفي اثنائها فُتحت الأندلس بجيوش المغاربة المسلمين الصّادقي الإيمان . وكان يُظنُّ أنه لما يَرْجِع السيف الى غِمده ، يَنصرف العزم الى ترقية مستوى البلاد العلمي والأدبي ، بعد رُقيِّها عمراناً واقتصاداً وسياسة . ولكنّ خطراً جديداً أصبح يهدد هذا القطر المغربي القليل الحظ . فلم يُتح له ان يجاري الاقطار الإسلامية الاخرى في النهضة والتجدُّد ، والأخذ باسباب الحضارة والتمدين ، بعد أن ظنّ أنه اجتاز دورَ الإنشاء والتكوين . ذلك هو خطرُ الخوارج[2] النازحين إليه من الشرق ، المضطهدين من حكوماته ، حيث إنهم لم يجدوا مجالاً فسيحاً لترويج بِدْعتهم وبثّ دعايتهم في أمنٍ وأمان مثلَ المغرب . وقد قاسى منهم الأمرّين ، وذاقَ

---

١ – يُطلِق مؤرخونا إفريقية على المغرب الأدنى والأوسط ونحن نتبعهم في ذلك احياناً .

٢ – دخل الدعاة الخوارج الى المغرب من العراق في أوائل المائة الثانية ، فبثوا دعوتهم بين المغاربة وتلقاها عنهم رؤوس القبائل ، ففشت في دهمائهم . وكانت خوارج المغرب إباضيّة وصُفريّة ، وهما فرقتان معروفتان من فِرَق الخوارج .

بسببهم من المحَن والأهوال صنوفاً وألواناً ، حيثُ لعبوا دوراً خطيراً في حوادثه السياسيّة وأثاروا فِتَناً وحروباً ، كان كلٌّ من العرب والمغاربة في غِنى عنها . غير أنَّ هـــذه الحال لم تدُم ؛ فقد شاء الله أن تنجليَ ، وينجليَ معها كلُّ ضير وضرر على مستقبل البلاد .

فبينا الإيمان متذبذب ، والشعور الديني آخذٌ بالضعف لبُعد العهد بالهداة المرشدين السّاري اليهم نور النبوة ، أمثال عُقبة ، وموسى . وفيما الأقوال والخلافات المذهبيَّة رائجةٌ ، ونزغات الملحدين ووساوس اهل الضّلالات متسرّبة الى نفوس هذا الشعب الفطريّ السّاذج ، إذ أتى ادريسُ بن عبد الله ، فارّاً بنفسه من الرشيد الذي اضطهد شيعته الخارجين عليه ، وشتّتهم شذرَ مذرَ . فكان دخولُ هذا الفرع الزكي الى المغرب فاتحة عصرٍ جديد ، طالما تاقت له النفوس واشرأبّت اليه الأعناق .

وما وَطِىءَ ثرى البلاد المغربية ، حتى وفـــدت عليه القبائل معلنةً بمبايعته ، داخلةً في طاعته . فبدأ أعماله بتأسيس الدولة الادريسية سنة ١٧٢ هـ بمعونه إسحـٰق ابن عبد الحميد الأورَبي والي مدينة وليلى ، وسعي مولاه راشد . وهي أول دولة عربية مستقلّة في المغرب . وبعد أن توطّد له الملك ، جهّز الجيوش واستنفر المقاتلة ، وخرج غازياً يضربُ في بلاد المغرب طولاً وعرضاً ، حتى دوّخه جميعه ، وقضى على حركات الخوارج وسكّن فِتَنَهم المندلعة اللّهيب ؛ فلم تقم لهم بعدها قائمة . ثم تقدّم الى تلمِسان ففتحها سنة ١٧٣ هـ ودخلها ، فنظر في أحوالها . وبنى بها مسجدا . ثم عاد الى وَلِيلى ، وقـــد استقام له امر المغرب ، وتمَّ له اقتطاعه من جسم الخلافة العباسية ، وإزالة كل سلطة دينية او سياسية ، كانت لها عليه . وكان هذا هو ثالث الفتوح الاسلامية المهمة .

كيف انتشر الإسلام في المغرب

هكذا كان تطور الحركة الاسلامية وسيرها بالمغرب مدّة قرن كامل . وهكذا كان حرص ولاةِ العرب شديداً على إشادَة معالم الاسلام بهذا القطر ، وتثبيت أركانه وإقامة دعائمه . حتى ارتكز فيه ارتكازاً قوياً ، وتمكن من نفوس سكّانه أيما تمكن.

فاصبح وكأنما آوَى الى وطن وسكن هما أعرفُ به منه بهما . فكيف تمَّ ذلك ؟ وما هي العوامل والاسباب التي سنَّت الوصول الى هذه الغاية ؟

إن المغاربة الذين كانوا قد اعتادوا حياة الفوضى ، وألِفوا التمرد والعصيان ، بعد ان تمكن منهم العرب وكسَروا شوكتهم ، أصبحوا مقتنعين بعدم إجداء المقاومة عنهم وذهاب كل مجهوداتهم في الدفاع سدًى ، لما رأوه من شدَّة مراس العرب للحروب وطول مغالبتهم لاعدائهم . فلم يسعهمْ ، والحالة هذه ، الا الإذعان لسطوتهم وتسليم مقاليد الامور اليهم . فساسوهم بالحكمة والانصاف ، وأخذوهم بالعدل والمساواة ، حتى أوَوْا الى ظل الطاعة ، واخلدوا الى السكينة والهدوء .

هنالك تذوَّقوا طعم السّلم لأول مرة ، وانصرفوا الى ادارة شؤونهم وتدبير مصالحهم . وبدأوا يشعرون بهناءة الحياة ، ويجدون لذاذتها .

ثم نظروا فيما تخلّف بايديهم من عادات الوثنية ، وبقايا الديانات الأخرى المحرَّفة . فلم يجدوا في ذلك شفاء غلـَّتِهم ونقع أُوامهم ؛ فأخذوا يتطاولون بأعناقهم الى الدين الجديد الذي جاء به الفاتحون الأقوياء ورأوه موفـِّياً بأغراض الحياة ومآربها ، ضامناً لمصالح البشر في المعاش والمعاد . فكان منه إليه خير داعية ومرشد ، أنارَ أمامهم السبل ، وأبان لهم معالم الرُشد . وسرعان ما استمالهم الى جانبه ، وادخلهم في حظيرته . وكان اكثرُ ظاهراته تأثيرا عليهم ثلاثا .

ا — يُسْرُ شريعته ، وسماحته غير المحدودة . فكلُّ تعاليمه هيِّن سَهْل ، يمكن الإحاطة به والقيام عليه في غير تعب ولا عناء . والإسلام كما لا يخفى ، دين الفِطرة الخالي من التكاليف الشاقة التي تجعله عبئاً ثقيلاً على كواهل معتنقيه . اذ ليس فيه الا ما ينطبق على النظر والمصلحة العامة .

ب — حسنُ معاملته لكل من يدينُ به ويحتمي بحماه ، فما هو إلاَّ أن يتعلـَّق بسبب من أسبابه ، حتى يُصبح عضواً عاملاً في جماعته الكبيرة ، لا يميزه عن بقية اعضائها مميّز ، ولا يفصل بينه وبينهم فاصل . واعتبر ذلك في ابن الكاهنة المغربية و

المشهورة في التاريخ بطول مقاومتها للاسلام ، ومحاربتها للآتين به ، حتى ماتت[١] ، فانه ما لبث ان وَلِيَ على قومه بعد إسلامه ، ولاه حسّان بنُ النّعمان عاملُ عبد الملك بن مَرْوان على افريقية ، الذي قاسى من أُمّه الأمرّين .

ج – رِفقُ الولاة المسلمين وعدلهم ، وتشرّبهم بروح الديمقراطية الحق التي جاء بها الاسلام ، مع ما كانوا عليه من الأخلاق الفاضلة والسجايا الكاملة . حتى لقد أكبر هؤلاء المغاربة ديناً أنجب مثل أولئك الرجال الأفذاذ ، وكوّن مثل تلك الشخصيات الكبيرة التي يندُر وجودُها في التاريخ .

على أن المغاربة لم يُعادوا الإسلام في أول الامر . ولم يُقاوموه تلك المقاومة العنيفة ، إلاّ لجهلهم بحقيقته ، وعدم إحاطة علمهم بمحاسنه ومزاياه . وقد فطن لذلك الولاة العرب بعد حين ؛ فرتّبوا لهم الفقهاء والقرّاء يُلقّنونهم العربية ويُبصّرونهم بالدين . فلما اكتنهوا كُنْهَه ، وعرفوا حقيقته ، وتمرّسوا بتعاليمه السامية وآدابه العالية ، أصبحوا من أكبر دُعاته وأحمى أنصاره . فجاهدوا في سبيله الجهاد الأكبر ، وبذلوا النفس والنفيس لإبلاغ دعوته الى أقاصي البلاد . فهم الذين فتحوا الأندلس وسهّلوا طريقها للعرب ، وما زالوا بعد ذلك حاميتها وذادتها الى آخر العهد بها . وهم الذين اقتحموا مجاهل إفريقية ، وحملوا الهداية الإسلامية والثقافة العربية إلى السّوادين كما هو معلوم .

اسْتِعَرابُ المغَارِبة

نتيجةٌ طبيعيةٌ أن يستعرب المغاربة بعد إسلامهم ، ويتعلموا لغة التنزيل الذي هو دُستور الإسلام وأُقْنُومُه ، والمصدرُ الاول لجميع أحكامه وتعاليمه . فانما بالعربية تُفهم اصوله وفروعه ، وتُقرَّرُ شرائعه وأحكامه . على انه اذا كان الاسلام ، دينُ

١ – هي الكاهنة داهية التي تزعمت قومها جراوة ، وقاتلت المسلمين في جبال أوراس فهزمتهم ، وكان عليهم حسان بن النعمان ولم يلبث أن جاءه المدد من الشرق ؛ فكرّ عليها وأوقع بها وبجموعها سنة ٧٤ ه .

الفطرة والخُلُق القويم ، مستعداً بذاته للانتشار ؛ فكذلك هذه الفُصحى ، لغة البيان والشعر ، تمتلك برقّتها القلوب ، وتستلب العقول . وأحْرِ بالشعب الذي دخلاه معاً ، فرحّب بها واحسن اقتبالها ، أنْ يشهد التطور العتيد ، والفتح الجديد في مِزاجه وعقليّته وحياته العامة .

ولقد سارت العربيةُ في المغرب أول الامر بسير الإسلام، مترسمةً خطاهُ متتبّعةآثاره. حتى إنها لو كانت بقيت من ذلك الوقت تنمو وتُثمِر ، لكانت الآداب العربية قد أتت أُكْلَها من ذلك الوقت أيضاً ؛ ولكنّ عوائق كثيرة حالت دون سيرها المطّرد ، وتقدُّمِها المستمر . فتأخرت بذلك النهضة الادبية في المغرب ، وتقدمت في الأندلس ، التي فُتحت بعده ، حيث لم تجد في طريقها شيئاً من تلك العراقيل .

وأول ما بدأ نشاط هذه الحركة ، في أيام حسّان بن النعمان الغسّانيّ ، أحدِ ولاة إفريقية من قبل عبد الملك بن مروان . فانه كان من الممهدين السبيل لتقدم الثقافة العربية واستقرار الحضارة الاسلامية بالمغرب. فدوّن الدواوين، ورسّم اللغة العربية، أي جعلها لغة الدولة الرسمية ، فأوجب بذلك تعلُّمَها على السكان ، المسلمين وغير المسلمين . ثم بعد ذلك ، أنزل عمر بن عبد العزيز بافريقية والمغرب عشرةً من الفقهاء يعلمون الناس القرآن ويفقّهونهم في الدين . كذلك فعل موسى بن نُصير ؛ فرتّب عدداً من الفقهاء والقراء للغرض نفسه . وهذه كلها محاولات كان لها نتيجتها الطيّبة ، وأثرها المحمود في سرعة استعراب المغاربة ، وطبعهم بالطابع العربي الصميم. كما شوهد ذلك يوم فتح الأندلس ، حيث خطب طارقُ بن زياد وهو مولىً مغربيٌّ لموسى بن نصير ، خطبته المشهورة في جيشه الذي أناف على اثني عشر الف جندي ، فيهم ثلاثمائة فقط على اكثر تقدير من العرب ، ففَهِمها الجيش كله ، وأثرت فيه تأثيرها البليغ المشهود في اندفاعه الى حومة الوغى ، وتهافته على الموت بإيمان وحماس . فكيف يفسّر هذا بغير سرعة انتشار العربية ، كالسرعة التي انتشر بها الاسلام ؟

أما والأمر هكذا ، فما الذي قضى عليها بعد ذلك ، وأوقف سيرها لأمدٍ بعيدٍ جداً ؟ هنا مضلّة الأفهام ، ومزلة الأقلام. والذي يظهر لنا أنها تلك الفِتنُ والحروب التي نشِبَتْ بين العرب والمغاربة فيما بعدُ . والتي كان مثارُها التعصّب الأعمى والعنصرية المقيتة . ومما لا شك فيه ، ان بعضَ الحُصون والمعاقل المنيعة التي لم يكن

وصلها الإسلام او وصلها ولم يتمركز فيها ؛ لم يكن للعربية ان تهاجمها أو تتمكن فيها. فالبربريّة ، ولو أنها انهزمت أمامها ، لم تجد خيراً من أن تحتفظ بالرّمق الباقي منها في ذلك البعض من الحُصون والمعاقل . وهناك حقيقة ، في شعَف جِبَال الأطلس ، كان مُتربِّعُها ومقيلها ، حيث بقيت تتنازع البقاء . فآناً تجدُ من يأخذ بضَبْعها من مُتعَصّبة المغاربة ومتحمسيهم ، أو ممّن لاناقةَ له ولا جمَل في هذا الامر ، وانما همّه بذرُ الشقاق والخلاف بين العنصرين المتمازجين والجنسين المتحدين[1] فتنهض وتستوي ؛ وآناً تبقى مهملة منبوذة ، لا يؤبَهُ لها ولا يحفل بها ، وذلك غالب أمرها . بل فيما عدا عَصْر الفتوح الذي نحن فيه ، وفيما بعدَه بقليل ، لم يبق لها بجانب العربية ظهور ولا صَوْلة مطلقاً . وخصوصاً بعد قيام الدول العربية البحت من بني مرين والسعديين والعلويين، كما ستجد تفاصيل ذلك في تضاعيف هذا الكتاب.

الصّراعُ بيْنَ العَربِ والمغَارِبة

اذا عُدنا لذكر الصّراع القائم بين العرب والمغاربة ؛ فلسنا نقصد صراعاً دينيّاً من نوع ما سبق ، فنكونَ نقَضنا حكمنا بان المغاربة لم ينتقضوا على الاسلام أولاً ، إلاّ لأنهم جهلوه فعادوه ، وإنما نقصد هذا الصراع السياسي الطويل الذي ثارت عوامله بين العنصرين المتنافسين فيما بعدُ ، بسبب تداول الحكم وتنازع السلطة .

ولعل مَثارَ النزاع أولاً إنما كان لأجل استبداد العرب بوجوه المنافع، واختصاصهم بالمناصب العالية في الدولة ، فبدأت المطالبة بالمساواة في الحقوق . ثم استفحل الداء فبدأ المغاربة يشعرون بالخطر يتهدّدهم ، وأنهم ان لم يتلافوا الحال ، ربّما أفضى الأمر الى محو وجودهم السياسي . فهاجت حميّتُهم وثارت عصبيّتُهم ، وهبّوا مندفعين كالسيل الجارف يُريدون في البدء نيْل حقوقهم المهضومة، وتثبيت مركزهم المتضعضع. ثم لما استحلوا الظفر واستمرءوا طعم الظّهور ، لم يبقوا قانعين بما حصلوا عليه . فتعلّقت آمالُهم بالمُلك والإمارة ، وساروا في سبيلهم متحمّسين .

---

١ — هذا ما فعله الفرنسيون حين احتلوا المغرب ، وقد باءت جهودهم ولله الحمد بالفشل .

ونستشهد التاريخ في إثبات هذا الرأي ؛ فنجد أن أول ما وقع هذا الاستبداد في دولة الإمام إدريس ، حيث يتحدث المؤرخون أنه في سنة ١٨٩ هـ وفدت عليه وفود العرب من بلاد إفريقية والأندلس ، في نحو خمسمائة فارس من القَيسيّة والأزْد ومَذحِج وبني يحصُب والصّدَف وغيرهم . فسُرَّ بوفادتهم وأجزل صِلاتهم وقرّبهم ، ورفع منازلهم وجعلهم بطانتَه دون المغاربة . فاعتزّ بهم لانه كان فريداً بين هؤلاء ، ليس معه عرب ، فاستوزَر عُمَير بنَ مُصعَب الأزدي ، واستقضى منهم عامرَ بن محمد بن سعيد القيسي قيس عَيلان الخ كما في القرطاس . ولكننا نلاحظ انه لم يظهر أثر سيء لهذه السياسة الاستئثاريّة ؛ كما يحسُنُ أن تُسمّى ؛ في ذلك الحين على عهد الإمام إدريس . ولعل ذلكَ يرجع لما كان له ولهم من عظيم المنزلة عندهم ، وصدق المحبة فيه . فلم يكونوا ينظرون إلى أعماله بعين الشك والرّيبة ، كما نظروا إلى أعمال أولاده من بعده . ولأنّ الأمر في أوائله قلمّا يُنتبه إليه ، فلا يظهر ما يكون نتيجة له أو أثراً عنه . وكلُّ ما نريد أن نقوله ، هو ان هذا السلوك كان مبدأ الاستبداد على المغاربة ومنشأ الخلاف على العرب ؛ وان لم يظهر أثر ذلك إلاّ بعد أن تدهورت سياسة الأدارسة واختلّت إدارتهم ، فقويت الهمم وشُدّت العزائم على مقاومتهم والسعي في مناوأتهم .

فظهر على مسرح التاريخ موسى بنُ أبي العافية فجدّ في أثر الدولة الفتية يُصلي رجالها نيراناً مُستعرة ، ويشنُّ عليهم كل غارة شعواء ، حتى قوّض أركانها المتينة وهدّ بنيانها الشامخ وكاد يستأصلهم ، لولا أن أخذت الناس الشفقة عليهم ، فمنعوه منهم ، فأقلع عنهم خزيانَ حقيرا . وما كاد يستريح ويأخذ في تدبير شؤونه حتى انبرى له بَنو عُبَيد فساقوه بعصاهم . ومن هنا تعلم أن المغاربة لم يكونوا يُريدون الانفراد بالسلطة أول الأمر ، وإنما كانوا مغلوبين على أمرهم ومضروباً على أيديهم ؛ فأرادوا الدفاع عن أنفسهم ونيل حقوقهم المهضومة ؛ وإلاّ فان أبا عبد الله الشّيعي كان يدعوهم الى بَيعَة الفاطميين العلويين . وهل كانوا بالمغرب إلاّ داخلين في دعوة مماثلة ومُبايعين للأدارسة العلويين ؟ فلا يخلو هؤلاء الخارجون معه إمّا ان يكونوا مغرورين او مُنتَهزين الفرصة للحصول على مطامعهم في ظل الدولة الجديدة على حد قول الشاعر :

إذا لم يكُن للمرء في دولة امرىءٍ نصيبٌ ولا حظٌّ تمنّى زوالها

وما ذاك عن بُغْض لها غــيرَ أنه يرَجّي سواها فهو يَهْوَى انتقالَها

وكان ظهور الدولة الفاطمية على مسرح السياسة المغربية سبباً لقيام نزاع كبير بينها وبين الأمويين أصحاب الاندلس ؛ على المغرب . فما كانت تُطفأ لظى الحرب بينهم إلاّ وتشعل من جديد . وقد لقي المغرب من جرّاء ذلك عَنَتاً شديداً . ثم قامت دولة مَغراوَة وبني يَفرَن فكانت دولةً مغربيةً محضة ، وان لم يرَ المغربُ على عهدها إلا الحروب الطاحنة والفتن الداخلية الماحقــة ؛ فكان عهداً مظلماً توقفت فيه جميع الحركات الناشئة من علميَّة وأدبية ، وانقرض العُمران ، وكادت الفوضى تقضي على هذه البلاد ؛ لو لم يتداركها الله بعبد الله بن ياسين مؤسس دولة المرابطين .

الوسط الفكريّ في هذا العصر

رأينا كيف تأخر فتح المغرب الى ما بعد مُنتصف المائة الأولى للهجرة ، وأنه لم يقرّ قرارُه بعد الفتح الأول ، ولا سكنت ثائرته . بل سرعان ما قتل الفاتــح في إحدى جولاته بمدن إفريقية ، وعادت البــلاد كلها الى عهد الفوضى والاضطراب ، مما دعا الى تجريد حملة ثانية على هذا الإقليم بقيادة موسى بن نصير ، رأبت منه الصّدع ورتقت الفتق ، وشغلت المغاربة الى حين بالعبور الى الاندلس والقتال في تلك البلاد التي كانت الى الامس القريب تستتبعُهم وتتحكم فيهم .

وفيما بين هذين الفتحين كان كثير من المغاربة لم يفهموا حقيقة الدعوة الاسلامية ولم ينظروا الى العرب الا كما كانوا ينظرون الى الرومان والروم وغيرهم ، ممن وغل عليهم ودوّخَ أقطارهم من قبل قصد الاستغلال والاستئثار . ولقد قالت الكاهنة داهية لقومها : « انما تطلب العرب من المغرب مُدنه وما فيها من الذهب والفضة ، ونحن انما نريد المزارع والمراعي ، فالرأي ان تخرّب هــــذه المدن والحصون ونقطع أطماع العرب عنها » . وبالطبع فان من يكون هذا رأيه في القوم لا يقبل ما أتوا به من شرع ودين ، ولا يتأثر بما يحملونه من علم وعرفان .

ونقِلَ عن ابنِ أبي زيد القيرواني أنه قال : ارتدت البربر اثنتي عشرة مرة ،

من طرابلس إلى طنجة ، ولا شك أن هذا الكلام إن أريد به الردّة الحقيقية ، فانما يتنزّل على أقوام من البربر لا على جميعهم ، وإن اريد به الثورة والعصيان وشقُّ العصا على الدولة ، فهو صحيح في جملته . على أن الخلفاء والولاة الذين تتابعوا على حكم المغرب لما تنبهوا إلى وجوب تعليم المغاربة وتلقينهم مبادىء الدين الحنيف ، فرتبوا لهم الأئمة والفقهاء يعلمونهم ويرشدونهم ، أمنوا بعد ذلك من انتقاضهم وعرفوا السبيل الى تفهيمهم حقيقة ما جاءوا به . ومن يومئذ لم تعُدْ ثورات المغرب والحروب التي نشبت بعدُ ، إلا تمرُّداً على الولاة الظالمين او فتنةً يوقدُها ذوُو الأغراض من الخوارج وأصحاب المطامع السياسيّة ، ويستغِلـُّون فيها المغاربة البُرءاء أسوأ استغلال.

وفي الحقيقة إنَّ جناية الخوارج على المغرب لا تعادلها جناية ، فانهـــا تسببت في انقسامه على نفسه ، وتسْليط بعضِه على بعض ، مما أدّى إلى بقائه زهاء ثلاثة قرون طعْمةً لنيران الحروب ومَيْداناً لتجريب الحظوظ ، وهو في كل ذلك إنما يزداد سوءَ حالة من ناحية انتشار الجهـــل وعدم الاستفادة ، مما أتى به الفاتحون العرب ، حملةُ الهداية الاسلامية ومنوّرو الشعوب .

وثمّة عاملٌ آخر ، الى جانب انعدام الاستقرار واضطراب الأمن ، كان له اسوءُ الاثر في عدم استفادة المغاربة مبكـّراً من علوم العرب وآدابها وبُطء نهضتهم وظهور المثقفين فيهم ؛ ذلك هو أن المغرب لبعده عن مواطن العرب الأصلية او التي توطنوها بعد الفتح الاسلامي ، لم يتخذه العرب مقرّاً لهم ومسكناً ؛ وانمـــا كانوا يحلـّون في إفريقية وعاصمتها القيروان ، التي كانوا هم المنشئين لها والمصّرين ، أو يجتازونه الى الاندلس ،حيث يجدون أنفسهم في بلادٍ شبه مستقلة عن قاعدة الخلافة وطائلة السلطان. ولذلك ما لبث الجناحان المغربيان الشرقي والغربي ، أن نهضا وحلـّقا ، فتكوّنت في إفريقية الأغلبيّة ، وفي الاندلس الاموية ، حركاتٌ فكرية وأوساطٌ علمية وأدبيـة راقية ، بخلاف المغرب الذي لم يكن يستقرُّ فيه إلا أفرادٌ قلائل من الولاة العرب ، أو بعضُ الجنود من جُفاة الأعراب الذين ليسوا في قَبيل ولا دَبير من شؤون الفكر وحياة العلم والأدب . وهم مع ذلك قليلٌ وقليـــل جدّاً ؛ حتى إنّ جيش طارق بن زياد الذي فتح الأندلس لم يكن فيه إلا ثلاثمائة عربي أو ثلاثة عشر على الخلاف في ذلك ، وهو اثنا عشر الفاً ... وقد علِمْتَ أن إدريس الثاني استقبل في سنة ١٨٩ هـ وفود العرب من بلاد إفريقية والأندلس وهم نحو الخمسمائة فارس فقرَّبهم واستأنس بهم

لأنه كان فريـداً بين المغاربة ليس معه عرب ... وما هو خطر خمسمائة فردٍ في قطر يُعدُّ سكانه بالملايين؟ فلا جرم إذا بقي المغرب على جهله وتأخُّره ولم يُسرع إلى التطور والتعرُّب والنقل عن اساتذته الجُدُد كما نقل عنهم أشقّاؤه وجيرانه .

على أننا إن صوَّرنا الحياة الفكرية في هذا العصر بهـذه الصورة القاتمة ، فلا نمرُّ بدون ان نُشيرَ الى ذلك البصيص من النور الذي كان يومضُ خلالها أحياناً ، منبعثاً من مصدر الإشعاع بفاس ، أعني جامع القرويين ... فمن المعلوم أن هذا المسجد الذي يعدُّ أقدم جامعةٍ علمية في العالم الإسلامي ، قد أُسس في هذا العصر ؛ وبالضبط في سنة ٢٤٥ هـ وكانت التي بَنَته سيدةً فاضـلة من مهاجرة القيروان ، تـُسمَّى أمَّ البنين الفهريّة .

ولما كانت المساجد في المجتمع الإسلامي تؤدي مهمَّتين : مهمة دينية ، ومهمة ثقافية . إذ تلقى في أروقتها دروسٌ في مختلف العلوم والفنون ، فإنا نعتقد أن جامعَ القَرويين منذ إنشائه كان مركزاً للدراسات الدينية والأدبية ، التي لم تنقطع منه أبداً ، وأنّ تأسيسه كان مبدأ الارتكاز للحياة الفكرية في المغرب ، بالرغم من وجود مساجد أخرى سابقةٍ له في فاس وغيرها . ولا أدلَّ على ذلك من أن كبار علماء المغرب الذين عرفناهم ، إنما نبغوا بعد التاريخ الذي شُيِّد فيه ذلك المسجد العامر .

على أنّ مراكز ثقافية أخرى كانت تقوم في كلٍّ من سبتة وطنجـة والبصرة[1] وأصيلا . وهي باستثناء سبتة قد عرض لحركتها فتورٌ أو اضمحلت بالمرة أثناء هذا العصر نفسه ، وإن تخرَّج منها أعلام لهم مكانتهم في تاريخ الحركة الفكرية بالمغرب . إذاً فقد كانت هناك دروس ، وكانت هناك هيئة علمية ، وانْ كنا لا نعرف من خبر هذه الهيئة وأثر تلك الدروس إلاّ الشيء القليل .

ولعل أهمَّ ما نسجّله عن الحياة الفكريّة في هـذا العصر ، التي قلنا أن تأسيس

---

١ – مدينة البصرة أسست في عهد الادارسة بالقرب من مدينة القصر الكبير ، وكانت داخلة في ولاية القاسم بن ادريس لما قسم اخوه محمد المغرب بين اخوته . وازدهر عمرانها ثم خربت على يد ابي الفتوح ابن زيري الصنهاجي في العصر نفسه .

جامع القرويين كان مبدأ الارتكاز لها في المغرب ، هو ظهورُ المذهب المالكي في الفقه ، وسيطرته على المذهب الكوفي الذي كانت له الصَّولة في المغرب ، وبالتالي قضاؤه على المذاهب الأخرى التي كانت منتشرة في جهات مختلفة من هـذا القُطر ؛ كالمذهب الخارجي الذي كانت تعتنقه إمارة بني مِدرار في سجلماسة ، والبرغواطي[1] الذي كان باض وفرَّخ في تامَسنا والاعتزالي الذي كان منتشراً هنا وهناك ، كالشّيعي الذي يُقال إنَّ قرنه طلع مع نشوء الدولة الادريسيّة . وعلى كل حال فان مذهب مالك لم يتوطّد أمرُه في هذا العصر كمذهبٍ فقهيٍّ فقط ، ولكن كعقيدة أيضاً فان التلازم بين طريقتِه في الفقه والاعتقاد ، وهي اتّباع السنّة ونبذ الرأي والتأويل ، ممَّا لا يخفى .

وقد كان الفضل في اتجاه المغرب هذا الاتجاه لرجال من أبنائه البرَرَة ، أرادوا إشباع نهمَتهم من العلم ، فتحمَّلوا عن ديارهم ومساقط رؤوسهم ، وضربوا في طول البلاد الاسلاميّة وعَرضِها طلباً للمزيد من المعرفة ورغبةً في سعة الرواية ، ثم عادوا إلى وطنهم يتفجَّرون علماً ويلتهبون إخلاصاً .

فأخذ عنهم من لم يستطع الرحلة من مواطنيهم ، وقاموا جميعاً بتأسيس قواعد العلم ومعاهد الدّين في مختلف انحاء البلاد . وهؤلاء أمثـالُ أبي هرُون البصْري ، الذي كان أول من أدخل كتاب ابن الموّاز الى الاندلس ، وأحمد بن الفتح المليلي ، ودَرّاس بن اسمعيل ، وجبرالله بن القاسم الفاسي ، وأبي جيدة بن أحمد ، وأبي محمد الأصيلي ، وابن أبي غافر ، وعيسى بن علاء السّبتيّين ، وعيسى بن سعـادة الفاسي الذي تنازعه الفقهاء والمحدثون لما توفي بمصر ، كلهم يدّعيه ويقولُ أنا أحقُّ بالصلاة عليه ، وابن سمحون الطنجي بالحاء المهملة ، ومحمد بن يحيى الصديني واولاده ، وابن الزُويزي الذي كان يضرب به المثل في صحة الفُتيا ، يقولون : لا أفعله ولو أفتاك

---

١ – هذه النسبة الى قبيلة برغواطة بالراء . ويقول ابن هشام اللخمي في كتاب لحن العامة وابن دحية في كتاب المطرب نقلا عن كتاب تثقيف اللسان : إنهـا باللام ، فالنسبة إليها بلغواطي . ولصاحب القرطاس رأي آخر في ذلك ينظر فيه عند الكلام على قتال ابن ياسين للبرغواطيين . ونحن قد اثبتنـا هذه الكلمة على ما هو مشهور فيها . وانظر لمعرفة المذهب البرغواطي كتاب القرطاس في الموضع المشار له ، والبيان المعرب في ص ٢٢٦ ج ل .

به ابن الزُّويزي ، والقاضي ابن محسود ، والحسن ابن عليّ الفاسي ، وأحمد بن العجوز وولده عبد الرَّحيم وأحفاده ،وخلف بن مسعود الرُّعيني المعروف بابن أُمنيّة ، وابن أبي مسلم الصّدفي ، واحمد بن قاسم السّبْتي ، وسليمان بن أحمد الطنجي الاستاذ في القراءات ، وعثمان بن مالك فقيه فاس وزعيم الفقهاء في وقته . كتبَ عنه تعليقاً على المدوّنة هو من أقدم ما كتبَ المغاربة عليها ، وأبي بكر بن زوبع السّبتي وابن حمود الطنجي ، له شعر في مناسك الحجّ ، وعلي الهوّاري الفاسي ، والحسن القرشي من أهل فاس ، له كتاب سماه التصنيف ، وحمزة بن يوسف الحرّار منها ، وابن التّبّان كذلك وابن يربوع السبتي ، وابن أبي الرَّبيع المكناسي ، وعلي ابن هرون الطنجي ، وأيوب بن محمد فقيه المصامدة في وقته ، وأبي القاسم بن محرز ، وسليمان بن عذراء فقيهي المرابطين ، وتونارت بن تيدي من فقهاء المصامدة أيضاً ، ولمتاد بن بلين اللّمتوني ، الذي كان المثل يضرب بفتواه في الصحراء ، وعثمان بن سعيد البصري ، وكان يتفقه على طريقة أهل العراق وسعيد بن خلف الله البصري أيضاً ، له جزء في مسائل من سؤالات أبي هرون البصري وصاحبه عبدالله بن يعيش لأحمد بن مُيسّر الاسكندراني ، وقاسم بن محمد المعروف بابن المأموني ، له كتاب المناسك وموسى بن ياسين ، له كتب حسان ، في الحساب والفرائض ، وغيرهم ممن يطول تتبعهم .

ونُترجمُ منهم هنا ، درّاس بنَ اسمعيل ، وأبا جيدة بنَ أحمد ، وأبا محمد الأصيلي وابنَ العجوز ، وأبا عمران الفاسي ، وإن كان الأصيلي استوطن الأندلس بعد رجوعه من رحلته ، والفاسي أقام بالقيروان ردحاً طويلاً من حياته . إلاّ اننا نذكرهما كعَلَمين من أعلام هذا العصر البارزين .

درّاس بن إسماعيل

هو أبو ميمونة درّاس بن اسمعيل الفاسي ، كان كاسمه ، كثير الدرس . سمع من شيوخ فاس ، ورحل الى المشرق ، فحجّ وجال في الاندلس وافريقية ، ولقي جماعة من العلماء . روى الحديث وقرأ الفقه ، وسمع بافريقية من أبي بكر بن اللّباد وغيره وبالأندلس من شيوخها . ولقيَ عليّ بن أبي مطر بالاسكندرية ، وسمع منه كتاب ابن

المواز ، وحدَّث به بالقيروان ، سمعه منه أبو محمد بن أبي زيد وأبو الحسن القابسي وغيرُهما . ودخل أيضاً الأندلس مجاهداً وتردد بها في الثغر ؛ فسمع منه أبو الفَرج عبدوس بن خلَف ، وخلفُ بن أبي جعفر وغير واحد ... وهو ممن أدخل مذهب مالك إلى المغرب ، وكان الغالب على أهله مذهب الكوفيين . وكان رحمه الله فقيهاً محدّثاً حافظاً ، من أهل الفضل والدين . ولما وصل إلى القيروان اطّلع الناس من حفظه على أمر عظيم ، حتى كان يقال ليس في وقته احفظ منه . وكان نزوله بها عند ابن أبي زيد . وله بفاس مسجد يُعرفُ به بحيّ مَصمودة ، ويقال إن قبلته أقوم قبلةٍ بفاس ، وبه كان يُدرّس الفقه بعد رجوعه من المشرق . توفي ببلده سنة ٣٥٧ ﻫ ودفن بخارج باب الفتوح منها ، حيث بُنيت عليه قبة جميلة . ويُحكى أن أبا محمد بن أبي زيد القيرواني قدِم فاساً لزيارته ، فوجده قد توفي في ذلك اليوم فحضَر جنازته وأقام بقبره ثلاثة أيام . وكان ذلك سبب زيارة القبور بفاس عددَ تلك الايام الى الآن. ولمّا اراد الرّحيل الى بلده أنشد :

قِفْ بالَمقابِر للتوديعِ يا حادِ فإنَّ في جَوْفها قَلْبي وأكبادي

أبوجيدَه

هو أبو جيدةَ بنُ أحمد اليزْنسني من أهل فاس ، ومن كبار أهل العلم والفقه والصّلاح بها . له رحلة إلى المشرق ، لمّا رجع منها خرج أهل فاس كلُّهم للقائه ، الرجال والنساء ، فكان هؤلاء في ناحية وأولئك في ناحية ، وذلك كلُّه فرحاً به وإجلالاً له . واشتهر بفتواه في حُكم أرض المغرب ، التي أنقذ بها البلاد والعباد من سطوَة الجبابرة . وذلك أن عامل المنصور بن أبي عامر لما تغلّب على فاس قال لهم : أخبروني عن أرضكم أصُلحٌ هي أم عَنوة ؟ فقالوا لا جواب عندنا حتى يأتي الفقيه ، يعنون أبا جيدة ... وكان يعمل في بُستان له خارج المدينة . فلما جاء سأله ، فقال : ليست بصُلح ولا عَنوة ، وإنما أسلم عليها أهلُها فبقيت لهم . فقال العامل : خلّصكم الفقيه . وهذه الفتوى هي مضمون كلمة الرئيس الأميركي مُنرو « أمريكا للأميركيين » فقد سبقه إليها أبو جيدة بعدة قرون ...

وكان ابو جيدة راسخَ القدم في فقه مالك والشافعي معاً ، وله تأليف في الوثائق على طريقة الشافعيّة . وتوفي رحمه الله سنة ٣٦٥ ﻫ ودفن خارج باب المسافرين ، أحد أبواب فاس ، حيث يوجد قبره في جامع هناك . وقد ترك الناس تسميتَها القديمة وسمَّوْها باب سيدي بو جيدة اعترافاً بفضله وتخليداً لذكراه .

الأصِيليّ

هو أبو محمد عبد الله بنُ إبراهيم بن محمد الأصيلي الإمام المحدّث الفقيه راويةُ البخاري . والأصيلي نسبةً إلى أصيلا المغرب ، كما جزم به ابنُ الطيّب الشرقي محشّي القاموس ، وأيَّده مرتضى في التاج . وقال : يدلُّ له عـدُّه في الغرباء الطارئين على الأندلس . قال أبو الوليد بنُ الفرَضي : « ومن الغرباء في هـذا الباب عبد الله بن إبراهيم بن محمد الأصيلي من أصيلا ، يُكنّى أبا محمد . سمعتُه يقول : « قدمت قرطبة سنة ٣٤٢ فسمعت بهـا من احمد بن مُطرّف واحمد بن سعيد ، وكانت رحلتي الى المشرق في محرم سنة ٣٥١ ودخلت بغداد فسمعت بهـا من أبي بكر الشافعي وأبي بكر الأبهَري » وقال في الديباج : « وحجَّ فلقي بمكة سنة ٥٣ أبا زيد المروزي ، وسمع منه البُخاري ، وأبا بكر الآجُري ، وبالمدينة قاضيَها أبا مروان المالكي . وحدَّث عن الدَّار قُطني ، واضطرب في المشرق نحو ثلاثة عشر عاماً ، وسمع ببغداد عرضتَه الثانية في البخاري من أبي زيد ، وسمعه أيضاً من أبي احمد الجُرجاني وهما شيخاه في البخاري وعليها يَعتمِد » ثم انصرف إلى الأندلس فقرأ عليه الناس كتاب البخاري وانتهت اليه الرئاسة بهـا ، فوَليَ قضاء سرَقسطة وقام بالشورى مدةً في قرطبة وغيرهـا . وصنَّف كتاب الآثار والدَّلائل في خلاف مالك وأبي حنيفة والشافعي ، وكان من حفَّاظ مذهب مالك . ومن أعلم الناس بالحديث وأبصَرهم بعِلَلِه ورجاله ، وتوفي يوم الخميس ١٩ ذي الحجة ٣٧٢ .

ابنُ العَجوز

عبدُ الرحيم بن احمد الكتامي المعروف بابن العجوز يكنّى ابا عبدالرحمن من اهل سبتة . كانت له ولأبيه في قومه كتامة ، وفي المغرب رياسةٌ بالعلم ، واليه كانت الرحلة في

المغرب في وقته ، وعليه كانت تدور الفتيا . وله عقب نجباء في العلم ، عبد العزيز وعبد الرحمن وعبد الملك . رحل عبد الرحيم الى الاندلس وافريقية ولازم ابا محمد بن أبي زيد واختص به وسمع منه كتاب النوادر والمختصر وغيرهما ، وسمع من درّاس ابن اسمعيل وأبي محمد الأصيلي ووهب بن ميسرة الحجازي . وكانت رحلتـه في نحو الثمانين وثلاثمائة . اخذ عنه الناس بسبتة علماً كثيراً وتفقهوا عليه وسمعوا منه . وكان من حفاظ المذهب العالمين به . روى عنه أبو القاسم بن المأموني وغيره من فقهاء سبتة وفاس وتوفي سنة ٤١٣ .

أبو عمران الفاسي

موسى بن عيسى بن أبي حاج الغفجومي نسبة إلى غفجوم ، فخذ من قبيلة زناتة . كان بيته بفاس بيتاً معروفاً مشهوراً ، يعرفون ببني حاج ، وله عقب ، وكان فيهم نباهة . واليه ينسب درب أبي حاج بالطالعة من المدينة المذكورة . استوطن القيروان وحصلت له بها رئاسة العلم ، وتفقّه بأبي الحسن القابسي ، ورحل الى قرطبة فتفقّه بها عند الأصيلي وسمع من أبي عثمان وعبد الوارث واحمد بن قاسم وغيرهم . ورحل الى المشرق وحجّ ودخل العراق ؛ فسمع من الفتح بن أبي الفوارس وأبي الحسن المستملي . ودرس الأصول على القاضي أبي بكر الباقلاني ، ولقي جماعة وسمع من أبي ذرّ . قال حاتم بن محمد : كان ابو عمران من أحفظ الناس واعلمهم ، جمع حفظ المذهب المالكي إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم ومعرفة معانيه . وكان يقرأ القرءان بالسّبع ويجوّده ، مع معرفته بالرجال وجرحهم وتعديلهم . أخذ عنه الناس من اقطار الاندلس والمغرب واستجازه من لم يلقه . وألّف كتاب التعاليق على المدونة وخرّج عوالي حديثه في نحو مائة ورقة . قال حاتم بن محمد : ولم ألق احداً أوسع علماً منه ولا أكثر رواية . وذكر أن الباقلاني كان يعجبه حفظه ويقول : لو اجتمعت في مدرستي أنت وعبد الوهاب[1] ـ وكان اذ ذاك بالموصل ـ لاجتمع عندي علم مالك ، انت تحفظه وهو ينظره . وفي كتاب بيوتات فاس لابن الأحمر ان الطغاة من اهل فاس العاملين عليها

---

١ القاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي ، من أعلام مذهب مالك (٣٦٢ – ٤٢٢) انظر ترجمته في الديباج لابن فرحون ـ مثلا ـ ص ١٥٩ .

لِمَغْراوة أخرجوه منها لأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، وهو يفيد أنه استقرّ بفاس بعد رجوعه من رحلته ، ثم خرج منها مضطراً .

وتوفي في سنة ٤٣٠ وهو ابن ٦٥ سنة .

. . .

هذا في الناحية العلميه ، وفي الناحية الأدبية ، يمكنُ أن نشيرَ الى هذه الظاهرة العجيبة التي تتمثلُ في استعراب جميع قبائل الشمال المغربي ، ما عدا الريف بحيث تَنَوْسيَتْ فيها البربريةُ تماماً . ويقال إنّ الفضل في ذلك يرجع للأدارسة الذين آوَوْا إليها بعد خروجهم من فاس وأسّسوا بها دولتهم الثانية على يد القاسم كنُّون منهم ، تلك الدولة التي كانت قصَبَتُها في قلعة حجر النسّر بجبل سُماتة[1] . ولا يبعُد ذلك على النظر ، فان اكتناف هذه القبائل بمدينة سبتة وطنجة وأصيلا والبصرة ، وكلها كانت مراكز حركة أدبية نشيطة ، مما يقوّي بواعثَ هذا الاستعراب . ولعل أقوى الأدلة على صحة هذا القول ، هو انتشارُ السُّلالة الأدريسية في هذه القبائل انتشاراً لا يوجد له نظير في ناحية أخرى من نواحي المغرب . وهو دليل باقٍ إلى الآن ، يحملنا على القول إن تأثير الأدارسة في استعراب البربر وتطوّرهم الفكري اكثر مما نظن .

فاذا ذهبنا نقيسُ عملَهم في هذا الباب بعمل أُمراء نُكُور[2] أبناء صالح بن منصور ، وقد تأسّست هذه الإمارةُ في الريف قبلَ قيام الدولة الأدريسية وبقيتْ

---

١ – وقع في وهَلِنا لأول مرة مررنا بهذا الموقع الحصين المسمى الى الآن بحجر النسر في قبيلة سُماتة أنه المكان الذي اقام فيه الأدارسة دولتَهم الثانية ولم نجد من نعتمد عليه في ذلك ونعتضد به ، سوى الأوهام وكلام العوام . حتى وقفنا على ما يثبت ذلك عند النسّابة ابن رحمون في كتابه شذور الذهب ، فانه جزم به في مواضع من الكتاب المذكور وقال أنه يُعرَفُ ايضاً بحجر الشرفاء وبدار القَرار لِقَرار الادارسة فيه عند تغلب الدول عليهم وان كان وقع له في احد النقول أنه في قبيلة بني زجّل حول شفشاون . والاول اثبت ومثله عند النقيب الريسوني في كتاب فتح العليم الخبير . وعليه فما في دائرة المعارف الاسلامية من أن هذا الموقع غير معروف ، فيه قصور .

٢ – مدينة النكور بالريف أسسها ادريس بن صالح بن منصور سنة ١٣٢ . وخربها يوسف ابن تاشفين سنة ٤٧٣ .

إلى ما بعدَ انقراضها ، نجدُ انه لا نسبة بينهما فى ذلك ؛ وهذا الريف ما يزال يرْطنُ بالبربرية لحدّ الآن .

وباستثناء هذه الظاهرة التي نسجلها بكل ارتيـــاح ، نرى أن الغموض يساورُ الناحية الأدبية في هذا العصر أكثرَ من الناحية العلمية. فاذا استطعنا ان نَعُدَّ أفراداً من العلماء ونترجم لهم ولو على سبيل الاجمال ، فاننا لا نستطيع ذلك بالنسبة إلى الأدباء . وغايةُ ما يمكننا ان نفعله هو ان نذكر اسماء بعض هؤلاء الادباء الذين وردَ ذكرهم عرَضاً في الكتب وفي المنازعات السياسية او المذهبية بسبب بيت او بيتين من الشعر الذي يرويه لنا هذا المؤلف أو ذاك ؛ على انه مما قيلَ في الموضوع .

ولعل منأَلمع هذه الأسماء وأشهرها في هذا المعنىاسمَ ادريس الثاني ثم ولده القاسم ، وعُبَيد الله بن يحيى بن ادريس ، والحسن الحجّام ، وابراهيم المؤَبل وعبدالله الكفيف الطنجي وسعيد بن هشام المصمودي وابراهيم بن محمد الأصيلي ، وابراهيم ابن أيوب النكُوري . وسوف نورد لبعضهم في الجزأين الثاني والثالث بعض الآثار .

●

عصر المرابطين

سياسة الدولة

في ذاك الجوّ السياسي المضطرب الذي خضع له المغرب مدى ثلاثة قرون أو تزيد ، ومن صميم الشعب المغربي الذي سئم حياة الفوضى والقلق ، قام الرجلُ الذي رسم لهذه البلاد خطّة العمل ، وقاد أهلها إلى قرارة المجد ومستوى العظمة ، فعرفوا واجبهم من يومئذ وما تخلفوا عنه قط . وكان الرجل تلميذاً غير مباشر للشيخ أبي عمران الفاسي السابق الذكر ، والذي نفته السلطة الغاشمة من بلده فاس لأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر . فنحن إذاً بازاء خرّيج لتلك المدرسة الإصلاحيّة التي لم يتح لها أن تقوم بدورها في أرض الوطن فأدّته من بعيد على أحسن الوجوه .

ويتعلق الأمر بأحد زعماء قبيلة صنهاجة العظيمة وهو يحيى بن ابراهيم الكدالي، فانه لما حجّ ومرّ في طريق عودته بالقيروان ، اجتمع بأبي عمران هذا وتحدّث إليه عن سوء الحالة الاجتماعية بالمغرب وما عليه القبائل من الجهل باصول الدين وفروع الشريعة . فبعث معه بكتاب إلى تلميذه واجّاج بن زلو اللمطي وكان فقيهاً صالحاً وإقامته بمدينة نفّيس بالجنوب المغربي ، يأمره فيه ان يبعث معه من تلاميذه من يصلح للدعوة والارشاد ، ويصبرُ على لأواء الصحراء . ولحسن الحظ فقد وقع اختياره على تلميذ من الحذّاق الأذكياء الفقهاء النبلاء أهل الدين والفضل والتقى والورع والأدب والسياسة والمشاركة في العلوم ، كما وصفه ابن أبي زرع ،هو عبدالله بنُ ياسين الجزولي؛ فخرج مع يحيى بن ابراهيم حتى وصل بلاد كدالة من قبائل صنهاجة ، وهم ولمتُونة إخوةٌ يجتمعون في أب واحد . وكانوا يسكنون آخر بلاد الإسلام ، ويحاربون السودان ، ويليهم من جهة المغرب البحر المحيط[1] .

---

١ - هكذا حدد مواطنهم الاولى صاحب القرطاس ، وتلك عبارته . ويعني بآخر بلاد الاسلام الصحراء الكبرى فقد كانت غاية ما انتهت اليه الدعوة الاسلامية اذ ذاك ثم بلغت بفضل جهود المرابطين الى ما وراء التخوم الصحراوية من افريقية السوداء .

دخل عبدالله بن ياسين بـــلاد صنهاجة بقصد تعليمهم القرآن وتفقيههم في الدين فوجد القوم على جهل مُطبق لا يفرّقون بين حلال وحرام ، ليس معهم من الاسلام الا الشهادتان ويتزوجون اكثر من أربع نسوة ، فجعل يقرئهم القرآن ويبيّن لهم شرائع الاسلام ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، فثقلت وطأته عليهم ونفرت منه قلوبهم ، وحدث أن مات حاميه والذابُّ عنه الزعيم يحيى بن ابراهيم فتوفـّرت الأسباب على منابذته والاعراض عنه ، فخرج مع من ثبت منهم على دعوته الى رباطٍ ناءٍ في اقاصي الصحراء حيث أقاموا يعبدون الله ويطبقون تعاليم دينه .. وقيـل إن يحيى بن إبراهيم كان ممن خرج معه الى هذا الرباط بعد ان تنكـّر له قومـــه ونبذوا طاعته ولم يمت إلا بعد ذلك . وأيّاً كان فانهم ما لبثوا هنالك الا قليلا حتى تسامع بهم الناس فكثر عليهم الوارد ونزع اليه التوّابون ممن جفوه قبلُ . وبلغ عددُ من اجتمع عليه من أشراف صنهاجة نحوَ ألف رجل ، فسمَّاهم هو أو سمَّاهم الناس « المرابطين » من أجـــل مُلازمتِهم لذلك الرّباط .

ولم يزل عبد الله بن ياسين مُقيماً برباطِه على الحالة التي وصفناها حتى قويَت جموعُه وكثرت وفوده ، فندَبهم الى جهاد مَن خالفهم مِن قومهم وقال لهم : « يا معشرَ المرابطين ! إنكم جمعٌ كثير ، وانتم وجوه قبائلكم ، ورؤساء عشائركم ، وقد أصلحكم الله تعالى وهداكم الى صراطه المستقيم فوجب عليكم أن تشكروا نعمتَه عليكم، وتأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر وتجاهدوا في الله حق جهاده . فقالوا له : ايهـــا الشيخ المبارك ؛ مُرنا بما شِئتَ تجدنا سامعين ، ولو أمرتنا بقتل آبائنا لفَعَلنا . فقال لهم : « اخرجوا على بركة الله وأنذروا قومَكم وخوّفوهم عقاب الله وابلغوهم حجّتَه ؛ فان تابوا ورجعوا إلى الحق وأقلعوا عما هم عليه فخَلـّوا سبيلهم ؛ وإن أبوا من ذلك وتمادَوا في غيّهم ولَجّوا في طُغيانهم استعنـّا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتـّى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين » .

وقد كان هذا هو دُستور الدولة المرابطيّة الذي سارت عليه منذ قيامها ، وقانونها الأساسيّ الذي لم تحِدْ عنه قطّ . إنها قامت لاصلاح الفساد وتطهير المجتمع من عوامل الشر ونشر الفضائل الدينيّة وتطبيق الشريعة الاسلامية كما جاء بهـا صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم . وهي كما عمِلت وفقَ هذه المسطرة في قبائل المغرب التي أفسدها الدُّعاة والخوارج من أصحاب البدع والنزعات الضالـّة ، حتى أنقذ الله بها هذا القطر

من الهاوية التي كان قد تردّى فيها ، فانها قد سارت على نفس المسطرة لمّا اصبحت مدعوةً إلى القطر الأندلسي الذي أفسده تحلُّل ملوك الطوائف من كل الالتزامات الدينيّة والسياسيّة وانغماس أهله في الملاهي والملذّات .

ولقد عمِل المرابطون مع عبدالله بن ياسين على تثبيت دعائم الاسلام في بلاد صنهاجة أولاً ثم في بقية البلاد كسجلماسة ودَرعة وسوس ، إذ كانت على ما كان عليه أهلُ صنهاجة من الجهل والزيغ والفساد . وكان عبد الله يرتّب العمّال في كل البلاد التي يحلُّ بها ويأمر باقامة العدل واظهار السنّة وأخذ الزكاة والعُشُر من القبائل وإسقاط ما سوى ذلك من المغارم التي طالما كانت السبب في تمرُّدهم وانحرافهم عن الجادّة . وقاتل في مدينة تارودانت قوماً من الرّوافِض يقال لهم البَجَليّة ، منسوبين إلى عبد الله البَجَلي الرافضي ، كان قدِم إلى سوس حين قدم عُبَيْد الله الشيعي الى افريقية ، فأشاع هنالك مذهبه فورِثوه بعده جيلاً عن جيل ، لا يرون الحقّ إلا ما في أيديهم ، فطهّر تلك الناحية من بدعتهم وردّهم الى السنّة . كما قاتل بَرغواطة ببلاد تامَسنا السّاحليّة المعروفة اليوم بالشّاوية ، وكانوا أهل نِحلة فاسدة وزَيْغ عن الدين .

وفي أثناء المعركة التي انتهت باستئصال شافَتِهم ، توفي رحمه الله شهيداً مبروراً ، وقد قضى في تربية المرابطين وإعدادهم للمهمة العظمى التي قاموا بها مدة حكمهم للمغرب ؛ إحدى وعشرين سنة ، لأنّ دخوله للصحراء مع يحيى بن إبراهيم كان سنة ٤٣٠ واستشهادَه كان سنة ٤٥١ ، وهي مدة لا تعدُّ شيئاً إذا قِسناها بالنتائج التي حصلت فيها . فقد طُهِّر المغرب من الظلم والفساد ، وتوحّدت أقاليمه بعد طول الفرقة ، وقُطِع دابرُ الخلاف المذهبي والسياسي الذي كان سبباً في كثير من الحروب الداخلية العنيفة ، وتمحّضت جهودُ المغاربة من يومئذ لبناء مستقبل بلادهم وإحلالها المحلّ اللائقَ بها بين بقية بلاد الاسلام والعروبة .

وكان يلي أمر المرابطين حين وفاة ابن ياسين الأمير ابو بكر بن عمر اللمتوني الذي لم يلبث أن سلم سلطانه لابن عمه يوسف بن تاشفين وانقطع هو الى الجهاد في بلاد السودان مع الاشراف على شؤون الصحراء .

وكان يوسف ذا همة عالية وحزْم وعزْم ؛ فلما أُسند اليه الأمر عزَم على تصفية ملك المغرب وانتزاع ما بقي منه بيد مَغْراوة وبني يَفْرن . وهكذا استولى على

فاس ونقل كرسيّ المملكة منها الى مراكش التي بناها سنة ٤٥٤ . ثم طمح الى تملُّك المغرب الأوسط فلم ينشَب أن أخذ عاصمتَه تلمسان من يد مغراوة ، ثم افتتح مدينة تَنَس ووهران وَجبَل وانشَريس وجميع أعمال شِلف الى الجزائر . وفي سنة ٤٧٥ كان قد صفا له أمر المغربيْن معاً . ثم ان مُستَخْلِفَه الامير ابا بكر بن عمر كان قد مضى الى الصحراء يجاهد في سبيل الله حتى بلغ حدود السودان ونهر النِّيجر ، ولما توفي سنة ٤٨٠ دخلتْ هذه البلاد كلها في طاعة يوسف، فعظم بذلك أمره وذاع صيته في البـــلاد . ومن ثَمَّ توجّهت اليه انظار أهل الأندلس وتعلّقت به آمالهم في النجدة والانقاذ .

وكانت بلاد الأندلس منذ سقوطِ الدولة الأموية ، تخضع لملوك الطوائف الذين تنازعوا النفوذَ فيما بينهم ، واستبدُّوا بولاياتها المختلفة . ولم يكن عندهم غَناء في دفاع العدوّ المغير ، لتفرُّق كلمتهم وانهماكهم في اللهو والمجون ، على حين أنّ عدوهم آخذٌ لهم بالمرصاد ، يستخلص منهم الجزية لقاءَ الكفّ عن قتالهم ، ولا يفتأ يتنقّص بلادهم من اطرافها مهدداً لهم بالاكتساح الشامل عند اول فرصة . وذهاباً مـــع الغاية في التهديد قام الفُنس السادس ملك قشتالة برحلةٍ جاس فيها خلال ديار ملوك الطوائف حتى وصل الى ساحل المحيط من شاطىء مدينة طريف وأقحم بفرسه في اليمّ وقال هنا يجب ان انتهي بجنودي . وقد هلع المسلمون لذلك اشدَّ الهلع وايقنوا بالخطر الداهم ان لم يتداركهم الله بلطفه ، وليأسهم من ملوكهم فانهم لم يكونوا ينتظرون الغوث إلا من الخارج وقد فكّر أهل قرطبة في الاستنجاد بعرب افريقية ،فقال لهم قاضيهم أبو بكر بن أدهم : «أخاف إذا وصلوا الينا ان يخربوا بلادنا كما فعلوا بافريقية ويتركوا الفرنج ويبدأوا بنا . والمرابطون أصلح منهم واقرب الينا ». وشعر ملوك الطوائف بانحراف رعاياهم عنهم وسوءِ رأيهم فيهم وتشوفهم الى المرابطين، فلم يسعهم تحت ضغط الرأي العام الا استصراخ يوسف بن تاشفين والاحتماء به من العدو المشترك . وهكذا عبر المعتمد بن عباد ملكُ اشبيلية الى العدوة ، فلقي يوسف وابلغه رغبة اهل الاندلس في الجواز اليهم ونصرتهم على عدوهم ؛ فما كان منه إلا أن لبّى دعوتهم واستنفر الجيوش والمقاتلة الى الجهاد . وعبر البحر الى الاندلس ؛ فلقيه أهلها وملوكها وعلى رأسهم المعتمد بن عبــاد والمتوكل بن الافطس وغيرهما . ونازل الفنس السادس وجيشه العظيم بسهل الزلاقة من ناحية بطليوس فانتصر عليه وهزمه شرَّ هزيمة حيث لاذ بالفرار في ثلـّةٍ من الجند مستتراً تحت جناح الظلام .

وكانت هذه الواقعة الحاسمة في يوم الجمعة ١٥ رجب ٤٧٩ هـ وتعرف بالزلاقة ، وبها تنفس الاندلسيون الصعداء وامنوا على انفسهم ودينهم . ولما انتهت المعركة اجتمع ملوك الطوائف ، واقبلوا على يوسف يهنئونه بالفتح المبين ، وحيّوه بإمرة الاسلام فصار يدعى امير المسلمين من ذلك اليوم ، وهو أول من تلقب به من ملوك الاسلام فيما نعلم ، ولم يجرؤ هو ولا أولاده من بعده ان يتلقبوا بأمير المؤمنين تأدباً مع خليفة بغداد ، وان كانوا قد بلغوا في قوة النفوذ والسلطان ما لم يكن للخليفة منه قليل ولا كثير .

ورحل يوسف الى المغرب بعد ما ترك قطعة من جيشه تحت تصرُّف ملوك الاندلس لحماية الثغور ودفاع العدو ، ولكن هؤلاء سرعان ما راجعوا حياتهم العابثة ، وعادوا الى التناحر فيما بينهم وضيّعوا الجند وعرّضوا بلادهم للفقد من جديد . فجاء الصريخُ الى يوسف من فقهاء الاندلس واعيانها وعامّتها فاسرع اليهم ، وكان العدُو قد أخذ في الانقضاض على بلاد الاسلام ،فأوقفه عند حده ، وقضى على ملوك الطوائف وضمّ بلاد الاندلس الى المملكة المغربية ، وبذلك أنقذها من الاضمحلال ومن المصير الذي لقيته بعد نحو اربعة قرون .

وتوّج يوسف حياته الحافلة بتاج الصدق والاخلاص فأعلن انضواءَه تحت لواء الخلافة الاسلامية وكتب للخليفة العباسي أحمد المستظهر بالله يُبايعُه ويطلب منه تقليداً على ما بيَده من أعمال الأقاليم فأجابه لذلك وخاطبه بأمير المسلمين ، وناصر الدين. وكان رسوله الى الخليفة الفقيه عبد الله بن محمد بن العربي المعافري الاشبيلي وولده القاضي أبا بكر بن العربي الإمام المشهور . وبعد ورودِ التقليد عليه من الخليفة ضرَب السكّة باسمه ونقَشَ على الدينار « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وتحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين . وكتب على الدائرة « ومَن يبْتَغ غيرَ الإسلامِ ديناً فلن يُقبَلَ منه وهو في الآخرة مِن الخاسرين » وكتب على الصفحة الأخرى « عبد الله أحمد أمير المؤمنين العباسي » وعلى الدائرة تاريخ ضربه وموضع سكّتهِ . وطار ليوسف بهذه السياسة الحكيمة والسّيرة النيّرة ذكرٌ جميل في أقطار المشرق والمغرب ، حتى خاطبه أقطاب الفكر في العالم الإسلامي حينئذ ، من أمثال الإمام الغزّالي والقاضي أبي بكر الطّرطوشي . ويُقال إن الغزالي كان عقَد النيّة على زيارته فتوفيّ يوسف قبل أن يتهيّأ له ذلك .

وقد ردَّ يوسف بسياسته هذه المغرب إلى أحضان الجامعة الإسلامية بعد ان كان الولاة قبله قد اقتطعوه من جسمها .. وتلك بلا شك خطة مستمدة من تعاليم عبد الله بن ياسين التي كان يُلقيها إلى تلاميذه المخلصين ومنهم يوسف بن تاشفين الذي قام عليها أصدق قيام . ولو كان ملوك الاسلام يحملون مثل هذا الشعور الذي كان يحمله يوسف ، ويسيرون بهـذه السيرة التي سار عليها لما تفككت عُرى المملكة الاسلامية ، ولما صار المسلمون بعد ذلك خولاً للأجانب تتداولهم أيدي الاستعمار في الشرق والغرب ؛ فهم لا يُنقذهم من سيطرة الأغيار إلا هذه السياسة الرشيدة التي هي سياسة الجامعة الاسلامية .

يوسف والمعتمد

من الثابت تاريخياً أن يوسف بن تاشفين لم يعد الى الأندلس بعد معركة الزلاقة ويستخلص هذا القُطر من أيدي ملوك الطوائف إلا بعد أن كتب إليه العلماء والخاصة والعامة يناشدونه الله ورابطة الاسلام ان يبادر لإنقاذهم من سيطرة ملوك السُّوء الذين انصرفوا بعد رجوعه للمغرب ، الى لهوهم ومجونهم وأغفلوا نصائحه في نبذ التخالف والتدابر ، وأهملوا أمر الجند وضنُّوا عليه بالمؤونة ، فاصبحت البلاد من جديد معرَّضة لحملات اعدائهم اليقظين المنتهزين للفرص . وحضَّه علماء المغرب وساسته وقوَّاده وزعماء الرأي فيه على تلبية طلب هؤلاء ، فتردَّد في الأمر وبقي يقدم رجلاً ويؤخر أخرى . ثم كتب الى علماء المشرق وعلى رأسهم يومئذ حجَّة الاسلام الغزالي فأفتَوه بوجوب المسارعة الى ذلك ، وإلا فيكون مؤاخذاً أمام الله والناس والتاريخ .

فلما رأى إجماع الأمة ، علمائها وساستها ورجال الحرب فيها على رأي واحد ، عزَم متوكّلاً على الله وسار الى الاندلس أما أهلها فتلقوْه بالفرح والسرور ، وأما هؤلاء الملوك المعبَّر عنهم بملوك الطوائف : فمنهم من القى القِياد ولم يدفعه الهوَس إلى التهوُّر في القتال غير المجدي ؛ ومنهم من تعنَّت واستحدث من الضعف قوةً لم يكن يستحدثها في محاربة من كان يؤدي إليهم الخراج من ملوك النصرانية ، فكاشف جيش المرابطين بالعداء وناشبه القتال . وكان من بين هؤلاء المتوكل بن الأفطس صاحب بَطَلْيَوْس الذي جُنِّب الى مصرعه فانتهى حديثه من يومئذ ، والمعتمد بن عبَّاد

الشاعر الغزِل الرَّقيقُ الذي أوصى يوسف رجاله بالعناية به فأبقَوْا عليه ، ولكنه ملأ الدنيا بكاء وعويلا !..

وهل تدري ما فعل به بعد ؟ لقد كانت معاملته له بحيث لو لم يتفق المؤرخون على روايتها لقلت إنها من المستحيل على ملك بَربري متوحِّش ، كما يطيبُ لكثير من كتّابنا وأدبائنا المهذّبين أن يصفوه . لقد عامله بما لم تُعامِل به أوروبا الحديثة نابُليونَ العظيم[1] وشتّان بين نابُليون والمعتمد ! لقد أرسله الى طنجة عروس المغرب ، فلبث فيها ثم في مَكناس شهوراً الى أن فرغ الفاتح من أعماله وتقرَّر مصيره في أغماتَ. لا تقل وما أغماتُ ؟ واين تجيء أغماتُ من اشبيلية ؟ فلم تكن أغمات إحدى القرى المهجورة في بلاد الصحراء والجزُر المنقطعة في ظلمات المحيط ، فهي كانت عاصمة الدولة قبلَ بناء مراكش ، ويقول المؤرخون عنها انها مدينة كبيرة في ذيْل جبل كثير الاشجار والثمار والأعشاب والنباتات . ونهرها يشقها وعلى النهر أرحيَةٌ كثيرة تدور صيفاً ، وفي الشتاء يجمُدُ النهر ويمرُّ عليه الناس والدواب . وأهلها ذوو يَسار وأموال ، ولهم على أبوابهم علاماتٌ تدلُّ على مقادير أموالهم . زاد ياقوت : وليس بالمغرب فيما زعموا بلدٌ أجمع لأصناف الخيرات ولا أكثرَ ناحيةً ولا أوفَر حظاً ولا خِصباً منها .

وفي كلتا المدينتين طنجة وأغمات لم يكن بمنزلة المحبوسين السياسيّين التي نعرفُها في هذا العصر ، بل كان مُطلق الحرية ليس عليه أدنى حَجْر ، ولا على من يريد زيارته والوصول اليه . وقد اجتمع به شعراء طنجة وأدباؤها وطارحوه أحاديث الشعر والأدب كما وفَد عليه جلُّ أدباء الأندلس وهو في أغمات ، وكانوا يقضون معه الأوقات الطويلة . وكذلك غيرهم من كل من يمتُّ له بصلة أو يُدلي إليه بسبب ، وحسبُك انه استدعى ذات مرة طبيب يوسف الخاص لمعالجة بعض حريمه فلبّى هذا طلبَه ، ولو علمَ كراهيّة يوسف لذلك لما أقدم عليه .

فليتَ شعري ماذا يُنكر أصحابُنا من هذه المعاملة التي هي في منتهى التسامح

---

١ – المقارنة هنا في قوة السلطان وعظم الشخصية لا غير والمقصود إظهار نبل يوسف على تقدم زمنه بالنسبة الى اوربا الحديثة .

مع رجلٍ أقلّ ما يُقال فيه أنه أعطي مُلكاً فلم يُحسِن سياستَه ، وقد أنكر شعبُه تصرّفاته ، وعرّض الفردوس العربي للفقد في مُنتَصف القرن الخامس الهجري بعَبَثِه واستهتاره ، ثم حملَ السّلاح على حماة البلاد الذين أنقذوها من السقوط في يد العدو على حين انهم لم يفرغوا بعدُ من لمّ شعثها ورأب صدعها ؟!

إننا مهما تملّكتنا الأريحيّة الأدبيّة وأخذ منا الجمال الفنيّ واستحوذ علينا الخيال الشعري ، لا يبلغ بنا ذلك إلى حد إهمال شخصيّتنا والتهاون في حفظ كياننا ، فنفضّل قول بيتٍ من الشعر على إنقاذ مملكةٍ من أزهى ممالك العرب والاسلام وأوسعها وأغناها وأعظمها حضارةً وعمراناً ورقيّاً !..

ليس يبلغ بنا استهواء المظاهر الحضارية الخلاّبة ، والبذخ والترف ، ومجالس اللهو والطرب ، وعزف القِيَان وغناء النّدمان ، وتطيين البساتين بالمسك والعَنبر[1] وتشييد القصور وزخرفة الدُّور الى الاستكانة للذل والصغار وأداء الجزية التي يوجب الاسلامُ والشرف أخذها لا إعطاءها . ففي الحقيقة إن عمل يوسف جليل ، وجليلٌ جداً ، وفوق ما يظنه الظانُّ ويقدّره أولئك الكتّاب والأدباء الخياليون . والاسلام والمدنيّة والعلم كلها مدينة ليوسف بن تاشفين وممنونةٌ له بانقاذ الأندلس وبقائها في يد العرب مدة أربعة قرون أخرى . ومن المحقق أنه لو لم يسارع يوسف الى إنقاذ الاندلس في ذلك الحين لما وجد ابن رُشد ولا ابن طفيل ولا ابناء زهر ولا ابن العربي ولا ابن الخطيب ولا ، ولا ، ممّن انجبتهم تلك الجزيرة من رجال العلم والفلسفة في حياتها الثانية التي كان يوسف سبباً فيها ، فضلاً عن غيرهم من رجال الدين والأدب الذين ازدهرت على أيديهم تلك الحضارة العديمة النظير . وهذا مما لا يشك فيه أحد ، وانما ألمعنا اليه هنا وان لم يكن من موضوعنا لننبّه على غلط اولئك الذين اندفعوا في تغليب اهوائهم وتحكيم عواطفهم ورموا المجاهد العظيم يوسف بن تاشفين بما أملاه عليهم تعصبهم للمعتمد بن عباد من صفاتٍ ذميمة وألصقوه به من تهم باطلة ، ولو كانوا حقاً ذوي غيرة على دولة الأدب والشعر ، لوجّهوا حملاتهم العنيفة الى من كان يعمل على هدم كيانها وتعفية أثرها في ذلك القطر العزيز بالتمهيد لاستيلاء العدو عليه

١ - هذه اشارة الى يوم الطين في قصة المعتمد المشهورة مع حظيته الرميكية . وانظر عنها نفح الطيب ج ٢ ص ٤٨٤ .

واجلاء العرب عنه كما صار في نهاية القرن التاسع الهجري فذهبت ريحُ العروبة والاسلام منه الى الآن ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

ويحلو لنا ان نختم هذا الفصل بكلمة في الموضوع للعلامة الناصري صاحب الاستقصا فانه قد شعر أيضا بهذه الحملة المدَّبرة ضدَّ امير المسلمين فكتب قائلاً : واعلم انه قد يوجد هنا لبعض المؤرخين حطٌّ من رتبة امير المسلمين وغض عليه : إما في كونه بربريّاً من أهل الصحراء بعيداً عن مناحي الملك والأدب ورقة الحاشية ؛ وإما في كونه تحامل على ملوك الأندلس حتى فعلَ بهم ما فعل وذلك حيثُ عاين حُسْنَ بلادهم ورفاهية عيشهم .. واعلم ان هذا الكلام جدير بالرد، وأصله من بعض أدباء الأندلس الذين كانوا ينادمون ملوكهم ويستظلُّون بظلِّهم ويغدون ويروحون في نعمتهم ، فحين فعل امير المسلمين بسادتهم ورؤسائهم ما فعل ، أخذهم من ذلك ما يأخذُ النفوسَ البشرية من الذبِّ عن الصديق والمحاماة عن القريب حتى باللسان ، وإلاَّ فقد كان اميرُ المسلمين رحمه الله من الدين والورع على ما قد علمتَ ، ومن ركوب الجادَّة وتحرّي طريق الحق على الوصف الذي سمعتَ ، وهذا ابن خلدون إمام الفنّ ومتحري الصدق قد نقل ان ملوك الأندلس كانوا يظلمون رعاياهم بضرب المكوس وغيرها ، ثم وصلوا أيديَهم بالطاغية وبذلوا له الاموال في مظاهرته إياهم على امير المسلمين ؛ ثم لم يُقدِم على قتالهم واستنزالهم عن سرير مُلكهم حتى تعدَّدت لديه فتَاوى الأئمة الاعلام من اهل المشرق والمغرب بذلك . فافهم هذا واعرفه ، والله تعالى يقابل الجميع بالعفو والصَّفح الجميل بمنِّه وكرمه » .

الحياة الفكريّة في هذا العصر

لقد آن للبحث العلمي أن يُنصف دولة المرابطين ويقول فيها كلمة عادلة لا تتأثر بعصبيّة بلدانية ولا بحميّة دينيّة . فقد رأينا كيف كان التشيُّع للأندلس سبباً في تشويه شخصية يوسف بن تاشفين من بعض الكتاب والأدباء حتى أدَّى الحالُ الى تجاهل عمله العظيم في إنقاذ ذلك القطر العزيز من المصير المؤسف الذي صار إليه فيما بعد . ونجد بعض المؤرخين المسيحيين من أمثال المستشرق الهولندي رِينْهَيرت

دوزي[1] يصبُّون جامَ غضبهم على المرابطين ودولتهم ، ويجعلون مبـــدأ اضمحلال الأندلس من تاريخ استيلاء الدولة المرابطية عليها ، ناسين أو متناسين ان اضمحلال الأندلس سياسياً إنمـا كان السبب الاول فيه تكالب النصارى على المسلمين وإذكاء نار الحرب عليهم بلا هوادة، منذ اليوم الذي وطئت فيه أقدامهم أرض شبه الجزيرة. وقد شعُر الأندلسيون انفسهم بالخطر الذي كان يتهددهم قبل عبور المرابطين اليهم ، وعبَّر شاعرهم عن ذلك أصدق تعبير في هذه الأبيات البليغة التي قالها عند سقوط مدينـــة ُطليْطِلة فى يد عدوِّهم وهي :

شُدُّوا رَوَاحِلكم يا أَهْــلَ أندُلس ... فمـا الُمقامُ بها إلَّا مِن الغَلَطِ
أَلثوبُ يَنسُلُ من أَطْرافـــه وأَرى ... ثوبَ الجزيرة مَنسُولًا من الوَسطِ
مَن جاوَر الشرَّ لا يأْمنْ بَوائِقَه ... كيفَ الحَياةُ مع الحيَّاتِ في سَفَطِ ؟

فمن الحق ان يقال إن المرابطين هم الذين مدُّوا حياة الأندلس السياسية وأبقوهـا في قبضة الاسلام ُزهاء أربعة قرون اخرى ، وهـذا هو ما يغيظ المستشرق ُدوزي ومن سلك سبيله في التحامل على الدولة المرابطية .

أما اضمحلال الاندلس معنوياً فليس هناك من ينكر ان الازدهار الذي عرفته في ايام المرابطين ، ثم الموحِّدين بعدهم ، يكاد يفوق ما كان لها منه في أيام الخلفاء وملوك الطوائف وخاصة في ميدان العلوم والآداب . إن ُمعظَـم أعلام الفلسفة والطب الاندلسيين ، هم ممن عاشوا في هذا العصر او نبغوا بعده بقليل . فابو بكر بن بَاَجة المعروف بابن الصائغ الفيلسوف والطبيب والموسيقار هو ممن أظلـَّته دولة المرابطين وخدم رجالها بعلمه وفنـّه . وابو الوليد بن رشد وابو بكر بن ُطفيْل وابناء ُزهْر هم

---

[1] ١ – مستشرق هولاندي.(١٨٢٠ – ١٨٨٣) له كتابات عديدة عن تاريخ اسبانيا الأدبي والسياسي. وهو في الحقيقة أول من فتح ميدان البحث عن الأندلس الاسلامية في وجه المستشرقين ، ونشر كتباً عربية قيمة تتعلق بهذا الموضوع . إلا أنه كان شديد التعصب وحمل حملات شعواء على المرابطين الذين قاموا بحرب الانقاذ للاندلس في القرن الخامس الهجري والافارقة عموماً ، فتسربت أفكاره الى كثير من الباحثين بعده اوربيين وشرقيين . وما يزال الكثير من الكتاب في هذا الباب يقعون تحت تأثيره .

ممن نبغوا في أعقاب هذا العصر وانتشرت معارفهم في العصر الموحّدي الذي يليه . فالرُشْدية إذن،هذا المذهب الفلسفي الذي هو طابع الحياة الفكرية الأندلسية،إنما ظهرت في هذا العصر الذي يزعُم صاحبُنا انه عصر اضمحلال الأندلس.وُقل مثل ذلك أيضاً في الميمونيّة ، وهي فلسفة موسى بن ميمون التي نسجَت على منوال الرُشدية في التوفيق بين العقــل والدين بالنسبة لليهودية . واعلام الفقه والتصوُّف مثل ابن رُشد الكبير وأبي بكر بن العربي وابن عَربي الحاتمي وابن سَبْعين هم كذلك من رجال هذا العصر أو عصر الموحدين . وكبار اللغويين والنُّحاة والمفسِّرين والمقرئين فضلاً عن مؤرّخي الآداب ، والشعراء والكتاب ، الذين أنجبتهم الأندلس في حياتها الثانية بعد خضوعها لدولة المرابطين ، هم ممن لا يأتي عليهم العدّ ، ولا يتّسع المقــام حتى لذكر المشاهير منهم . فهل هذا هو الاضمحلال المتحدَّث عنه ؟

نعم لقد اضمحلت قرطبة فذهبت تلك العمارة التي كانت بهـا على عهد الخلفاء ، وخَربت مدينة الزَّهراء التي انشأها عبد الرحمن الناصر فامَّحَت معها معالمُ حضارة باهرة ، ولكنَّ ذلك كان قبل دخول المرابطين الى الأندلس، فمسؤوليَّته لا تقع عليهم.

ويعزو المستشرق الكبير تدهور الحياة الفكرية في الأندلس على عهــد المرابطين والموحدين الى تعصُّب الولاة واضطهادهم للعلماء ، وهو ان كان يعني حادثة احراق كتاب الإحياء للغزالي التي جرَت على عهد المرابطين وما بَدر من المنصور الموحدي من إساءةٍ الى الفيلسوف ابن رُشد ، فليتَ شعري كيف غفَــل عن اضطهاد ابن مَسرَّة واحراق كتب خليل بن عبد الملك المعروف بخليل الغفلة في عهد المروانيّة ، وإحراق كتب الفلسفة والتعــاليم اليونانيّة التي كانت في مكتبة الحكَم من قِبَل المنصور بن أبي عامر ، واضطهــاد ابن حَزم ، وإحراق كتبه في دولة ابن عبَّاد . ولماذا لم يعتَبر ذلك نكسةً للفكر وبدءَ اضمحلال الأندلس المعنوي ؟

إن مثل هذه الأقوال التي هي أشبه بحديث خُرافة منها بحديث العلماء : إن دلَّت على شيء فانما تدل على نزعةٍ خاصّة أبعد ما تكون عن روح البحث والتحقيق، والواجب على المؤرخ الذي يحترم نفسه أن يترفّع عن سفاسف الأقوال ، ولا سيّما إذا كانت لا تستنِدُ الى دليل من نقل أو نظر .

لقد كان أساس دعوة المرابطين العلمُ ، وعليه قامت دولتُهم . وإنَّ رحلة يحيى

ابن ابراهيم الكدالي التي تمخّضت عن دخول عبد الله بن ياسين الى الصحراء لأعظمُ دليل على ذلك . وكانت نزعة عبد الله الى علم الفقه والدين أقوى منها إلى أي علم آخر ، بالطبع لأنه كان عالماً دينياً ، فغلب هذا الميلُ على الدولة ، ومن ثم كان تقديمها للفقهاء واختصاصها لهم دون مَن عداهم من أرباب المعارف المتنوعة ، برغم ما صار إليها من جيوش العلماء والفلاسفة من جرّاء فتح الاندلس وضمها الى الايالة المغربية . ولم يكن هؤلاء يطمعون في القرب من الدولة قرب حظوة على ما يقول المؤرخون ؛ إلا أن يتلبس أحدهم بلباس الفقهاء وعلماء الدين كما فعل مالك بن وهيب ؛ فرقي الى منصب وزير لعلي بن يوسف[1] . ولكن هذا لا يعني أن اضطهاداً فكرياً كان ينالُ غير هذا الصنف من العلماء او ان حقوقهم كانت مضيعة ، فان غاية الامر أن وظائف الدولة كانت من نصيب رجال الشريعة ، وفيما عدا ذلك فان كل العلماء كانوا قائمين بنشاطهم الفكري لا يعترض سبيلهم معترض . وأي ضير في أن تجعل مقاليد الحكم بيد الفقهاء وهم أحقُّ الناس بها وأولى : إذ كانوا حملة الشريعة التي هي قانون البلاد ودستورها المقدّس ؟

ثم إن اصطناع الدولة لنوع خاص من العلوم كثيراً ما كان ظاهرة ملحوظة في غير ما دولة من دول الشرق والغرب ، فلم يعب عليها بل اعتبر من أسباب نهضة ذلك العلم ، وخيراً وبركة على رجاله والمشتغلين به . على ان اهتمام المرابطين بعلوم الدين كان يزينه وصفٌ شريف وخلق نبيل هو تشبُّعه بالرُّوح السلفي المتسامح ؛ الخالص من شوائب التنطع والتعمق ، وعدم مجاراته للخلافات المذهبيّة والبدع والأهواء التي كانت حينئذ تنخر جسم الوحدة الاسلامية بالشرق . فالعقائد أبسط ما يكون ، وقواعد الاسلام وشعب الايمان كما بينت في حديث جبريل ، والزهد والتقشف هما شعار الدولة وطابعها الخاص . واعتبر أنت بأمير المسلمين علي بن يوسف وما كان عليه من متانة الخلق وقوة الايمان وصدق اليقين والانقطاع إلى العبادة ، قبلَ أن تنظر إلى أبيه العاهل الكبير وهو يعملُ مع الخدمة في بناء جامع مراكش ويحمل الطوب والحجر بيده وعلى كاهله إلى البنّائين . ويزيد المؤرخون انه كان

---

[1] – تولى امير المسلمين علي بن يوسف عرش المغرب بعد وفاة أبيه في سنة ٥٠٠ وله من العمر ٢٣ سنة وتوفي سنة ٥٣٧ .

صائماً في تلك المدة كلها .. فلم يكن تدُّين المرابطين خدعة ونفاقاً ، كما لم يكن مذهباً خاصاً ونحلة متميزة ، يضطهدون الناس من أجل الدفاع عنها وعدم مخالفتها .

وهنا تبرزُ قضيّةُ إحراق كتاب الإحياء للامام الغزّالي في ايام علي بن يوسف ، فانّ هذا الكتاب لما وصل الى المغرب ، ونعني به هنا ما يشمل الأندلس والمغربين الأقصى والأوسط ، نظر فيه رجال الفقه والدين فرأوه محشُوّاً بما لا عهد لهم به من آراء المتكلمين ومذاهب الصوفيّة . وقد تداولته الأيدي من خاصة الناس وعامتهم ؛ فقرّروا مجافاته لظاهر الشريعة وساذج العقيدة وحذروا الناس من مطالعته والنظر فيه ، فما كان من رجال الدولة إلا ان أمروا بجمعه وإحراقه ، ولم يعتبروا موالاةَ الغزّالي لدولتهم ولا نظروا الى المودةِ التي كانت بين يوسف وبينه ، والمكاتبات التي جرت بينهما والثناءِ الذي كان يُثنيه الغزالي على يوسف ، حتى لقد همّ بزيارته وقصد البحر ليركب اليه فبلغه موتـُه فرجع . وهذا إن دلّ على شيء ، فانما يدلُّ على أن الدولة حقيقةً كانت خاضعةً لرأي الفقهاء لا تورد ولا تُصدر إلا عن نظرهم ، ويدلُّ هذا بالتالي على ان القانون كانت له السيطرة على الجميع وأن رجال الدولة كانوا هم أول من يحترمه . وذلك في نظرنا غاية المدح والتقريظ للمرابطين الذين لم يَثبُت في تاريخهم أنهم أراقوا مِحْجم دمٍ في غير ساحة الحرب ، ومن ثَمّ فانهم لم يحكموا بالقتل قط على خارج ولا مخالف ، ولو قتلوا أحداً لكان المعتمدُ أحقّ بالقتل لما ألّب عليهم من الخصوم وبارزهم به من العداوة .. أما غيره من ملوك الطوائف الذين استسلموا فانما نقلوهم الى مراكش وأطلقوا سراحهم ، بل لقد ثار عليهم ثوارٌ بعد ضمّ الاندلس الى المغرب . وكان مع هؤلاء الثوار شخصيات أدبية معروفة ، فتَلَت في الذّروة والغارب من الثورة[1] ، كما كانت هناك شخصيات أخرى تتولى مناصب ساميةً ولا تزال تُشنّع عليهم وتطعن فيهم ، فطالما غضُّوا النظر عن هذه ولم يعاقبوا تلك الا بعقوبات طفيفة قد لا تتجاوز الحِرمان السياسي من الحقوق المدنية كما نُعبِّر اليوم ، ومَن يدرينا أن ذلك من تأثير خضوعهم لأحكام الشرع وعملِهم بقول فقهاء الاسلام ؛ دِين العدالة والتسامح ؟ .

---

١ – نشير الى ثورة الرئيس ابن الحاج على أمير المسلمين علي بن يوسف وانضام الكاتب ابن أبي الخصال اليه ويأتي في الفصل التالي مزيد بيان لذلك .. والى ابن الطلاع الفقيه القرطبي الذي كان كثير العصبيّة لبني عباد متجاهراً بها فاخر عن الفتيا والشورى لذلك .

وإلى ذلك فان مما ينبغي ان يُعلَن ان قضية الإحياء إنما أثارها وتولى كِبْرها ابو عبدالله بن حَمْدين قاضي قرطبة ، وكذلك قضية إزعاج ابي العباس بن العريف من المريَّة الى مراكش انما كانت بسعي فقهاء بلده .

ولا ننكر أن بعضَ فقهاء المغرب تواطأوا مع فقهاء الأندلس على رأيهم في الاحياء، ولكنا نجد أبا الفضل بن النَّحْويّ من علماء المغرب الأوسط ، يَعارض فُتْيا ابنِ حمدين وينتصر للغزالي . وكان قد انتسخ كتاب الاحيـاء وجعله ثلاثين جزءاً . فاذا دخـل شهر رمضان قرأ في كل يوم منه جزءا ، وكان يقول : وددت اني لم انظر في عمري سوى هذا الكتاب . وكذلك أبو الحسن البرْجي من فقهاء المرية عارض في هذه الفتيا، وأوجب في نُسخ الإحياء لمَّا أحرقها ابن حمدين تأديب محرقها وتضمينه قيمتها لانها مال مسلم. وقيل له أتكتب بما قلتَه خطّ يدك ؟ فقال سُبْحَنَ الله ! « كبُر مقتاً عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون » . ثم كتب السؤال في النازلة وكتب فتيـاه بعَقبه . ودُفع الى أبي بكر بن عمر بن أحمد بن الفَصِيح وأبي القاسم بن ورْد وغيرهما من فقهاء المريّة ومشائخها؛ فكتب كلٌ واحد منهم فيه بخطه: «وبه يقول فلان» مسلِّمين لعلمه وزُهده . فغـاظ ذلك ابنَ حمْدين لمَّا بلغه وكسر من حدَّته . وكتب الى قاضي المريّة حينئذ أبي عبد الملك مروان بن عبد الملك بعزله عن الخُطـّة التي له ؛ فأخبرَ بزهده وانقباضه عن الدنيا . وكان عليُّ بنُ حِرزهِم من فقهاء فاس قد وافق أولاً على تلك الفُتيا التي تدينُ كتابَ الإحياء ، ثم بدا له فرجع عنها ..

وهكذا نرى ان هذه الفتنة أندلسيَّة في الأصل ، وأن رجال الدولة إنما أخذوا فيها برأي الأغلبيَّة من رجال الفقه ، والرَّسميّين منهم بالخصوص ، كابن حمْدين الذي كان قاضياً بعاصمة الأندلس ، وهم مع ذلك لم يستَقصوا ولم يتتبَّعوا من خـالف من أهل العلم الأمر العاليَ الصادر في هذا الصّدد تسامحاً منهم وتغاضياً . ولعلّهم كانوا يكبحون من جمـاح المتحمّسين للقضيّة ، ولولا ذلك لرُبّما سطا ابنُ حمْدين بفقهاء المريّة الذين وافقوا أبا الحسن البرجي على فتياه ، إذ بعيدٌ أن يخلو بعضهم من خُطـّة إفتاءٍ أو شهادةٍ أو تدريسٍ أو خطابةٍ أو إمامة ...

هذا ونحن نُشرك الأندلس في الحديث عن المغرب لأن يوسف بن تاشفين بتوحيده للبلدين وحّدَ تاريخهما وجَعَلهما وطناً واحداً يتبادلُ سكانه المصالح والمنافع ، وقـد

انتفت بينهم الفوارق السياسيّة وزالت الحواجزُ الاصطلاحيّة ، فسكن بعضُهم إلى بعض ، وتقاربوا واتصلوا لا كما كان تقاربُهم واتصالهم من قبـــل ، بل بصفة مجديّة ومؤثرة في جميع مناحي الحياة .. فالمغرب يبذُل حمايته للأندلس ويدافع عنها العدوّ المغِـير، والأندلس تبذل ثقافتها ومعارفهـــا للمغرب ، فرجالها في خدمة الدولة ، وكتّابها وشعراؤها يزينون بلاط مراكش . وقد فعل الاحتكاك بالأندلسيين الأفاعيل في تقدُّم الحياة الفكرية بالمغرب ونهضة العلوم والآداب . وكما كانت الأندلس مهاجَر مَن لم تساعده الحـــال من أبناء المغرب في العصر السابق ، صار المغرب مهاجَر الأندلسيين في هذا العصر ، وأصبحت مراكش حاضرة المغرب يومئذٍ وكرسيُّ مملكته ؛ مهوى أفئدة المثقّفين ومطمح أنظار المتأدبين ، وفي هــذا الصدد يقول عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجِب: « وانقطع الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من الجزيرة من أهل كل علم ُفحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم ، واجتمع له ولابنه من بعده من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتّفق اجتماعُه في عصر من الأعصار » .

ولعل في هذا ما يدفع القول بأن غيرَ الفقهاء لم يكن لهم قبول في هــذه الدولة ، فالأمر على ما يظهر إنما يتعلّق بالنفوذ والسّيطرة ، وتلك هي سيادة القانون التي يمثّلها الفقهاء كما قدّمنا. على أن غالبَ أهل العلم والأدب في العصور المتقدمة كانوا ممن درسوا الفقه وشاركوا في معرفة أصوله وفروعه . ولقبُ فقيه كثيراً ما كان يُطلق على العالم بأي علم كان ولو لم تكن له ممارسة للفقه ، فربمـــا عنى المؤرخون الذين يتحدثون عن تقريب الدولة للفقهاء واختصاصها لهم انها قربت اهل العلم[1] واختصتهم بالرعاية من دون الزعماء واهل العصبيّات القبلية كما كان الشأن في الدول التي قبلها بل والتي بعدها وقد قال ابن خلدون في المقدمة: إنما كان القضاء في الأمر القديم لأهل العصبيّة من قبيل الدولة ومن إليها كما هي الوزارة لعهدنا بالمغرب .

ومهما يكن من أمر فان علم الفقه على مذهب الإمام مالك الذي سجلنا توطده في العصر السابق قد واصل تقدمه في هذا العصر ، وعقدت المجالس الحافلة في كل من

١ – انظر الحلل الموشية ص ٥٩ ففيها عبارات تشهد لما قلناه

سبتة وفاس ومراكش للمناظرة عليه ، وامتزجت دراسة الفقه بعلم الأصول ، وظهر الاشتغال بعلم الكلام على طريقة أهل النظر والتأويل ، ولم يكن قبل ذلك مما يشتغل به أحد ، وعني كثيرون بعلم القراءات . هـــذا العلم الذي لم ينقطع الاشتغال به في المغرب في مختلف العصور ، وهو من فروع علم التفسير . ونشط الاشتغال بعلم الحديث والرواية فكثرت الرحلات لسماعه والأخذ عن رجاله رغبة في علو الاسناد والضبط والاتقان . وكان علم التصوف مما له الشفوف في هذا العصر ، ونظرة واحـــدة في كتاب التشوّف لابن الزيات تظهر القارىء على كثرة من كان يأخذ بطريق القوم من رجال المغرب في هذا العصر . ولكن مما يلاحظ أن تصوفهم إنمـــا كان رياضة ومجاهدة ولم يكن هذا التصوُّفَ الفلسفيَّ الذي أنكره الفقهاء على الغزّالي فأحرقوا كتابه ، وعلى ابن العريف وابن برجـــان والميورقي فحملوا أمير المسلمين عليّ بن يوسف على إشخاصهم إلى مراكش ، ثم ندم على ما فرط منه في حقهم بعد ذلك . ولم تكن العلوم الفلسفية والرياضية والطب قليلة الحظ من العناية بها والاقبال عليها ؛ فقد رأينا كبير فلاسفة العصر أبا بكر بن باجة يحظى برعاية أحـــد امراء المرابطين ، ويسكن مدينة فاس . ولا شك انه قد أُخذت عنه علوم جمة في العاصمة العلمية . وكان ابو العـلاء بن زهر الطبيب ممن حظي عند عليّ بن يوسف ، وهو الذي أمر بجمع مجرّباته بعد موته ؛ فجمعت بمراكش وبسائر بلاد المغرب والأندلس وانتسخت في جمادى الآخرة سنة ٥٢٦ . وكان الفيلسوف مالك بن وهيب وزيراً له . كما سبقت الاشارة إلى ذلك ، ولما أظهر المهدي بن تومرت دعوته بمراكش وأُحضر بين يدي أمير المسلمين ، كان ابن وهيب هذا هو الذي تولى مناظرته ، لأنه كان قـــد تثقف بفنون العلم والمنطق والكلام في الشرق ، فلم يقدر على مصاولته غير ابن وهيب . وقبل ضمّ الأندلس إلى المغرب كان بسبتة ابنُ مرّانة ، وهو من اعلم الناس بالحساب والفرائض والهندسة والفقه وله تلامذة وتآليف ، ومن تلامذته ابنُ العربي الفرضي الحاسب ، وهو من اهل بلده . وكان المعتمد بن عباد يقول : أشتهي أن يكون عندي من أهل سبتة ثلاثة نفر : ابن غازي الخطيب ، وابن عطاء الكاتب ، وابن مرّانة الفرضي ، ذكره ياقوت في معجم البلدان . ونظنُّ أن غير سبتة من بقية مدن المغرب العلميّة كانت مثلها في احتوائها على رجال من ذوي المعارف العامة ، وإنما الآفةُ في ضيـاع أخبارها والاهمال الذي مني به هذا الصنف من العلماء خاصة .

وظهر في هذا العصر أيضاً الاشتغالُ بالعلوم الأدبيّة واللسانية من نحوٍ ولغـــةٍ

وشعرٍ وكتابة وكما نبغ في كل العلوم التي ذكرنا أفرادٌ عديدون ، كذلك نبغ في الأدب والشعر أفرادٌ نجد تراجمهم لأول مرة إلى جانب تراجم نظرائهم من الأندلسيين وغيرهم في المجموعات الأدبية المعروفة : كقلائد العقيان وذخيرة ابن بسّام وغيرهما . وشارك الأمراءُ المرابطون والرؤساء منهم في طلب العلم والتحصيل ، فنجد مثلاً أبا الحسين بن سرَاج وهو من أعلم الناس بالنحو واشعار العرب وحكاياتها ولغاتها واخبارها يجتمع إليه للسماع منه نحو الخمسين من رؤساء الملثّمين مع مهرة الكتّاب كأبي عبدالله بن أبي الخصال وتلك الطبقة . ونجد مثل ابن أيوب الفهري راوية الحديث المسلسل في الأخذ باليد[١] يأخذه عنه جمّ غفير من الناس فينافسهم في ذلك الامير سير بن علي بن يوسف ، والرئيس المنصور بن محمد ابن الحاج اللمتوني . وكان المنصور هذا من رجال العلم والفضل ، سمع بمرسية من أبي علي الصدفي ، وله سماع كثير من شيوخ جلة وفي بلاد شتى كأبي محمد بن عتّاب وأبي بحر الأسدي بقرطبة ، وطارق بن يعيش ببلنسية وغيرهم . وكان ملوكي الأدوات سامي الهمة نزيه النفس راغباً في العلم منافساً في الدواوين العتيقة والأصول النفيسة . جمع من ذلك ما أعجز أهل زمانه . قالوا : وهو فخرٌ لصنهاجة ليس لهم مثله ممن دخل الاندلس . ومثله زاوي بن مناد المعروف بابن تقسوط في كثرة السماع والأخذ عن أبي علي الصدفي وغيره ،وكان ديناً فاضلاً معنيّاً بالعلم وكتب بخطه على دقته علماً كثيراً . وكذلك الامير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين المعروف بابن تعيّشت[٢] والي مُرسية ، سمع من أبي عليّ الصدفي وكان له منه دولةٌ[٣] خاصة في منزله ، وله أيادٍ جمة في رعاية العلم والأدب فضلاً عن نجدته وشجاعته . « وبالجملة فهو من بيت جهادٍ واجتهاد » كما قال ابن الأبّار في معجم أصحاب أبي علي . ثم زاد قائلاً : « وفي دولة اخيه عليّ نفقت العلوم والآداب وكثر النبهاء وخصوصاً الكتاب » . وحكى ابو بكر بن الصيرفي في

---

١ - هو حديث رواه المذكور في حالة أخذ رجال سنده كلّ منهم بيد الآخر قائلاً : أخذ بيدي فلان وقال : حتى يصل الى الصحابي الذي رواه عن النبي (ص) وهو البرّاء بن عازب (رض) قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرحّب بي وأخذ بيدي ثم قال لي يابراء : أتدري لأي شيء أخذتُ بيدك؟ قال قلت خيراً يا نبي الله . قال لا يلقى مسلم مسلماً فيبَشّ به ويرحب به ويأخذ بيده إلا تناثرت الذنوب بينهما كما يتناثر ورق الشجر اليابس .

٢ - هو اسم أمه عُرِفَ به . ٣ - يعني درساً خاصاً .

تاريخه أن علياً هذا استجاز أبا عبد الله أحمد بن محمـد الخولانيّ جميع رواياته لعُلوّ اسناده فاجاز له . وأبوه أبو يعقوب مع نشأته في الصحراء كان لا يُمضي أمراً إلا بمشورة الفقهاء ، وفي هذا النص مِصداقٌ لما قدمناه عن المراكشي من نشاط الحياة الفكريّة في هذا العصر ، زيادةً على ما تضمنه من كون أمير المسلمين نفسه كان يهتم بالحديث والرواية ، حتى إنه ليَستجيز العلماء ذوي السَّنَد العالي . وكان الأمير ميمون ابن ياسين أيضاً ممن عُنيَ بالرواية وسماع العلم . وله رحلة حج فيها وسمعَ بمكة من أبي عبد الله الطبَّري صحيح مُسلم سنة ٤٩٧ وسمع بها أيضاً من أبي مكتوم بن أبي ذرّ الهَرَوي صحيح البخاري في أصل أبيه أبي ذَرّ وابتاعه منه بمال جزيل فأوصله إلى المغرب .

ولما ذكر الحافظ السِّلفي أبا مكتوم هذا في كتابه الوجيز قال : « كان ميمون بن ياسين من أُمراء المرابطين رَغِبَ في السماع منه بمكة واستقدمه من سَراة بني شَبابة ، وبها كان سكناه وسُكنى أبيه أبي ذَرّ من قبْله . فاشترى منه صحيحَ البخاري أصل أبيه الذي سمع فيه على أبي إسحق المُستملي وغيره بجملة كبيرة وسمِعَه عليه في عدة أشهر قبل وصول الحجيج » . ثم قفَل ميمونٌ هذا وحدّث بالأندلس ، فسمِع الناس منه باشبيلية وغيرها. وممن حدث عنه أبو إسحق بن حَبيش وأبو القاسم بن بشكوال وأبو إسحق بن فَرقد وأبو بكر بن خير وغيرهم . فهل بعد هـذا غايةٌ في التعلُّق بالعلم وتشجيعه من رجال الدولة المرابطية ؟

واشتهر بالأدب وقول الشعر منهم الأمير أبو بكر بن إبراهيم المَسوفي الصنهاجي المعروف بابن تافلويت صهرُ علي بن يوسف ، وكان والياً على تلمسان وعلى سَرقُسطة ويأتي بعض شعره في قسم المنتخبات .

ولم يقتصر هذا الولوع بالعلم والنبُوغ في الأدب على الرجال منهم بل ان النساء شاركن أيضاً بنصيبهن في ذلك . وممن احتفظ التاريخ باسمائهن من نوابغ المرابطيّات الأميرة تميمة بنت يوسف بن تاشفين أخت عليّ ، وتكنى أُمَّ طلحة . سكنت فاساً وكانت كاملة الحسن راجحة العقل مشهورةً بالأدب والكرم . وحكايتُها مع كاتبها تأتي في الجزء الثاني . ومنهن زينب بنت إبراهيم بن تافلويت أخت أبي بكر المذكور آنفاً ، كانت زوجاً للأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين وكانت من أهـل الخير

والتصاون والنوافل والصدقات وأعمال البرّ ، تحفظ جملة وافرة من الشعر ومدَحها الشعراء وأثنوا عليها كثيراً . ومثلها أختُها حوّاء .

وإن ننس لا ننس جامعَ ابن يوسف وهو بمراكش مثلُ القرويّين بفاس ، فهو من مُنشآت هذا العصر . ومنذ بناه علي بن يوسف لم يزل المركزَ الثاني للدراسات العلمية والأدبية بالمغرب . على ان القرويين لم تفتأ تُحاط بالعناية الكاملة من الزيادة فيها كلّما ضاقت أرجاؤها ، وتجديد معالمها التي يتسوّر إليها الدُثور . وقد نقض بناؤهـا في أيام علي بن يوسف وعُمِلَ على توسعتها من جميع الجهات فبلغت بلاطاتها من الصحن الى القبلة عشر بَلاطات[1] . واحتُفل في عمل القبَّة التي بأعلى المحراب وما يُحاذيها من وسط البلاطين المتصلين بها فصُنع ذلك بالجصّ المُقربَص الفاخر الصنعة ، ونُقشتَ واجهة المحراب بالنقوش المذهبة الجميلة ، ورُكّب في شمسيّاته أنواع الزجاج الملوّن البديع ، إلى غــير ذلك من فنون الزخرفة وضروب الزينة . وكان كل ما أُنفق في ذلك من تبرعات المحسنين ، إذ لم يزل هذا المسجد العظيم منذ تأسيسه من الشّعب واليه ، وذلك هو سرُّ عظمته الخالدة . لكن الذي يلفت الأنظار من اهتمام الدولة بالقرويين وتعزيز مركزها كمعهد دراسيّ عــالٍ هو بناء المدارس التي تُتخّذ لايواء الطلبة وتدريس بعض العلوم التي يكون المسجد غير مناسب لتدريسها بسبب ما تقتضيه من إجراء بعض التجربات واستعمال بعض الآلات . وقد بَدَأ ذلك في هذا العصر إذ ثبت أنه كانت هناك بفاس مدرسةٌ من بناء يوسف بن تاشفين تُعرف بمدرسة الصّابرين ومن الجائز أن يكون هناك غيرُها . والغريب هو أن يتوافق المغرب والمشرق في وقت إنشاء المدارس ، لأنَّ هذا التاريخ هوالذي أنشأ فيه الوزير نِظام الملك مدرسته العلميَّة ببغداد وهي أول مدرسة في الشرق كذلك .

ويطول بنا تتبع الجزئيات التي تدل على اهتمام الأمراء المرابطين بنهضة العــلم والأدب مع أنها تفاريق قليلة خلَصت من الاهمال الذي أصاب تاريخ هذه الدولة ونجدها مبثوثةً هنا وهناك . ولو وصل الينا تاريخ ابن الصّيرفي الذي سبق نقل ابن الأبّار عنه لكان فيه شفاءً للنفس من هذه الناحية ؛ وكان ابن الصيرفي هذا واسمه ابو

---

١ - بلاطات المسجد في إطلاق المغاربة هي رواقاته .

بكر بن محمد الأنصاري الغرناطي أحد الشعراء المجوّدين له تاريخ مفيد قصَرَه على الدولة اللمتونية وكان من شعرائها وخدّام أمرائها وتوفي سنة ٥٥٧ أي بعد انقراض هذه الدولة بقليل ، فلا شك ان تاريخه يكون أوثق مصدر عن المرابطين ودولتهم .

ونرى أننا أطلنا بتسمية الأمراء المرابطين الذين كانت لهم شهرة بالعلم والأدب في حين أننا لم نُسمّ أحداً غيرهم ممن اشتهروا بالتفوّق في علم من العلوم المتقدمة الذكر عدا الافرادَ الثلاثةَ من أهل سبتة الذين ذُكروا عرضاً أثناء الحديث عن العلوم الحِكميّة . ولو أردنا تسمية جميع من نبغ في باب من أبواب المعرفة من أهل هذا العصر لطال بنا الكلام لأنهم كثيرون جداً ولكنّا نقتصر على الشخصيات البارزة منهم تجنباً للاطالة .

فمن الفقهاء عبد الملك المصْمودي قاضي الجماعة بمراكش ، وابراهيم بن جعفر اللّواتي الفقيه المُشاوَر المعروف بابن الفاسي ، وعبدالله بن سعيد الوجْدي قاضي بلنسية ، ومنصور بن مسلم بن عبدون الزَّرْهوني المعروف بابن أبي فوناس الفقيه الحافظ المشاوَر ، وعبدالله بن محمد بن ابراهيم اللّخمي النُكوري قاضي الجماعة بمراكش ، وعبدالله بن احمد بن خلتُوف الأزْدي السبتي المعروف بابن شبُونة أحد حفاظ المذهب المناظرين عليه ، وعبدالمنعم بن عبدالله بن علتُوش المخزومي الطنجي ممن ولي القضاء بغير موضع من الأندلس ، وابو عبدالله بن محمد الأموي السبتي قاضيها ومفتيها الفقيه الفرضي المفسّر ، وإبراهيم بن أحمد البصْري من قضاة سبتة أيضاً .

ومن رجال الحديث والرواية بكار بن برهون بن الغرديس ، من بيت شهير بفاس ، ونزل هو سجلماسة ، وكان قد حجّ قديماً وسمع البخاري من أبي ذرّ الهرَوي . وقد رحل إليه أبو القاسم بن ورْد الذي قيل فيه إنه لم يكن بالأندلس مثله ، فلقيه بسجلماسة وسمع منه الصحيح . ومنهم القاضي أبو عبدالله محمد بن عيسى التميمي وولده عبدالله . وإبراهيم بن أحمد بن خلف السلمي ، عُرف بابن فرتون ممن لقي أبويْ علي الصدفي والغساني وابن الغرديس وتلك الطبقة . ناهيك بكبير محدثي المغرب القاضي عياض الذي يُعدُّ بحق مفخرةً لهذه البلاد . وهو وإن كان ممن أدرك عصر الموحدين إلا أن نبوغه وظهوره كانا في هذا العصر .

وثَمّ أفرادٌ أفذاذٌ من بيوتات علمية شاركت في الفقه ورواية الحديث وغيرهما من

العلوم كبني العجوز السبتيين الذين اشتهر أوائلهم في العصر السابق ، وقد ترجمنا لواسطة عِقْدهم عبد الرحيم ، وبني سَمَجون الطنجيين ، وبني ملْجوم الفاسيين .

ومن اهل القراآت والتفسير أبو بكر محمد بن علي المعافري السبتي ، عُرف بابن الجوْزي ، وهو خالُ القاضي عياض له تصنيف حسنٌ في التفسير لم يكمل وآخر في التوحيد . وكان مُتفنناً في العلوم ومن أهل البلاغة والشعر . ومن شعره ما نسب لأبي الفرج بن الجوزي غلطاً لاشتباه اسميهما ، ومنهم المقرىء ابو عبدالله القيسي المكناسي ، وأحمدُ بن الحطيئة التميمي الفاسي كان رأساً في علم القراآت وأقرأ الجمّ الغفير من الناس .

وأما التصوف فقد أشرنا إلى كثرة من تعاطاه ، وأحسن من كان يمثله من الوجهة العلمية والعملية أبو علي بن حرزهم .

وكان القاضي أبو القاسم بن محمد المعافري السّبتي ممن جمع بين علوم الفقه والحديث والأصول والكلام ورحل الى المشرق ودّرس العلمين الأخيرين كثيراً . وكذلك يوسف بن الكلبي الضرير كان ممن اشتغل بعلم الكلام على مذهب الأشعرية ونظّار أهل السنّة وسكن سبتة ودرّس بها وبغيرها من مدن المغرب . وأبو محمد عبد الغالب السالمي المتكلم أيضاً هو ممن سكن سبتة ونشر بها علمه . وهؤلاء الثلاثة كلهم من شيوخ القاضي عياض وهم الطليعة الأولى التي نشرت علم الكلام بالمغرب على مذهب الأشاعرة . إلا أن المغربي الأصيل منهم هو الأول .

وبالاضافة إلى ابن مرّانة السبتي الذي ذكرنا نبوغه في علم العدد والهندسة ، نذكر القاضي أبا الحسن بن زنباع الطنجي ممن نبغ في الطب والعلاج ، وكان إلى ذلك من أعلام الأدب البارزين .

وفي علم النحو واللغة والأدب اشتهر ابو علي الحسن بن طريف السبتي ومروان ابن سمجون الطنجي فضلاً عن الأدباء والشعراء الذين نبغوا في هذا العصر مثل ابن زنباع المذكور آنفاً ويحيى بن الزّيتوني وعبد العزيز السوسي وابن القابلة السبتي . وسعيد بن حنيف ، وابن عطاء الكاتب ، وابن غازي الخطيب . وسنترجم لخاصة الخاصة ممن سمّيناهم من الشخصيّات العلميّة والأدبية قريباً .

رعاية المرابطين للأدب وأهله

لم يكن المرابطون أقلّ برًّا بالأدب وأهله منهم بالعلم والعلماء . وليس أدلّ على نفي ما يتهمهم به خصومهم في مُجافاة الأدب وعدم الاهتمام به ، من هذه الرعاية الكريمة التي أولاها أمراؤهم لعِليَة الأدباء ، من كتاب وشعراء ، منذ اليوم الذي توطّدت فيه دعائمُ ملكهم . ولقد كانت عنايتُهم بأدباء الأندلس على الخصوص فائقة الحد ، حتى لم يبق منهم أديب مرموق لم يُنَط به عملٌ في بَلاط أمير المسلمين بمراكش أو في ديوان أحد الأمراء بالأقاليم .

وأول من نذكر منهم الكاتب عبد الرحمن بنُ أسباط الذي كان في خدمة يوسف ابن تاشفين قبل دخول هذا إلى الأندلس . وهو الذي استشاره يوسف في الأمر عند ورود كتاب المعتمد عليه فقال له : إن أرض الأندلس ضيّقة ، انما يعمُر المسلمون منها الثُّمُن وسبعة أثمان يعمُرها النصارى ، ومن دخلها كان تحت حكم صاحبها . وهذا الرجل الذي استدعاك ليس بينك وبينه صداقة قديمة فربما اذا جُزت اليه وقُضي الغرض أمسكك بها ، فاكتب إليه انه لا يمكنك الجواز إلا أن يعطيك الجزيرة الخضراء؛ فتجعل فيها أثقالك وجندك ويكون الأمر حينئذ بيدك متى شئتَ الصدور عنها صدرت ؛ فعمِل باشارته ولم يعبُر الى الأندلس حتى سلّم اليه المعتمد الجزيرة الخضراء فشحنها بالعَتاد والرجال .

واستكتب يوسف بعد ذلك أبا بكر بن القَصيرة وكان من وزراء المعتمد وكتّابه . وهو الذي أجاب عن كتاب الأذفونش[1] الى يوسف عند عبوره الى الأندلس . وكان الأذفونش يحاول أن يصرف يوسف عما عزم عليه من نصرة عرب الأندلس فأغلظ له في القول ووصف ما معه من القوة والعدد وبالغ في ذلك . ولهذا احتفل ابن القصيرة في جوابه أيّما احتفال ، وكان كاتباً مُفلِقاً ، فلما قُرىءَ الجواب على يوسف قال هذا كتاب طويل ، وأحضر كتاب الأذفونش وكتب على ظهره : « الذي يكون ستراهُ »

---

١ – ذكر في الاستقصاء ١٢٤ ج ل ان كلمة الاذفونش لقب لملوك الأسبان وما نراها إلا تعريباً لاسم الفونش .

وقيل انه كتب : « الجوابُ ما ترى لا ما تسمع » وأرسله اليه . فلما وقف عليه الأذفونش ارتاع له وعَلِم أنه بُلِيَ برجل له دهاءٌ وحزم يفعل ولا يقول . ويظهر من بعض عبارات الفتح في القلائد ان الكاتب المذكور تعرَّض لبعض شدائد الدهر قبل أن يُسعده الحظُّ بالالتحاق بخدمة أمير المسلمين .

وكتب ليوسف كذلك الوزير محمد بن عبد الغفور ، وهو الذي كتب مرسوم ولاية العهد لولدِه عليّ . وكتب له أيضاً أديبُ الأندلس عبد المجيد بن عبدون باستدعاء منه له ، وكان قد التحق بخدمة الأمير سَير بن أبي بكر اللمتوني . وهو صاحب الرائية المشهورة في رثاء بني الأفطس ملوك بَطليَوس .. ومن حسن أدبه وقوة عارضته أنه بكى فيها مخدوميه السابقين وأفاض في ذكر محاسنهم ولم يُعرِّض فيها بالمرابطين ولا أشار لهم بكلمة سوء وإنما أنحى باللوم على الدهر وتفنَّن في ذكر غدره بالكرام بما أحزن القلوب وأقضَّ الجنوب . وقيل إنه إنما كتب لعلي بن يوسف . وعلى كل فان عنايتهم به ظاهرةٌ واستدعاءهم له مؤكَّد وقد قابل هو هذه العناية بمثلها إذ كان رجلاً لبقاً يقدِّر الأشياء بقدرها ويفهم ماجريات الأحوال فرثى أولياء نعمته الأولين ولم يبخس مخدوميه الجُدُد حقَّهم ولا أنكر عارفتهم .

لا كما وقع للوزير أبي محمد بن أبي الخصال وكان من أنبه الكتاب عند علي بن يوسف وأكبرهم مكانةً لديه ، غير أنه على ما يظهر لم يكن مخلصاً في خدمته لهم . ولمَّا انهزم جيش بَلنسية أمام ابن رُذمير[1] كلَّفه أمير المسلمين أن يكتب اليهم رسالة توبيخ ، فأبدأ وأعاد في تبكيتهم والإزراء عليهم ، وكأنه اهتبَلها فرصةً لاظهار مكنون حقده على المرابطين جملةً ، فكان من فصول تلك الرسالة قوله : « أيْ بني اللئيمة ، وأعيارَ الهزيمة ، إلامَ يُزيِّفكم الناقد ، ويرُدُّكم الفارس الواحد ؟ »

أَلَا هَلْ اتاها على نأْيِها ... بِما فَضَحَت قَومَها غامِدُ
تَمَنَّيْتُمُ مائَتَيْ فارِسٍ ... فرَدَّكم فارسٌ واحِدُ

---

١ — هو الفونس الأول ملك أراغون ، وانظر عن حروبه مع المرابطين كتاب القرطاس أثناء ترجمة علي بن يوسف .

فلَيتَ لكم بارتباط الخُيول ضَأْناً لهـا حالِبٌ قاعِدُ

ومَن لرُعاة الإبل ، بالجد المقبل ، فلولا مَن لدينا من ذويكم ، وضراعتُهم الينا فيكم ، لألحقناكم بصحرائكم ، وطهّرنا الجزيرة من رحضائكم ، بعد أن نوسعَكم عقاباً ، ونحدّ أن لا تلوثوا على وجهٍ نقابا .. » الى آخرها وهي طويلة . فكانت هـذه الرسالة سبباً في تأخيره عن الكتابة . وقال علي بن يوسف لأخيه أبي مروان ، وكان متخططاً ايضاً في كتابته : لقد كنا في شك من بُغض أبي محمد للمرابطين والآن قد صحّ عندنا .

وكان ابو محمد هذا قد أوى الى ظل المنصور بن محمد بن الحاج اللمتوني أمير قرطبة لما ثار على علي بن يوسف « ومع ذلك فلما وقع الرضا على ابن الحاج ووُلي ما ولي من أعمال المغرب عاد ابن أبي الخصال الى مكانته منه ، حتى توفي هـذا الأمير بالثغر الشرقي من الأندلس وبقي هو ببيته مُنزوياً لم ينله من المرابطين سوءٌ إلى أن اغتيل في فتنة ابن حمدين سنة ٥٤٠ .. فهل بعد هذا غاية في البرّ والتسامح ؟ ولو صدر بعضُ ما ذكر من أبي محمد في عهد ملوك الطوائف لكان ذلك كافياً في الإطاحة برأسه. واعتبر أنتَ بقضية ابن عمَّار مع المعتمد مع مـا كان بينهما من عظيم المودة وقـديم الماتّة ، ومنها يتبيَّن لك نبلُ المعاملة التي قابل بها أمير المسلمين إساءة ابن أبي الخصال ، إذ لم يزد على أن أعفاه من كتابته » . هذا على حين ان أخاه أبا مروان بقي متميزاً عنده ومن خدمة دولته بالصدارة .

ولا ندع هذهُ الحادثة تمرُّ دونَ ان نقيمها حجـةً على مَن يتّهم المرابطين بعـدم الذوق الأدبي وكثافة الإحساس الفني ، ولذلك كسِف الأدب في عهدهم واضمحلّ اضمحلالاً مؤسفاً ، بل لا نعدمُ من يجرّدُهم حتى من معرفة اللسان العربي ؛ فكيف فطن عليُّ بن يوسف لمغامز ابن أبي الخصال وتورياته التي ظن أنها تخفى على مخدومه ، إن لم يكن ثقفاً لقفاً وعلى جانب من العلم يدرك به سوء النية التي أملتْ على كاتبه رسالته تلك ؟

وما بالنا لا نقول مثل هذا ايضاً في يوسف نفسه ، وقد قرأ عليه الكاتب القدير ابو بكر بن القصيرة جوابه للاذفنش ، فقال هذا جواب طويل ، وأملى عليه كلمته التي ذهبت مثلاً أو كتبها بنفسه وهي قوله : « الجواب مـا ترى لا ما تسمع » ! .. فهل

صاحب هذه الملاحظة وذلك الجواب يكون لا يعرف العربية ؟ وهل موقف يوسف هذا إلا مثل موقف أبي مسلم الخراساني من رسالة عبد الحميد الكاتب التي بعثها اليه عن مخدومه مَروان الحمار آخر خلفاء بني أُمية ، وكانت من الطول بحيث تقع في مجلد ، فلما وصلت الى أبي مسلم أحرقها ولم ينظر فيها . وكذلك قدَّر يوسف في رسالة ابن القصيرة أنها لا يكون لها التأثير المطلوب في نفس الأذفنش بسبب طولها وربما أهملها لنفس السبب فعوّضها بعبارته البليغة التي أقضّت مضجعه !

وقالوا إن شعراء الأندلس مثلوا امام يوسف بعد انتصاره في موقعة الزلاقة وأنشدوه مدائحهم فيه ، وان المعتمد بن عباد قال له : ايعلم امير المسلمين ما قالوه ؟ فقال : لا ؛ ولكنهم يطلبون الخبز . فليت شعري لماذا احتاج هنا إلى من يترجم له ولم يحتج اليه في فهم رسالة ابن القصيرة وانتقادها ؟ وهلا عـدُّوا جواب أمير المسلمين على فرض صحة الحكاية من باب ما يسمّى عند البديعيين بأسلوب الحكيم ، فما غرض الشعراء بمدحه إلا طلب خبزه ؟!..

أما ما نرويه نحن في هذه القصة ، فهو انه كان يحثو التراب بيـده وهم يلقون قصائدهم ، فقال قائل : إنه يعرّض لهم بقول النبي (ص) : « احثوا في وجـه المدّاحين التراب » !

ولا ننسَ في هذا الباب ما يروى عنه من أنه لما جال في بلاد الاندلس وتطوَّف على أقطارها شبّهها بعُقاب رأسه طليطلة ومنقاره قلعة رباح وصدره جيّان ومخالبه غرناطة وجناحه الايمن بلادُ الغرب وجناحه الايسر بلاد الشرق . قال في الحلـل الموشية . « وبالنظر الى كيفيّة وضعها وتمثيلها في الصفرة[1] يبدو بيان هـذا التشبيه الذي هو راجعٌ الى سياسة أمرها واعتبار أحوالها » فهل صاحب هذا التشبيه البديع لا يفهم مثل قول ابن زيدون ؟

حالَتْ لفقدكمُ أيامُنا فغدَتْ سُوداً وكانتْ بِكُمْ بيضاً لَيَالِينا

١ – يعني الخريطة .

الذي يُقال ان المعتمد كتب به اليه ، فلما قرىءَ عليه قال : لعله يطلب منا جواري سوداً وبيضاً !.. فيا للصبيانيّات تروى للتنقيص من ذوي الأخطار !.

نعم لقد أهدى يوسف للمعتمد جارية نروي خبرها في الجزء الثاني ، وهذا الخبر وحده كافٍ في الدلالة على ما كان ليوسف من عناية بالأدب وأهله والفنّ وأربابه ، حتى الجواري المغنيات المؤدّبات !.. ولا غروَ فتلاميذُ مدرسة ابن ياسين أقلُّ ما يتوفر فيهم المعرفة باللغة العربية . على ان النبغاء في العلم والفقه من اللمتونيين قد ظهروا قبل دخول ابن ياسين إلى الصحراء ، وقد تقدم ذكر بعضهم في العصر السابق.

وممن كتب لعلي بن يوسف من أدباء الأندلس باستدعاء منه الوزير ابو القاسم بن الجد المعروف بابن الأحدب ، وأبو بكر بن محمد المعروف بابن القبطرنه .. ونصنا على الاستدعاء وأنه من أمير المسلمين نفسه لاظهار كامل العناية التي لقيها هؤلاء الأدباءُ من رئيس الدولة وما كان لهذا الرئيس من عظيم الالتفات الى ذوي الكفايات الادبية من رجال الأندلس .

ومن قول أحدِ شعرائهم فيه مشيراً الى تقديم والده على أخيه تميم وهو أصغر منه :

لَئِنْ كانَ في الأَسنان يُحْسَبُ ثانياً   عليٌّ وفي العلياء يُحسَب أوّلاَ
كذلِكُمْ الأَيْدي سوَاءٌ بَنانُها   وتَخْتَصُّ منهنَّ الخناصِرُ بِالحُلى

أما من التحق بخدمة بقية الامراء المرابطين من أدباء الأندلس ولقوا منهم كل بِرّ ورعاية فكثير ، منهم الفيلسوف الأديب ابو بكر بن باَجة الذي كتب للأمير أبي بكر إبراهيم المعروف بابن تافلْويت وحظيَ عنده بحظوة كبيرة ، وله فيه مدائح كثيرة . ولما توفي رثاه بعدّة مرات تعبيراً عن وفائه له ، لِما كان يجده عنده من مزيد الرعاية وحكايته معه لمّا سمع موشّحةً له في مدحه فحلف لا يمشي ابن باجة لداره إلا على الذهب تأتي في الجزء الثاني . ومدَح هذا الاميرَ أيضاً الشاعرُ ابن سارة الشَّنْتَريني . وهذه الاشعار كلها مذكورة في قلائد العِقيان .

ومنهم الفَتْح بنُ خاقان الكاتب البليغ صاحب كتابَي القلائد والمطمح المعروفين ،

وقد الف كتابه القلائد باسم الامير ابراهيم بن يوسف بن تاشفين ، وأشادَ في مقدمته بمحاسنه وبفضله في إحياء رسم الادب بعد دروسه . وكان هذا الامير مُمدَّحاً مقصوداً من كبار الأدباء الأندلسيين لكرمه وشجاعته وأريحيته الأدبيّة . فممن مدحه الشاعر المجيد أبو اسحق بن خفاجة على قِلة رغبته في صحبة الملوك ومدْحه لهم . والوزير ابو بكر بن رحيم وابو الفضل بن محمد بن الأعْلَم الشَّنْتمري وابو عامر بن عَقيد وابو الحسين بن نَـيْفون وغيرهم ، ومدائحهم له ثابتة في القلائد والمُغرب لابن سعيد ، ما يمنعنا من ايرادها إلا خشيةُ التطويل .

وكان الامير عبدالله بن مَزْدليّ مثل الأمير ابراهيم في قصد الأدباء إياه ومدحهم له ، وممن مدحـــه القاضي ابو محمد بن عطيَّةَ صاحبُ التفسير ، والوزير أبو جعفر بن مَسْعدة ، وكان كاتباً له ، والوزير ابو عامر بن أرقم ، له فيه قصيـدة بارعة . ولهذا الوزير مقامة أدبيّة في اسم الامير تميم بن يوسف الذي كان هو أيضاً مألف أهـــل الأدب ومَعْقِد آمالهم .

ويطول بنا الأمر لو أردنا أن نتتبّع كل مَن آوى الى ظِلّ المرابطين من رجـــال الأدب فشملوه برعايتهم وأحاطوه بعنايتهم ، وكان في ذلك تشجيعٌ للحركة الأدبية وضمانٌ لازدهارها الذي ظهر أثره في المؤلـّفات العديدة الموضوعة في هـذا العصر ، وناهيك بقلائد الفتح بن خاقان وذخيرة ابن بسّام . ولا يقتصر البرُّ بالأدب وأهله في هذا العصر على المرابطين من ملوكٍ وأمراء ، بل إن غـيرَهم من الولاة كانوا كذلك يُشجّعون الأدب ويُظهرون مزيد العناية بأهله ، والناس كما يقال على دين ملوكهم . فهذا الرئيس أبو الحسن بن عَشرة من أهـل سَلا كان من أهل العلم والنباهة جواداً مُمدّحاً ، قصده الشعراء والأدباء من كل جهة وناحية ، وخصوصاً من الأندلس ، وكان يلي قضاءَ بلده . ودخل الأندلس غازياً في سنة ثمان وثلاثين واربعمائة ، أعني قبل قيام دولة المرابطين ، فامتدحه جماعةٌ من أدبائها . ورحَل إلى الشرق لأداء فريضة الحجّ فامتُدح بالمهدّية ومصر وغيرهمـــا . وتوفي سنة ٥٠٢ ببلده سَلا بعد أن أورث بنيه سُؤدداً ضخماً وشرفاً جمّاً .

ومثله أبو مروان بن سمَجون الطنجي رأس هـذا البيت ، الذي يُعتبر مفخرةً لطنجة ، بما أنجب من علماء وأدباء عديدين . وكان هو نفسه من رجـال العلم والأدب

شاعراً بليغاً وخطيباً فصيحاً . وله جاه عظيم عند أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حتى إنه ليُعَدُّ نائبَه في شمال المغرب والقُطر الأندلسي بأجمعه . وقصده الشعراء ومدحوه بأبلغ القول مما يأتي بعضه في المنتخبات .

على أننا لا ننتهي من هذا الحديث حتى نسجّل أن هذه الرعاية التي كان يحظى بها الأدباء الأندلسيّون من الأمراء المرابطين ، وكانت داعيةً لمداخلتهم لهم واختلاطهم بهم ؛ قد أثّرت في الأدب الأندلسي تأثيراً محسوساً فظهر بظهر القوّة والجزالة واختفت منه عناصر الضّعف والفُسولة التي كانت سائدة عليه أيام ملوك الطوائف . وانتحى الشعراء في شعرهم مناحي الجدّ والتوقُّر بدل ما كانوا منغمسين فيه من البطالة ، والمجون ، وذلك نتيجة لتشبعهم بروح الحفاظ الذي كان يسيطر على رجال الدولة وارتفاع معنويات أهل الاندلس عموماً بما آتاهم الله من نصر على عدّوهم بعد ما كانوا اصبحوا طعمة سائغة له . وقد سجل دوزي بغيظ هذه الظاهرة الجديدة التي طرأت على الأدب الاندلسي من جرّاء توجيه الأمراء المرابطين له ، واعتبرها تدهوراً في حقه ، في حين أننا نعتبرها انتعاشاً وبعثاً للأدب العربي الأصيل . والى القارىء مثالاً على ذلك هذه القصيدة التي يقولها الوزير ابن أرقم مدحاً للأمير عبدالله ابن مزدلي :

سرَيْتَ والليلُ من مَسْرَاكَ في وَهَل ... مُبرَّأَ العَزْمِ من أيْنٍ ومن كسل

وسِرتَ في جَحْفَل يهدِي فوارسَه ... سناكَ تحت الدُّجى والعارِضِ الهَطِلِ

والبدرُ محتَجبٌ لم تدْرِ أنجُمُه ... أغاب عن سَرَرٍ أم غاب عن خجَلِ

هوتْ اعادِيك مِن سارٍ يُؤرِّقُه ... رَكْضُ الجواد وحَمْلُ اللّامة الفُضُلِ

إذ الملوكُ نِيامٌ في مَضاجِعهم ... مُسْتحسِنُونَ بهاءَ الحَلْي والحُلَلِ

لِلّه صومُك بِراً يومَ فِطرِهِم ... وما توَخَّيْتَ من وَجْهٍ ومن عَملِ

نحرْتَ فيه الكُماةَ الصِّيدَ مُحتَسِباً ... وحسبُ غَيْرِكَ نَحرُ الشاءِ والإبل

إذَا صَرِيرُ المدَارَى هزَّهم طرَباً ... أَلهاكَ منه صريرُ البِيض والأَسلِ
وان ثنَتْهُم عن الإقدام عاذلةٌ ... مضيتَ قُدْماً ولم تأذَن الى العَذَلِ
كم ضمَّ ذا العيدُ من لاهٍ به غزِلٍ ... وانت تُنشِدُ أَهلَ اللهو والغَزلِ
في الخَيْلِ والخافِقَاتِ البيضِ لي شُغُلُ ... ليس الصَّبَابةُ والصَّهْبَاءُ من شُغُلي
ظَلَلْتَ يومَك لم تَنْقَعْ به ظمأً ... وظَلَّ رُمحك في عَلٍّ وفي نَهَلِ
وكلّما رامتِ الرومُ الفرارَ أَتتْ ... من كل أَوْبٍ وضمَّتْها يَدُ الأجلِ
فصار مُقْبِلُهم نَهْباً ومُدْبِرُهم ... وعاد غانِمُهم من جُمْلَة النَّفَلِ
فكم فككتَ من الأغلال عن عُنُق ... وكم سددتَ بهذا الفتح من خَللِ
أنت الأميرُ الذي للمجدِ هِمَّتُه ... وللمَمالِك يَحْمِيهَا ولِلدُّولِ
ولْلَمواهِب أَوْ للخَطِّ أَنمُلُه ... ما لم تَحِنَّ إلى الخَطِّيَّة الذُّبُلِ ...

ونسجّل هنا قوله او للخط التي تصحّفت في القلائد بالحظ ، وإنما هي الخط يعني الكتابة فكأنه يقول في أنامله : انها للسيف والقلم والكرم !..

تراجم بعض الشخصيات من هذا العصر

والآن نقدم تراجم بعض شخصيات هذا العصر الذين برّزوا في احد ابواب المعرفة التي قدمنا الكلام عليها ، متممين بذلك وصف النشاط العلمي والأدبي الذي وجد في المغرب على عهد المرابطين ، فنضعُ الصورةَ في إطارهـا ونُحيطُ بالموضوع من جوانبه كلها .

عَبْدالله بن سَعيد الوَجْدي

يكنى أبا محمد ونسبته الى مدينة وجْدة عاصمة المغرب الشرقي . وليَ قضاء بلَنْسِية لأول فتحها في الدولة اللمتونية واسترجاعها من الروم في رجب سنة ٤٩٥ وعلى يديه وتحت نظره تمَّ بناءُ المحراب بالمسجد الجامع منها في سنة ثمان وتسعين . وفي جانبـه كان اسمه مخطوطاً إلى أن ملكَها الروم ثانيةً في آخر صفر سنة ٦٣٦ قاله ابنُ الأبّار . وكان من جِلّة الفقهاء الحفّاظ لمسائل الرأي القائمين عليها . وكان يُناظرُ عليه ويجتمع في ذلك إليه . وبه تفقّه ابو حفص بنُ واجب وغيره . وقد حدّث عنه ابو العرب عبد الوهاب بن محمد التُّجِيبي وابو عبدالله بن خليـل القيسي نزيل مراكش وتوفي ببلنسية قبل سنة ٥١٠ .

ابراهيم بن جَعْفر اللّواتي

هو الفقيه المشاوَر ابو اسحق ، المعروف بابن الفاسي ، من أهـل سبتة . أخذ عن شيوخ بلده . ولزم الفقيه ابا الاصبغ بن سهْل وكتب له في قضائه بطنجة وغرناطة وسمع منه جميعَ كتبه وحدّث بها عنه ، وكان بصيراً بالشروط والوثائق ؛ بل لم يكن في عصره من هو أقوَمُ عليها منه ، عارفاً بالاحكام متفنّناً في معارف شتى . شاورَه القضاةُ بالمغرب والأندلس ، ودرّس الفقه زماناً . وأخذ عنه من الاكابر القاضي عياض

وأمثاله . وكان عاقلاً مهيباً كثيرَ الوقار لا يتكلم أحد في مجلسه إلا بمسألة علم أو كلام فيه نفع . وألف مختصر ابن أبي زمنين فنحا فيه أحسن مَنحىً . وكانت وفاته في ٨ جمادى الأولى من عام ٥١٣ .

ابو عبدالله التميمي

الفقيه القاضي ابو عبدالله محمد بن عيسى بن حسين التميمي ، مولده بفاس سنة ٤٢٩ وانتقل به أبوه الى سبتة وهو شاب ؛ فطلب العلم على أبي عبدالله المسيلي وغيره . ورحل الى الأندلس ثلاث رحل ، إحداها في شبيبته الى اشبيلية ؛ فقرأ بها الأدب على أبي بكر بن القصيرة ، والثانية الى المَرِيَّة سنة ٤٨٠ فأخذ عن ابن المُرابط وأجازه الدلائي ، والثالثة سنة ٨٨ الى قرطبة فسمع من ابن الطلاّع وأبي مروان بن سراج وغيرهما . واتّسع في الأخذ وتقلّد الشورى وتولى القضاء بسبتة وبفاس، وكان عارفاً بالفقه والحديث حافظاً ضابطاً كثير الكتُب مَليح الخط والإنشاء والمحاضرة، من أعقل أهل زمانه وأفضلهم وأسمَتهم، تامّ الفضل، كامل المروءة عند الخاصة والعامة ، عظيم القدر ، وهو شيخ القاضي عياض الذي صدّر به فهرستَه ، لازمه للمناظرة عليه في المدوّنة والموطّأ وسماع المصنفات وأجازه جميع رواياته . قال : وكان من أحسن القضاة سيرةً وأنزههم ، وأجرأهم على الطريقة القويمة ، فمضى فقيراً حميداً واحتفل الناس بجنازته . وولع العامة بنعشه مسحاً بالأكف ولمساً بأطراف الثياب تبرّكاً به رحمة الله عليه . توفي في ٢١ جمادى الأولى سنة ٥٠٥ وله ولد أسمه عبد الله من أهل العلم بالحديث والرواية والاتقان .

القاضي عياض

هو أبو الفضل عياضُ بن موسى بن عياض اليَحصُبي السَّبتي . كان إمام وقته في الحديث وعلومه ، عالماً بالتفسير وجميع علومه فقيهاً أُصولياً عالماً بالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم ، كاتباً شاعراً مُجيداً ، ريّان من علم الأدب ، خطيباً بليغاً ، صبوراً حليماً جميلَ العِشرة جواداً سمحاً كثير الصدقة دَؤوباً على العمل صلباً في الحق . هكذا وصفه ابنُ فرحون في الدّيباج .

دخل الأندلس ورحل الى الجزائر الشرقيّة منها طالباً للعلم وأكثر الأخذ فنافت شيوخُه على المائة ، فيهم القاضي أبو بكر ابن العربي وأبو الوليد ابن رُشد الجدُّ وابن عَتّاب وابن حمدين والمازري وأبو علي الصَّدَفي وغيرهم . وفي قلائد العقيان كتاب توصية به من أمير المسلمين إلى ابن حمدين لمَّا قصده للأخذ عنه . وهذه من المناقب التي تُروى للمرابطين في الاعتناء بالعلم والاهتمام بنشره .

قال ابن بَشكوال : وجَمَعَ من علوم الحديث كثيراً وله عناية كبيرة به واهتمام بجمعه وتقييده ، وهو من أهل التفنّن في العلم واليقظة والفهم .

وبعد عودته من الأندلس أجلسه أهل سبتة للمناظرة عليه في المدوَّنة وهو ابن ثلاثين سنةً او يُنيفُ عليها. ثم أُجلس للشُّورى ثم وَليَ قضاء بلده مدةً طويلة حمِدت سيرته فيها . ثم نُقِل الى قضاء غرناطة ، قال ابن الخطيب : وبَنى الزيادة الغربيَّة في الجامع الأعظم وبنى في جبل المينا الرَّاتبة الشهيرة .

ولما ظهر أمرُ الموحِّدين بادر الى الدخول في طاعتهم ، ثم انحرف عنهم لما اضطربت أحوالهم بثورة ابن هود ؛ فنقلوه الى مراكش مُشرَّداً به عن بلده ، وبها توفي سنة ٥٤٤ ومولده بسبتة في شعبان ٤٩٦ .

وللقاضي عياض التصانيف البديعة منها إكمال المعْلم في شرح مسلم كمَّل به مُعْلم شيخه المازري . ومنها كتاب الشفا في التعريف بحقوق المصطفى ، أبدع فيه كلَّ الابداع وسلَّم له أكفاؤه براعته فيه ، ولم يُنازعه أحدٌ في الانفراد به ولا انكروا عليه مزيّة السبق اليه، بل تشوفوا للظفر به وأنصفوا في الاستفادة منه وحمله عنه الناس فطارت نسخه شرقاً وغرباً . وهو في الحقيقة كتاب فريد ، دحض به مزاعم الملاحدة ومطاعنهم على المقام النبوي الشريف ، وأتى في ذلك بالعجب العُجاب مما لا ينكره إلا أعمى القلب مطموس البصيرة . ومنها مشارق الانوار في تفسير غريب الحديث المختص بالصّحاح الثلاثة : وهي الموطأ والبخاري ومسلم ، وضبط الالفاظ والتنبيه على مواضع الأوهام والتصحيفات وضبط أسماء الرجال . وهو كتاب لو كتب بالذهب لكان قليلا في حقه . ومما قيل فيه شعراً :

مَشارِقُ انوارٍ تبدَّت بسبتةٍ ومن عَجب كونُ المشارق بالغرب

فأجيب هذا القائل :

وما شرّفَ الاوطانَ إلا رجالُها والاّ فلا فضلٌ لتُربٍ على تُربِ

ومنها كتاب التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة ، جمع فيه غرائب من ضبط الألفاظ وتحديد المسائل ، وكتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك وهو المشتهر بالمدارك . وغير ذلك مما نشيرُ إليه بعد .

وله رسائل أدبية وديوانُ خطب ومقاطيع شعرية سنلمُّ بها في المنتخبات .

وكان ابو الفضل بمنزلة من الجدّ في تعظيم الشريعة والذبّ عن حرمها ، بحيث أن الفتح بن خاقان الكاتب المشهور صاحب قلائد العقيان،دخل عليه يوماً وهو بمحكمته ؛ فاشتم منه رائحة الخمر ورأى عليه آثار نشوتها ، فغضب عليه وجرّده من ثيابه وحدّهُ الحدّ الشرعي ولم تأخذه في الله لومة لائم . وخرج الفتح من غده ثائراً حنقاً وهمّ ان يحذف ذكره من قلائده؛ فقيل له ان ذلك يكون أدعى لاشتهار القضية وظهورها فعدل عن ذلك . ولكن القاضي الأديب بعد أن خرج الفتح من عنده أتبعه بصلةٍ سنيّة إبقاءً على ودّه واسترضاء لخاطره وضرباً للمثل في ان التمسك بقواعد الاسلام وحفظ حدوده لا ينافي الاريحية الأدبية ولا يذهب بظرف الأديب ورقة حاشيته . رحمه الله .

عيسى الملجوم

ابو موسى عيسى بن يوسف بن عيسى بن علي الأزدي ، عرف بابن الملجوم ، لقبٌ جرى على أحد أجداده في شبيبته لحبسة كانت في لسانه . وبنو الملجوم من بيوتات المجد القديمة بفاس ، وقد رفع ابن القاضي في الجذوة نسبهم الى المهلّب بن أبي صفرة . ونبغ منهم عدّة أفراد في الفقه والحديث والأدب ، ورأسوا بالعلم وتولوا القضاء وأدركوا شرفاً كبيراً . وكان عيسى هذا عارفاً بالفقه ذاكراً للمسائل، متقدّماً في علم الفرائض ، محدثاً حافظاً راوية . سمع ببلده من أبيه قاضي الجماعة أبي الحجّاج ، وأبي الفضل ابن النحوي وأبي الحجاج الكلبي الضرير ؛ وبأغمات

من أبي محمد اللخمي سبط ابي عمر بن عبد البرّ . ودخل الاندلس فلقي بقرطبة أبا عبد الله بن الطلاّع وأبا بكر حازم بن محمد وأبا علي الغسّاني وابا الحسين بن سِراج وابا محمد بن عتّاب . ثم دخل الأندلس ثانية فلقي باشبيلية ابا عبدالله بن شَبْرين وكتب اليه ابو عبدالله الخوْلاني وابو علي الصّدَفي وغيرهما . وتولى القضاء بفاس وبمكناس ، وكان من أهل الجلالة والأصالة ، راوية جمّاعة للدواوين العتيقة والدفاتر النفيسة . وابتاع من ابي علي الغساني أصله من سنن أبي داود الذي سمع فيه على أبي عمر بن عبد البَرّ ، وهو أصل أبي عمر ، كان قد صار الى أبي علي بخمسة آلاف دينار بعد أن نسخ منه أبو علي بخطه وقابله وأتقنه . وناهيك بهذه الهمّة العالية وهذا الشغف بالعلم . ولعله اراد ان يسدي إحساناً في صورة معاملة ، الى شيخه الذي يأبى من رؤية المِنّة عليه لأحد ، شأن أمثاله من علماء السلف رحمهم الله . حدّث عنه ابو محمد بن فُليْح وابنه أبو القاسم عبدُ الرحيم وقال : ولد يوم الاثنين مُستهلّ ذي القعدة ٤٧٦ وتوفي في رجب عام ٥٤٣ .

أحمد بن الحُطيئة

الشيخ ابو العباس احمد بن عبدالله بن أحمد بن هشام بن الحُطيْئة اللّخمي الفاسي ، كان رأساً في القراءات السبْع ومن أهل العلم والصلاح . ولد بفاس سنة ٤٧٨ وانتقل الى مصر فقرأ على ابن الفحّام . وقرأ عليه شُجاع بنُ محمد بن سيّدهم وروى عنه الحافظ ابو الطاهر السّلفي . وعُرض عليه القضاء بمصر أيام العُبيديين ؛ فاشترط ان لا يقضي بمذهب الدولة فأبوْا وتوفي آخر المحرم سنة ٥٦٠ .

عليّ بن حرزهم

او ابن حَرازِم كما هو الجاري على الألسنة فيه وفي كثيرين غيره ممن هم على اسمه . وصوّب الساحلي الأول في كتابه بُغية السالك وهو الذي في كتب الأقدمين .

هو ابو الحسن علي بن اسماعيل بن محمد بن عبدالله بن حِرزهم، يعتلي نسبه الى عثمان بن عفان (رض) . ولد ونشأ بفاس وكان من كبار فقهائها ومدرّسيها العُبّاد

الزهّاد . قال الساحلي : كان عالماً فقيهاً محدّثاً حافظاً مدرّساً زاهداً في الدنيا ، سالكا في طريق القوم من أهل التحقيق ، مُشاركا في علوم الشريعة لكنه أميَلُ الى التصوُّف . أحكم كتابَ الإحياء للغزّالي وضبطَ مسائلَه فكان يستحسنه ويثني عليه . درّس بفاس وأخذ عنه ناس الطريقَ كالشيخ أبي مَدْين الأنصاري وأبي عبدالله التّاوُدي . ودخل مراكش فدرّس بها العلم وتابَ على يده خلق كثير وزهّد أميرها في الدنيا .

نعم فقد كان في أول الأمر ممن حملَ على كتاب الإحياء واستنكر ما فيه ، ثم غلبت عليه نَزعةُ التصوُّف فرجعَ عن رأيه فيه كما سبق الإلماعُ الى ذلك . ونظر ؛ كما يقول ابن قُنفُذ في كتابه أنس الفقير ، فيما كان يُنكرهُ منه ، فوجده موافقاً للكتاب والسنة .

ولما قدم الشيخ أبو مدين إلى فاس دخل لجامع القرويين وسأل عن مجالس العلماء فسار اليها مجلِساً بعد مجلِس، قال: وأنا لا يثبُتِ في قلبي شيءٌ مما اسمعه من المدرّسين الى ان جئتُ الى شيخ كلّما تكلّم بكلام ثبَت في قلبي وحفظته . فلما فرغ دنوت منه وقلت له حضرت مجالس كثيرةً فلم أثبت على ما يقال وأنت كلُّ ما سمعتُه منك حفظتُه، فقال لي: هم يتكلمون بأطراف السنتهم فلا يُجاوز كلامهم الآذان وأنا قصدتُ الله بكلامي فيخرج من القلب فلازمته . وكان هذا الشيخ هو علي بن حرزهم ، توفي رحمه الله سنة ٥٥٩ .

ابُو القاسِم المعافِري

هو الفقيه الأصولي المتكلّم أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد المعافري من أهل سبتة . له رحلة سمع فيها بالأندلس من القاضي أبي الوليد الباجي وببلاد إفريقية ومصر والحجاز من جماعة كابن فضّال بمصر وابن الصبّاح بتونس ولقي بمكة الفقيه عبدالحق[1]

---

١ – هو ابو محمد عبدُ الحق بن محمد بن هارون السهمي القرشي ، فقيه صقلية . تفقه بشيوخ القرويين وحج ، فلقي القاضي عبد الوهاب وأبا ذر الهروي ، وله في مذهب مالك تآليف جليلة . توفي سنة ٤٦٦ .

والإمام أبا المعالي الجوَيني وابن صاحب الخمس بصقلية وغيرهم . ودرس هناك الأصول والكلام ودرّس ذلك ببلده سبتة مدة حياته. قال القاضي عياض : وعليه أخذ ذلك جماعةٌ من شيوخنا وأصحابنا ، ورحل اليه الناس في درس ذلك عليه . وَوليَ قضاء بلده سبتة والخطابة بمسجدها كما تولى قضاء الجزيرة الخضراء. وتوفي آخر محرم سنة ٥٠٢ .

الحسن بن طريف النّحوي

الشيخ الصالح أبو علي الحسن بن علي بن طَريف ، من أهـــل سبتة ويعرف بالتّاهرتي شيخُ بلده في النحو ، له سماع من الفقيه حجّاج بن الماموني وأبي عبد الله ابن سعدون وأبي الأصبغ بن سهـــل وأبي محمد أبي قُحافة . وأخذ عن أبي تمّام القطيني وغيره بالأندلس ودرّس النحو عمُره بسبتة . وأخذ عنه جماعةٌ منهم القاضي عياض وغيره . وتوفي في ١٩ ذي الحجة ٥٠١ .

مَرْوان بن سَمْجُون

أبو عبد الملك مروان بن عبد الملك بن إبراهيم بن سمجون اللّواتي الطنجي ، زعيم المغرب وشيخه وذو الجاه العريض والقول المسموع فيه. هكذا عرّفه القاضي عياض في فهرسته ثم قال: كان من أهل العلم والفقه والأدب، وله سماع عال من المصريين كابن َنفيس وابن مُنير وأبي محمد بن الوليد ونمطهم ، وقرأ القرآن على المقرئين بهـــا وجالس الفقيه عبدالحق بصقلية، وسمع من أبي علي المعروف بابن مدكيُو فقيه سجلماسة بها ، عن ابي محمد بن أبي زيد ، وحصّل علماً جماً ، وكان يقول – كما عند صاحب معجم البلدان – لم أدخل الى الشرق حتى حفظتُ أربعة وثلاثين الف بيت من أشعار الجاهليــة ، وكان ذا شهامة وجزالة وفصاحة . أخذ نفسه بالإعراب في كلامه مع الخاصة والعامة، فلا يكاد يؤخذ عليه لحن . وولي الصلاة والخطبة والفتيا بسبتة ، ثم انتقل إلى طنجة صدر الدولة المرابطيّة ؛ فولي صلاتها وخطبتها وفتياها ، ثم تقلد أحكامها وانصرفت إليه جميع امور الأندلس والمغرب ، وفوّض إليه أميرُ المسلمين يوسف في كبـــار مهامه . وكان مهيباً صلباً . وله شعر وخطب فصيحة قوية العارضة كثيرة الغريب .

مولده سنة ٤٢١ ووفاته في ٢٠ رجب ٤٩١ وهو من بيت بني سمجون اللواتيين الطنجيين الذين ظهر منهم في هذا العصر والعصر الذي يليه كثير من أهل العلم والفضل . ورحل بعضهم الى الاندلس واستقر فيها ، فظهر منهم بها أيضاً علماء فضلاء .

ابو الحسن بن زِنْباع

هو القاضي الأديب ابو الحسن بن زنباع ويقال فيه أيضاً ابن بيّاع الصنهاجي؛ من أهل طنجة ، نسبه اليها القلقشندي في صبح الأعشى . وقال : ترجم له في قلائد العِقيان واثنى عليه وانشدَ له أبياتاً منها :

وقد تَحمي الدُّروعُ من العَوالي ولا تَحمِي من الحدقِ الدُّرُوعُ

ويوخذ من تحلية الفتح له بالفقيه القاضي وصفته بالمشاركة في العلوم والآداب والفصاحة والبيان ، والطب أيضاً ، أنه شخصيّة علمية فذّة ؛ وأن الأدب هو أقل بضاعة كان يتميز بها فصار اليوم اكثر ما نذكره به . وشعره مع ذلك طبقة عالية من حيث البلاغة والانسجام والإجادة في مختلف الأغراض ، فهو مفخرة لقبيله وحجة على المنكرين براعة المغاربة في الأدب وخاصة في هذا العصر . وسنثبت آثاره في محلها من قسم المنتخبات .

يحيى بن الزّيْتوني

هو أحد الادباء الذين نبغوا في هذا العصر ، من أهل فاس . كان أديباً أريحيّاً خفيف الروح رقيق الحاشية متظرفاً حسَنَ المذهب ؛ له شعر بديع وتصرُّف مطبوع . ذكره ابنُ بسّام في الذخيرة وقال : كان حاضر الجواب ذكيّ الشهاب ، ثم اورد واقعة حال جرت بينه وبين أبي الوليد بن زيدون بمجلس المعتمد ، قصد فيها اديب الأندلس أن ينال من المترجم ولكن هذا أفحمه ، وسنوردها مع بعض شعره في محلها .

ابن القابلة السبتي

ابو محمد عبدالله بن هرون المعروف بابن القابلة السبتي. ذكره بن دحيه في كتابه المطرب من أشعار أهل المغرب وقال إنه من شعراء سبتة المطبوعين . وهو ممن ترجمهم ابنُ بسّام في الذخيرة وأوردهم ابنُ سعيد المغربي في كتابيْه رايات المبرّزين وعنوان المرقصات المطربات من شعراء المائة الخامسة . ولا نعلم من أحواله شيئاً غير ما تدلُّ عليه كنيته من مكانةٍ اجتماعية متواضعة . على ان ابنَ دحية لم يذكره بكنيته وإنما نسبه الى ابيه ، وهو الوحيدُ الذي ذكر اسم أبيه فيما وقفنا عليه .

وثَمَّ شاعرٌ آخر يُعرفُ بابن القابلة أيضاً وهو محمد بن يحيى الشَّلْطيسي من رجال المغرب لابن سعيد وله قرابةٌ أدباء يعرفون بهذه الكنية مذكورون في الصِّلة وصِلة الصِّلة .

وللمترَجم شعر جميل نُورده في المنتخبات .

تسمِيَة بعْض الكتُب المؤلفة في هَذا العِصْر

وبعد فهذه جريدة بأسماء الكتب التي أُلِّفت في هذا العصر ، من العلماء الذين ذكرناهم ، على حسب ما وقفنا عليه . وبالضرورة فهي لا تُحيط بجميع مؤلّفات عهد المرابطين ، وإنما تعطي أمثلة منها :

في الفقه :

مختصر كتاب ابن أبي زمنين لابراهيم بن جعفر .
الإعلام بحدود قواعد الإسلام للقاضي عياض .
نظم البرهان على صحة جزم الآذان له .
مسألة الأهل المشروط بينهم التزاور له .
أجوبة القرطبيين له .
الأجوبة المحبّرة على الأسئلة المتخيّرة له .

المقاصد الحسان فيما يلزم الانسان له .
النوازل القضائية له .
التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة له .

في الحديث والتفسير

تفسير لأبي بكر بن الجوزي السبتي .
إكمال المُعْلِم شرح صحيح مسلم للقاضي عياض .
الشفا في التعريف بحقوق المصطفى له .
الإلماع في ضبط الرواية وتقييد السماع له .
بغية الرائد لما تضمنه حديث أمّ زرع من الفوائد له .
مشارق الأنوار في غريب الحديث والآثار له .

في التوحيد

تصنيف لأبي بكر بن الجوزي السبتي .

في التاريخ

ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعيان مذهب مالك للقاضي عياض .
الغُنْية له في شيوخه وهي فهرسته .
معجم شيوخ أبي علي الصدفي له .
الفنون الستّة في تاريخ سبتة له .

في الأدب

ديوان خطب لمروان بن سمجون .
غُنيَة الكاتب وبغية الطالب في الصدور والترسل للقاضي عياض .
سرّ السراة في أدب القضاة له .
ديوان خطب له .

عصر الموحدين

إنقلاب

لم تكن دولة المرابطين أعظمَ استقراراً ولا أكثرَ اطمئناناً منها حينما ظهر المهدي ابن تومرْت على مسرح التاريخ وضرب ضربتَه القوية التي قوَّضت اركان ذلك البنيان الشامخ وأتت عليه من الاساس. على أنَّ من يَستقرىءُ الأحوال بتعمُّق، يَجدُ أن بذور الثورة كانت تنمو هنا وهناك، والقومُ في غفلة عما يجري حولهم. ولعل ابن تومرْت لم يرحل الى المشرق إلا وهو يحمل في رأسه فكرةَ الثورة على الواقع المغربي، وخاصةً في ميْدان الاجتماع وما يرجع لنزعة الدولة العَقَدِيَّة والمذهبية. ولعله رأى بعينيْ رأسه، وهو يتجول في ميدان المغرب والأندلس، نُسخَ الإحياء تُضرم فيها النار، والناس بين موافق ومخالف، فتاقت نفسه لتحقيق الحق في هذا الموقف الغريب، إذ ليس من الجائز أن يكون الاسلام في المشرق غيره في المغرب.

ومن هنا يجيء اتصالُ زعيم الانقلاب الموحدي بحجة الاسلام الغزالي في رحلته، وقراءته عليه، وسؤال هذا له عن المصير الذي لقيه كتابه في المغرب، وعن احوال المرابطين ثم دعاؤه عليهم - فيما يَروي المؤرخون - بتمزيق مُلْكهم، ذلك الدعاء الذي يُعتبر في الحقيقة دعوةً الى الثورة عليهم. ومما لا شك فيه أن المهدي رشَّح نفسه لهذه المهمة، من يومئذٍ. وما يمنعه من ذلك؟ وهذا الإمام الغزالي الذي أيَّد سياسة المرابطين أيام العاهل الكبير يوسف بن تاشفين، عادَ فسحب تأييده لها ايام ولده عليّ.

وكان المهدي رجلاً من سوس، ومن قبيلة هَرْغَة بالذات، إحدى قبائل المصامِدة واسمه محمد، وإنما اشتهر بالمهدي بعد إعلانه لدعوته، وهو ينتسب في آل البيت عليهم السلام وخرج طالباً للعلم سنة ٥٠١ فدخل الأندلس ورحل الى المشرق؛ فحجَّ ولقي الأئمة وحصل على علم غزير، وكان ذا فصاحة ولسَن وحجة قوية، إلى ورع ونُسك وغيرة شديدة على الدين، مما جعل منه داعية من الطراز الأول، فلم يلبث أن نزل الى الميدان مصلحاً دينياً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويدعو الى التوحيد على طريقة

الأشاعرة ، من تأويل المتشابهات وعدم اقرارهـــا على ظاهرها فراراً من الوقوع في التجسيم . وكان أكثر ما يحفز همتـــه للعمل ما يراه من انتشار البغي والفساد مع سكوت علماء الدين على ذلك . ولقد بدأ في طريق عودته الى المغرب من رحلتـه التي دامت زُهاء عشر سنوات ، يصطدم بالعامة وأولي الأمر ، إذ كان كلما رأى مُنكراً تقدم بتغييره ، فيريق الخمور ويكسر آلات اللهو والطرب ويغلظ على أهل المجون ، كما فعل في الاسكندرية والمهدية وتونس وقسنطينة وبجاية وتلمسان وغـيرها . وما كان ينجيه من طائلة العقاب الا ما يلوح عليه من سمة الخير ، ومساندة الرأي العام له إذ كان المجتمع الاسلامي ما يزال يؤثر الطهارة ويتمسّك بقانون الأخلاق .

ويظهر من سيرته هذه أن الرجل كان مخلصاً في دعوته أشدّ الإخلاص ، وأنه لم يكن يهمه مُلْكٌ ولا دنيا إلا بلوغ قصده في محاربة الفساد وتجديد الدين . ولولا ذلك لما عرّض نفسه للخطر مراراً في غير موطنه ، حيث لا يرجو مُلْكاً ولا يجد من قومه أعوانا يشدُّون أزره ويحمون ظهره . ولقد أشخص بين يدي أمير المسلمين بمراكش عند ما جهَر بدعوته وكثر انتقاده للحكام فلم يرَ فيه غير داعيـــة ديني مخلص ، وتأثر بكلامه ثم أمر بتخليته على الرغم من إلحاح أهل مجلسه عليه في البطش به وتحذير مستشاريه له مما سيؤول اليه أمره .

والذي نريد ان نقوله هو ان الرجل كان صاحب فكرة إصلاحية عمـل لتنفيذها بالوسائل المألوفة قبل أن يكون طالب مُلك يرتكب كل محظور للحصول عليـــه . وبذلك تعلم انه فوق ما تُقول عليه ورمي به من التلبيس والشعوذة وعضائه الأمور. وهذا هو رأي ابن خلدون الناقد البصير . فاستمع الى ما يقوله في هذا الصدد عنـد تعرضه لتصحيح كثير من أغلاط المؤرخين في مقدمته الحافلة :

« ويلحق بهذه المقالات الفاسدة والمذاهب الفاشلة ، ما يتناقله ضعفة الرأي من فقهاء المغرب ، من القدح في الإمام المهدي صاحب دولة الموحدين ونسبته الى الشعوذة والتلبيس ، فيما اتاه من القيام بالتوحيد الحق والنعي على أهل البغي قبله ، وتكذيبهم لجميـع مدّعياته في ذلك ، حتى فيما يزعم الموحدون أتباعُه من انتسابه في أهل البيت . وإنما حمل الفقهاء على تكذيبه ما كمَن في نفوسهم من حسده على شأنه ، فإنـّهم لمـّا رأوا من نفوسهم مناهضته في العلم والفُتيا والدين بزعمهم ، ثم امتاز عنهم بأنه متبوع الرأي ،

مسموع القول ، موطّأ العقب ، نقموا ذلك عليه وغضّوا منه بالقدح في مذاهبه والتكذيب لمدّعياته . وأيضاً فانهم كانوا يأنسون من ملوك لمتونة أعدائه ، تجلّة وكرامةً لم تكن لهم من غيرهم ، لما كانوا عليه من السّذاجة وانتحال الديانة ؛ فكان لحملة العلم بدولتهم مكان من الوجاهة والانتصاب للشّورى ، كلٌّ في بلده وعلى قدره في قومه ، فأصبحوا بذلك شيعةً لهم وحرباً لعدوهم ، ونقموا على المهدي ما جاء به من خلافهم والتّثريب عليهم والمناصبة لهم ، تشيُّعاً للمتونة وتعصُّباً لدولتهم . ومكان الرجل غيرُ مكانهم وحاله غير معتقداتهم . وما ظنُّك برجل نقَم على أهل الدولة ما نقم من أحوالهم وخالف اجتهاده فقهاءهم ، ونادى في قومه ودعا الى جهادهم بنفسه ، فاقتلع الدولة من أصولها وجعل عاليها سافلها ، أعظم ما كانت قوةً وأشدّ شوكةً وأعزّ انصاراً وحاميةً . وتساقطت في ذلك من أتباعه نفوسٌ لا يُحصيها إلا خالقها ، قد بايعوه على الموت ووَقوه بأنفسهم الهلكَة . وتقرّبوا الى الله تعالى بإتلاف مهَجهم في إظهار تلك الدعوة والتعصّب لتلك الكلمة ، حتى علت على الكلِم ودالت بالعُدوتين من الدول ؛ وهو بحالةٍ من التقشف والحصَر والصَّبر على المكاره والتقلُّل من الدنيا ، حتى الولد الذي ربما تجنَح اليه النفوس وتخادع عن تمنيه . فليت شعري ما الذي قصد بذلك ان لم يكن وجهَ الله ، وهو لم يحصل له حظ من الدنيا في عاجله ؟ ومع هذا فلو كان قصده غير صالح لما تمّ أمره وانفسحت دعوته « سُنّة الله التي قد خلت في عباده » .

وكما أنه لم يقُم لطلب الملك على ما علمت ، فانه لم يقم لطلب ثأرٍ له عند دولة المرابطين، لأنها لم تُؤذِه بشيءٍ ولم تمدّ اليه يداً بسوء. وكون تنازُع الزعامة بين المصامدة الذين ينتسب اليهم وصنهاجة التي ينتمي لها المرابطون، هو الباعث له على القيام كما قيل بذلك، ضعيفٌ جدّاً ؛ وخصوصاً مع ما عُلِم من ديانته وتقواه وعدم تمسكه بأسباب العصبية التي نهى عنها الاسلام. على انه لم يثبُت أن هناك تنازعاً كان قائماً بين المصامدة وصنهاجة عند ظهور المهدي بن تومرت . والثابتُ هو ان دعوته كانت تحتضن مختلف القبائل لأنها قامت تحت شعار التوحيد ، كما كانت دعوة عبدالله بن ياسين تنتظم صنهاجة وغيرها ولذلك سمّى أتباعه بالمرابطين . فالأمر في الحالين معاً يتعلق بدعوة دينية أكثر مما يتعلق بعصبية قبلية . نعم لقد كان أنصار المهدي في غالب الأمر من المصامِدة ، وذلك لانه آوى إليهم وأقام فيهم مدةً يدعو الى فكرته وينشرها بينهم بكل قواه ، بعدما يئس من استجابة العلماء له في نبذ التقليد وطرح الجمود ،

والقيام بتغيير المنكر الذي كان يجري على مرأىً منهم ومسمع . وبدل ان يمدوا إليه يد المعونة ويعزّزوا موقفه ، قاوموه وحرّضوا أمير المسلمين عليـــه ؛ فلم يسعه الا النجاةُ بنفسه واللجوء الى قومه ينشد عندهم الحماية والنُّصرة . ولقد لجـأ منهم الى مأمن حقـــاً ، حيثُ انتصب لنشر العلم وبثّ أفكاره ومبادئه في غير خوف ولا رقابة . وكان أكثر ما يدعو الى الأخذ بمذهب الأشاعرة في الاعتقاد ، وخاصةً في تأويل المتشابه من الآي والأحاديث ، الذي كان المغاربة لا يجنحون اليه أخذاً بمذهب السلف في ترك التأويل واقرار المتشابهات كما جاءت ؛ مشدّداً النّكير عليهم في ذلك وربما رماهم بالتجسيم . ولذلك سمّى أتباعه بالموحدين تعريضاً بخصومـــه من رجال الدولة والفقهاء وعامة أهل المغرب الذين كانوا كلهم على مذهب السلف في العقيدة . وكان من رأيه القول بعصمة الإمام، على رأي الإمامية من الشيعة . وألـّف في ذلك كتابه الذي افتتحه بقوله (أعزُّ ما يطلبه) فصار هذا الافتتاحُ عَلماً على ذلك الكتاب، ولم تُحفظ عنه فلتةٌ في البِدْعة سوى هذه على ما يقول ابن خلدون . ويظهر لنا انه مزج بين المهدوية والإمامية[1]، ولذلك كان اتباعه يعتقدون فيه الامرين معاً . وقد لبث الخطباء مدى طويلاً في ايام الموحدين يذكرونه بوصف الامام المعصوم المهدي المعلوم من فوق منابر المغرب كافةً . وعلى كل حال فانه عكف على التعليم وتربية من استجاب له من قومه في جبال سوس ، فكنت تراه طوال يومه يعقد المجالس الخاصة والعامة يلقي فيها الى الناس مذاهبه وآراءه ، متخذاً في ذلك الأساليب الموصلة الى المقصود بسرعة ؛ فتارة يملي بالبربرية وتارة بالعربية ، وكذلك فعل في تأليف الكتب مثل المرشدة ، وهي عقيدة خالية من البدعـــة ، مما يدل على انه لم يكن يعلن بآرائه السياسية للعموم أو أن تاليفه لها سابق عن إعلانه بمذهبه هذا الجامع بـين المهدوية والإمامية . ومهما يكن من أمر ، فان هذا التطور السياسي إنمـا طرأ على دعوته بعد خروجه من مراكش ولجوئه الى سوس . يدلنا على ذلك إجماع المؤرخين على عدم ذكرهم لشيء من آرائه السياسية فيما كان يصدر عنه من أقوال قبل ذلك ، وفي مناظرته للعلماء بمراكش بين يدي علي بن يوسف على الخصوص . وكما تنتشر النار في الهشيم كانت هذه الآراء مع مذهبه في التوحيد تنتشر في القبـائل ، وفي كل يوم يرتفع صيته ويؤمه الناس من كل جهة ، فيعرف كيف يستميلهم إليه ويدخلهم في

١ ـ انظر كتابه أعز ما يطلب ص ٢٤٥ وما بعدها .

دعوته ، حتى أصبح سلطاناً مطاعاً في جميع القبائل ، والمغرب إذ ذاك وفي كل وقت هو القبائلُ . وقد تأوّل الجميع عليه ما كان يحدثهم به عن المهدي والامام المعصوم ، فصاروا لا يدعونه إلا بأحد اللقبين .

وكانت هذه الأخبار تصِلُ الى مراكش فتثير حفيظة الدولة عليه . وكلما اشتدت صولته كلما أوجست الخيفة منه ، فتعضُّ اصابعَ الندم على إفلاته من يدها . وصممت العزم على مناوشته بالقتال ومبادأته بالمحاربة ، فأرسلت اليه أوّل طليعة في سنة ٥١٥ وهو بجبل تينمّل من بلاد سوس فهزمها .

ولا حاجة بنا الى القول إن المهدي ثابر في محاربة القوم ومناجزتهم القتال . وكانت الحرب بينهم سجالاً . غير أنه لم يفرح بالانتصار على خصومه في موقف مشهود . ومع ذلك فانه كان قويَّ العزم صحيح العقد في جهادهم واثقاً بالنصر عليهم وغلبتهم والإدالة منهم ، كما وعد بذلك أصحابه وهو يجود بنفسه . وكان حرّياً أن يشهد الدولة المرابطيّة تخرُّ من فوق عرشها العالي ويتهدّم بنيانها الشامخ ، لولا أن المنيّة عاجلته فتوفيّ وهو في زهرة العمر ٥٢٤ وخلفه رفيقه عبد المؤمن بن علي الكوميُّ الفتى الجلدُ الصّبور ، الذي كان لقيَ المهدي في ملاّلة قريةٍ ببجاية ، وهو في طريقه الى المشرق بقصد طلب العلم . فعدَل عن رحلته وصحِب المهدي مكتفياً بالدراسة عليه ، وهذا أحلّه منه محلا خاصاً وأشركه في أمره وكاشفه بخبيئة نفسه ، وكان هو وارثه وخليفته من بعده بعهدٍ منه ؛ فواصل عمله في محاربة المرابطين بدون انقطاع ، وجمع همّة الموحدين على هذه الغاية ، فلم يضع السيف من يده حتى دخلت دولة المرابطين في خبر كان .

وكانت هذه الدولة قد شاخت قبل الأوان وتمكّن منها الضعف أيّما تمكُّن ؛ فانهار كلُّ ما بناه لها ذلك العاهل العظيم يوسف بن تاشفين من آثار المجد الرفيع ، وأركان العز المنيع . وذلك ان ولده علياً برغم صلاحه كان ضعيفاً مستضعَفاً ؛ فغُلب على أمره واستقل الولاة بالأقاليم وعاد العُتوُّ والفساد في القبائل كما كان ، وبرزت المرأة الى مَيدان السياسة فلعبت دورها الذي طالما زلزل العروش وقلب الممالك . وهذا كافٍ في صرف النظر عن هذه الدولة وتوجيهه الى مَن يُحيط وحدة الأمة بسياج الحكمة والتدبير ويحقق أملها في مواصلة النهوض والتقدم . لذلك فان العقلاء

من أهل المغرب وعامّة أهل الأندلس ساعدوا حركة العصيان وناصروها في السّر والاعلان . والقبائل قد شاهدنا ما كان من رياضة المهدي لهم وتخريجهم في مدرسته ؛ فلم يكونوا محتاجين الى تجديد عهد ولا تثبيت طاعة ، فسُرعان ما دانت البلاد لعبد المؤمن الذي قوّض دعائم الدولة المرابطيّة ودوّخ المغرب من أدناه الى أقصاه . وسُرعان ما استقرّت الأحوال واستتبّ الأمن وعادت الأمور الى نصابها ؛ فقامت دولةُ الموحدين بمراكش شامخة البُنيان رفيعة الأركان . وتمّ الانقلاب الموحدي العظيم في مدة لم تكن تكفي في بادىء النظر لتجهيزه فأحرى تنفيذهِ . ولله في خلقه شؤون .

توحيد المغرب العربي

لـئن كان المهدي بن تومرت هو صاحب دعوة الموحدين والقائمُ على دولة المرابطين والممهّدُ للانقلاب والواضعُ لخطط الثورة التي اتـُّبِعت بالحرف ، فان عبد المؤمن هو رجلُ الدولة الذي اضطلع بتنفيذ جميع برامج الثورة والاستيلاء على مملكة المرابطين وتحقيق وحدة الشمال الافريقي ، مع الحرص على تطبيق مبادىء الدعوة الموحدية في الحقلين الديني والاجتماعي بأمانة واخلاص . ولقد صدق المهدي حين قيل له إن الموحدين قد هلكوا ، وذلك في وقعة البحيرة التي جرت بينه وبين المرابطين واستأصلت مُعظمَ أصحابه ، فقال : ما فعل عبد المؤمن ؟ قيل : هو على جواده قد احسن البلاء . قال ما بقي عبد المؤمن فلم يَهلِك أحد ...

نعم لقد كان عبد المؤمن بالنسبة لدعوة الموحدين كيوسف بن تاشفين بالنسبة لدعوة المرابطين ، هو الذي ابلغها كالها وقرطسَ أهدافها ونهض بأعبائها المادية والمعنوية نهوضاً تاماً ، فلم يُخلف ظنّ إمامه حين اختاره لصحبته ومعاونته على مهمته منذ لقيَه أول امره ، ولا حينَ قال فيه هذه الكلمة ورشّحه لخلافته من بعده . وهكذا لما بويع له من طرفِ الموحدين خرج مُغيراً على بلاد تادِلةَ ودرعةَ وغُمارة فاستولى عليها وتسابق الناسُ الى الدخول في دعوته أفواجاً ، وانتقضت القبائل على المرابطين ؛ مما يدل على أن التعفـُّن السياسي كان بالغاً فيها مداه . ثم صرَف عزمه لفتح بلاد المغرب

فخرج من تينَمَلّ سنة ٥٣٤ في غارةٍ طويلة دامت سبعَ سنين ، فلم يرجع منها حتى فتح المغربين الاقصى والاوسط . وهلك عليُّ بنُ يوسف وابنه تاشفين الذي وُلّي بعده في تلك الاثناء وألقت إليه فاس وتلمسان ومراكش بالمقاليد أواخر سنة ٥٤١ فخلصت له مملكةُ المرابطين في المغرب بأجمعها .

ثم بدأ يهتمُّ بأمر الأندلس ، فما عتّم أن قدِم عليه وفدُها وهو بمراكش للبيعة سنة ٥٤٢ وأرسل إليها جيشاً بقصد تمهيدها ومدافعة العدوّ الذي اغتنم فرصة الانقلاب الموحدي فأغار على أطراف البلاد .

وطمح الى الاستيلاء على بقيّة الشمال الافريقي. وكانت دولة بني زيري الصنهاجيّين المعروفين ببني حمّاد ، تسيطرُ على القسم الشرقي منه بما فيه من ولاياتٍ جزائرية وتونسيّة ، إلا أنها قد ضعُف أمرُها وتطاول عليها الثوار من عرَب هلال . وعدا النورمانيّون وهم إفرنجُ صقلّية على السواحل فأخذوا صفاقُس وسوسة والمهديَّة ، ولقي السكان منهم هولاً عظيماً ، فتوجّه عبد المؤمن الى هذه الناحية سنة ٥٤٦ ومهّد أمرها باستيلائه على بجاية وقلعة حمّاد وقُسنطينة . ورجع الى المغرب ، ثم عاد اليها سنة ٥٥٤ بجيش جرّار ؛ فدخل تونس وضرب الحصار على المهدّية ، وهي من أمنع ما يكون ، يحيط بها البحر من ثلاث جهات ، فتركها محاصرةً برّاً وبحراً . ومضى يفتح طرابلس وصفاقُس وسوسة ، وجبال نفوسة وسائر بلاد افريقية الى برقة . ثم سقطت المهدّية في يده أواخر السَّنة بعد هزيمة الأسطول الذي أتى لنجدتها .

ورجع عبد المؤمن الى المغرب وقد ضبط أمر هذه البلاد وأصلح شأنها ولم يسترح إلا قليلاً . ثم عبر البحر الى الأندلس سنة ٥٥٦ ونزل بجبل طارق وكان قد أمر ببنائه وتحصينه ، وكان يسميه جبل الفتح ؛ فأقام به شهرين وأشرف منه على أحوال الأندلس ، ووفد عليه قوادُها وأشياخُها ؛ فأمر بغزو غرب الأندلس فغُزي وكان الظفرُ فيه للمسلمين . ثم عاد الى المغرب وأخذ في الاستعداد للجهاد ؛ فأمر بانشاء الأساطيل ونظر في استجلاب الخيل والاستكثار من أنواع السلاح والعُدد . وحين كان على أتم أهبَة وافاه الأجل المحتوم في جمادى الثانية سنة ٥٥٨ برباط سلا . وكان أعظم أعماله بعد إرساء قواعد الدولة الجديدة هو توحيد أقطار الشمال الافريقي ، أو ما يسمى اليوم بالمغرب العربي وتكوينه منه دولة قوية زرعت الرُّعب في قلوب الأعداء ؛

فحقق بذلك أعظم أمل لا يزال يُخالج نفوس السّاسة والمهتمّين بمستقبل هذه البلاد ، خصوصاً في العصر الحاضر ، الذي أصبح شعاره قول الشاعر « وإنما العزة للكاثر ».

ولما تولى ولده يوسف سار على أثره في الحزم والتدبير وحياطة مملكته الشاسعة الأطراف ، وكان له بالاندلس اهتمام خاص . جاز اليها جوازه الأول سنة ٥٦٧ فاستولى على شرقيّها ، وكان لم يدخل قبل في طاعتهم وحقق أمل والده في غزو أرض العدو فكانت له فيها وقائع منصورة . وأقام بالاندلس يغزو ويعمرُ البلاد ويشيد الآثار مدة خمس سنين ، ثم رجع الى المغرب وخرج الى افريقية سنة ٥٧٥ فتعهد نواحيها بالاصلاح والتنظيم ، وعاد الى مراكش بعد ان قضى سنتين في رحلته هذه . ثم جاز الى الأندلس جوازه الثاني سنة ٥٧٩ حيث أُصيب في ساحة الشرف على أبواب مدينة شنترين وتوفي في ربيع الثاني سنة ٥٨٠ وبويع هناك لولده يعقوب المنصور الذي بلغت الدولة في أيامه الى منتهى القوة والعظمة . وكان عهده العهد الذهبي للمغرب سواء من ناحية استبحار العمران وازدهار الحضارة أو من ناحية استقرار النظام وانتشار العدالة ؛ فكانت المرأة تخرج من بلاد نول فتنتهي الى برقة وحدها ، لا ترى من يعرضُ لها ولا من يمسُّها بسوء . وكان الدينار يقع من الرجل في الشارع العمومي فيبقى ملقى لا يرفعه أحد عدة أيام الى أن يأخذه صاحبه . ويمكث القاضي الشهر وأكثر لا يجد من يحكم عليه لتناصف الناس وارتفاع مستواهم الخلقي . وكان المنصور ينظر بنفسه في المظالم ، حتى إنه لينظر في قضية الدرهم والدرهمين وينصف من نفسه ويمتثل لحكم القضاة . وبقدر ما كان له من جولات مظفرة في تثبيت السلطة بأقطار إفريقية ، كان لا يغفل عن القطر الأندلسي والسهر على حركة الجهاد فيه ، حتى يفلّ من غرب العدو المستأسد على أهله . أما في إفريقية فان أهم عمل قام به لضمان استتباب الأمن هناك هو تدبيره لأمر العَرب من بني هلال الذين طالما أقلقوا راحة السكان منذ أن سرّحهم الفاطميون للتشويش على ملوك بني زيري ، فلم يرَ أصلح لهم من نقلهم الى المغرب حيث أعمرهم ناحيتي الحوز والغرب ، فانقطعوا عن الصحراء التي كانوا يعتصمون بها من السلطة بعد ما يعيثون في الأرض فساداً . وبذلك انحسمت مادّتهم وأفادوا في تعريب الناحيتين المذكورتين وما اتصل بهما من مواطن البربر .

وأما في الأندلس فانه منذ ولي لم يفتر عن مواصلة الجهاد بنفسه وبواسطة كبار

قواد جيشه ، إلا أن المعركة الكبرى التي خاضها ضد الفونس الثامن ملك قشتالة[١] كانت أجلّ أعماله الجهادية . وتسمى غزوة الأرك باسم الحصن الذي دارت حوله . وكانت يوم الخميس ٩ شعبان سنة ٥٩١ وشارك فيها جيش الأندلس والعرب والموحدين وسائر قبائل المغرب فضلا عن المتطوعة والعبيد ؛ فهزم العدو هزيمة شنعاء وقتل من رجاله عدد كبير . وأما الأسرى والغنائم فشيء يفوت العدّ والاحصاء. وكانت هذه الواقعة أُختَ الزَّلاَّقة في خضدِ شوكة النصارى والتمكين للاسلام في أرض الأندلس الى أمد بعيد .

وقد اشتهر ان السلطان صلاح الدين الأيوبي استنجد بيعقوب المنصور في حربه مع الصليبيين على بيت المقدس، ورجاه أن يبعث بأساطيله ليحول بينه وبين أساطيلهم المتدفقة على بلاد الشام فلم يجبه ، وأن ذلك فيما يروي المؤرخون لكون صلاح الدين لم يخاطبه في رسالته بأمير المؤمنين . وهذا تعليل بارد لا نراه يتفق مع أخلاق المنصور وعلو همته وبُعْدِ نظره ، وإنما الحقيقة أن صلاح الدين كان سرَّح مولاه قراقوش لبلاد المغرب سنة ٥٦٨ ففتح طرابلس وما والاها من البلدان ووضع يده في يد العرب وابن غانية[٢] وشغَّب كثيراً على المنصور مما سبب له متاعب جمَّة في بلاد افريقية، لولاها لكان له في بلاد الأندلس فتوحات عظيمة لا تُقدَّر بقيمة . فهذا هو السبب الحقيقي في إعراض المنصور عن نجدة صلاح الدين الذي ضربه من الخلف وأراد ان يغرّر به لاتمام الضربة والا فأعمال المنصور في الجهاد واعلاءِ كلمة الاسلام لا تقِلُّ عن أعمال صلاح الدين .

ويقال إنه بعد ان صرف رسوله جهّز من أساطيله لهذا الغرض ١٨٠ قطعة ومنع

---

١ — *A. G. Palencia : His. de La Espanà musulmana. p. 108.*
وقد اضطربت كلمة المؤرخين العرب فبعضهم يجعله الفونس الثالث وبعضهم يجعله التاسع وكلاهما لا يصح .

٢ — بنو غانية هم بقية من المرابطين كانوا يَلون جزائر شرق الأندلس المعروفة اليوم بالبليار . وكثيراً ما شوشوا على الموحدين بهجومهم على مدن الساحل الافريقي المواجه للجزائر المذكورة . وكان أولهم محمد بن علي بن يحيى المَسوفي ، عُرِف بغانية أُمّه ، وآخرهم يحيى بن إسحق بن محمد المذكور والقائم منهم على المنصور هو علي أخو يحيى .

النصارى من سواحل الشام . ويؤيد هذا ما كان له من الصيت عند أهل الشام ، حتى إنهم أقاموا له مشهداً بالقرب من دمشق على ما عند ابن خلكان .

وتوفي المنصور سنة ٥٩٥ وخلفه ولده محمد الناصر وكان كأبيه همةً ونجدةً وشجاعة . وفي أوائل ايامه واجه ثورة ابن غانية بافريقية فقضى عليها وقتل ابنَ غانيةَ وأراح البلاد من فتنته وعيثه . وبعث بأسطول من مرسى الجزائر الى جزائر شرق الأندلس المعروفة بالبَلْيار ؛ فاقتحمها وكانت هي مَعقِلَ بني غانية ، استقلُّوا بها منذ اضمحلال دولة المرابطين . وباستيلاء الناصر عليها انهارَ آخرُ حصن للمرابطين كانوا يُروّعون به أمن السكان في شرق الأندلس وافريقية ويهددون منه سلامة الدولة الموحّدية . ومع أن هذا العمل الذي افتتح به الناصرُ مدّة حكمه يدل على توفيقه وحسن سياسته ، فان الحظّ خانه في الواقعة التي جرت بينه وبين القوات المتحدة للممالك النصرانية بالأندلس في صفر سنة ٦٠٩ وتسمى بالعِقاب[1] وكانت من الوقائع الفاصلة التي عجّلت بسقوط الاندلس وأدالت بها للنصرانية من دولة الاسلام ، ثم كانت هي مبدأ سقوط الدولة الموحدية وإن دامت بعدها أكثر من نصف قرن .

ان هذا الاستعراض السريع لما بذله رجال الدولة الموحدية من جهود جبارة في سبيل إقرار الوحدة المغربية والدفاع عن تراث الاسلام في اسبانيا لمـّا ينبىء عن عقيدة راسخة وايمان قوي بالمهمة السامية التي كان على المسؤولين في الدولة الجديدة ان يضطلعوا بها . فما كانت دعوة المهدي إلا دعوة توحيد وتجديد للمفاهيم الإسلامية التي تبعث روح القوة والعزم في نفوس المسلمين فينهضون للعمل بجد لحماية بيضتهم وحفظ كيانهم المادي والمعنوي . وتحت تأثير هذه الدعوة اندفع الموحدون لمقاومة القوات المسيحية الحليفة من ممالك قشتالة وليون ونبارّة وأراغون التي تدفقت على بلاد الاندلس معزّزة بعطف البابا وبالفرسان الصليبيين الذين جاءوا من مختلف بلاد أوربا يريدون سحق المسلمين . كذلك كانت مملكة النورمان الناشئة في صقلية أوائل القرن السادس الهجري قد اقتحمت مُدُن الشاطىء الافريقي

١ – هو بكسر العين موضع بين جيان وقلعة رباح ، قاله في الروض المعطار .

واستولت على ثغر المهديّة أعظم حصن في هذا الشاطىء . فلولا قيام الدولة الموحدية التي استطاعت ان توحد الصفوف وتجمع الكلمة وتكوّن من أقطار افريقية الشمالية هذه القوة العتيدة التي حاربت في آن واحد في كلتا الجبهتين الاندلسية والافريقية لعصفت القوات النصرانية ببعض تلك البلاد أو بها جميعاً في ذلك الحين .

وقد ظهر من سياق الاحداث التي قارنت قيام هذه الدولة أن ملوك الموحدين قطعوا تلك الصلة التي تقرُّ بتبعيّة المملكة المغربيه لدولة الخلافة العباسية كما كان عليه الأمرُ في دولة المرابطين . ومن ثمَّ فانهم لم يحجموا عن اتخاذ لقب أمير المؤمنين وانتحال وصف الخليفة نفسه ، ولعل ما شجّعهم على ذلك هو حكمهم للاندلس وافريقية الشمالية جميعاً ، وكان بنو أُميّة بمجرد توطد مُلْكِهم في الأندلس قد ادَّعوا الخلافة وتلقّبوا بأمير المؤمنين ، فضلاً عن ضعف أمر الخلافة العباسيّة في هذا العهد ، ولا سيما وقد مات العاضد لدين الله آخرُ خلفاء الفاطميين الذين كان قيامهم من المغرب ، فأقام صلاح الدين الأيوبي منافسُ يعقوب المنصور دعوةَ بني العباس في مصر ، وقبْله في سنة ٥٤٩ أي عند استتباب الأمر لعبد المؤمن ، كان الخليفة العباسي المقْتفي لامر الله كتب عهداً لنور الدين محمود ابن زَنكي مخدوم صلاح الدين وولاّه مصر وأمره بالمسير اليها . وكان قد تملّك دمشق في ذلك العام ، فلم يمنعه من قصد مصر إلاّ شغله بحرب الفرنج[1] . والمقصودُ أن هذه العوامل مجتمعةً كانت تشجع ملوك الموحدين على الاتصاف بالخلفاء وأمراء المؤمنين مع ما عُلِمَ من انتسابهم في قيْس عَيْلان بن مُضَر ، وكونِ دعوتهم كما أرادها المهدي أولَ مرة تستهدف إصلاحَ أحوال المسلمين عامةً ، بدليل قيامه بالنكير للأوضاع الفاسدة في مصر بل حتى في مكة على ما يُروى في ترجمته،فما بالهم لا يروْن أنفسهم أحقَّ بها واهلها ؟..

واذا كان هذا من أهم الفوارق بين دولة الموحدين ودولة المرابطين التي لم تَنْقَدْ في حبل الادّعاء قط ، فانّ السيطرة التامة على كامل التراب المغربي من بلاد نول الى أرض برقة هو مما تميزت به الدولة الموحدية في الميْدان الحربي وجعلها في الوقت نفسه

---

١ – تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٩١ .

دولة ً بحرية ً قوية ً ذات اسطول عظيم يَضمنُ لها السيادة المطلقة على غرب البحر الابيض المتوسط ومضيق جبل طارق ، بحيثُ لم تكتف بحماية الشاطىء الافريقي بل منعت تدفُّق القوات الصليبية القادمة من الغرب على سواحل الشام ، هذا الى ما جنَتْه البلاد من ثمار الدعوة الموحدية ، اذ كانت دعوةً إصلاحيةً تقدُّميةً ، في المَيْدان الثقافي والديني مما نتناوله بالبحث في الفصول الآتية .

الدّولة وَالثقافة العَربيَّة

ما هزَّ عِطفيْه بين البِيض والأسل مثلُ الخليفة عبد المؤمن بن علي

بهذا المطلع المُطرب وحده ، وهذا البيت البليغ المفرَد ، مدَح محمدُ بن أبي العباس السَّمْعانيُّ عبدَ المؤمن بنَ عليّ الذي استعاده منه واستعاده ، وأمره بان يقتصر عليه ، وأجازه فيما يقول العِماد الإصبهانيّ في كتاب الخَريدة بالف دينار قائلاً له : لقد قلتَ في هذا كلَّ شيء .

نعم ، لقد قال فيه كل شيء . أليس قد مدحه بالشجاعة والتفوق فيها ، حتى نفى عن غيره أن يكون هازّاً عطفيه مثله ، في الوغى المرتفعة بين السيوف اللامعة ؟ وانظُر أنتَ الى رشاقة هذا التعبير وما فيه من الحسن والجمال ، أليس يدعو الى الاعجاب بحسن خَلق عبد المؤمن قبل الاعجاب بحسن خُلقه وبرشاقة قدّه واعتدال مِشيته قبل شجاعة قلبه وثبات جأشه ؟ وفوق هذا وذاك أليس قد دعاه بالخليفة ؟ وهذه هي الأمنية الحلوة التي طالما تمنَّاها ملوك الاسلام وحلموا بها في منامهم ، حتى المضروبُ على أيديهم منهم ، فيعدُّون الشرف الصميم والفخرَ العظيم والغاية التي لا قبلها ولا بعدها أن يُنعتوا بالخليفة ، فيكونوا ظلَّ الله في أرضه ووارثي سرّ النبوة وواضعي أيديهم على رقاب ملايين البشر . لذلك فعبد المؤمن الناقد البصير يحقُّ له ان يُشير على السمعاني بالاقتصار من القصيدة على مطلعها هذا لأنه كما قال قد جمع كل شيءٍ يمكن ان يقوله شاعر في ملك ذي صوْلة وبأس مثلِ عبد المؤمن . وهو من جهة

أخرى خشي أن يدرسَ البيتُ ويَضيعَ في تضاعيف القصيدة فإبقاؤه على حاله من الفردية أدعى الى حفظه وسيره وتخليده في الناس .

وبعد ، فهذا مثال واحد من امثلة تنشيط عبد المؤمن للادب والاخذ بضبعه واكرام أهله وإحلالهم منه المحل اللائق بهم ، وإدرار الصلات الطائلة عليهم ؛ ففي كل رحلة ، وفي كل احتفال عيدٍ وغيره ، وفي جميع المظاهر العادية وخلافها والمقابلات الرسمية والمواقف العامة ، كان يجلس الى الشعراء ، وما أكثرهم في دولته ؛ فمن اندلسيين الى مغاربة الى أفارقة ومنهم الى مصري وشامي وعراقي وغيرهم ، يحاورهم ويساجلهم فينثرون عليه من عقود مدائحهم كل نفيس غال ، فيحسن الاستماع اليهم ويسرُّ من ثنائهم عليه وينتقد هذا ويقرّظ ذاك ، وفي الاخير يجيز الكل ويفيض عليهم من سيب عطائه وبحر نواله .

وهنا يحسن أن أورد للقارىء ما ذكره صاحب المعجب في وصف احتفاله ببيعة أهل الأندلس له على ظهر «جبل الفتح» كما كان يسمي هو جبل طارق ملخصاً قال : « ونزل الجبل المعروف بجبل طارق وسماه هو جبل الفتح فأقام به أشهراً وابتنى قصوراً عظيمة ، والمدينة الباقية الى اليوم ووفد عليه وجوه أهل الأندلس للبيعة كأهل مالقة وغرناطة ورندة وقرطبة واشبيلية وماو الى هذه البلاد ، وكان يومٌ عظيم اجتمع فيه من وجوه البلاد ورؤسائها وأعيانها وملوكها من العدوة والأندلس ما لم يجتمع لملك قبله ، واستدعى الشعراء وكان على بابه طائفة أكثرهم مجيدون ، فكان أول من أنشده ابو عبدالله محمد بن حبوس من اهل فاس قصيدة اجاد فيها ما أراد :

بلغَ الزمانُ بِهَدْيكُم مَا أَمَّلا   وتعلَّمت أيامُه ان تعدِ لا
وبِحَسْبِه أَنْ كان شَيْئاً قابلاً   وجد الهدايةَ صُورةً فتَشكَّلا

وانشده ابنُ الشريف المعروف بالطليق المرواني :

ما لِلْعِدَا جُنَّةٌ أَوْقى مِن الهرَب ؟

فقال عبدُ المؤمن الى أين ؟ الى أين ؟ رافعاً بها صوته فقال الشاعر :

أينَ المفَرُّ وَخيْلُ اللهِ في الطَّلب ؟!

وأينَ يذهبُ مَن في رأسِ شاهِقَةٍ وقــد رَمَتْهُ سمـــاءُ الله بالشُّهب

حَدِّثْ عنِ الرُّوم في أقْطَارِ أندَلُسٍ والبَحْرُ قـد مَلأَ العِبْرَيْنِ بِالعَرب

فلما أتمَّ القصيدة قال عبد المؤمن بمثـــل هذا تمدح الخلفاء ! وأنشد ابنُ سيِّد الاشبيلي الملقب باللص :

غَمِّضْ عن الشمس واستقصِرْ مَدَى زُحـل

وانظر الى الجبـل الرَّاسي على جبـــل

أَنَّى استقرَّ بِهِ ؟ أَنَّى استقـلَّ بـــه ؟

أَنَّى رأى شخصَه العـــالي فـــلم يَزُل

فقال له عبد المؤمن لقد أثقلتنا يا رجل ! فأمر به فأجلس . وأنشد محمد بنُ غالب البلنسيُّ المعروف بالرُّصافي :

لو جِئْتَ نارَ الهُدى من جانِبِ الطُّور قَبَسْتَ ما شِئتَ من علم ومن نور

الخ » هذا وغيره يفيدك بالخبر اليقين عن عناية الموحدين بالأدب ويـــدلك على نشاط الحركة الأدبية ونفاق سوقها في هذا العصر الزاهر ، حتى عمَّت البدو والحضر والعرب والبربر ؛ فأخصبت الأفكار وتفتحت العقول واتت الآداب والفنون أُكلها الشهي وثمرها الجنيَّ . أما الفضل في ذلك كله فانه يرجع الى عبد المؤمن وحده الذي عرف من أين تؤكل الكتف ، فاستغلَّ جميع عناصر الحياة التي كانت متوفرة في عهد الملوك المرابطين قبـــله ولم يَترك من وسائل التشجيع وأسباب التنشيط شيئاً الاَّ فعله ، واستحدث في ذلك أساليب خاصةً به ، وكيفيات لم يتتَبِع فيها أحـــداً . ولعلَّ

ذلك راجعٌ لما تلقّفه عن استاذه ومربيه المهدي بن تومرت من أنواع المعارف وفنون الآداب ، ولِما تطور فيه من الأطوار ، ولعِبـه من الأدوار ، وما جرّبه بنفسه من تصاريف الدهر وتقلبات الزمان، فليس يُنكر انه استفاد من ذلك كله وأنه في مدرسة الحياة هذه ، درس علوم الاجتماع والنفس باجمعها . غير أنّا إن اعتبرناه هو منشىء الحركة وموجدها وصاحبَ الفضل الكبير فيها ؛ فلا ننسى ما بذله خلفاؤه الصالحون ، كيوسف ابنه ويعقوب المنصور ومحمد الناصر وغيرهم من أعقابه وأحفاده ، والأمراء الموحدين الآخرين الذين كانوا مقيمين بالأندلس وإفريقيـة ؛ فإنّ لهؤلاء أيضاً فضلاً كبيراً في قيام الحركة الأدبية واستمرار تقدُمها الى الأمام . إنمـا نحن في سائر تلك البلاد لا يهمنا إلا المغرب إذ هو موضوع كتابنا هـذا وقد وقفناك على مبدأ الأمر فيه فلنوقفك على منتهاه .

كان عبد المؤمن رجلاً ثقْفاً حاذقاً متحققاً بكثير من فنون العلم والأدب ، قـد تلقّف عن المهدي بن تومرت ما اتى به مـن المشرق ، وزادته الايام حُنكةً وتدريباً على الأمور ، فجعلت منه ذلك العبقريّ الفذّ ، الذي يندُر ان يجود الزمانُ بمثله إلا في الفيْنة النادرة . ولقد استخدم مواهبه كلها في تثبيت مركز الدولة وتقرير مستقبلها الحفيل بالعظائم ، حتى شاد لها ذلك العز المكين والفخر المبين ، الذي بقيَ ذكره مخلداً في بطون التواريخ . وكان همّاماً بكل معاني الكلمة لا يستعظم مطلبـاً ولا يستبعد غايةً ، ملوكياً ، كما يقول المراكشي ؛ كأنه ورث الملك عن آبائه واجداده ، فلم يقصُر نظره على أمر خـاص من امور سياسة الدولة ، ولم يوجه عنايته الى ناحية واحدة من النواحي العديدة التي يتطلبها إصلاح المجتمع ، بل كان يُقبل بكلتيه على كل أمر جليلٍ أو حقير ، صغيرٍ أو كبير فيرتقُ الفتوق ، ويرأب الصدوع ، ويتقـن عملية المزْج والتلقيح بين العناصر المختلفة ، والأجناس المتباينة ، ولقد خصّ الأندلس قبل المغرب برعايته وحمايته ، وعرَفَ ما لأهلهـا من فضل ويدٍ في تقدُّم المعارف العامة ، واستخلص منهم صَفوْةَ الصّفوْة ، واختصّ بعلمائهم ، وقرّبهم من مجلسه ، وجعلهم بِطانتَه وأهل مشورته ، فأفاد ذلك المغرب والمغاربة كثيراً .

ولا نُريدُ أن نطيل بالكلام على ما عمِله أعقاب عبد المؤمن في هذا الصدد ، فما جئنا بنموذج مما عمله هو ، إلا ليكون نموذجاً عاماً عن جميع أعمال أعقابه ، خصوصاً وقد تتبّعوا خُطاه ، وترسّموا آثاره في ذلك، ومن لم يزد منهم على ما عمله هو في البرّ

بالعلماء والعلم ، لم يُقصّر عنه أصلاً ، غير ان تأثير هذه السياسة التعليمية لم يبلغ من القوة في زمنه، بحيث تظهر نتائجه لكل انسان، ما بلغ في زمن يوسف ابنه، ويعقوب حفيده ، ومن بعدهما ، اذ قد ازهر غرس عبد المؤمن وأثمر ، بتعهد ابنائه له بالسّقي والري ، فتفتحت الأفكار ، وتنورت العقول ، واتسعت المدارك ، وبلغ الشعب المغربي إلى درجة عالية من الثقافة العلمية ، حتى لقد استجلى المنصور ذلك ، واصبح مضطراً الى عدم الاستمرار في مغالطة الشعب الناهض ببعض التعاليم والشعائر ، التي أتت بها دولتهم ، وكانت الغاية منها سياسة محضة كالمهدوية وعصمة الامام ؛ فتقدّم بإلغائها الى الشعب الذي قابلها بمزيد الحماس ، لمّا كان باقياً على سذاجته ، ونبذها نبْذ النواة ، لمّا حصْحص الحق وتبين الصبحُ لذي عيْنين . على أن الغريب في أمر هذه الدولة التي رأينا ما بذلته من جهود في خدمة الثقافة الاسلامية العربية ، ونقل الشعب المغربي من حضيض الجهل والجمود الى أوْج المدنية والعرفان ، هو اعتناؤها الزائد باللغة البربرية ، وعدم نسيانها لها ، حتى بعد استقامة أمرها ونجاح مطلبها ، فلقد بلغ من محافظتها عليها ، وتكريمها لأهلها ان حظرتْ الوظائف الدينيّة على من لا يحسنُ التعبيرَ بها ، بل عزلت الخطباء ، وخطيب القرويين نفسه من الذين ليسوا ببربر أو ليسوا ممن يتكلمون البربرية ، ثم ولّت مكانهم من يضطلع بالمهمة المزدوجة ، وينطقُ اللغتين[1] معاً .

والحق أن هذا تصرف غريب ، وفي منتهى الغرابة ، يجعلنا نقف امامه حائرين مشدوهين ، لا نعرف سبيلا الى التوفيق بينه وبين ما قدمناه من سهر الدولة على تعميم نشر العلم والثقافة العربية .

أما المؤرخون ، فلم يذكروا لنا السبب الحامل على هذه السياسة الرجعية التي

---

١ — أشار صاحب القرطاس الى هذا الإجراء في موضعين من كتابه ، أثناء كلامه على بناء القرويين حيث قال : « فلما دخل الموحدون المدينة يعني فاسا ، بدلت أحوال بأحوال ، ورجال برجال ، وبدل الخطباء والائمة بجميع البلاد ، فكان لا يؤم الا من يحفظ التوحيد بلسان البربر » . واثناء الكلام على خطباء القرويين حيث ذكر انهم لما دخلوا فاسا عزلوا خطيب القرويين أبا محمد مهدي ابن عيسى ، وقدموا مكانه الفقيه أبا الحسن بن عطية « لأجل حفظه اللسان البربري لأنهم كانوا لا يقدمون للخطابة والامامة الامن يحفظ التوحيد باللسان البربري » ولم يشر الى هذا الأمر في اثناء كلامه على الدولة الموحدية .

سلكتها الدولة بإزاء رجال الدين العرب ولا كيف كان تأثيرها في نفوس هؤلاء ، وفي نفوس الجماهير الشعبية ، وخاصة في كبريات المدن كفاس ومراكش وسبتة وطنجة ، والى أي مدى بلغ انتشارها وكان نجاحها ؟

وأما نحن فنستطيع أن نقول في قليل من التردُّد والحذر ، إنه ربما كانت هذه السياسة من تقليد الموحدين الأعمى لابن تومرت ، واقتدائهم به في إلقائه دروسه بالعربية والبربرية ، وكتابته تآليفه باللغتين ؛ فإن يكن ذلك كما قلنا ، فانه من الأغلاط الفادحة ، والاخطاء الفاحشة . وعجيبٌ صدوره من عبد المؤمن العارف بمقتضيات الأحوال ، ومناسبات الأمور إذ أن الظروف الزمانية والمكانية التي اضطرَّت المهدي الى ذلك ، هي غير الظروف التي قامت فيها دولة عبد المؤمن وتمركزت .

فابن تومرت كان مفتقراً الى حماية البربر له ، ومضطرّاً الى مُصانعتهم لمساعدته في القيام بنشر دعوته ، وهو مع ذلك قد بثَّ العربية في تلك الأوساط البربرية البحت ، وارتكب أعجب الأساليب في تلقينها لمن يجهلونها[1] .

ولم يستعمل البربرية إلا بقدر الحاجة اليها . أما عبد المؤمن فقد كان على الضد من ذلك كله ، إذ كان طورُ التأسيس وتأليف البربر قد انتهى بالنسبة اليه ، وأصبح هو وحده صاحب النفوذ المطلق في البلاد ، بعد أن قضى على المرابطين ، وأنشأ الدولة الموحدية باسم الدين . فلمَ لم يُرَسِّم لغة القرآن ، ويستغني بها عن غيرها ؟ ولمَ هذا التعصب للبربرية الذي أدَّى الى تنحية رجال الدين عن وظائفهم ، واحلال آخرين ربما كانوا أقلَّ منهم علماً وإخلاصاً في محلهم ؟ لا نرى ما يُسَوِّغُ لعبد المؤمن هذا التصرف الغريب ، اللهم الا ان يكون باعثُه عليه احد أمرين كلاهما يرجح الآخر :

١ – فإما أن يكون مرادُه تحدّي العرب بذلك ، ليتوسل الى ابعادهم عن

---

١ – من ذلك فيما حكى المؤرخون ، أن طائفةً من المصامدة عسر عليهم حفظ الفاتحة لشدة عجمتهم فعدد كلمات أم القرآن ، ولقب بكل كلمة منها رجلا منهم ، وصفهم صفاً ، وقال لأولهم : اسمك الحمد لله ، والثاني رب العالمين وهكذا حتى تمت كلمات الفاتحة ، ثم قال لهم : لا يقبل الله منكم صلاة حتى تجمعوا هذه الأسماء على نسقها في كل ركعة ، فسهل عليهم الأمر ، وحفظوا أم القرآن .

مواقف الزعامة الدينية ، ومواطن قيادة الفكر العام خوفاً من انتقادهم عليه في يوم ما ، ونبذهم طاعته بالعراء كما حدث بالفعل في أيامه الأولى ، فقد ثاروا ضده مرتين ، مرة في سَلا بقيادة ابن هود ، ومرة في سبتة بقيادة القاضي عياض . ولا نرتاب في أن ثورة ابن هود كانت سياسية محضة ، لاتباعه خطة المهدي حَذوَ القُذَّة بالقذَّة ، أملاً في النجاح الذي حصل للمهدي ، وقد ساعده الحظ في أول الأمر ، وكتِب له النصر في جميع المواقع حتى كاد يتغلب على جميع مملكة عبد المؤمن الشاسعة .

ويقول ابن ابي زَرْع : انه لم يبقَ بيد عبد المؤمن الا مراكش فقط ، الا ان صاحب الحُلل الموشية قال : ان فاساً بقيت معه كذلك . ثم دارت عليه الدائرة ، وتمكن عبد المؤمن من إخماد ثورته ورجَع الأمر الى نصابه .

وأما ثورة القاضي عياض ، فقد كانت مزيجة بين دينية وسياسية ، ولكنها دينية اكثر منها سياسية ، إذ ان أهل سبتة ، قاوموا الموحدين أولاً نزوعاً منهم عن الخضوع لسلطة بدعية تعتقد في الامام ، والعصمة ، ما يُنكره أهل السنة الذين كان عياض من زعمائهم ، فهذه وجهة نظر عياض ومن كان معه من العلماء السنيين أيضاً ولكن لما سقطت كل البلاد المغربية في حوزة الموحدين ، لم يبق لهم الا التسليم طوعاً أو كرهاً ، وهو الذي كان ، ثم لما حدثت ثورة ابن هود ، اغتنم القوم الفرصة ، فأعادوا الكرة استينافاً لتأييد رأيهم الاول ، وتحدياً لسلطة الموحدين التي رأوا منها انحرافاً ظاهراً عنهم ، ولربما اشتموا منها رائحة الغدر بهم ، وقد اضطروا اخيراً الى التسليم ايضاً ، وتشتت شمل القائمين بالثورة ، وتربص ببعضهم حتى توفي حتف أنفه .

٢ – وإما ان يكون أراد استرضاء البربر بذلك ، واستبقاءهم على حالهم الأول ، إذ كان قد تقرّر عندهم أنهم اهل التوحيد الحق ، والاسلام الصحيح ، وغيرهم مبتدعةٌ ومقلدون ، لا يصح الاقتداء بهم كما لا يصح ان يقفوا مواقف الوعظ والارشاد لئلا يضلوا العامة ، وينحرفوا بهم عن مذهب الدولة ، فهو قد اتخذهم تكأة يستند اليها في اقامة سلطانه ببث المذهب المهدوي الإمامي في الناس .

ومعلوم ان ليس من يقرّره للعامة، ويبينه لهم الا البربر الذين تلقوه عن صاحبه مباشرة إذ كانت أكثرية الرعية وجلُّ أهل العلم ، ان لم نقل كلهم في البلاد سنيين ، لا يرضون بالدخول في ذلك المذهب ، فأحرى ان يقوموا بالدعاية له .

هذا أو ذاك هو ما يكون الحامل لعبد المؤمن على سلوك هذه السياسة الرّجعية كما حبب الينا أن نسميها ، ولئن كنّا لا نعرف متى توقف العمل بها ، فاننا نعرف أن حظها في النجاح كان قليلاً جداً ، اذ لم يكن لها تأثيرٌ ما في ناحية من نواحي النهضة الأدبية المستجدة في ذلك العهد ، إما لحصرها في دائرة مخصوصة ، وهي الدعـــاية الدينية كما علمت ؛ وإما لان الموحدين أنفسهم كانوا لا يساعدون تقدمها في السرّ ، وان ساعدوها في العلانية ، فلذلك لا خوف على العربيـــة ما دامت دائرة انتشار البربرية محصورة ، لم تشمل من المرافق العامة ، والمصالح المشتركة سوى ما ذكر ؛ زد على ذلك أن الأغلبية التي لا تغالب عربية ، فهي لا تتأثر بهذه الشرذمة القليلة من الدُعاة البربريين ، كما أن أهل الكفاءة والاستعداد الذين احتلوا المناصب الرفيعـة والمراتب العالية في الدولة بالرغم عنها ، وبحكم مساس الحاجة الى مؤهلاتهم العلمية ومواهبهم العقلية ، كلهم عربٌ مغاربة وأندلسيون ، فلا خوف على ما كان أولئك القادة حاميته وذادته . وهكذا لم يلبثوا ان صبغوا الدولة بالصبغة العربيـة ، وطبعوها بطابعهم الصميم .

•

الحركة العلمية

بُذِرت بذور النهضة العلمية الكبرى التي نمت وترعرعت على عهد الموحدين في ايام المرابطين . وكانت الغايـــة المتوخّاة من حركة عبد الله بن ياسين هي نشر الدين والتمكين لتعاليمه السَّمحة من النفوس ؛ فاستتبع ذلك رفع راية العلم والعرفان ، ضرورة أنَّ الدين الاسلامي والمعرفة متلازمان . ولما قام المهدي بن تومرت بحركته كان يرمي الى غاية أبعد من غاية سلفه وهي تجديد الدين . وهذه مهمّة تقتضي من التوسُّع في العلم أكثر مما يقتضيه نشر الدين، فلذلك كانت العلوم على اختلافها من عقليَّة ونقليَّة ألزم للدعوة الموحديَّة من أختها المرابطية بطبيعة الحال .

وبكل اعتبار فان الأساس الذي وقع عليه البناء في هـــذا العهد هو من وضع المرابطين . فقد كانت تلك الحماسة الدينية وما صحبها من الإقبال على طلب العـلم ولو الديني فقط ؛ ممـــا دفع بالناس الى حُبّ البحث والاطلاع ، وأدَّى الى الاحتكاك بالأندلسيّين والنقل عنهم ... وكما أنَّ العرب في العصر الأول أيام حكم الأمويّين بَقوا على السذاجة البدويَّة والفطرة الإسلامية ولم يُعنوا عناية كبرى بغير شؤون السياسة والدين ، وكانوا يتهيأون بعامل التطوُّر للدخول في غمار المدنية العباسيّة ويستعدّون لها بمختلف العُدد والوسائل ؛ فكذلك المغاربة في العصر السابق كانوا يتهيأون لهـذا العصر ويستعدون لاقتطاف أزهاره، واجتلاء أنواره . فما إن اقبلت تباشيره وأناخت ركائبه حتى أخذ كلُّ شيء اتجاهه وجرت الأمور في مجاريها الطبيعيَّة ، حثيثة السير ثابتة الُخطى نحو التقدم والكمال .

ولنعتبر ذلك في الحركة العلميَّة التي تعنينا الآن ، فهذا علم الفقه على مذهب مالك قد واصل تفرُّعه وانتشاره كما كان قبلُ أو أكثر. ونتيجةً للتفاعل مع الدعوة الجديدة فقد مال أهـله الى الترجيح والتأويل ونبذوا التعصُّب لأئمتهم ومشائخهم ، وجعلوا البحث والنظر رائدهم في معرفة الحقائق وتقرير الأحكام ؛ فرجعوا بذلك الى أُصوله ومصادره الأولى من الكتاب والسنّة وما اليهما ، حيث وجدوا من الدولة العتيدة ميلاً

اليها وتعضيداً لأهلها . لكن من غير ان تحملهم على ذلك حملاً وتلزمهم به قسراً ، حتى اشتطّ يعقوب المنصور ثالث خلفاء الموحّدين وتصلّب في تنفيذ خطّة ابن تومرت ومحاربة علم الفروع قصدَ الإجهاز عليه . فأحرق كتب المذهب وعوّضها بالصّحاح العشرة والمنتخب الذي اختاره منها . ويقول المراكشي في هذا الصدد : « وفي ايامه انقطع علمُ الفروع وخافه الفقهاء وأمر باحراق كتب المذهب بعد ان يُجرَّد ما فيها من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن ، ففُعِل ذلك . فأحرق منها جملة في سائر البلاد كمدوّنة سحنون وكتاب ابن يونُس ونوادر ابن أبي زيد ومختصره وكتاب التهذيب للبراذعي وواضحة ابن حبيب وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها . لقد شاهدت منها وأنا يومئذٍ بمدينة فاس يُؤتى منها بالأحمال فتوضع ويُطلق فيها النار . وتقدّم الى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي والخوض في شيءٍ منه وتوعّد على ذلك بالعقوبة الشديدة ، وأمر جماعة ممن كان عنده من العلماء المحدّثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة ؛ الصّحيحين والترمذي والموّطا وسنن أبي داود وسنن النّسائي وسنن البزّار ومسند ابن ابي شيبة وسنن الدارقطني وسنن البيهقي ؛ في الصلاة وما يتعلق بها على نحو الاحاديث التي جمعها محمد بن تومرت في الطهارة . فأجابوه الى ذلك وجمعوا ما أمرهم بجمعه ؛ فكان يمليه بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه . وانتشر هذا المجموع في جميع المغرب وحفظه الناس من العامة والخاصة ، فكان يجعل لمن حفظه الجعل السني من الكسا والأموال . وكان قصده في الجملة محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث . وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجدّه ، إلا أنهما لم يظهراه واظهره يعقوب هذا . يشهد لذلك عندي ما أخبرني به غير واحد ممن لقي الحافظ أبا بكر بن الجدّ أنه أخبرهم قال : « لما دخلتُ على أمير المؤمنين أبي يعقوب أول دخلة دخلتها عليه ، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس فقال لي يا أبا بكر أنا أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله . أرأيت يا أبا بكر ؟ المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا ؛ فأي هذه الأقوال هو الحق وأيها يجب أن يأخذ به المقلد ؟ فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك فقال لي وقطع كلامي : يا أبا بكر ليس إلا هذا ؛ وأشار الى المصحف ، أو هذا ، واشار الى كتاب سنن أبي داود ، وكان عن يمينه ، أو السيف ! فظهر في أيام يعقوب هذا ما خفي في أيام ابيه وجدّه . وانتهى أمرهم معه الى ان قال يوماً بحضرة كافة الموحدين يسمعهم وقد بلغه

حسدهم للطلبة على موضعهم منه وتقريبه إياهم ، وخلوته بهم دونهم ، يا معشر الموحدين انتم قبائل فمن نابه منكم أمرٌ فزع الى قبيلته ، وهؤلاء - يعني الطلبة - لا قبيل لهم إلا أنا ، فمهما نابهم أمر فانا ملجأهم ، واليّ فزعهم والي ينتسبون . فعظم منذ ذلك اليوم أمرهم وبالغ الموحدون في برهم واكرامهم فمن هنا تعلم ان الحالة بقيت كما كانت في أيام المرابطين مدة حكم عبد المؤمن وابنه يوسف الى أيام المنصور . أما أن هذا كان مقصد أبيه وجده ، فهو مما لا شك فيه ، بل إنه كان مقصد ابن تومرت بالأصالة وقد عمل عليه ودعا إليـــه في دروسه وكتبه ، إلا انه لم يكن صارما في ذلك مثل المنصور .

وعلى ما يبدو في فعل المنصور هذا من تضييق خناق الحرية الفكرية وتقييـــد إرادة أهل العلم فانه أفاد الحركة العلمية من الوجهة العامة فائدة جلّى ، حيث جعل الناس يقللون من الإكباب على النظر في عـلم الفروع المجرّد ، وينصرفون الى دراسة الفقه في أصليه العظيمين أعني الكتاب والسنة . فظهر الاشتغال بعلم التفسير وعكف الناس على تفهم كلام الله عز وجل ودراسته دراسة علمية صحيحة ، ونبغ المفسرون العديدون مثل عبد الجليل القصري والحرّالي والمزدغي . كما انتشر علم الحديث رواية ودراية واقبل الناس على الأخذ عن رجاله والتأليف في فنونه المختلفة . وكان الأخوان ابو الخطاب وأبو عمرو ابنا دحية السبتيان وابن القطان الفـــاسي ومحمد بن قاسم التميمي من ألمع محدثي هذا العصر .

الفقه والتصوف :

وبما ان النظر الفقهي قد تطوّر فان التصوُّف لم يبق يعدُ منكراً كذي قبلُ ، ولم يبق للفقهاء على أهله تلك الصولة . فظهر جماعة من الصوفية الكبار أصحاب النزعات الفلسفية وانبثت مذاهبهم المختلفة في الناس . ولا نقصد الأندلسيين منهم كابن عربي الحاتمي وابن سبعين والششتري وغيرهم ؛ فان في الصوفية المغاربة من كانوا ذوي آراء وأنظار غريبة فلسفية واجتماعيـــة ورياضية ، كأبي الحسن المسفر وأبي العباس السبتي وأبي محمد صالح الآسفي . والجدير بالذكر هو أن النهضة الموحدية أثّرت على العقول في الأندلس والمغرب تأثيراً متشابهاً فأصبح الفكر الاسلامي في كلا

القطرين محرّراً من القيود التي كانت تجعله يثور لاقـل بادرة من الخروج عن دائرة المسلّمات والقواعد والرسوم المتعارفة . فشتان بين عهد المرابطين الذي كان فقهاؤه في كل من الأندلس والمغرب يُجرّمون الإحياء وغيرها من كتب الغزّالي ويحكمون بإحراقها ؛وبينَ هذا العهدالذي ينبُغ فيه مثلُ ابن عَربي الحاتمي وينشر كتابه الفتوحات المكّيّة وغيره فلا يحرّك الفقهاء ساكناً في سبيل الإنكار عليه ، مع عِظَم الفرق بين محتويات الإحياء ومحتويات الفُتوحات مما لا تُقِره المذاهب الفقهية بأجمعها وربما (ورُبَّ للتكثير) يتعارض مع جوهر العقيدة الاسلامية في كثير من المسائل .

علم الكلام :

وكذا الكلام أخذ حظه الكامل من الانتشار فقد كان ابن تومرت يُلزم أصحابه بدراسته إلزاماً . وكان الموحدون على العموم يعتبرون من لم يعرف العقائد على سبيل التفصيل وعلى طريقة الأشعري بالأخص يعتبرونه كافراً ليس معه من الاسلام الا الاسم. ومن ثَمَّ سموا أنفسهم بالموحدين ونبزوا المرابطين خصومهم بالمجسمين . وألّف المهدي لأصحابه عقائد مختصرة باللسانين العربي والبربري كما سبق القول ، فتأثر الناس خُطاه وصنَّفوا في هذا العلم الكتب العديدة . وكان من أطولهم يـداً وأحسنهم عارفة في هذا السبيل عند العامة الشيخ أبو عمرو عثمان بن عبدالله بن عيسى السَّلالجيّ . وهو الذي على يده وقع تحوُل أهل فاس من المذهب السلفي في العقيدة الى المذهب الأشعري تبعاً للتيار العام الذي اكتسح المغرب بأجمعه في هذا الامر نتيجة لدعوة ابن تومرت . ولكن قد شيبَ صفْو هذا العلم في أوائل أيام الموحدين بما أضافوه اليه من تعاليم شيعية بِدْعية جرياً وراءَ ما كان يذهب اليه داعيتهم المهدي بن تومرت من ذلك المذهب . فقد كان الاعتقاد بالامام وعصمته شائعاً في ذلك الوقت وكانت الخطب على منابر المغرب والأندلس وافريقية التي تنيفُ على ألفي مِنبر لا بد ان تشتمل على الدعاء « للامام المعصوم المهدي المعلوم » حتى تقدّم بمنع ذلك يعقوب المنصور على ما ألمعنا اليه سابقاً فكانت حسنةً من حسناته وكفارةً عن جميع ما يؤخذ عليه بشأن العلم والعلماء . وعلى كل حال فان علم التوحيد أو علم الكلام — كما سُميَ قديماً — انما انتشر في هذا العصر . وما كان قبله انما هو من قبيل المحاولات الأولى . ومِثله علم أصول

الفقه، فقد تبوأ من بين العلوم في هذا العصر مكاناً عالياً ووجدَمن القرائح المغربية مجالاً خِصباً لنموه وازدهاره .

وهذا ان العلمان هما مما نقلـــه المغرب عن المشرق مباشرة ً وقد نبهنا في عصر المرابطين على الطليعة الأولى من رجالهما الذين أدخلوهما الى المغرب . ثم جاء المهدي بن تومرت وقد أخذهما عن ائمتها الراسخين من أهل المشرق فبثهما وحفز الهمم لطلبهما وكان انتشارهما سبباً في تقريب شُقة الخلاف ما بين الفقهاء والمتكلمين والمتصوّفة ، لِما يحملان عليه من النظر في الأدلة وعدم المسارعة الى الانكار قبل معرفة مدرك الخصم ، وبذلك زال النزاع الشديد الذي كان قائماً بين هذه الطوائف من العلماء . والذي كان يبعث بعض الفقهاء من أهل هذا العصر على أن يقول مثل هذه المقالة المنقولة من كتاب الحلال والحرام لراشد الفاسي .قال فيه: «سمعت من أبي محمد عبدالله بن موسى الفشْتالي أنّ التائب إذا اقتصر على ما عند علماء الشريعة أولى وأسلم له، بل لا يجوز اليوم اتخاذ شيخ لسلوك طريق المتصوفة أصلاً؛لانهم يخوضون في فروعها ويهملون شروط صحتها ، وهو باب التّوبة ،إذ لا يصحُّ بناء فرع قبل تأسيس أصله .وسمعته يقول: لو وجدت تآليف القشيري لجمعتُها والقيتها في البحر . قال وكذلك كتب الغزّالي . وسمعته يقول . إني لأتمنى على الله أن أكون يوم الحشر مع أبي محمد بن أبي زيد لا مع القُشيري والغزّالي بل مع أبي محمد يشكر فذلك أكثر أمناً لي على نفسي » ...

على ان الغريب في الأمر هو أن هذه الكتب التي كانت تعدم وتحرق لا تلبث ان تُحيى وتروج ايضاً وهذه الإحياء ألم يُحرقهـــا علي بن يوسف ؟ فكيف عادت الى الظهور ؟ إذ لا شك انها المعنيّة في كلام الشيخ الفشتالي . وإذا قيل إنّ كتب الغزالي قد انتشرت من جديد بسبب قيام دولة الموحدين التي يُعتبر مؤسسها خِرّيج المدرسة الغزّالية وناشر تعاليمها في المغرب ، فكيف يقال في كتب الفقه المالكي التي أحرقها المنصور وقد قيل ان عبد المؤمن نفسه أمر باحراقها لمّا استتبّ له الأمر ؟.. والجواب انه في هذا العصر كان جُلُّ الاعتماد على الحفظ والاستظهار . فبعد حرق هذه الكتب لم يصعب على الناس ان يجدوا من يستظهرها بلفظها وتُكتب عنه . وهذا الشيخ أبو محمد عبدالله بن محمدبن عيسى التادلي الفاسي الفقيه الحافظ المحصّل المتوفي سنة٦٢٣ يذكر المؤرخون في ترجمته أن المدونة كتبت من حفظه بعد أن أحرقها الموحدون أي في

نفس الوقت تقريباً . ومما لا شك فيه ان غيره كثيرون ممن كتبت الكتب الأخرى المحروقة من لفظهم وحفظهم .

والذي نريد أن نسجله هنا هو أن المذهب المالكي لم ينهزم مطلقاً أمام الدعوة الى الاجتهاد التي كان الموحدون يتزعمونها ، ولا أمام المذهب الظاهري الذي نشط نشاطاً كبيراً في هذا العصر . وذلك برغم الحملة المنظمة من رجال الدولة للقضاء عليه . فها أنت ترى كتبه الأمهات يعاد كتبها بفور إحراقها . وسترى في تسمية تآليف فقهاء العصر ما وضع حول هذه الكتب من دراسات وما عمل لها من شروح . وأنا لنعد من فقهاء المذهب المالكي الذين نبغوا في هذا العصر العشرات قبل أن نعد ظاهرياً واحداً أو فقيهاً متحرراً ممن يميل الى الاجتهاد . ناهيك بأبي محمد يشكر الجراوي الذي سبق ذكره في كلام الشيخ الفشتالي ، فانه من فقهاء العصر وممن كتب على المدونة ، وأبي محمد صالح الفاسي الذي بقي مثلاً مضروباً عند فقهاء المذهب للعدل المبرز ، وأبي القاسم الجزيري صاحب المقصد المحمود في تلخيص العقود وهو الكتاب الذي اعتمده الناس في كتابة الوثائق ولم يقدموا عليه غيره ، وأبي الحسن المتيوي الفقيه الحافظ صاحب الشرح العظيم على الرسالة بالنقل لأقوال الأئمة الذين تدور عليهم الفتوى . الى غير هؤلاء ممن يطول الأمر بتعدادهم . بل أنا لنسجل ما قام به أحد فقهاء المالكية من رد فعل على حركة انتشار المذهب الظاهري ممثل في التهجم على ابن حزم إمام الظاهرية بالأندلس والمغرب ، مما أدى الى عقد مجلس علمي بمراكش للنظر في القضية . وهذا الفقيه هو ابو زكريا الزواوي أحد أفراد هذا العصر علماً وصلاحاً . وكان مقيماً ببجاية . واليك ما كتبه الغبريني عن هذه الواقعة في كتابه عنوان الدراية . قال :

« ولما كان من أمر الفقيه أبي زكريا الزواوي في شأن ابن حزم ما قد اشتهر ، وتعصب له ناس ورفعوا القضية للخليفة بمراكش اقتضى نظر الفقيه أبي زكريا رضي الله عنه أن يتوجه عنه الفقيه ابو محمد عبدالكريم الحسني المراكشي . فتوجه وحمل تآليف الفقيه أبي زكرياء ورده على ابن حزم المسمى حجة الأيام وقدوة الأنام . ولما وصل حضرة مراكش استحضره أمير المؤمنين بين يديه بمحضر الفقهاء وعرض تآليف الفقيه عليهم وكان الفقيه ابو محمد عبد الكريم هو النائب في الحديث فأحسن وأجاد وأطلع أمير المؤمنين ومن حضر من الفقهاء على كلام الفقيه رضي الله عنه مما دلهم على فضله

ودينه وعلمه ، فكان من قول الخليفة « يترك هذا الرجل على اختياره فان شاء لعَن وان شاء سكت » . وانقلب ابو محمد عبد الكريم وهو المبرور ، وسعيه المشكور ، رضي الله عنه وأرضاه » .

وهذه الحادثة إن مثلت المعركة التي كانت قائمة بين المالكية وخصومهم ، فانها تدل على فشل الجهود التي بذلت لصرفهم عن مذهبهم وعلى ازدهار هذا المذهب في حين كان خصومه يعملون على ذبوله .

وعلى كل حال فان مما لا ريب فيه ان الفقه المالكي قد استفاد من هذه المعركة ، غير الانتصار على الخصم ، التلقيح بمادة الحياة الأصلية بالنسبة الى كل المذاهب الاسلامية ؛ وهي الرجوع الى الكتاب والسنة فلم يبق ذلك الفقه الساذج الذي يقارن أقوال أئمة المذهب بعضها ببعض ، ويرجعها في النهاية الى رواية ابن القاسم عن الامام مالك ، بل صار يعتمد على الأدلة وينظر في الخلاف العالي . وبذلك أخذ خير ما في الدعوة المعارضة له وأحرز كيانه .

وكذا وقع في انتشار مذهب الأشعري العقدي بعيداً عما شيب به من تعاليم شيعية غالية على ما كان المهدي يدعو اليه . فان الامام السّلالجي الذي تجند لنشر العقيدة الأشعرية كان من أبعد الناس عن تلك الشبه وأكثرهم تمسكاً بالسنّة . فلما أخذ الناس عنه العقيدة المذكورة لم يكن فيها شيء من تلك الشوائب وحمى الله المغرب وأهله من الغلو والانحراف في العقيدة والمذهب .

هذا وقد قلنا إن الموحدين كانوا يدعون الى الاجتهاد ونحن نعني ما نقول خلافاً لما شاع من أنهم كانوا على مذهب الظاهرية . فان احداً من مؤرخيهم لم ينقل ذلك عنهم ، وليس يكفي أن يظهر المنصور إعجابه بابن حزم لنحكم بانه وقومه على مذ [1] كيف والذي ثبت من عمله أنه جمع من كتب السنة أحاديث في العبادات

---

[1] [illegible] المقري في النفح أن المنصور مرّ بأوقية من أرض شلب فوقف على قبر الحافظ أبي محمد بن حزم وقال : عجباً لهذا الموضع يخرج منه مثل هذا العالم ! ثم قال : كلّ العلماء عيال على ابن حزم .

كان يمليها على الناس ويجعل لمن حفظها الجعل السني على ما مرَّ ؟ فالأمر يتعلق بالدعوة الى العمل بالسنة أكثر من الانتماء الى مذهب معين . ويقول التاج ابن حمويه السرخسي الذي رحل الى المغرب في أيام المنصور واتصل به اتصالا وثيقاً حسبما اثبته المقري في نفح الطيب عنه : « والذي علمت من حاله أنه كان يجيد حفظ القرآن ويحفظ متون الأحاديث ويتقنها ويتكلم في الفقه كلاماً بليغاً . وكان فقهاء الوقت يرجعون اليه في الفتاوي . وله فتاوي مجموعة حسبما أدَّى اليه اجتهاده . وكان الفقهاء ينسبونه الى مذهب الظاهر وقد صنَّف كتاباً جمع فيه متون أحاديث صحاح تتعلق بالعبادات سماه الترغيب » فليتنبه الى قول السرخسي (وله فتاوى مجموعة حسبما ادى اليه اجتهاده) وما تفيده هذه العبارةُ من مَيله الى الاجتهاد . والى قوله (وكان الفقهاء ينسبونه الى مذهب الظاهر) وما تعطيه هذه الجملة من انهم يتجنونْ عليه بذلك . وقد رأيتَ ان الفقيه الزواوي كان يجهر بلعن ابن حزم ، وأن أمره عُرض على الخليفة بمراكش فأقره على رأيه . وذلك مما يدل على أن الموحدين لم يكونوا ظاهرية والا لما قبلوا لعْن امامهم وكبير علماء مذهبهم .

والحجة الكبيرة في أن القوم لم يكونوا على مذهب أهل الظاهر هي مجموعة كتب المهدي بن تومرت هذه التي نشرها المستشرق المجري جولدزهير وتشتمل على كتاب أعز ما يطلب والعقيدة المرشدة وكتاب الطهارة الذي يقال ان المنصور جمع كتاباً في الصلاة على منواله ، الى غير ذلك من تعاليق المهدي وكلها ليس فيه ذكر للظاهرية ولا لعَلَم من أعلامها .. بل ان في تعاليقه الأصولية ما يعارضها وهو أثبات القياس ومدْحه مما لا يجنح إليه أهل الظاهر كما هو معلوم . واذا كان هذا إمامُ الموحدين ومهديُّهم الذي أسس دولتهم ومهّد مذهبهم لا يرى رأي الظاهرية ولا يبدي نحوها أدنى ميْل فلا شك أنّ خلفاءه كانوا كذلك . وانما كان الفقهاء ينسبونهم اليها تشنيعاً عليهم كما يقال اليوم في كل من كان سلفيّ العقيدة : إنه وهَّابي ، تنكيتاً عليه وتنفيراً من مذهبه[1] . ونظنُّ ان ميل المهدي واتباعه الى الاجتهاد جاءهم من الشيعة الذين

---

١ – مما يشهد لما قلناه ، هذه الأبيات التي يقولها ابن عربي الحاتمي تبرياً من الظاهرية ، وهو ايضاً ممن رُميَ بها :

نسبوني الى ابن حزم واني	لست ممن يقول قال ابنُ حزم
بل ولا غيرُه فان كلامي	قال نصّ الكتاب ذلك حكمي
أو يقول الرسول أو أجمَع	الخَلقُ على ما أقول ذلك علمي

اخذوا بعض آرائهم ومزجوا بها مذهبهم . والشيعة كما لا يخفى يقولون بالاجتهاد ولا يدّعون انقطاعه .. وهذا هو السبب الذي نفسّر به انصراف الفقهاء المغاربة عن دعوة الموحدين الى الاجتهاد ، حيث انها كانت مَشوبةً بما لا يقبلونه من تعاليم شيعية تقدمت الاشارة اليها .

* * *

العلوم الأدبية :

هذا ملخص الخبر عن حركة العلوم الدينية في هذا العصر . ونقول الآن كلمتنا في العلوم الأدبية متوخّين الايجاز ما أمكن. ولا بد من النص أولاً على أن المراد بالعلوم الأدبية ما يشمل النحو واللغة والعروض والبيان والتاريخ والسِّير. وقد رأينا بعضَ ما كان لهذه العلوم من الرواج في العصر السابق على قدر ما تعطيه المصادر الضَّنينة بمثل هذه المعلومات . أما في هذا العصر فقد اتسعت دائرة انتشارها وتخلفت لدينا بعض الآثار التي تدل على ان هناك نهضةً حقيقيةً كانت تتدرّج بهذه العلوم في مدارج التطور والتقدم ، تماماً كما وقع في العلوم الدينية وغيرها . ففي خصوص علم النحو ظهر النُّحاةُ الذين كان لهم مقام كبير ، وألّفوا الكتب التي ما تزال تعرّف بعلو قدرهم وتنبىء عن رسوخ قدمهم في هذا العلم ، كأبي موسى الجزولي صاحب الكرّاسة الشهيرة في النحو ، وتسمى أيضاً المقدمة الجزولية ، وبعضهم يسميها القانون والاعتماد . وكابن معطٍ صاحب الألفية النحوية التي عمل ابنُ مالك ألفيته على مثالها، بل ان التفوق في هذا العلم أدّى الى وجود مدارس نحوية هنا وهناك، تفرّدت بآراء خاصة في بعض مسائل الإعراب وغيره . فهذه مدرسةُ فاس التي سيختلف أهلها مع مدرسة تلمسان في مسألة صرف أبي هُرَيرةَ . وهذه مدرسة سبتة التي تخالف الجمهور في ضمّ النكرة المقصودة إذا نُوّنتْ اضطراراً . وهذه مدرسة طنجة التي توجه اسئلة نحوية الى مدرسة اشبيلية . واخيراً هذه مدرسةُ المغرب بعامة التي لا تسمّي لولا شرطاً ولا لو إلا إذا كانت بمعنى إنْ ، أي حين تكون مجرّدةً من الامتناع ؛ وذلك في الغايات نحو قوله عليه السلام – احفظوا عني ولو آية . أشار له العلامة ابن غازي .. وان عبّر هذا عن شيء فانما يعبر عن الدراسات القيمة التي كان المغاربة يقومون عليها ويوجّهون جهودَهم اليها في هذا العلم . ومثل النحو اللغة

والعروض والبيان ، فقد كانت لها سوقٌ رائجةٌ وكان اللغويون المعنيُّون بحفظ متن اللغة كاللغويين الباحثين في مسائلها يأتون بالطريف المعجب في تسمية الأشياء وتحقيق معاني الألفاظ . فهذا المحدّث ابو الخطاب بن دِحْية السّبتي يقول الغبريني عنه في عنوان الدراية : « إنه كان من أحفظ أهل زمانه باللغة حتى صار حوشيُّ اللغة عنده مستعملاً غالباً عليه . ولا يحفظ الانسان من اللغة حوشيَّها إلا وذلك أضعاف أضعاف محفوظه من مستعملها » . وروى أن والي بجاية جهّز قطعاً بحريّة بعث فيها بعض الغزاة الى المغرب فأخذ خديمٌ لأبي الخطاب في جملة هؤلاء الغزاة أثناء إقامته ببجاية . فكتب الى الوالي رسالةً مغلقةً من كثرة ما استعمل فيها من الغريب ، فلم يفهم الوالي معناها حتى استحضر كتب اللغة ؛ الصّحاح وغيره . ولم تتضح له حتى سافرت المراكب . قال الغبريني :

« وهـذا أقلّ عوارض الخروج عن العادة وعدم سلوك السبيل الجادّة » وإن كان ذلك الوالي لمزيد اعتنائه بالشيخ أبردَ بردَّ خديمه . فصُرف اليه بعد أن وصل الى وهْران . وهذه الرسالة الغريبة سنوردها في المنتخبات . وكذلك أخوه ابو عمرو بن دحية السبتي كان مثله في الحفظ للغة والذكر لغريبها ، فضلاً عن كونه من رجـال الحديث كأخيه . وروى ابن رُشَيْد في رحلته عنه بواسطةٍ ، أنه دخل الى أشبيلية قادماً من بلنسية فجاء الى جامع العدبَّس بها قال : فجاءني رجل فسألني من أين جئتَ ؟ قلت رحلت من بلنسية في طلب علو الرواية في الحديث فقال : هل تذكر شيئاً في اللغة ؟ فقلت هي بضاعتي . فقال ما اسم البصل في لغة العرب ؟ فقلت الدّوْفَص . فقال : وما شاهده ؟ فقلت له قال الحجّاج لطاهيه : اطبخ لنـا عرْبربيَّة[1] وأكثِر دَوْفصها . قال فولّى عني ثم أقبل ومعه مملوك بيده سبنيَّة[2] بثياب وقرطاسٌ فيه مائة دينار فدفعها إليّ وقال استعِنْ بهذا على طلب العلم . وقال انا ابنُ زُهْر ألفتُ كتاباً في الطب ذكرت فيه جميع الأعشاب (بجميع الأسماء وعجزت عن اسم آخر للبصل بالعربية) فالآن قد تم الكتاب[3] ثم قال هذا قليل في حق مسألة من العلم .

---

١ – اي طعاماً مصنوعاً من العربرب ، والعربرب هو حب السّمّاق نوع من الشجر حامض الطعم .
٢ – أي منديل فيه كسوة . وانظر تفسير سبنية في بحث عاميتنا والمعجمية في كتابنا « خل وبقل » .
٣ – ما بين الهلالين ممحو من مخطوطة الرحلة المنقول عنها وهي المودعة بمكتبة الاسكوريال . وما اثبتناه هو الأقرب للمعنى المراد .

وقد نشطت المباحث اللغوية في هذا العصر نشاطاً كبيراً ويكفي للدلالة على ذلك ان نشير الى ما كتبه الامام ابو القاسم السُّهَيلي المالقي نزيل مراكش ودفينُها من التحقيقات البالغة الأهمية في هذا الصدد ، وخاصة في كتابه الروض الأنف الشهير . والى مـــا كتبه العلامة ابن هشام اللخمي الاشبيلي مولداً السبتي داراً من التعاليق والشروح في النحو واللغة وتقويم اللسان ، وأهمها كتابه في لحن العامة الذي ردّ به على الزبيدي وعلى ابن مكي في الموضوع فصحّح ما وهما فيه ، وتعرض للحن عامّة زمنه ، مما يدل على تضلّعه واتساع مادّته . وبالجملة فهو كتابٌ مفيدٌ جداً في الاطلاع على تطوّر الدراسات اللغوية في المغرب والأندلس معاً .

ونشأت في هذا العصر فكرة نظم المسائل اللغوية تسهيلاً على الطلاب اذ كان النظم أكثر ضبطاً وأيسر حفظاً . ومن ذلك أُرجوزة العلامة ابن المُناصف المسماة بالمذهبة في الحلى والشّيات . وقد نظمها بمراكش في جمادى الأولى عام ٦٢٠ فحُملت عنه وسُمعت عليه كثيراً : ومنه نظم العلامة ابن مُعطٍ لجمهرة ابن دُرَيد ونظمـــه لصَحاح الجوهري وهي محاولةٌ جريئة كما لا يخفى .

ولا نذكر هنا النحويين واللغويين كأبي عليّ الشَّلَوْبين وابن خروف وابن عُصفور وابن مضا وابن مالك وغيرهم ممّن أظلّهم عصر الموحدين ، إلا على سبيل التذكير بما كان لعلوم العربية نحواً ولغةً من عظيم الازدهار في هذا العصر ، ولا سيما وأكثر هؤلاء ممّن زار المغرب وأقام فيه فأخذ عنه الطلاب ونشر معارفه بكل مكان .

وبخصوص علم العروض من العلوم الأدبية نذكر أنه في هذا العصر نبغ العلامة ضياءُ الدين الخزرجي السَّبتي صاحب القصيدة الشهيرة بالخزرجيّة في هذا الفنّ والتي يسميها المشارقة بالرّامزة . وهي بقدر ما تدل على معرفته بالعروض تدل على رسوخ قدمه في الأدب حيث استطاع أن يُضمّن أغراض هذا العلم في قصيدة لا تتجاوز مائة بيت بما استخدم في ذلك من الرّموز والإشارات حتى عُدّ شرحها فيما بعد من المأثُرات. وكذلك العلامة ابن أبي الجيش الانصاري صاحب العروض المعروف باسمه فانه من نوابغ هذا العصر . وليس هو صاحب الخزرجية ولا هذه هي عروضه كما يخلط بينهما بعض الكتاب . ولابن مُعطٍ ايضاً نظمٌ في العَروض ذُكر في ترجمته . هــذا الى ما وضعه الأندلسيون من تآليف عديدةٍ أُخذت عنهم بالمغرب والأندلس وكان لها رواج

يستتبع بالطبع رواج فنّها . ولا نُغفل في هـــذا الباب ما اخترع من الأعاريض والأوزان الشعرية الجديدة كالموشّحات والأزجال . فان هذه وان كانت قد اخترعت في الأندلس ولقيت من أمراء العهد المرابطي كأبي بكر بن تافلويت كلّ تشجيع إلاّ أنها انما بلغت أوْجَ الكمال في هذا العصر .. ففيما يخص التوشيح نرى جماعة من فرسانه ينقطعون الى أمراء الموحدين الذين كانوا يُعرفون بالسّادة يمتدحونهم بموشّحاتهم التي كانت تقع منهم أحسن موقع . ونجد سابق هذه الحلبة الوزير أبا بكر بن زُهر قـــد اختص بالخليفة يعقوب المنصور وحظيَ عنده حظوةً لا مزيد عليها . فممّا لا ريب فيه ان اصطناع رجال الدولة من الموحّدين لأهل هذا الفن ، هو اصطناعٌ للفنّ نفسه ينمّ عمّا وراءه من إعجاب وتقدير ، لا سيما وقد كان نظر الأدباء المحافظين في التوشيح ليس بذاك ، كما يُشعر به كلامُ المراكشي في المعجب الذي امتنع عن رواية شيء من موشحات ابن زُهر « لأنّ العادة لم تجرِ بإيراد الموشحات في الكتب » تماماً كما ينظر بعضهم اليوم الى هذا الشعر الحرّ . فتقريب الموحدين للوشّاحين واحتفالهم بهـــذا الفنّ من القول ؛ فيه تشجيعٌ لهم وتنشيطٌ ، إذ الناس على دين ملوكهم كما يقولون . وانظر الى هذه الجزئية التي رُويت عن السيد أبي عمران موسى بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن والي إشبيلية ؛ فقد أُنشد له من شعره قوله يخاطب الأديب أبا الحسن بنَ حَريق يستحثّه على نظم الشعر في عَروض الخبَب :

خُذْ فِي الأَشْعَـارِ على الخَبَبِ ... فقُصُورك عنه من ٱلْعَجَبِ

هـذا وَبنُو الآدابِ قَضَوا ... بِعُلُوِّ محَلِّكَ في ٱلرُّتَبِ

فإن منها يظهر ان هؤلاء الامراء كانوا يوجهون الأدباء ويقترحون عليهم ما يقولون وكيف ينظمون ومثل هذه الجزئية رويت عن المنصور نفسه .

واذا كنا ذكرنا أبا بكر بن زُهر وهو أندلسي لنقول إن التوشيح ازدهر على يده ؛ فان الوشاح المغربي الذي يعد فريد عصره هو القاضي ابو حفص بن عمر الأديب الشهير ؛ له موشحات مشهورة يغنى بها في الأقطار كما قال ابن سعيـــد المغربي في الغصون اليانعة ، وإن كان لم يصلنا منها شيء ، مع الأسف ، وما قيل في التوشيح يقال في الزجل ويزاد أنهم في فاس اخترعوا وزناً جديداً منه سموه عروض البــلد

ونوّعوه الى انواع ، كل نوع منها له اسم . وذلك هو ما يتحدث عنه ابن خلدون في المقدمة ، بعد كلامه على الزجال ابن قزمان وطريقة أهل الأندلس في نظم الزّجل فيقـول : « ثم استحدث أهل الامصار بالمغرب فنّاً آخر من الشعر في أعاريض مزدوجة كالموشح فنظموا فيه بلغتهم الحضرية وسموه عروض البلد وكان أول من استحدثه منهم رجلٌ من أهـل الأندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير ، نظم قطعة على طريقة الموشح ولم يخرج فيها عن الإعراب إلا قليلاً ؛ فاستحسنه أهـل فاس وولعوا به وتركوا الإعراب الذي ليس من شأنهم ، وكثر شيوعه بينهم ، واستفحل فيه كثير منهم ونوعوه أصنافاً الى المزدوج والكازي والملعبـة والغزل ، واختلفت أسماؤها باختلاف ازدواجها وملاحظاتهم فيها . »

فهذه مدرسة جديدة للزجل نشأت بالمغرب وعملت على تطوره شكلاً ومضموناً؛ من حيث وضعت له إسماً جديداً هو عروض البلد ونوّعته الى أصناف تندرج تحت هذا الاسم العام، وان كان لكل صنف منها اسمٌ خاص بحسب الغرض الذي يتناوله. وقد سمّى ابن خلدون بعد ذلك بعض زعماء هذه المدرسة ؛ فذكر منهم ابن شجاع التازي والكفيف الزرهوني . والنماذج التي أعطاها من ازجالهم هذه ، ترينا كيف تطور موضوع الزجل فاصبـح يستوعب أهم الأغراض الشعرية كالحمـاسة والحرب والمدح والوصف والوصايا والحكم ، بعد ان كان قاصراً أو يكاد على الحب والخمر ، والطبيعة والزهر . ولقد اطرد هذا التطور في الشعر الملحون ، وهذا هو ما يسمى به الزجل اليوم ، في المغرب . فصار يتضمن من الملاحم والقصص والتمثيل ما بقي يعوز الشعر المعرب في العالم العربي كله الى فجر النهضة الحديثة .

ويجب ان نشير الى أن تسمية الناس له بالشعر الملحون هي من قبيل الوصف الكاشف، لأنه أدب الطبقة العامية، نظمته هي أو نظمه لها أفراد يحسنون الإعراب. ولكنهم تركوه قصد الإبلاغ ، لا لكونه ليس من شأنهم كما مرّ عن ابن خلدون آنفاً. ويدلُّ على ذلك قول الصّفي الحلي في كتابه العاطل الحالي الموضوع في الزّجل[1] وقد

١ – النص الوارد هنا ذكره الدكتور عبد العزيز الأهواني في كتابه « الزجل الأندلسي » نقلاً عن مصورة العاطل الحالي الموجودة بمكتبة جامعة القاهرة .

تعرّض لذكر الزّجال المغربي المعروف بابن غُرلة ونصه : « وقد كان ابن غرلة الشاعر المغربي وهو من اكابر اشياخهم ، ينظم الموشح والمزنم فيلحن في الموشح ويعرب في الزجل تقصداً واستهتاراً ، ويقول : إن القصد من الجميع عذوبة اللفظ وسهولة السبك . وكان الوزير ابن سناء الملك يعيب عليه ذلك ، ولهذا لم يثبت شيئاً من موشحاته المزنمة في دار الطراز . فانظر كيف كان يلحن ويعرب تقصداً واستهتاراً، واللحن هو المعتاد في الازجال اذا نظمها الخاصة من الأدباء يتركون إعرابها مجاراة للعامة ؛ بل إنهم كثيراً ما يتركون الإعراب حتى في الموشحات تسهيلاً لها وتمليحاً . فعملُ ابن غُرلة ليس بدعاً في هذا الشأن ، ولكنّ لَمْزابن خلدون لأهل فاس بكونهم ليس من شأنهم الإعراب هو الذي ليس له محلٌ من الإعراب .

وابنُ غُرلةَ هذا هو من زجّالي عصرنا الذي نتكلم عليه، وكان عاشقاً لأختِ الخليفة عبد المؤمن التي تسمّى رُميلة فيما يقول الحلّي ، ونظنُ انها ابنةُ الخليفة لا أُخته ، ومن موشّحاته الموشحة الطنانة الموسومة بالعروس التي نظمها في عشيقته وقتله الخليفة بسببها لتوُهمه من مطلعها وما يليه الاجتماع بها . والواقعة مشهورة على زعم الحِلّي . قال : « وكان حسنَ الصورة جليل القدْر ذا عشيرة . وكانت هي أيضاً جليلة القدر جميلة الخَلق فصيحةُ اللسان تنظِمُ الازجال الرائعة الفائقة .

هذا وسنثبت بعض ما أشرنا اليه من الموشّحات والأزجال في باب خاص في قسم المنتخبات .

بقيَ كلامنا في التاريخ والسِّيَر من العلوم الأدبية . والذي نقوله عنهما إنهما لم يكونا أقلّ حظاً ولا أبخسَ نصيباً من غيرهما في الرواج والانتشار ؛ ففي هذا العصر وُضع أولُ تاريخ نعرفه عن المغرب حاملا هكذا اسم المغرب ، الأمرُ الذي سيصبح تقليداً مُتّبعاً في الكتب التي توضع بعدُ في تاريخ هذه البلاد. وهذا التاريخ هو كتاب المُعجِب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي . ولئن كانت كتبٌ أخرى في التاريخ والتراجم قد وضعت قبله ، مثل أخبار البصرة ، وأخبار سجلماسة ، وأخبار نكور لمحمد بن يوسف الورّاق ، وتاريخ الدولة اللمتونية لابن الصيرفي ، وكتاب المدارك في التعريف بأعلام مذهب مالك، وتاريخ سبتة ، للقاضي عياض وغير ذلك . فان واحداً من هذه ليس كتاباً جامعاً لتاريخ المغرب بصفته بلاداً ذات وحدة

وكيان مثل كتاب المعجب ، فضلاً عن انها لم تصلنا وعن كونها بأقلام غير مغربية اذا استثنينا كتاب المدارك . ومما يُسجَّل بغاية الاعجاب للعلماء المغاربة من هذا العصر ، هذا النوع من التآليف في السيرة النبوية الذي يُعدُّ حدثاً بديعاً فيها ؛ وهو المتعلق بمولد الرسول صلى الله عليه وسلم . فقد كان العزفيون رؤساء سبتة[1] قد أحدثوا فيها الاحتفال بالمولد الشريف ، ولم يكن ذلك معروفاً في المغرب ولا في غالب الاقطار الاسلامية . وألَّف كبيرهم العلامة ابو العباس أحمد بن محمد كتاب الدرّ المنظم في مولد النبي المعظم ، الذي اكمله ولده الرئيس أبو القاسم فجاء في مجلد كبير . وفي مقدمة هذا الكتاب يشيرُ أبو العباس الى سبب إحداثهم لذلك ويقارن بين احتفال النصارى بعيد الميلاد المسيحي ومشاركة المسلمين لهم في ذلك وإهمالهم لمولد نبيهم (ص) . وهو مع إقراره بان هذا العمل بدعةٌ لم يكن على عهد السلف الصالح رضوان الله عليهم ؛ فانه يجعله من البدع المستحسنة استناداً لقول عمر (رض) في الاجتماع على تراويح رمضان نِعمتْ البدعة هذه ويخرّجه على حديث أنسَ (رض) كان لأهل الجاهلية يومان في كل سنة يلعبون فيهما . فلما قدم النبي (ص) المدينة قال: كان لكم يومان تلعبون فيهما قد أبدلكم الله بهما خيرا : يوم الفطر ويوم النَّحر . وذلك لأنه أراد بهذا العمل أيضاً صرف المسلمين ولا سيما الصبيان عن الاحتفال بالأعياد المعظمة في الأديان الاخرى ، حتى لا ينشأوا على تعظيم تلك الأديان ، الذي رُبما أدَّى بهم الى الكفر ، والعياذُ بالله .والكتابُ على كل حال مهمٌ في بابه . وليس هو الوحيد الذي وضعه علماؤنا في الموضوع ، فان لأبي الخطَّاب بن دِحية السَّبتي أيضاً كتاب التنوير في مولد السراج المنير ، ألَّفه للملك المعظَّم أبي سعيد التُّركماني صاحب إربل لمَّا قدم عليه فوجده يحتفل بالمولد الشريف كما يفعل أهلُ بلده سبتة . ويُنفق في ذلك أموالاً عظيمة ، فوضع له الكتاب المذكور وقرأه في أثناء الاحتفال ، فأعطاه ألف دينار جائزةً عليه ، وأخذه عنه فسمعه منه الناس بعد ذلك . وممَّن سمعه منه المؤرخ ابن خلكان كما يذكر ذلك في كتابه وفيات الأعيان . على أن الكتُب في التاريخ والسِّيَر غير ما ذكرنا كثيرةٌ وأخصُّها كتاب النِّبراس في تاريخ بني العباس لأبي الخطَّاب بن دِحية ، وتاريخ

---

١ – بيت العزفيين كان من بيوتات سبتة النبيلة وكان لهم بها رئاسة علمية وسياسيه ابتدأت من هذا العصر واستمرت الى عصر المرينيين . ويأتي ذكرهم بمناسبته .

الموحدين للبَيدق والذَّيل على صلة ابن بَشكوال لابن فرتون وكتب ابن عبد الكريم التميمي وغيرهما مما يأتي مستوفىً في تسمية الكتب المؤلفة في هذا العصر على العموم . ولكنّ ما لا بد أن ننبه عليه هنا ، ونحن نؤرخ الحركة الأدبية في المغرب ، هو المؤلفات الخاصة بالأدب وتاريخه . ولقد كاد كتاب المعجب أن يكون تاريخ أدب أكثر منه تاريخ سياسة . والسبب في ذلك أن المراكشي ألّفه في المشرق ليُطلع أهله على ما خفيَ عنهم من شؤون أهل المغرب السياسية والأدبية . وهكذا أيضاً ألف أبو الخطّاب بن دحية ، المُطرب ، من أشعار أهل المغرب ، وهو إن يكن كسَلفه مليئاً بأدب الأندلس ليس فيه من آثار أهل المغرب الا القليل ، فكفانا أنّهما معاً أثران مغربيان ينمّان عن أدب صاحبيهما وعبقريّتهما .

وإن ننسَ لا ننسَ كتاب صفوة الأدب ، وديوان العرب ، الذي ألّفه الشاعر أبو العباس الجرّاوي على وضع كتاب الحماسة لأبي تمّام وضمّنه مختارات من الشعر العربي في مُختلف أبوابه ، ولم يغفُل أن يضُمّ اليه من شعر الأندلسيين والأفارقة ما جعله يمتاز عن حماسة أبي تمام . ويُعرف بالحماسة المغربية . وقد وصلنا مختصره الذي اطّلعنا منه على غزارة حفظ مؤلّفه وحُسن صنيعه . وبالجملة فان نهضة علوم الأدب في هذا العصر كانت شاملةً . وما يمنعُنا من تتبع مظاهرها إلاّ خشيةُ التطويل ، ويأتي مزيد بيانٍ لها في الكلام على الحياة الأدبية .

* * *

العلوم الحكمية :

وأما العلوم الحكمية فانها انتشرت انتشاراً كبيراً لم تبلغه في أي عصر آخر ، حتى لقد كان هذا عصرها الذّهبيّ في المغرب ، وكان الموحدون ، والحقُّ يقال ، أشبه الدول الاسلامية بالعباسيين في الأخذ بضبع هذه العلوم وتنشيط رجالها . لكن أربى عليهم في ذلك كإرباء المأمون على سائر العبّاسيين يوسف بن عبد المؤمن ؛ فهو مأمون هذه الدولة الذي ناصر علوم الفلسفة ووالى أهلها. وكان هو نفسه متحققاً بكثير من أجزائها مشاركاً في جملةٍ من فنونها . ويقول المراكشي إنه استظهر من الكتاب الطّبي الملكي أكثره مما يتعلق بالعلم خاصّةً دون العمل . ثم تخطّى ذلك الى ما هو

أشرف منه من أنواع الفلسفة . وكان ممّن صحبه من العلماء المتفنّنين أبو بكر محمد بن ُطفيل أحد فلاسفة الاسلام. له تصانيف في أنواع الفلسفة من الطبيعيات والإلاهيات. وكان يأخذ الجامكيَّة مع عدة أصناف من الخدَمة من الأطباء والمهندسين والكتّاب والشعراء والرُماة والأجناد ؛ الى غير هؤلاء من الطوائف . قال المراكشي : « وكان أميرُ المؤمنين أبو يعقوب شديدَ الشّغَف به والحب له . بلغني أنه كان ُيقيمُ في القصر عنده أياماً ليلاً ونهاراً لا يظهر . ثم قال : « ولم يزل أبو بكر هذا يجلب اليه العلماء من جميع الأقطار وُينبّهه عليهم ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم ، وهو الذي نبّهه على أبي الوليد بن رشد ، فمن حينئذٍ عرفوه ونبُه قدره عندهم . أخبرني تلميذه الفقيه الاستاذ أبو بكر بن داود بن يحيى القُرطبي قال ، سمعت الحكيم أبا الوليد يقول غير مرّة : لمّا دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب وجدته هو وأبو بكر بن ُطفيل ليس معهما غيرهما . فأخذ أبو بكر ُيثني عليّ ويذكر بيتي وَسلفي ويضمُ بفضله الى ذلك أشياء لا يبلغها قدري . فكان أول ما فاتحني به أمير المؤمنين بعد أن سألني عن اسمي واسم أبي وَنسبي أن قال : ما رأيهُم في السماء ، يعني الفلاسفة ، أقديمة ٌ هي أم حادثة ، فأدركني الحياء والخوفُ فأخذت أتعلّل وأُنكر اشتغالي بالفلسفة ، ولم أكن أدري ما قرّر معه ابنُ ُطفيل ، ففهم أمير المؤمنين منيّ الرّوع والحياء ؛ فالتفت الى ابن ُطفيل وجعل يتكلم على المسألة التي سألني عنها ويذكر ما قاله ارسطوطاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة. ويورد مع ذلك احتجاج أهل الاسلام عليهم ، فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنّها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له ، ولم يزل يبسُطني حتى تكلّمت ؛ فعَرف ما عندي من ذلك ، فلما انصرفت أمر لي بمال وخِلعة سنيّة ومركب . قال وأخبرني تلميذه المتقدم الذكر عنه ، قال : استدعاني أبو بكر بنُ ُطفيل يوماً فقال لي : سمعت أمير المؤمنين يشتكي من قلقِ عبارة أرسطوطاليس أو عبارة المترجمين عنه ، ويذكرُ غموضَ أغراضه ويقول : لو وقع لهذه الكتب من ُيلخصها ويقرّب أغراضها بعد أن يفهمها جيداً لقرُبَ مأخذها على الناس ، فان كان فيك فضلُ قوة لذلك فافعل . واني لأرجو انتفي به لِما اعلمُه منجوْدة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك الى الصناعة ، وما يمنعني من ذلك إلا ما تعلمه من كبرة سنّي واشتغالي بالخدمة (كان وزيراً ليوسف) وصرْفِ عنايتي الى ما هو أهمُ عندي منه . قال أبو الوليد : فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتبِ الحكيم ارسطوطاليس » .

*

هذا ما عمله يوسف بن عبد المؤمن في سبيل تقدُّم هذه العلوم بمملكته . وهاك ما عمله ولده يعقوب المنصور ممثلاً في عنايته الفائقة بفذّ من أفذاذ هذه الطبقة . فحكى المؤرخون أن الطبيب أبا بكر بنَ زُهْر كان ملازماً له ومختصاً به وكان يقيم عنده المدد الطويلة ولا يرخَّصُ له في السفر الى رؤية أهله وصلةِ الرحم بذويه وقرْباه، حتى قال يوماً يتشوَّق الى ولدٍ له صغير :

وَلِي واحِدٌ مِثلُ فرْخِ ٱلْقَطا صَغيرٌ تَخَلَّفتُ قَلْبي لدَيْـه
وأُفْرِدتُ عنه فيَا وَحْشَتي لِذاكَ ٱلشُّخَيْصِ وذاكَ ٱلْوُجَيْه
تَشوّقَـني وَتَشَوَّقتُـه فيَبْكِي علَيَّ وأبكي عَلَيْه
وَقَد تَعِبَ ٱلشَّوقُ ما بَيْنَنا فمنـه إلَيَّ وَمني إليْـه

فسمعها المنصور فأرسل المهندسين الى اشبيلية وأمرهم ان يحتاطوا علماً ببيوت ابن زُهْر وحارته ثم يَبنوا مثلها بحضرة مراكش ففعلوا ما أمرهم في أقرب مدةٍ ، وفرشها بمثل فَرشهِ وجعل فيها مثل آلاته ؛ ثم أمر بنقل عيـال ابن زُهْر وأولاده وحشمه وأسبابه الى تلك الدار ، ثم احتال عليه حتى جاء الى ذلك الموضـع فرآه أشبه شيء ببيته وحارته ، فاحتار لذلك وظنَّ أنه نائم وأن ذلك أحلام ، فقيل له ادخُل البيت الذي يشبه بيتك فدخله فإذا ولده الذي تشوَّق اليه يلعب في البيت ، فحصل له من السرور ما لا مزيدَ عليه ولا يُعبَّر عنه . فهل سمع بمثل هذا الامر في إكرام العلم والعلماء وهل بقيت بعـد هذا غاية في ذلك السبيل ؟

ولا تقصر الهمة الموحدية عن أختها العباسية زيادة على ذلك في التنقيب عن الكتب النادرة وطلب المؤلفات الغريبة من سائر الجهات حتى لقد جمع يوسف بن عبد المؤمن الألوف المؤلفة منها ، وكانت مكتبته تضاهي مكتبة الحكم المستنصر بالله الأموي . وقد اورد في المعجب هذه الحكاية التي تدل على ما كان يبذله في هذا السهيل من الترضيات الكبيرة . قال : « أخبرني أبو محمد عبد الملك الشذوني أحد المتحققين بعلمي الطب واحكام النجوم قال : كنت في شبيبتي استعير كتب هذه

الصناعة ، يعني صنعة الأحكام ، من رجل كان عندنا بمدينة اشبيلية اسمه يوسف يكنى ابا الحجاج يعرف بالمراني بتخفيف الراء ، كانت عنده منها جملة كبيرة وقعت الى ابيه في أيام الفتنة بالاندلس ، فكان يعيرني إياها في غرائر ؛ احمل غرارة وأجيء بغرارة من كثرتها عنده، فأخبرني في بعض الأيام انه عدم تلك الكتب ، بجملتها . فسألته عن السبب الموجب لذلك فأسرّ إليّ أن خبرها أُنهي الى امير المؤمنين فأرسل الى داري ، وأنا في الديوان لا علم عندي بذلك . وكان الذي أُرسل كافور الخصي مع جماعة من العبيد الخاصة وأمره ان لا يروّع أحداً من أهل الدار وان لا يأخذ سوى الكتب وتوعده والذين معه أشدّ الوعيد إن نقص أهل البيت إبرةٌ فما فوقهـا . فأخبرت بذلك وأنا في الديوان فظننته يريـد استصفاء أموالي فركبت وما معي عقلي ، حتى أتيت منزلي فاذا الخصيُّ كافورٌ الحاجب واقف على الباب والكتب تخرج اليه . فلما رآني وتبين ذعري قال : لا باس عليك وأخبرني أن أمير المؤمنين يسلم عـليّ وأنه ذكرني بخير ولم يزل يبسطني حتى زال ما في نفسي ، ثم قال لي : أهلُ بيتك هل راعهم احدٌ أو نقصهم شيءٌ من متاعهم ؟ فسألتهم فقالوا : لم يرعنا أحد ولم ينقصنا شيء . جاء ابو المسك حتى استأذن علينا ثلاث مرّات فاخلينا له الطريق ودخل هو بنفسه الى خزانة الكتب فأمر باخراجها . فلما سمعت هـذا القول منهم زال ما كان في نفسي من الروع . وولوه بعد أخذهم هذه الكتب منه ولاية ضخمة ما كان يحدث بها نفسه » .

وكان لخزانة الكتب عندهم ولاية خاصة لا يولاها إلاَمن ، ومن ، لأن أمرها عظيم لديهم . وممن وليَ النظر فيها أيام يوسف بن عبد المؤمن ، القاضي أبو محمد بن الصقر ، وكان من أحسن العلماء نظراً في كثير من الفنون . فقام عليهـا أتم قيام ، واستنسخ لها كثيراً من المجلدات الضخام ، وكان كلما بالغ في النصيحة والخدمة كلما بالغوا له في العطايا والهبات .

فهذا وغيره مما اغفلنا ، فضلاً عما جهلناه ، يعطيك صورة واضحة لما كانت عليه هذه العلوم من الرواج والانتشار في عصر الموحدين الذين لم يألوا جهداً في البر برجالها والاحسان اليهم. ولا تنسَ المنة التي طوقوا بها عنق العالم المتمدن بانتشالهم الفيلسوف ابن رشد من وهدة الخمول ، وإحلاله في المحل اللائق به . فقد علمت أنهم الحاملون له على تلخيص فلسفة الأقدمين كما روى المرّاكشي عنه . وإن كانت بـدت من

يعقوب المنصور في حقه نزوة فان ذلك لا يقدح في موقف الدولة كلها إزاء رجال العلم . على أنه نفسه تدارك ما فات وعاد فاصلح ما أفسده . خصوصاً وقد كان سبب امتحانه له سياسياً محضاً كما فصل ذلك المؤرخون . فإنه في شرح كتاب الحيوان لارسطو طاليس لما ذكر الزرافة وصفها فقال : «وقد رأيتها عند ملك البربر بمراكش» فلما بلغ ذلك يعقوب حقدها عليه . ثم إن اعداء ابن رشد وجدُوها فرصة مناسبة فأغروا المنصور عليه ، واتخذوا اشتغاله بالفلسفة ذريعة الى ذلك ، فرفعوا اليه رقاعاً فيها ما يقتضي الكفر والمروق والغرطقة ، مثل ما كان في إحداها حاكيا عن الفلاسفة اليونان ، «فقد ظهر أن الزهرة أحد الآلهة» في اشباه لذلك . فاستدعاه المنصور وأوقفه عليها وقال هذا خطك ؟ فأنكر . فأمر باخراجه من عنده وطرده ، ولعنه الحاضرون . ثم ندم بعد ذلك على ما صدر منه وارسل يستدعيه ، فجاء واعتذر إليه واكرمه وبقي عنده حتى مات بمراكش رحمه الله . وقد كان له مندوحة عن وصف ولي نعمته بملك البربر ، وهو في الحقيقة ليس ملك البربر فقط ، ولكن للسان عثرات .

وفي أيام المنصور هذا استبحر العمران بالمغرب وزهت الحضارة وتقدم فن المعمار بتقدم حركة البناء ، إذ بنى المنصور مدينة رباط الفتح الفيحاء ، وقصبة مراكش وجامعه الفخم بها ومنار الكتبية العظيم بمراكش أيضاً ومنار حسّان الضخم بالرباط ومنار الخيرالدة باشبيلية الذي هو من أعاجيب الدنيا. وانشأ في جامعه بمراكش المقصورة والمنبر « الأتوماتكيين » وكانا موضوعين على حركات هندسية بحيث يبرزان لدخوله دفعة واحدة ويغيبان لخروجه كذلك . كانت هذه المقصورة كبيرة تسع أكثر من ألف رجل ، كما عند صاحب الحلل . والذي صنعهما هو الحاج يعيش المهندس الذي بنى جبل الفتح لعبد المؤمن وقد أعيى الأدباء وصفها حتى قال ابن مجبر فيها قطعته الخالدة :

طَوْراً تكونُ بَمن حَوَتْه مُحِيطةً فكأنَّهـا سُورٌ من الأَسوار
وتكونُ طَوْراً عنهمُ مخبُوءةً فكأنهـا سِرٌّ من الأَسرار
وكأَنَّمـا عَلِمَتْ مقـادِيرَ الورى فتصرَّفت لهمُ على مِقْـدار

فاذا أَحسَّت بالأَمير يزُورها في قَوْمِه قامَت الى الزُّوار
يبْدُو فتبْدُو ثم تخفَى بعْدَه كتَكَوُّنِ الهَالات لِلأَقمار

فطرب المنصور لسماعها ولم يرض بما قيل في مقصورته غيرها .

كذلك بنى عدّة مساجد ومدارس في كل من افريقية والأندلس والمغرب ومنها المسجد الأعظم بمدينة سُلا ومدرسته الباقية الى الآن شاهدة بان هذا المسجد يضاهي القرويين في الضخامة والجفوة كان من معاهد العلم المقصودة حتى احتيج الى بنـــاء مدرسة حوله . ويعدُ بناء المدارس في هذا العهد من مظاهر التقدم العلمي ، وقد أصبح تقليداً متبعاً حتى من أفراد الشعب . ونشير هنا بالخصوص الى مدرسة الشيخ أبي الحسن الشّاري من أعلام هـــذا العصر التي أنشأها في مدينة سبتة وكان لها صيت بعيد .

وفي مراكش كان يوجد مجمعٌ علمي يسمى بيت الطلبـة ، وهو يذكرنا ببيت الحكمة الذي كان في بغداد على عهد المأمون . وكان مألفاً لأهـــل العلم من أصليين وطارئين . وإذا علمنا أنه كانت هناك وظيفة يسمّى صاحبها رئيس الطلبة ، فغير بعيد أن يكون هو عميد هذا البيت . وكان الموحّدون يطلقون اسم الطلبة على أهل العلم عامة وأهل الحديث خاصة ولا يولون هذه الوظيفة إلا العلماء الراسخين أمثال المحدث ابن القطان والقاضي ابن المالقي . وفي هـــذا البيت استُقبِل ابو عمر بن عات ، وألقيت عليـــه أحاديث من صحيح مسلم محوّلة المتون والأسانيد فأعادها الى أصلها . فإن لم يكن بيت الطلبة هذا مدرسةً للحديث كالتي أنشأها نورُ الدين محمود بن زنكي في دمشق ، فهو في أقلّ تقدير مجمعٌ علمي كما قلنا ، تفردت به مراكش الموحدّية عن سائر عواصم المغرب وافريقية والأندلس .

ومما حلـّى به المنصور جيدَ أعمـــاله التمدينية ورصّع تاج الحضارة المراكشية المستشفى العظيم الذي يقول صاحب المُعجب فيه : « ما أظن في الدنيا مثله » . وناهيكَ بها شهادةً من رجل جاب الأقطار واخترق الأمصار . وهاك صفته نقلاً عنه :

« وبنى بمدينة مراكش مارستاناً ما أظنُ أن في الدنيـــا مثله ، وذلك أنه تخيّر

ساحةً فسيحة بأعدل موضع في البلد ، وأمر البنائين باتقانه على أحسن الوجوه فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخاريف المحكمة ما زاد على الاقتراح ، وأمر ان يُغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار والمشمومات والمأكولات ، وأجرى فيها مياهاً كثيرة تدور على جميع البيوت ، زيادةً على أربع برَك في وسطه ، إحداها رُخام أبيض . ثم أمر له من الفرُش النفيسة من أنواع الصّوف والكتان والحرير والأديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتي فوق النعت ، وأجرى له ثلاثين ديناراً في كل يوم برسم الطعام وما يُنفق عليه خاصةً ، خارجاً عما جَلب اليه من الأدوية وأقام فيه من الصيّادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال ، وأعدَّ فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء ، فاذا نقِه المريض فان كان فقيراً أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقلُّ ، وان كان غنيّاً دفع اليه ماله وتركه وسبَبه ، ولم يقصُره على الفقراء دون الأغنياء بل كلُّ من مرض بمراكش من غريب حُمِلَ اليه وعولج الى أن يستريح أو يموت . وكان في كل جمعة بعد صلاته يركبُ ويدخله يعود المرضى ويسأل عن أهل بيت ، بيتٍ يقول : كيف حالكم وكيف القومة عليكم الى غير ذلك من السؤال ، لم يزل مستمرّاً على هذا الى أن مات رحمه الله » .

وفي هذه القطعة دليل على تقدُّم علم النبّات والفلاحة فضلاً عن الطب والكيمياء ، وبستان المسرّة أعظم دليل على ذلك . وهو بستانٌ أحدثه عبد المؤمن بضاحية مراكش ، طوله فيما يقول ابن عذارى وصاحبُ الحُلل ثلاثة أميال وعرضه قريبٌ من ذلك . وكان فيه كلُّ فاكهة تُشتهى وجلب إليه الماء من أغمات زيادةً على ما استنبط له من العيون الكثيرة . وأنشأ فيه صِهريجاً واسعاً كالبحيرة كان يمرّن فيه الجنود وشيوخ الموحّدين على العَوم والتجذيف كما في الحُلل . وهذا الصّهريج هو المعروف بالمنارة الكائن في أكدال بمراكش . قال ابن إليَسع : وما خرجت أنا من مراكش في سنة ثلاثٍ وأربعين وخمسمائة إلا وهذا البستان الذي غرسه عبد المؤمن يبلغ مبيع زيتونه وفواكهه ثلاثين الف دينار مؤمنيّة على رُخص الفاكهة بمراكش . قال النّاصري : « ودعاه ابن عذارى ببُستان المسرّة وقال انه بظاهر جنان الصالحة . ولشهرة هذا البُستان وموقعه من الناس لهجت به صبيانهم وسجعوا به فيقولون :

يا جرادة مالحة ، أين كنت سارحة ، في جِنان الصّالحة ... في أسجاع غير هذه

تجري عــلى ألسنة الصبيان . وما زال هذا النشيد الشّعبي مرويّاً عند الصّغار حتى الآن .

ثم بعد هذا لا نخالُ القول بتقدم الصنائع النفيسة والفنون الجميلة كالنقش والتزويق وعمل الفسيفساء والقربص إلا خبراً بمعلوم . فقد رأيت ما كان بها من الاهتبـــال ، وعليها من الإقبال، حتى انهم لم يخلوا منها المستشفى الذي أُنشيء لغير من يهمهم أمرها من المرضى . ولكنّ الغاية في هذا الباب هو ما عمله عبد المؤمن في تحلية المصحف العثماني الإمام . وقد كتب في ذلك وزيره ابن طُفيْل رسالةً بديعةً نرى أنفسنا مضطرين الى نقل ما يتعلق منها بهذا الغرض . قال بعد ان استهلها ببيان كيفية وصوله الى عبـــد المؤمن بطريق الهدية من أهل قرطبة بعد أن تعلقت به نفسه جدّ التعلق ، لكنه أبى أن يَسلبُهم تلك الذخيرة الثمينة ويوحش أُنسَهم بفقده حتى جادوا به بمحض اختيارهم طيبةً به أنفسهم :

« ثمّ إنهم أدام الله سبحانه تأييدهم ، ووصل سعودهم ، لمـا أرادوا من المبالغة في تعظيم المصحف المذكور واستخدام البواطن والظواهر فيما يجب له من التوقير والتعزيز ، شرعوا في انتخاب كسوته ، وأخذوا في اختيار حليته، وتأنقوا في استعمال أحفظته، وبالغوا في استجادة أصْونته ، فحشروا له الصنــاع المتقنين ممن كان بحضرتهم العليّة ، وسائر بلادهم القريبة والقصيّة . فاجتمع لذلك حُذّاقُ كل صناعة ومَهَرة كل طائفة من المهندسين والصوّاغين والنظّامــين والحلاّئين والنقّاشين والمرصّعين والنجّارين والزوّاقين والرسّامين والمجلّدين وعرفاء البنّائين ولم يبق من يوصف ببراعة، وينسب الى الحِذق في صناعة ، إلا أُحضر للعمل فيه ، والاشتغال بمعنىً من معانيــه ، فاشتغل أهل الحيل الهندسية بعمل أمثلة مخترعة ، وأشكال مبتدعة ، وضمّنوهـــا من غرائب الحركات، وخفيّ إمداد الاسباب للمسببات، ما بلغوا فيه منتهى طاقتهم ، واستفرغوا فيه جهد قوتهم . والهمة العلية ادام الله سموها تترقى فوق معارجهم ، وتتخلص كالشهاب الثاقب وراء مواهجهم ، وتنيف على مــا ظنوه الغاية القصوى من لطيف مدارجهم ؛ فسلكوا من عمل هذه الأمثلة كلّ شِعْب ، ورأبوا من منتشرها كلّ شَعب وأشرفوا عند تحقيقها ، وابراز دقيقها ، على كل صعب ، فكانت منهم وقفة كادت لها النفوس تيأس عن مطلبها ، والخواطر تكرُّ راجعة عن خفي مذهبها ، حتى اطلع الله خليفته في خلقه ، وأمينه المرتضى لاقامة حقه ، على وجهٍ انقادت فيه تلك الحركات

بعد اعتياصها ، وتخلصت أشكالها عن الاعتراض على أحسن وجوه خلاصهـا ، ألقَوْا ذلـــك أيدهم الله بنصره ، وأمدَّهم بمعونته ويُسره ، الى المهندسين والصُّناع فقبلوه أحسن القبول ، وتصوَّروه بأذهانهم فرأوه على مطابقة المأمول . فوَقفهم حسنُ تنبيه ما جهلوه على طور غريب من موجبات التعظيم ، وعلموا أن الفضل لله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وسيأتي بعد هذا إشارة الى تفصيل تلك الحركات المستغربة ، والاشكال المؤنقة المعجبة ، مما صنع للمصحف العظيم ، من الأصونة الغريبة ، والأحفظة العجيبة ، أنه كُسِيَ كله بصوان واحد من الذهب والفضة ذي صنائع غريبـة ، من ظاهره وباطنه ، لا يشبه بعضها بعضاً ، قد أجري فيه من الوان الزجاج الرومي ما لم يُعهد له في العصر الاول مثالٌ ولا عَمَر قبلـــه بشبهه خاطر ولا بال ، وله مفاصل تجتمع اليها أجزاؤه وتَلتئم ، وتتناسق عجائبه وتنتظم ، قد أُميلت للتحرك أعطافها ، وأُحكم إنشاؤها على البغية وانعطافها ، ونظّم على صحيفته وجوانبه من فاخر الياقوت ونفيس الدّر وعظيم الزُمرُد مـــا لم تزل الملوك السالفـة ، والقرون الخالفة ، تتنافس في أفراده ، وتتوارثه على مرور الزمن وترداده ، وتظنُ العزَّ الأقعَس ، والمْلك الأنفس ، في ادّخاره وإعداده ، وتسمّي الواحد منها بعد الواحد بالاسم العَلَم لشذوذه في صنعه واتحاده ، فانتظم عليه منها ما شاكله زهْر الكواكب في تلألئه واتّقاده ، وأشبهه الروض المزخرف غِبَّ سماءٍ أقلعت عن إمداده ، وأتى هذا الصّوان الموصوف رائق المنظر ، آخذاً بمجامع القلب والبصر ، مستولياً بصورته الغريبة على جميع الصور ، يدهش العقول بهاءً ، ويحير الألباب رُواءً ، ويكاد يُغشي الناظر تألُّقاً وضياء ؛ فحين تمَّت خِصاله ، واستركبت أوصاله ، وحان ارتباطه بالمصحف العظيم واتّصاله ، رأوا أدام الله تأييدهم ، وأعلى كلمتهم ، بمـا رزقهم الله تعالى من ملاحظة الجهات ، والإشراف على جميع الثَّنيات ؛ ان يُتلطَّف في وجه يكون به هذا الصّوان المذكور طوراً متصلاً وطوراً منفصلاً ، ويتأتّى به المصحف الشريف العظيم أن يُبرز تارة للخصوص متبذّلاً وتارة للعموم متجمّلاً ، إذ معـــارج الناس في الاستبصار تختلف ، وكلٌ له مقام اليه ينتهي وعنده يقف ، فعُمل فيه على شاكلة هذا المقصد . وتُلطف في تتميم هذا الغرض المعتمد ، وكُسيَ المصحف العزيز بصوان لطيف من السُندس الأخضر ، ذي حِلية عظيمة خفيفـــة تلازمه في المغيب والمحضر ، ورُتّب ترتيباً يتأتّى معه ان يُكسى بالصّوان الأكبر ، فيلتئم به التئاماً يُغطّي على العين من هذا الأثر . وكمُل ذلك كله على أجمل الصفات وأحسنها ،

وأبدع المذاهب وأتقنها ، وصُنع له مَحملٌ غريب الصّنعة ، بديع الشكل والصبغة ، ذو مفاصل ينبو عن دقّتها الادراك ، ويشهد بهـا الارتباط بين المفصلين ويصحّ الاشتراك ، مُغشّى كلّه بضروب من الترصيع ، وفنون من النقش البديع ، في قطع الأبنوس والخشب الرفيع ، لم تُعمل قط في زمن من الأزمان ، ولا انتهت قط الى أيسره ثواقب الأذهان . مُدار بصنعة قـد أُجريت في صفائح الذهب ، وامتدت امتداد ذوائب الشُهُب ، وصُنع لذلك المحمـل كرسيٌ يحمله عند الانتقـال ، ويشاركه في أكثر الأحوال ، مرصّع مثل ترصيعه الغريب ، ومشاكل له في جودة التقسيم وحسن الترتيب ، وصُنع لذلك كله تابوتٌ يحتوي عليه احتواء المشكاة عـلى أنوارها ، والصدور على محفوظ أمكارها ، مُكعّبُ الشكل ، سام في الطول ، حسن الجملة والتفصيل ، بالغٌ ما شاء من التتميم في أوصاله والتكميل ، جـار مجرى المحمل في التزيين والتجميل ، وله في أحد غواربه باب رُكّبت عليه دفّتان قد أُحكم إرتاجُها ، ويُسّر بعد الإبهام انفراجُها ، ولانفتاح هذا الباب وخُروج الكرسي من تلقائه ، وتركّب المحمل عليه ، ما دبّرت الحركات الهندسية ، وتُلقّيت التنبيهات القدسية ، وانتظمت العجائب المعنوية والحسّية ، والتأمت الذخائرُ النفيسة والنفسيّة ، وذلك ان بأسفل هاتين الدّفّتين فيصلاً فيه موضع قد أعدّ له مفتاح لطيف يُدخل فيه . فاذا دخل ذلك المفتاح فيه وأديرت به اليد انفتح الباب بانعطاف زائدة الدّفتين الى داخـل الدّفتين من تلقائها ، وخرج الكرسيُّ من ذاته بما عليه الى أقصى غايته . وفي خلال خروج الكرسي يتحرك عليه المحمل حركةً منتظمةً مقترنةً بحركةٍ يأتي بها من مؤخّر الكرسي زحفاً الى مُقدّمه . فاذا كمُل الكرسي بالخروج وكمُل المحمل بالتقدم عليه ، انغلق الباب برجوع الدّفتين الى موضعها من تلقائها دون أن يمسّها أحد ، وترتيب هذه الحركات الأربع على حركات المفتاح فقط دون تكلف شيء آخر . فاذا أدير المفتاح الى خلف الجهة التي أدير اليها أولاً ، انفتح أولاً الباب وأخذ الكرسي في الدخول والمحمل في التأخر عن مقدم الكرسي الى مؤخره ؛ فاذا عاد كلٌّ الى مكانه انسدّ الباب بالدفتين ايضاً من تلقائه . كلُّ ذلك يترتّب على حركات المفتاح كالذي كان في حال خروجه . وصحّة هذه الحركات اللطيفة على أسباب ومسبّبات غائبة عن الحسّ في باطن الكرسي ، وهي مما يدقّ وصفها ويصعُب ذكرها ، أظهرتهـا بركات هذا الأمر السعيد ، وتنبيهات سيدنا ومولانا الخليفة أدام الله تعالى أمرهم ، وأعز نصرهم . »

هذا ما أردنا نقله من رسالة ابن طفيل وهي على طولها ممتعة ومفيدة في معرفة مدى ما وصلت اليه هذه الصنائع الدقيقة من الرقي والكمال . ودون هذا فان صنائع أخرى جليلة كانت في غاية من التقدم والاتقان كصناعة الأسلحة بجميع أنواعها والآلات الحربية والسفن ، وكان لهذه دورٌ كبيرة في مختلف الموانىء . وفيها صنع الاسطول المغربي العظيم الذي كان يصول ويجول في عرض البحر . واقرأ إن شئت في نفح الطيب ما للشعراء في وصفه من القصائد الطنانة التي تستشعر منها روح الفخار وتتعرف عظمة الاجداد .

وفي هذه الاثناء كان الشريف الادريسي في صقليّة يتقرّى البلاد بحراً وبرّاً لأجل أن يؤلف كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ، فيخلف لنا ذلك المستند الجغرافي الذي ما برح مرجعاً مهماً للمستكشفين وأرباب الرحلات ووضعة الخرائط والمصورات .

واذا كانت مظاهر الحضارة لشعب من الشعوب تتمثل في شتى نواحي حياته الاجتماعية كما تتمثل في النهضة العلمية والصناعية فان من أخص هذه النواحي ما يتصل بخفض العيش وترف البيت ، وأجلى ما يتمثل فيه ذلك المطبخ . ومن ثم قال بعض الحكماء : « أرني مطبخ أية أمة أحدثك عن حضارتها » . والواقع ان المطبخ المغربي في هذا العصر بلغ الغاية من التفنن في إعداد أنواع المطاعم والمشارب واتقانها بما لا نعرف له مثيلاً الآن . وقد أفدنا هذا من كتاب في الموضوع لمؤلف معاصر[١] تحدث إلينا عن أكثر من خمسمائة لون من ألوان الطعام والشراب والحلوى والمربّى وما الى ذلك مما كان يعمل للخلفاء الموحدين والأمراء منهم ورجال دولتهم على العموم. ومنهم ما يحمل اسم بعضهم لكونه كان يعجبه كثيراً أو لكونه من اقتراحه . ومنها ما يعرف باسمه العام ، ومنها ما يعرف بصفته . وبعض هذه الاسماء لا يزال عندنا مستعملا . والمهم هو أن من هذه الأطعمة ما ينسبه بعض الناس اليوم الى الأتراك ويعتقدون أنه مما أخذ عنهم أثناء حكمهم للقطر الجزائري بموجب المداخلة

١ — هو مخطوط مجهول المؤلف ، كتب الاستاذ ويسي المستشرق الاسباني المعروف بحثاً عنه في مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الخامس الصادر في سنة ١٩٥٧ .

والاتصال ، مع أنه مما كان موجوداً في عصر الموحدين هذا ، قبـــل ظهور الاتراك ووصولهم الى المغرب بكثير .

ولعل قائلا يقول وما نصيب المرأة في هذه النهضة الشاملة الكاملة ، وهي التي إذا عدمت مشاركتها في عمل ما يعتبر غير كامل ولا شامل . والجـــواب أن المرأة المغربية كانت دائماً عنصراً فعّالاً في تطور البلاد وتقدمها وازدهارها . وقد ذكرنا عملها العظيم في العصر الأول الذي يتمثل في تأسيس كلية القرويين ومشاركتها في الأعمال السياسية والأدبية في العصر المرابطي . ولا يشذُّ هذا العصر عن سالفيه في أخذ المرأة بأسباب النهوض ، بل إنه يعطينا أمثلة رائعة لمساهمتها في ضروب النشاط الفكري باطلاق من علمي وأدبي. فمن الاسماء اللامعة التي عرفت بصفتها العلمية السيدة زينب ابنة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن . كانت عالمة فاضلة أخذت علم الكلام عن أبي عبدالله بن ابراهيم ، وهي زوج ابن عمها السيد أبي زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن . ومن نساء الشعب السيدة خيرونة التي ألف الامام السلاجي عقيـــدته البرهانية من أجلهـــا . ولا شك ان لها يداً في نشر التوحيـــد على مذهب الأشعري بـــين نساء أهـــل فاس إسوة باستاذها الذي ألمعنا الى عمله في هذا الصدد . ومنهن في علم الرواية والحـديث الشَّيْخة أمُّ المجـــد مريم بنت أبي الحسن الشاريّ صاحب المدرسة بسبتة . ومنهن في علم الفقه السيدة مَحلة المراكشية التي كانت من حفاظ المدونة ، ومنهنّ في التصوُّف والعلوم الـلّدُنـِّية السيدة منية ُ بنت مَيْمون الدُكـّالي وسواها كثيرات. وهذا الصنف من السيدات هو الذي يتسامح كتـّاب الطبقات بذكره في مؤلفاتهم ؛ فلذلك نقف على العدد العديد منهنّ ، في حين ان الأصناف الأخرى إنما تذكر اسماؤهن عرضاً في تضاعيف الكتب . ولعلّ الاتصال الذي كان مسموحاً به في العُرف لهؤلاء السيدات بصفتهنّ من الصالحات القانتـات له دَخَلٌ في ذلك . واما في العلوم الأدبيـــة والكتابة والشعر فقد سبقت الاشارة الى السيدة رُمَيْلة من بيت الخلافة الموحدية ، وما كان لها من فصاحة وبلاغة في النـَّظم . ومن نساء الشعب النابغات في ذلك السيدة الشريفة أمةُ العزيز بنت أبي محمد بن الحسن ابن أبي الجسَّام الحسيني السبتي . ذكرها ابن دحية في المطرب وقال انها أخت جده لأمه . ومنهنّ السيدة حفصة بنت القاضي أبي حفص بن عمر . وقد ذكرها الشاعر

أبو العباس الجراوي في شعره وذكر نبوغها على طريقته في الهجاء والتعريض، فأجاب عنها والدُها ولم تتنزّل هي لجوابه ترفعاً وتصاوناً. ومنهنّ السيدة ام النساء بنت عبد المؤمن التاجر الفاسي، ذكرها ابن عربي الحاتمي في كتاب المحاضرات وقال إنها تجيد الشعر وقد أنشدت للسيد أبي علي صاحب فاس عند ولايته عليها قصيدة تقول في مَطْلِعها :

جاء البشيرُ بوعـدٍ كان يُنتظرُ   فأصبح الحقُّ ما في صَفْوِه كَدَرُ
مِن خيْر هادٍ غَدا بالهَدْي يأمرُنا   وَفي أوامِرِه التَسْدِيـدُ والنَّظَر

وفيها تصفه بالشجاعة :

لَيْثٌ إذَا اقتحَم الأَبطالُ حومَتها   يُفْنِي الكَتائِبَ لا يُبقِي ولا يَذرُ

ويضيق المقام عن استيفاء الكلام على جميع مظاهر النهضة العلمية الكبرى في هذا العصر فلنكتف بهذا القدر فان فيه غنية لذوي الألباب .

الهيئة العلميّة وآثارها

نرى من تتمة البحث السابق ، أن نُذيّله بكلمات مختصرة جداً في حياة بعض الأفراد الذين كانوا قِوام الحركة العلميّة في هذا العصر ، فنُحيي ذكرياتهم ، ونتعرّف أحوالهم ولو بصفة إجمالية ، ونُضيف الى ذلك جريدةً بأسماء الكتب المؤلفة فيه ، في مختلف العلوم والفنون ، فنُحيط عِلماً بالمجهودات الطائلة التي بذلها أسلافنا رحمهم الله في خدمة العلم، ونتصوَّر الحركة العلميَّة الموحديَّة على حقيقتها، حتى لا نبقى متشوِّفين بعد ذلك إلى زيادة بيان.

ابو القاسم الجزيري

عليُّ بن يحيى بن القاسم الصَّنهاجي ، يكنّى أبا القاسم وأبا الحسن ، أصله من بلاد الريف ونزل الجزيرة الخضراء فنُسب اليها . كان فقيهاً متمكناً يشتغل بالتدريس وعقد الشروط ، ثم وَليَ قضاء الجزيرة ، وكان متواضعاً كثير الأوراد صاحب علم وعمل . وله في الشروط مختصر مفيد جدّاً سمَّاه بالمقصد المحمود في تلخيص العقود ، كثر استعمال الناس له لجودته ودلالته على معرفته ، قاله ابن الأبار . وهو من مصادر تحفة الحكّام لابن عاصم ، كما صرَّح بذلك في خطبتها . وتوفي في الجزيرة في شهر ربيع الأول سنة ٥٨٥ وهو ابن ٦٠ سنة .

ابو محمّد صالح

فقيه فاس وصالحها ، أبو محمد صالح بن جنُّون الهسكوري المضروب مثلاً بين الفقهاء للعدل المبرّز . وهو الفائق في العدالة بمعنى الشهادة ؛ لجمعه بين المعرفة والنزاهة . ولذلك يختصُّ بأحكام عن بقيّة العدول أي الشُّهود ، وأول من ضربه

مثلا لذلك ابنُ عرفة الفقيه المشهور . أخذ المترجم عن الشيخ أبي محمد يَشكر فقيه فاس قبله وأخذ عنه الفقيه أبو الفضل راشد الوليدي صاحب كتاب «الحلال والحرام» والشيخ أبو إبراهيم الأعرج صاحب « الطُّرر على المدوّنة » وله تقييد على الرسالة كُتِب من إملائه في درسه لها . وتوفي سنة ٦٥٣ وهو غير أبي محمد صالح صاحب الطريقة الصوفية التي جعلت من أهم أغراضها الحج الى بيت الله الحرام . نعم إنّهما كانا متعاصرين ، والأول فاسي ، والثاني آسفي .

عَبْدالجليل القصري

أبو محمد عبد الجليل بن موسى بن عبد الجليل الأوْسي الأنصاري من اهل القصر الكبير ، وبالنسبة اليه شُهر ، روى عن ابن حُنَين أخذ عنه الموطا بفاس ولازم أبا الحسن بن غالب بالقصر الكبير ، وحدّث بكتاب اليقين من تأليفه ، كما روى عن غيرهما . وألّف كتاب تفسير القرآن وشُعَب الايمان وشرح الأسماء الحسنى والأسئلة والأجوبة ، وفسّر مُشكل الكتاب والسُّنّة في سِفر وسط وغير ذلك . وتآليفه كلها جليلة مفيدة في بابها لم يُسبَق اليها ، وكلامُه في طريق التصوُّف سهل محرَّر مضبوط بظواهر الكتاب والسنة ، قاله ابن الزُبَير ، وكانت له مشاركة في علوم شتّى ، وتصرُّف في الأدب واللغة والنحو وغير ذلك ، ورزق من علاء الصيت وجميل الذكر ما لم يُرزقه كثير من الناس ، وتوفي رحمه الله بسبتة سنة ٦٠٨ .

المـزدغي

هو ابو الحجّاج يوسف بن عمران المزدغي الفاسي ، احد الفقهاء الأعلام . أخذ بفاس عن أبي ذرّ الخُشَني وأبي محمد بن رَيدان ، ولقي بتلمسان الفقيه أبا عبد الله بن عبد الرحمن التُّجيبي ؛ فأخذ عنه وأجاز له . ورحل الى الأندلس فقرأ بقرطبة وإشبيلية على جلّة أشياخها ، وكان عالما بالنحو واللغة والبديع ، ذاكراً للتاريخ والآداب ، ينصُّ كتاب زهر الآداب وكتاب الأمالي ومقامات الحريري وكتب السِّيَر نصاً

واقتصر على إقراء الحديث والتفسير فكان إماماً فيها ، وله تفسير جليل وصل به الى سورة تبارك الملك وهو من أبدع التفاسير . وله تآليف مفيدة في فنون شتى ، منها كتاب الفرق بين الأغنياء المعنيين والفقراء المضطرين ، وما يجب في ذلك على الولاة الآمرين وعلى جميع المسلمين ، وهو فيما يجب للفقراء في أموال الأغنياء ، وكتاب في الوباء وضعه على حديث « إذا نزل الوباء الخ » . وعقيدة وشرح الأحكام ، وأرجوزة في علم الأصول مفيدة قريبة المرام أولها :

الحمد لله العليِّ الأعلى رب العوالي والعُلا والسُّفلى
ومِلكِ الدنيا ويوم الدين ومُبدِع الخلق بلا مُعين
أحمدُه حمداً يوازي فضلَه فليس شيء في الوجود مثلَه

ولد سنة ٥٧٧ وتوفي سنة ٦٥٥ .

محمد بن قاسم التميمي

من أهل فاس يكنى أبا عبد الله ، سمع من ابن حنين وغيره ، ورحل الى المشرق رحلة حافلة ، أقام فيها خمسة عشر عاماً ، ولقي نحواً من مائة شيخ أكثر من الرواية عنهم وتوسّع في السماع منهم ، وأجاز له بعضُهم . ومن أعلامهم أبو طاهر السلفي وأبو عبدالله الحضرمي وأبو محمد بن برّي وأبو القاسم البوصيري وسواهم . وجمع في ذلك فهرسة كبيرة سماها بالنجوم المشرقة في ذكر من أخذت عنه من كل ثبت وثيقة ، واختصر منها جزءا اقتصر فيه على مسموعه من أكثرهم دون استيفاء أسمائهم ، ومن مصنفاته أدب المريد ورسالة الحنين الى الأوطان ، واللمعة في ذكر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأولاده السبعة والإنابة في ذكر طريق أهل الاستجابة ، والمستفاد من مناقب العباد والزهاد بمدينة فاس وما يليها من البلاد وغير ذلك . وكان من رجال الحديث والمعرفة بتراجم الرجال ، ومن أهل التصوّف والصلاح ، وحدّث بالمشرق والمغرب . وممن أخذ عنه ابن الكردبوس وابن عربي وتوفي ببلده في حدود سنة ٦٠٤ .

ابن القطان

هو المحدث الحافظ النظار أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك بن يحيى بن ابراهيم الكتامي الحميري الفاسي المعروف بابن القطان . سمع أبا عبد الله بن الفخار فاكثر عنه وأبا الحسن بن النقرات وأبا جعفر بن يحيى الخطيب وأبا ذر الخشني وجماعة . وكان من أبصر الناس بصناعة الحديث وأحفظهم لأسماء رجاله ، وأشدهم عناية بالرواية مع تفنن ومعرفة ودراية ، جمع برنامجاً مفيداً في شيوخه ، نقل منه ابنُ الأبار في التكملة ، ورأس طلبة العلم بمراكش ، ونال دنيا عريضة بخدمة السلطان . وله تآليف منها كتاب النزع في القياس ، في ابطال القياس ، وكتاب الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام لعبد الحق الاشبيلي ، ومختصر النظر في أحكام النظر ، ومقالة في المكاييل والأوزان . وتوفي بسجلماسة وهو قاضيها في شهر ربيع الأول سنة ٦٢٨ .

عثمان السلالجي

هو الشيخ المتكلم النظار أبو عمرو عثمان بن عبد الله بن عيسى ، ويقال عَسْلوج القيسي الفاسي ، عُرف بالسلالجي نسبة الى جبل سليلجُو بقرب مدينة فاس ، كان راسخ القدم في علم الاعتقاد على مذهب الامام الأشعري ، وكان المغرب في أيام طلبه لا يزال يعتنق مذهب السلف في العقيدة ، وصادف ظهور الموحدين ودعوتهم الى المذهب الأشعري فتكبد المشاق في طلب هذا العلم . ثم جاهد جهاد الأبطال في سبيل نشره وتعميمه بين الناس ومن ثم قيل إنه هو الذي أنقذ أهل فاس من التجسيم أي من اتباع مذهب السلف الذي كان الموحدون يسمُّون اتباعه مجسمين ، نكاية بأعدائهم المرابطين الذين كانوا على هذا المذهب . وقد أراد رجال الدولة الجديدة تقريبه وإلحاقه بحاشيتهم فعزف عن ذلك ، وانقطع الى بث العلم ، مخلصاً النيّة في ذلك لله عز وجلّ ، مجنباً نفسه التورُّط فيما كانوا يدعون اليه من البدعة ، وينتحلونه من مذاهبها . أخذ عن محمد بن عيسى التادلي وأبي الحسن بن حرزهم

ومحمد بن الرمّامة وغيرهم من شيوخ فاس ، وأتقن علم العقــائد على ابن الاشبيلي وألـّف عقيدته البرهانية لامرأة صالحة كانت بفاس تسمى خيرونة وهي في صفحات وتوفي بفاس سنة ٥٧٤ هـ .

ابن الكتّاني

هو العلامة المتكلم ، الأصولي الأديب ابو عبدالله محمد بن عبد الكريم الفندلاوي الفاسي يعرف بابن الكتـّاني . قال ابن الابار : كان إمامـاً في علم الكلام وأصول الفقه ، مدرّساً لذلك حياته كلها ، وكان له حظ من الأدب ، وله رجزٌ في أصول الفقه ، أخذ عنه وسمع منـــه . وروى عنه جماعة منهم أبو محمد النـّاميسي وأبو الحسن الشاري ، وقال : أخذت عنه جملة وافرة من إرشاد أبي المعـالي وتلخيصه تفهـُّماً ، وسمعت عليه رجزه . وله أيضاً كتاب تفسير الأكيال والأوزان نقل عنه بعض شراح الرسالة . وهو ممن أخـــذ عن الامام السلالجي ، وتوفي في ذي الحجة سنة ٥٩٦ .

ابو العبّاس السّبتي

أحمد بن جعفر الخزرجي أحد كبار المتصوفة ومشاهيرهم الآخذ بمذهب غريب في الدين ، مولده في سبتة بلده سنة ٥٢٤ واستوطن مراكش وبها توفي سنة ٦٠١ .

كان مذهبه ألا يترك لنفسه ناضاً من المال إلا قدر ما يقوته وعياله في يومه ، وباقيه يتصدق به . وكان يرى أن أهل الجمال من النساء الفقـــيرات تجب الصدقة عليهن مخافة فسادهن ، وأن القبيحات لا يتصدق عليهن حتى يستغني الملاح ، وكان يرى أن الرجل اذا اعتلّ في جسده عضوٌ يتصدق بديـّته ويـبرأ . فهو أول اشتراكي وضع للاشتراكية مبادىء وقوانين كما ترى . وحدّث أبو القاسم عبد الرحمن ابن إبراهيم الخزرجي قال : بعثني أبو الوليد بن رشد من قرطبة وقال لي : إذا رأيت أبا العباس السبتي بمراكش فانظر مذهبه واعلمني به . قال فجلستُ مع السبتي كثيراً

الى أن حصلت مذهبه فأعلمته به ، فقال لي أبو الوليد : هذا رجل مذهبه أن الوجود ينفعل بالجود . وكان فصيح اللسان قادراً على الكلام ، لا يناظره أحد إلا أفحمه ، حتى كأنّ مواقع الحجج من الكتاب والسنة موضوعة على طرف لسانه . وكان مع ذلك حليماً صبوراً عطوفاً يحسن الى من يؤذيه ، ويحلم عمن يسفه عليه ، برّاً باليتامى والمساكين ، رحيماً بهم ، يجلس حيث أمكنه الجلوس من الأسواق والطرقات ، ويحضُّ الناس على الصدقة ويأتي بما جاء في فضلها من الآيات والآثار فتنهال عليه من كل جانب فيفرقها على المساكين وينصرف .

وكان ناسكاً متعبّداً ورده القرآن يتلوه آناء الليل وأطراف النهار . وقد اتخذه أنيساً وسميراً واستخرج منه من دقائق العلوم ولطائف الإشارات في المجاهدة ورياضة النفس شيئاً عجيباً . وبالجملة فهو رجلٌ من أعاجيب الدنيا ، وترجمته أوسع من هذا .

عَبْدالسَّلام بن مَشِيش

هو الشيخ العارف الكامل أبو محمد عبد السلام بن مشيش بن أبي بكر بن علي بن حُرمة بن عيسى بن سلاّم بن المزوار بن حيدرة بن محمد بن ادريس بن ادريس بن عبدالله الكامل ابن الحسن المثنّى بن الحسن السِّبط بن علي بن أبي طالب ، كعبةُ العَلَم المُنيف ، ونبعة النّسب الشريف . بَيْد أنه لم يعتمد غير العمل الصالح ، وسلوك المنهج الواضح ، قائلاً في صلاته المشهورة الآتية : اللهم ألحقني بنَسبه ، وحققّني بحَسبه . وقد سأله رجلٌ أن يوظف عليه وظائف وأوراداً يعملُ بها فقال : أرسولٌ أنا ؟ الفرائض مشهورة ، والمحرمات معلومة ، فكن للفرائض حافظاً ، وللمعاصي رافضاً ، واحفظ نفسك من ارادة الدنيا وحبّ النساء وحب الجاه وايثار الشهوات ، واقنع من ذلك بما قسم الله لك ، إذا خرج لك مخرج الرّضى فكن لله شاكراً ، وإذا خرج لك مخرج السخط فكن عليه صابراً . ورفضُ الدنيا قطبٌ تدور عليه الخيرات ، وأصل جامع لأنواع الكرامات ، وحصون ذلك كله أربعة : الورع وحسن النية وإخلاص العمل ومحبة العلم . ولا تتمُّ له هذه الجملة إلا بصحبة أخ صالح ، او شيخ ناصح . وكلامُه

رحمه الله كله من هذا القبيل ، ويكفيك أنه بمثل هذه الدروس الجامعة تخرَّج عليه الشيخ أبو الحسن الشاذليُّ مؤسس الطريقة الشاذلية المنتشرة في العالم الاسلامي ، فهو أحد أقطاب التصوف الذين عليهم المدار . توفي رحمه الله شهيداً حوالي ٦٢٥ قتله بجبل العَلَم قومٌ بعثهم لقتله ابن أبي الطواجين الكتامي الساحر المتنبي . فدفن بقُنَّة الجبل المذكور .

أبو موسى الجزولي

عيسى بن عبد العزيز بن يللبَخت بن عيسى بن يوماريلي اليزدكتي الُجزولي المراكشي . كان إماماً في النحو ، كثير الاطلاع على دقائقه وغريبه وشاذه ، وصنّف فيه المقدمة التي سمّاها بالقانون فأتى فيها بالعجب العُجاب . وهي في غاية الايجاز مع الاشتمال على شيء كثير من النحو ، ولم يُسبق الى مثلها ، واعتنى بها جماعة من الفضلاء فشرحوها ، ومنهم من وضع لها أمثلة . ومع هذا كله فلا تُفهم حقيقتُها ، وأكثرُ النحاة ممن لم يكن أخذوها عن موفق يعترفون بقصور أفهامهم عن إدراك مراده منها . فانها كلُّها رموز واشارات ، هذا ما يقوله ابن خلكان عنها ، قال : ولقد سمعت من بعض أئمة العربية المشار اليه في وقته : « أنا ما أعرفُ هذه المقدمة وما يلزم من كوني ما أعرفها أن لا أعرف النحو » . وفي هذا الكلام مبالغة لعل الحامل عليها هو هذه الصياغة المنطقية التي صيغت بها المقدمة من الحدود والتعاريف والقضايا الكلية التي تنطبق على الأحكام الجزئية مع خلوّها من الأمثلة والشواهد التي توضح المعنى المراد ، فجاءت بذلك مركّزة تركيزاً يجمع زبدة النحو ومهماته في ألفاظ قليلة ، ومن ثَمَّ قال فيها مجد الدين بن ظهير الإربلي منوّهاً بهذه الظاهرة التي كانت سبب التحامل عليها من هؤلاء :

مُقدّمة في النحو ذَاتُ نتيجةٍ ... تناهَتْ فأغنَتْ عن مقدّمة أُخرى
حبَانا بها بحرٌ من العلم زاخرٌ ... ولا عجَبٌ للبَحْر أن يقذِفَ الدُّرا

وتُسمّى المقدمة ايضاً بالكرّاسة والقانون والاعتماد .

سافر ابو موسى الى المشرق فحجّ ولازم ابن برّي بمصر ، ثم عاد فتصدّر للاقراء ببجاية والمريّة ، وأخذ عنه جماعة منهم الشلوبين وابن معطٍ . وكان قارئاً حافظاً جيّد التفهيم حسن العبارة . ولي خطابة مراكش وله أمالٍ في النحو ، ومختصر الفَسر لابن جنّي في شرح ديوان المتنبي ، وشرح اصول ابن السراج وغير ذلك . وتوفي سنة ٦٠٧ بمراكش رحمه الله .

ابن مُعْطٍ

هو الإمام زين الدين أبو زكريا يحيى بن معط بن عبد النور الزواوي القبيلة المغربي الأصل والنشأة الجزولي البلد . اشتغل بالعربية على أبي موسى المتقدم فتمهّر فيها وكان مُبرّزاً في علم الأدب ، قادراً على النظم للعلوم . ورحل الى بلاد مصر فلقي المشايخ ، وباحث العلماء وناظرهم . ثم انتقل الى دمشق وسكن بها طويلاً ، وولاّه الملك المعظم النظر في مصالح المساجد وفي ذلك الوقت نظم الفيّته في النحو التي عمل ابن مالك على مثالها الفيّته المشهورة . ولما توفي الملك المعظم نقله الملك الكامل الى مصر ؛ فتصدر بالجامع العتيق لإقراء الأدب . وله غير الألفية نظمٌ في العَروض ونظم جمهرة ابن دريد في اللغة . وشرع في نظم كتاب الصحاح للجوهري فمات قبل اكماله . كانت ولادته سنة ٥٦٤ وتوفي سنة ٦٢٨ رحمه الله .

إبْنا دِحْيَه

هما الشيخان المحدّثان الحافظان اللغويان الأديبان أبو عمرو عثمان وأبو الخطاب عمر ابنا الحسن بن علي بن محمد الجميّل بالتصغير ، وبه كانا يُعرفان أولاً ؛ فيقال لكل منهما ابن الجميّل ، ثم عرفا بعد بابني دِحيَة لانتسابهما الى دحية الكلبي الصحابي الجليل ، وأصلهما من مدينة سبتة . كانا عَلَمَين شهيرين في حفظ الحديث والمعرفة بعلم اللغة وأيام العرب وأشعارها ، والنحو والتاريخ وغير ذلك ، أخذا ببلاد المغرب وافريقية والأندلس عن مشايخها المعروفين ، وانفرد ابو الخطاب بالتجول في بلاد المشرق ؛ فدخل

الشام والعراق وخُراسان وما والاها، واكثر من السماع وأخذ عنه الناس كذلك. ومرّ في طريقه الى خراسان بمدينة إربل؛ فوجد ملكها مُظفَّر الدين التركماني مولعاً بعمل المولد النبوي فألف له كتاب «التنوير في مولد السراج المنير». واستقر هو وأخوه بمصر، وكان لصاحبها الملك الكامل بن أيوب عناية كبيرة بهما، وبنى لأبي الخطاب دارَ الحديث الكامليّة بالقاهرة ثم سلمها لأخيه أبي عمْرو، وكانا يميلان الى النظر والاجتهاد وربما ُنسبا الى الظاهرية، ولأبي الخطاب تآليف مفيدة مضت الاشارة الى بعضها ويأتي ذكرها جميعاً في نهاية هذا الفصل، وتوفي أبو الخطاب في سنة ٦٣٣ وأخوه أبو عمرو بعده بسنة.

عَبْدُالواحِدِالمرّاكشِي

هو عبد الواحد بن علي التميمي، مؤرخ دولة الموحّدين. ولد بمراكش سنة ٥٨١ وأخذ بفاس والأندلس عن جماعة من العلماء، وعُنِيَ بالأدب واللغة فكان طوداً راسخاً في فنونها. وله قلم بارع في الانشاء، وطبع سائل في الشعر. وكان حُلوَ النادرة، عذب الفكاهة، لطيف المحضر، رقيق الحاشية. خدم الأمير إبراهيم بن يعقوب المنصور أيام ولايته على اشبيلية فنال عنده حظوة كبيرة، وامتدحه بقصائد فذّة كان ُيجزل له عليها العطايا والهبات.

ثم سافر الى مصر سنة ٦١٣ وفيها ألف كتابه المعجب في تلخيص أخبار المغرب جمع فيه بين تاريخ الأندلس والمغرب السياسي والأدبي من لدن فتح الأندلس الى سنة ٦٢١ أي الى مدة خلافة يوسف بن محمد الناصر الموحدي، يستعرض أهمّ حوادث السياسة وأحسن صور الحضارة في كل عصر، ثم لا يلبث أن يسرقه طبعه، فيستطرد مواضع أدبية لها قيمتها في معرفة الحياة الفكرية في ذلك العصر، وذلك كله بأسلوب رصين متزن، لا تشوبه ركاكة ولا تشويش، مع تحري الصدق وتوخي الانصاف كما قال: «ولم أثبت في هذه الأوراق المحتوية على دولة المصامدة وغيرها إلا ما حققته نقلا من كتاب، أو سماعا من ثقة عدلٍ، أو مشاهدة بنفسي؛ هذا بعد ان تحرَّيتُ الصدق وتوخيت الانصاف في ذلك كله، وجهدتُ ألا انقصَ

أحداً ذرّة مما له ، ولا أزيده خرْدلة مما لا يستحقه » ولذلك فان هـذا الكتاب يعدُّ من أوثق المصادر في تاريخ هذا العصر .

ابن فرتون

أبو العباس أحمد بن يوسف السُّلمي الفاسي المعروف بابن فرتون . هو أحدُ أعلام الرواية والتاريخ ، أخذ ببلده فاس عن أبي ذرّ الخشني ، وأبي القاسم عبـد الرحيم ابن الملجوم ، وابن عمه عبـد الرحمن ، وأبي محمد بن حوط الله ، وأبي القاسم بن زانيق وعدد غيرهم. وانتقل من بلده الى سبتة فأخذ بها عن عالم كثير من أهلها ومن الواردين عليها ، ودخل الأندلس فأخذ بالجزيرة الخضراء وبمالقة عن أهلهـا . ولما كان بحصن بليش من شرقي مالقة ، عرض له ما أوجب رجوعه الى سبتة فبقي بها ولم يخرج عنها الى حين وفاته ، واجتمع له سماع جمّ ، وكتب بخطه كثيراً وقيّد واعتنى غاية الاعتناء حتى كان آخر المكثرين . وكان ذاكراً للرجـال والتواريخ ، ولكثير من متون الأحاديث وقسط صالح من الجرح والتعديل وطبقات الناس ، وألف برنامجا ضمنه ما رواه ، وألف الاستدراك على كتاب السهيلي المسمى بالتعريف والإعلام ، كما ألف كتابه الذيل على صلة ابن بشكوال ؛ فكان أول من فتح باب التذييل عليها الذي تبعه فيه ابن الزبير وهو تلميذه بكتاب صلة الصلة ، وابنُ عبـد الملك المراكشي بكتاب الذيل والتكملة ، وابن الأبار بكتاب التكملة الخ . وكان كتاب ابن فرتون مادّة لجميعهم ، وعاش ابن فرتون زاهداً ورعاً ، ما اعتنّ بغير دينه ، ولا تصدّى لأحد من أهل الدنيا ولا تعرّض لخطة ولا غيرها . وتوفي في ٢٦ شعبان سنة ٦٦٦ .

الادريسي

هو العلامة الجغرافي الشهير ، أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس ، كان جده ادريس من ملوك الحموديين بالأندلس، ومات سنة ٤٤٤ قبل اخراج الحموديين

من مالقة وإضافة مملكتهم الى غرناطة . أما هو فولد بسبتة بلده ، ولعل سلفه كانوا انتقلوا اليها بعد سقوط دولتهم . خرج الادريسي سائحاً في شمال افريقيـــا وآسيا الصغرى والأندلس ، ثم استدعاه روجار الثاني ملك صقلية فقدم عنـده ففرح به واكرم نزوله . وفي صقليّة ألف كتابه « نزهة المشتاق في معرفه الآفـــاق » وصنع كرة سماوية ودائرة أرضية كلاهما من الفضة واستعمل في ذلك ثلث الفضة التي أعطاها له الملك ، ولما أتم العمل فيها زاده الملـك مائـة الف درهم وشيئاً كثيراً من التحف . وألف أيضاً « روض الأنس ونزهة النفس » برسم غليـــوم الأول ولد روجار ، وهو أطول من نزهة المشتاق . وذكر أبو الفداء هذا الكتاب ولكنه سمّاه كتاب الممالك ، وله أيضاً كتاب « الأدوية المفردة » وذكره ابن سعيد ، وانتفع منه ابن البيطار . وقد نقلت قطع من كتاب نزهة المشتاق الى لغات أوربا . وتوفي الادريسي حوالي ٥٦٩ رحمه الله .

أبو الحسن المسفّر

هو الشيخ الحكيم أبو الحسن علي بن خليل المسفر السبتي ، عرف بلقب المسفر الذي يعني أنه من أهل صناعة تفسير الكتب . وربمـــا كان من آل المسفر الأشراف الحسينيين المعروفين بفاس . ذكره ابن عربي الحاتمي في كتاب « محـــاضرات الأبرار وقال فيه : كان هذا الشيخ جليل القدر حكيماً ، عارفاً غامضاً في الناس ، محمود الذكر . رأيته بسبتة ، له تصانيف ، منها : منهاج العابدين الذي يعزى لأبي حامد الغزالي وليس له ، وإنما هو من مصنفات هذا الشيخ ، وكذلك كتـــاب النفخ والتسوية الذي يعزى الى أبي حامد أيضاً وتسميه العامة « المضنون الصغير » ، ولهذا الشيخ أيضاً القصيدة المشهورة : « قل لإخوان رأوني ميتا . . . » وتأتي في المنتخبات. ولا شك أن هذا الشيخ كان من فلاسفة العصر النازعـين الى التصوف ، سالكاً في ذلك مسلك أبي حامد الغزالي وكتبه المذكورة تدل على ذلك ، إلا أنه لم يتحـــامل على الفلسفة والفلاسفة تحامل أبي حامـــد ، وقد لقيه الشيخ محي الدين بن عربي وتذاكر معه وهو في سن الشيخوخة ، فهو على ما يظهر لم يجاوز المائة السادسة .

ابن الياسمين

ابو محمد عبد الله بن محمد بن حجّاج ، من أهل مدينـــة فاس ، وأصله من بني حجاج أهل قلعة فندلاوة . رياضي برع في عدة علوم كالمنطق والهنـدسة والتنجيم والهيئة ، وخاصة الحساب والعدد ؛ فكان لا يـــدرك شأوه فيهما ، ولا ينازع في الاختصاص بمعرفة دقائقهما وغوامض مسائلهما . وله أيضاً القدم الراسخ في عـلوم الأدب والباع الطويل في نظم الشعر ، أخذ علم العدد عن ابي عبدالله بن قاسم ، وكان من خدّام يعقوب المنصور ثم ولده الناصر من بعده ، فحصلت له رياسة كبيرة وبلغ منزلة نفسها عليه أعداؤه ، له أرجوزة في الجبر قرئت عليـــه وسمعت منه باشبيلية سنة ٥٨٧ وله غيرها ، توفي ذبيحاً بمراكش سنة ٦٠١ رحمه الله .

الحسن المرّاكشي

هو العالم الرياضي الشهير ، أبو علي الحسن بن علي المراكشي مؤلف كتاب (المبادي والغايات في علم الميقات) الذي يقول فيه صاحب كشف الظنون أنه أعظم ما صُنـّف في هذا الفن ، وذكر أنه رتبه على أربعة فنون : ١ – في الحسابيات وهو يشتمل على سبعة وثمانين فصلاً ، ٢ – في وضع الآلات وهـو يشتمل على سبعة أقسام ، ٣ – في العمل بالآلات وهو يشتمل على خمسة عشر باباً ، ٤ – في مطارحات يحصل بها الدُّربة والقوة على الاستنباط ، وهو يشتمل على أربعة أبواب ، في كل باب منها مسائل على طريق الجبر والمقابلة . وعلى هذا الكتاب قامت شهرة المراكشي بين علماء الغرب ، واعتبروه من أعظم فلكيّي العرب . وقـد نقل العلامة سيديو زُبدته الى اللغة الفرنسيّة ، وكذلك نقل البارون كارادفو فصلاً منه يتعلق بالاسطُرلاب . وللمراكشي كتب أخرى في مباحث رياضية عامـــة ، وكان يعيش في النصف الأول من المائة السابعة .

يوسف بن سمعون

أبو الحجاج بن يحيى بن إسحاق الطبيب الرياضي المعروف بابن سمعون ، وهو جده العاشر او التاسع عرَّف به ابن القِفطي في أخبار الحكماء فقال : هــذا كان طبيباً إسرائيلياً من أهل فاس ، وكان أبوه بها يُعاني بعض الحرف السُّوقيَّة ، وقرأ هو الحكمة ببلده فساد فيها ، وعانى العلوم الرياضية وأجادها وكانت حاضرةً على ذهنه عند المحاضرة . وقد ارتحل الى مصر ، واجتمع بموسى بن ميمون القرطبي رئيس اليهود بمصر ، وقرأ عليه شيئاً وأقام عنده مدة ، واجتمع هو وإياه على إصلاح هيئة ابن أفلح الأندلسي وتحريرها . ثم خرج من مصر الى الشام ونزل حلب ، أقام بهــا مدة وسافر منها تاجراً الى العراق ودخل الهند وأثرى حاله . ثم ترك السفر وأخذ في التجارة ، وقصده الناس للاستفادة منه ، فأقرأ جماعة من المقيمين والواردين ، وخدم في أطبَّاء الخاص في الدولة الظاهريَّة بحلب ، وكان ذكياً حاد الخاطر ، وانعقدت بينه وبين ابن القِفطي مودة تحدث عنها هذا في كتابه . توفي سنة ٦٢٣ .

* * *

أهم آثار الأدباء والعلماء في هذا العصر

وهذه جريدة بأهم آثار العلماء والأدباء في هذا العصر ممــا وقفنا على تسميته من كتب ورسائل ودواوين شعرية منسوبة لأصحابها ، مع الاشارة الى وَفَيات من لم نترجم لهم اختصاراً .

كتب التفسير والحديث وتوابعها :

تفسير القرآن لابن عبد الجليل القصري ، شُعَب الايمــان له ، تنبيه الأنام في مُشكِل الحديث له ، شرح أسماء الله الحسنى له ، الناسخ والمنسوخ لأبي الحسن الحصَّار المتوفى سنة ٦١١ . المدارك في وصل مقطوع حديث مالك له ، مفتاح اللبّ المقفل لفهم الكتــاب المنزل لابي الحسن الحرّالى المراكشي المتوفى سنة ٦٣٧ ، تفسير القرآن

للمزدغي ، شرح حديث إذا نزل الوباء بأرض له ، كتاب الاستدراك والاتمام لكتاب السهيلي المسمّى بالتعريف والأعلام بما أُبهِمَ في الكتاب العزيز من الأسماء والأعلام لابن فرتون . كتاب النزع في ابطال القياس لابن القطان الفاسي ، كتاب الوهم والايهام الواقعين في كتاب الأحكام لعبد الحق الاشبيلي له ، كتاب مختصر النظر في أحكام النظر له . تعقب كتاب الوهم والايهامُ لابن القطان لابن الموّاق المتوفى سنة ٦٤٢ ، شرح مقدمة صحيح مسلم له ، شرح الموطأ له ، اختصار الموطأ للمهدي بن تومرت ، اختصار مسلم له ، كتاب أحكام الطهـــارة من الحديث له ، كتاب تحريم الخمر من الحديث له ، كتاب الجهاد له ، كتاب الغلول له ، الآيات البينات في ذكر ما في اعضاء رسول الله ﷺ من المعجزات لأبي الخطاب بن دحية ، نهـــاية السُّول في خصائص الرسول له ، أنوار المشرقـَين في تنقيح الصحيحين المشرقين له ، شرح أحاديث الشهاب للقضاعي له ، العلـَم المشهور في فضائل الأيام والشهور له ، مُصنَّف في رجال الحديث له .

كتب الفقه والتصوف :

وهج الجمر في تحريم الخمر لأبي الخطاب بن دحية ، منهاج التحصيل فيما للائمة على المدونة من التأويل لأبي الحسن الرّجْراجي ، الطـُرر على المدونة لأبي ابراهيم الأعرج المتوفى سنة ٥٨٣ ، حاشية على المدوّنة لأبي محمد يشكر المتوفى سنة ٥٩٨ ، حاشية أُخرى عليها لراشد الفاسي المتوفى سنة ٦٧٥ كتاب الحلال والحرام له ، مجموعـــة الفتاوي له ، شرح الرسالة بالنقل لأبي الحسن المتيوي المتوفى سنة ٦٦٩ ، تقييد على الرسالة لأبي محمد صالح ، مقالة في المكاييل والأوزان لأبن القطان الفاسي . أنوار الافهام في شرح كتاب الأحكام للمزدغي ، كتاب الفرق بين الأغنياء المعنيين والفقراء المضطرين له ، كتاب الوافي في الفرائض لأبي الحسن الحرّالي المراكشي ، كتاب المقصد المحمود في تلخيص العقود لأبي القاسم الجزيري ، كتاب اليقين لابي الحسن ابن غالب ، منهاج العابدين لأبي الحسن المسفر ، كتاب الإنابة الى طريق أهـــل الاستجابة لمحمد بن قاسم التميمي ، الايضاح في طريق أهل الصلاح له ، كشف أحوال المفتون عن الدنيا والدين له ، بستان العابدين له ، أدب المريد له ، أنوار السرائر وهي الرائية المشهورة في التصوف لابي العباس الشريشي السلوي المتوفى سنة ٦٤١ ، الحزب الكبير لابي الحسن الشاذلي المتوفى سنة ٦٥٦ ، حزب البحر له .

كتب الكلام والأصول :

كتاب اعزّ ما يطلب للمهدي بن تومرت ، العقيدة المرشدة له ، التنزيهات له ، التسبيحات له ، الامامة له ، تعاليق في الاصول له ، العقيدة البرهانية للسلالجي ، عقيدة المزدغي ، أرجوزة في الأصول له . أرجوزة في الكلام لأبي الحسن الحصار ، شرحها له ، أرجوزة في الاصول له ، البيان في تنقيح البرهان له . رجز في أصول الفقه لابن الكتاني ، كتاب الايمان التام بمحمد عليه السلام لأبي الحسن الحرّالي المراكشي ، عصمة الأنبياء لابي الخطّاب بن دحية .

كتب التراجم والسير

برنامج عبد الرحيم بن الملجوم المتوفى سنة ٦٠٣ ، فهرست أبي الصبر ايوب المتوفى سنة ٦٠٤ برنامج أبي العباس العزفي المتوفى سنة ٦٤٩ ، كتاب الدرّ المنظم في مولد النبي المعظم له ، فهرس أبي الحسن الشاري المتوفى سنة ٦٤٩ برنامج ابن القطان الفاسي . اختصار المدارك لابن حمّادة السبتي ، برنامج ابن فرتون ، الذيل على صلة ابن بشكوال له ، شيوخ الدّار قطني لابن المواّق . النجوم المشرقة فيمن أخذت عنه من كل ثبت وثقة لمحمد بن قاسم التميمي ، مختصره له ، اللمعة في ذكر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأولاده السبعة له ، المستفاد في مناقب العباد والزهاد بمدينة فاس وما والاها من البلاد له ، التنوير في مولد السراج المنير لابي الخطاب بن دحية ، سلسلة الذهب في نسب سيد العجم والعرب له ، المستوفي من أسماء المصطفى له ، الابتهاج في المعراج له ، التحقيق في مناقب أبي بكر الصديق له ، التشوّف الى رجال التصوف لابن الزيات المتوفى سنة ٦٢٨ .

كتب التاريخ والجغرافية

المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي ، كتاب أبي بكر بن علي الصنهاجي المعروف بالبيدق ، النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس لأبي الخطاب ابن دحية ، تاريخ الأمم في أنساب العرب والعجم له ، أعلامُ النصر المبين في المفاضلة بين أهل صفين له ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الادريسي ، روض الأنس وبهجة النفس له ، أنس المهج وروض الفرج مختصر مما قبله له .

كتب الأدب والدواوين الشعرية

مختصر الأغاني للأمير سليمان الموحد ، ديوان شعر له ، صفوة الأدب وديوان العرب وهي الحماسة المغربية ، لأبي العباس الجراوي ، ديوان عتيق الفصيح المتوفى سنة ٥٩٥ ، ديوان ابن حبوس ، المطرب من أشعار اهل المغرب لأبي الخطاب بن دحية ، مجموعة خطب بليغة له ، مرج البحرين في فوائد المشرقين والمغربين له ، كتاب الأنساب والشعر لابن رقيّة المتوفى سنة ٦٠٥ ، البرهان في ذكر حنين النفوس الى الأحبّة والأوطان لمحمد بن قاسم التميمي ، شرح مقامات الحريري لابن الزيات .

كتب النحو واللغة

المقدمة لأبي موسى الجزولي ، شرحها له ،الأمالي له ، شرح أصول ابن السراج له ، مختصر الفَسْر لابن جنّي في شرح ديوان المتنبي له ، الألفيـــة لابن معط ، نظم في العروض له ، نظم جمهرة ابن دريد له ، نظم الصحّاح له ، شرح الجزولية لأبي العباس الشريشي السلوي ، شرح المفصل له ، شرح الجمل للزجاجي لأبي القاسم بن الزيات المتوفى سنة ٦٦٥ الصارم الهندي في الرد على الكندي في مسألة من علم العربية لأبي الخطاب ابن دحية .

كتب حكميّة ورياضية :

المعقولات الأوَل لأبي الحسن الحرّالي المراكشي ، السر المكتوم في مخاطبة النجوم له ، تفهيم معاني الحروف له ، كتاب الأدوية المفردة للشريف الادريسي ، جامع المبادي والغايات في علم الميقات للحسن المراكشي ، كتاب في القطوع المخروطية له ، اصلاح هيئة ابن افلـــح ليوسف ابن سمعون ، ارجوزة الجبر لابن الياسمين ، تلقيح الافكار في العمل بحروف الغُبار له . النفخ والتسوية لأبي الحسن المسفر .

* * *

هذا قُلٌّ من كُثْر مما لم نطّلع عليه من المؤلفات الموضوعة في هذا العصر للعلماء المغاربة فقط ، دع ما كان يؤلفه برسم الخزانة السلطانية غير المغاربة من علماء الأندلس وافريقية ، وقد رأيتَ ان كل ما الفه ابنُ رشد من الكتب الحكمية كان بطلب يوسف ابن عبد المؤمن . فالمكتبة المغربية في هذا العصر ، كانت من أغنى المكاتب بالمؤلفات

النادرة ، وزادها غنى ما كان يضعه المؤلفون كل يوم من الكتب المفيـدة في مختلف العلوم ، فكانت ثروتها لا تزيد على مرّ الايام الا كثرة ، وما يمنعها من ذلك والناس في ذلك العصر لم يكونوا يبيعون كتب أسلافهم لأوربا بأبخس ثمن ، بل كانوا يستخلصونها منها بأغلى قيمة ، وينافس عامتهم في ذلك خاصتهم ، وقد سمعت ما عمله الملك الموحدي يوسف بن عبد المؤمن في هذا الصدد ، فاسمع ما عمله احد افراد العلماء وهو القاضي عيسى بن أبي حجاج بن الملجوم ، وبنو الملجوم من بيوتات فاس القديمة ؛ فانه ابتاع من أبي علي الغساني أصله من سنن أبي داود ، الذي سمع فيه على أبي عمر بن عبد البر ، وهو أصل أبي عمر ، وكان صار الى أبي علي ؛ بخمسة آلاف دينار بعد ان نسخ منه بخطه وقابله وأتقنه .

وكان الامام المجتهد فخرُ بيتـه أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن يوسف بن الملجوم المعروف بابن رقيّة ، جمّاعةً للدواوين العتيقـة والدفاتر النفيسة ؛ فاجتمع لديه ما لم يجتمع عند أحد من أهل المغرب ، وكانت خزانتـُه وحيدة في المغرب ، بيعت خُرَمُها بعد وفاته بستة الاف دينار .

فحيا الله تلك الهمم ، ما كان أعلقها بالمعالي وأطرقها لأبواب الفخار !

الحيـاة الأدبيّـة

نما الأدب المغربي في عهد المرابطين وترعرع ، ولكنه لم يقوَ قوّة الأدب الأندلسي و يُسيطر على الميدان .

على أنه مع ذلك لم يكن ضعيف المادّة ولا مُنحسر الموجــة ، بل كان ذا روح معنويّة قوية تمثّل الواقع المغربي في أجلى مظاهره ، ذلك الواقع الذي لم يفتأ أن أثّر في الأدب الأندلسي نفسه فانتشله من هوّة الضعف والابتذال التي كان وقع فيها على ما ألمعنا اليه فيما مضى . فلما قام الموحّدون ، وقامت معهم تلك النهضة العلميّة الأدبية ، التي سبق توصيفُها ، تحوّل مجرى السّفينة الأدبيّة الى المغرب ، وسيطر عليها الأدباء المغاربة يُزجونهـــا بمعرفة وحِذق ، وتعينهُم على ذلك ريحٌ رُخاء من لطف تدبير الموحدين وحسن سياستهم .

وقد سبق ذكر ما كان لهم من العطف على الأدب والتشجيع لأهله ، حتى لقد كان واحدهم يُثيب على البيت والبيتين يُمدَح بهما بالألف والألفين ، بل كان الآخر يبلغُه عن شاعره وقوعُه فيه وتعريضه بأصله فيقول أعاقبه بالحلم عنه ، وهي نفسُ الهفوة التي أخذوها على الفيلسوف أبي الوليد بن رشد ، فلم يتسامحوا مع العلماء ، وتسامحوا مع الشعراء ، مما يدل على أن ضِلعَهم مع الأدب كان كبيراً .

وقد رأيت مقام الشعراء من عبد المؤمن في جبل طارق ، وكيف كان أول من أنشده في ذلك المقام شاعرٌ فاسي ، وكان هو يُعَقّبُ على قصائد الشعراء بالنقد أو التقريظ ، ثم أُعيد هذا الموقف ، ولكن بأعظم من ذلك مع حفيده يعقوب المنصور لمّا رجع من غزاة الأرك المشهورة بالأندلس ، فورد عليه وفودُ المهنئين والشعراء من كل ناحية ، فكان كل واحـــد منهم يُنشد من قصيدته بيتاً أو بيتين لكثرتهم ويترك رُقعتها أمامه ، فما استتمّوا الإنشاد حتى حالت رِقاع القصائد بينه وبـين الناس ، وهذا إن ثبتَ على حقيقته ، كان أعظم شاهد على ما بلغته الحياة الأدبية في هــذا العصر من النمّوّ والازدهار .

ولكنّ منشأ النبوغ لم يكن هذا الذي ألمعنـــا اليه من رعاية الموحّدين للأدب وتنشيطهم لأهله فقط ، وإنما هو متولّدٌ من جملة أسباب أخرى ، منها التّنَفّس على الأندلسيين الذين كانوا قـد طلعوا في سماء الأدب بدوراً ساطعة ، ونجوماً لامعة ، وكانوا يغلِبون أهل البلاد من المغاربة عند المفاخرة ويُطاولونهم حين المنافرة ، وتُعد المناظرة التي وقعت بمجلس والي سبتة الأمير أبي يحيى بن أبي زكرياء في هذا الصدد بين أبي الوليد الشّقُندي ، وأبي يحيى بن المعلّم الطنجي من أحسن الأمثلة على ذلك، وقد أمر الأمير كلاً من الأديب الأندلسي والأديب المغربي بكتابة رسالة في تفضيل قُطره ، غير أن رسالة المغربي لم تُحفظ . ومن هـــذا يُعلم أن الخصومة بين أدباء العُدوتين ، كانت لا تنقطع ، والأندلسيُّون بالطبع كانوا يحجُّون جيرانهم بما يعدّون من نبغائهم الكثيرين . وهذا وحده كافٍ للمحجوج في الانقطاع الى الطلب والعكوف على التحصيل . ومنها الطّماحُ الى الخدمة في دواوين الحكومة وشغل المناصب العالية التي كان أعلاها يومئذ منصب الوزير ، وهـــو في الحقيقة رئيس الكتاب ، ونرى من أبناء مراكش البرَرة من وضَع هذه الغاية نُصب عينيه ، وجهدَ في الوصول اليها فما لبثَ أن حصّلها بحزمه وعزمه ، وذلك هو الوزير أبو جعفر بن عطية . على أن ما يرجّح بهذه الأسباب كلها هو عموم الحاجة الى التثقيف والتهذيب ، وقد شعُر الناس بهذه الحاجة منذ قيام عبد الله بن ياسين بحركته الإصلاحية ، ثم زاد شعورهم بهـا من حين الانقلاب الذي قام به المهدي بن تومرت . فنُتجَ عن ذلك كلّه أن تقدمت الحركة العلمية الى الامام ، واتجهت النهضة الأدبية اتجاهاً جديداً يرضي الجماعة الذين كانوا لا يفتئون يناظرون خصومهم من أهل الأندلس في موجبات الفخار .

وعلى ذلك فلم تكن الآداب المغربيـة صورة طبق الأصل للآداب الأندلسية ، كما يظنه البعض بل كانت قائمة بنفسها ، تعبر عن شعور اهلها ولا تتأثر بالأندلس إلا كما تتأثر بالشام والعراق. فهذا ميمون الخطابي لا تجد بمن تقارنه في متانة أسلوبه وبلاغة معناه، وعنايته بالحكم الفلسفية إلا المتنبي. وهذا أبو العباس الجرّاوي لا تشبهه إلا بأبي تمام في اهتمامه باللفظ قبل المعنى ، ثم اغرابه في بعض الاحيان حتى تختلف فيه الظنون، ولم يقصُر وجه الشبه بينهما على هذا الحد فيظهر أن شاعرنا كان يتتبع آثار أبي تمام في كل شيء ، حتى ألف حماسته فانتشرت بالمغرب وأغنت عن حماسة أبي تمام .

أما الأدب الأندلسي فنجد أثره واضحاً كما نبه عليه المراكشي في ابن حبوس الفاسي

الذي كان يتشبه بابن هانىء ، متنبي المغرب ، في القصد الى الألفاظ الرائعة والقعاقع المهولة ، وإيثار التقعير ، كما نراه من جهة الرقة والانطباع ممثلاً في الوزير ابن عطية الذي يشبه الوزير ابن عمار في كثير من أحواله .

والخلاصة أن الأدب المغربي هو غير الأندلسي ، وأنه لم يتأثر به الا نسبياً ، لأن الأدباء المغاربة من غير شك كانوا يتعمدون مخالفة طريقة زملائهم الأندلسيين في الشعر والنثر ، قصد مقابلة التحدي بمثله . فان الأندلسيين كانوا يكثرون على المغاربة من تعداد محاسن أدبائهم ، وابتكارات شعرائهم ، التي بذّوا بها غيرهم ، كما ترى ذلك في رسالة الشقندي التي مرّت الإشارة إليها . ولم يكن لدى من أخذوا أنفسهم بالتأدب لكم الأفواه الصاخبة ، بتعجيزهم ، إلا أن يقرعوا الحجة بالحجة، ويعارضوا الدليل بالدليل . وهذا غير السرق والتقليد . زيادة على أن هؤلاء ، لم يكونوا قد استغرقوا في الحضارة والمدنية ، وانغمسوا في الرّفاهية والبلهنيّة كما كان ذلك حال الأندلسيين ؛ فكانت تغلب عليهم رقة الطبع ودقة التصوير . بل كانوا لا يزالون أقوياء النفوس ، أقوياء الطباع ، كما كان الشأن في شعراء المشرق الذين نظرنا بهم وهم عرب أقحاح ، تنقلوا في البادية ، واعتادوا على خشونتها فغلبت عليهم متانة الأسلوب وجزالة اللفظ .

وبناء على هذا ، فاننا نستطيع أن نقول إن الأدب المغربي منذ نشأ الى أن ترعرع ، كانت له في الغالب طريقة غير طريقة الأدب الأندلسي ، ولا نستشهد على ذلك غير أديب بارع من أُدباء الأندلس ، بل خاتمة أدبائها ، وهو الوزير أبو عبد الله بن زمرك الذي تحدّث عن هذا الأدب الى علَم من أعلام الفكر الأندلسي وهو الإمام الشاطبي ، بعد رحلة قام بها الى المملكة المغربية . وهاك ما قاله الشاطبي في كتابه (الانشادات والافادات) حسبما رواه المقري في النفح : « أفادني صاحبنا الفقيه الكاتب أبو عبدالله بن زمرك إثرَ إيابه الى وطنه من رحلة العدوة في علم البيان فوائد أذكرُ منها الآن ثلاثاً ، (الفقه في اللغة) وهو النظر في مواقع الألفاظ ، وأين استعملتها العرب ، ومن مثل هذا الوجه ـ قَرِمَ وعَام ـ اذا اشتهى، لكن لا يستعمل قرمَ إلا مع اللحم ، ولا يستعمل عام الا مع اللبن فتقول عمتُ الى اللبن ، وكذلك قولهم اصفر فاقع ، وأحمر قاني ، ولا يقال بالعكس وهذا كبير ، (والثانية) تحري الالفاظ البعيدة عن طرفي الغرابة والابتذال ، فلا يستدل

بالحوشيّ من اللغات ، ولا المبتذل في ألسن العامة ، (والثالثة) اجتناب كل صيغة تخرج الذهن عن أصل المعنى او تشوش عليه ، إذ المقصود الوصول الى بيان المعنى الى أقصاه ، والاتيان بما يحصله سريعاً ويمكنه في الذهن ، وتحري كل صيغة تمكن المعنى وتحرض السامع على الاستماع ، (وأخبرني) ان كتّاب المغرب يحافظون في شعرهم وكتابتهم على طريقة العرب ، ويذمون ما عداها من طريقة المولدين ، وأنها خارجة عن الفصاحة ، وهذه المعاني الثلاثة لا توجد إلا فيها » .

وهذا الكلام إن كان قيل في أُدباء العصر المريني فهو بأن يصدق على أدباء هـذا العصر أولى؛ لأن هذه الصفات التي ذكرها ابن زمرك تتحقق فيهم أكثر من غيرهم ضرورة أن الثقافة الأدبية ، بل الثقافة على العموم كانت في هذا العصر أوسع وأمتن منها في العصر المريني ، وان الروح المعنوية التي تنعكس في أقوال الأدباء ، وانتـاج الكتّاب لم تبلغ في عصر من عصور المغرب ، ما بلغته في هذا العصر من القوة والظهور . ولا يبعـد أن يكون ابن زمرك في كلمته تلك قصَد الحكم على الأدب المغربي بعامّة مما يشمل العصر الموحدي والعصر المريني ، سيما وقـد بقيت تلك الصفات هي سمة الأدب المغربي الى العصر الأخير ، وأعني به العصر العلوي ، حين جاء العلامة الشيخ محمد بيرم التونسي صاحب كتاب « صفوة الاعتبار » فأكد قول ابن زمرك بما لا يخرج عن مضمونه في اللفظ ولا في المعنى .

والخلاصة، إن تحرّي الفصاحة والصدق وطرح التصنع والابتذال كانت وما زالت من أهم ميزات الأدباء المغاربة ، وهم لذلك أقرب ما يكون من طريقة العرب وشعراء العصور الأولى من عصور الأدب العربي .

ويلوح لنا اننا بلغنا الغاية في تصوير الحياة الأدبية الموحدية على ما وصل اليه علمنا منها ، فلنصنع لهذه الصورة إطاراً من تراجم الأدباء المذكورين فيها يزيدها على حسنها حُسناً .

ابوجعفر بن عطية

هو الكاتب الوزير ، أبو جعفر أحمد بن عطية القُضاعي المراكشي ، من فتيانها العصاميين الذين تبوّأوا ذرى المجد بمحض جدّهم واجتهادهم .

كتب أولاً عن ملوك لمتونة ، ولما أدبرت أيامهم حضر في بعض الفتوحات الموحدية مع أحد قواد عبد المؤمن ؛ فكتب عنه الى عبد المؤمن رسالةً بديعة يخبره فيها بالفتح ، ويصف كيفيّة الواقعة ؛ فأعجب بها عبد المؤمن وسأل عن مُنشئها ، فأخبر أنه ابو جعفر ، فطلبه للكتابة عنده . ثم ترقّى بـه الحال فصار وزيراً . قال في نفح الطيب : « وكانت وزارته زيناً للوقت ، وكمالاً للدولة . » واشتمل عليه عبد المؤمن فبلغ منه منزلةً كثر حُسّاده عليها ، فكادوا له حتى أوقع به سنة ٥٥٢ كما في القرطاس أو ٥٣ كما في المعجب .

ويُعد أبو جعفر من أكبر الأدباء الذين لهم التصرُّف التـــام في الشعر والنثر ، وآثاره كلها تتكافأ بلاغةً وانسجاماً . ولقد شهد له عبد المؤمن بعد وفاته بعلو كعبه في الأدب ، فانه امتحن الشعراء بهجوه، فلما أسمعوه ما قالوا أعرض عنهم وقال: ذهب ابن عطية وذهب الأدب معه .

ابن حبّوس

هو ابو عبدالله محمد بن حبوس ، الفاسي الشاعر النابه المجيد ، قال المراكشي في المعجب : كانت طريقته في الشعر على نحو طريقة محمد بن هانىء الاندلسي في قصـد الألفاظ الرائعة ، والقعاقع المهولة وايثار التقعير ، وكان في دولة لمتونة مقدماً في الشعراء حتى نقلت اليهم عنه حماقات ، فهرب الى الأندلس وجرى له بها امورٌ غريبة ، وكان حظياً عند عبد المؤمن وابنه يوسف ، ونال في أيامها ثروة .

وقال ابن الأبار : كان عالماً محققاً ، وشاعراً مفلقاً ، تقدم في ذلك أهل زمانه ، ويوقف على جودة شعره من ديوانه ، توفي سنة ٥٧٠ ومولده ببلده سنة ٥٠٠ .

سليمان الموحدي

هو صاحب السيف والقلم ، الأمير ابو الربيع سليمان بن عبدالله بن عبد المؤمن الكومي الموحدي . كان من الكتاب البلغاء والشعراء المجيدين ، وهو أديب بني عبد المؤمن ونابغتهم الفذ ؛ درَج في بيت الرياسة والملك ، ولم يمنعه ذلك من الاشتغال بالأدب والاكباب على التحصيل ، فنشأ متأدباً أريحياً يتعشق المجد ، ويصبو الى العلى ، وما لبث أن قُدّم الى ولاية بجاية من قِبَل ابن عمه الخليفة يعقوب المنصور . ولما ثار بها عليُّ بنُ غانية ، نُقل الى ولاية سجلماسة ، وكان في كلتا ولايته كعبة القصاد من أدباء البلاد ، يأتونه عاقدي الآمال على إلطافه وبرّه ، فيصدرون عنه ، وكلهم السنة مدح وثناء عليه .

وممن تحدث الينا عنه من ادباء الشرق التاج ابن حَمُّويه السرخسي قال : اجتمعت بالسيد أبي الربيع حين قدم الى مراكش بعد وفاة الخليفة يعقوب المنصور لمبايعة ولده محمد الناصر ، وكان في تلك المدة يلي مدينة سجلماسة وأعمالها فرأيته شيخاً بهيّ المنظر ، حسن المَخْبَر ، فصيح اللسان باللغتين العربية والبربرية .

وقال صاحب المغرب في حقه : لم يكن في بني عبد المؤمن مثله في هذا الشأن الذي نحن بصدده وكان قد تقدم على مملكتي سجلماسة وبجاية ، وكان كاتباً شاعراً أديباً ماهراً ، وشعره مدوّن وله ألغاز . له ديوان شعر جمعه كاتبه محمد بن عبد ربه المالقي ، وله أيضاً مختصر الاغاني . وتوفي حوالي سنة ٦٠٠ .

أبو حفص عمر

هو القاضي الأديب، أبو حفص بن عمر بن عبد الله بن محمد بن عبدالله بن عمر السُّلمي من أهل أغمات ، بها ولد وسكن مدينة فاس . روى عن جده لأمه أبي محمد عبدالله ابن علي اللخمي . أجاز له في صغره وعن أبي مروان بن مَسَرّة وأبي عبدالله بن الرمّامة ، وأخذ عن أبي بكر بن طاهر كتابَ سيبويه تفهُّماً . وكان من أهل

المعرفة والفقه ، أديباً شاعراً مجيداً ، غلب عليه الأدب حتى عُرف به وشُهر ، مع جودة الخط وبراعة الأدوات .

وولي قضاء تلمسان وفاس واشبيلية ، وكان في غاية الظرف ، إذا أقبل شُممت رائحة الطيب منه على بُعد وكان منزله كأنه الجنّة ، مما جعل اعداءه ينالون منه عند السلطان ، ويقولون انه غير حافظ للناموس الشرعي ، بكثرة تغزُّله واشتهار مقطعاته وانهماكه في العشق ، فنقل بسبب ذلك من قضاء فاس الى قضاء اشبيلية ، ولم ينله أدنى مكروه للعلم بديانته وعفّته . وله في المنصور أمداح رائعة ، وله موشحات مشهورة ، كان يغنى بها في الأقطار ، كما يقول ابن سعيد المغربي ، وشعره كله بديع ، ينمُّ عن رقة طبع وسلامة ذوق ، وإغراق في الحضارة والمتاع . توفي سنة ٦٠٤ باشبيلية .

ابو العبّاس الجراوي

هو ابو العباس احمد بن عبد السلام الجرّاوي من أهل تادلا ، وسكن مدينة مراكش ، الشاعر الخنذيذ الهجّاء المقذع ، من أبرز الشخصيات الأدبية في دولة الموحدين . خدم بشعره الخليفة عبد المؤمن وابنه يوسف وحفيده يعقوب المنصور ، وكان له مع يوسف بالخصوص شأن غير شأنه مع الآخرين ؛ فكان يُعدّ شاعر دولته الخاص ، وكان لا يبرح مجلسه ، ووقعت له معه نوادر غريبة ، تدل على رفيع مكانته منه ، قال ابن خلكان : « وكان هذا الأديب نهايةً في حفظ الأشعار القديمة والمحدثة ، وتقدم في هذا الشأن ، وجالس به عبد المؤمن ، ثم ولده يوسف ، ثم ولده يعقوب... وكانت له نوادر نادرة مستظرفة عند اهل الأدب . » وكان بَذيَّ اللسان فاحش الهجاء ، هجا قومه وبلده ، وكثيراً من الناس فهو حُطيئة عصره غير مدافع ، ثم قال ابن خلكان : « وجمع كتابا يحتوي على فنون الشعر على وضع الحماسة لأبي تمام الطائي وسماه (صفوة الادب وديوان العرب) وهو كثير الوجود بأيدي الناس ، وهو عند أهل المغرب كالحماسة عند اهل المشرق ... وله كل شعر مليح ، وكان شيخاً مسناً جاوز الثمانين سنة ، وتوفي في آخر أيام يعقوب المنصور ، بل بعده سنة ٦٠٩ باشبيلية .

الخطابي

هو ميمون بن علي بن عبد الخالق الخطابي ، نسبة الى قبيلة من صنهاجة ، من أهل مدينة فاس ، ويعرف بابن خبّازة نسبة الى خاله الشاعر المشهور بابن خبّازة ، قاله ابن القاضي .

هذا كان شاعراً فحلاً نهاية في متانة الشعر وروعته وجماله ، كأنما ينحت الكلام من صخر ، ويفرغه في قالب الإجادة والاحسان ، ثم يخرجه وقد تحوّل الى صور شعرية بليغة النظم والتركيب ، سامية المغازي والمقاصد . وأعانه على ذلك فقهه باللغة وروايته الواسعة للشعر مع تفننه في أساليب البلاغة ، ومعرفته بمآخذ الكلام ، فلا يقرأ القارىء بعض قصائده الطنانة إلا وهو يحسب أنه يقرأ للمتنبي ونظرائه من كبار الشعراء . وقال ابن القاضي : « كان سريع البديهة ناظماً ناثراً ، مع الاجادة والتفنن في أساليب الكلام معرفة وإتقاناً في هزله وجدّه على اختلاف اللغات . » ولا يعرف له ديوان مجموع على كثرة شعره : إما لانه لم يدوّن أشعاره ، وإما لأن يد التلاشي لعبت به كما لعبت بكثير من آثار غيره من الأدباء والعلماء . وعلى كل فليس الشاعر بالديوان ولا بكثرة رواته والناقلين عنه ، وإلا فكم من دواوين مكدسة في زوايا الخزائن ليس لأصحابها عافاهم الله في الشاعرية من حظٍّ ولا نصيب .

وهكذا يقال في كل من مضى ويأتي من الشعراء الكبار الذين لم نذكر أن لهم ديواناً مجموعاً . ولي الخطابي حسبة الطعام بالعاصمة المراكشية . وتوفي بالرباط سنة ٦٣٧ .

ابن عبدون المكناسي

أبو عبدالله محمد بن عبدون بن قاسم الخزرجي المكناسي ، شاعر مطبوع ، من اكبر أدباء المغرب في هذا العصر .

كان رقيق الحاشية ، شديد التظرّف ، غزلاً رقيقاً بديعاً ، يجيدُ الوصف ، وله

فيه مذهب حسن ، وعلى أسلوبه رونق ، وفي معانيه عذوبة ولطف وخفـّة ، بل إن جملة شعره وجدانٌ تفيض به روحه ، وينفجر به قلبه ، فلذلك تجده شديد التأثير في النفس ، حسن الموقع منها .

توفي سنة ٣٥٨ على ما عنـــد ابن القاضي ، وفي الذخيرة السنيّة ما نصه : « وفي سنة ٦٥٩ توفي بمكناسة الفقيه الاستاذ المقرىءُ الكاتب البارع ، أبو عبدالله محمد ابن عبدون بن قاسم الخزرجي ، أديب وقته ، وشاعر عصره ، في العشر الأول لذي القعدة منها . » وهو غير ابن عبدون الأندلسي ؛ فان ذلك اسمه عبد المجيد .

عصر المرينيين

الوجهة السياسية

دامت دولةُ الموحدين الى آخر أيام الناصر ولدِ المنصور ، وهي مثـــال القوة والعظمة ، وجلالِ الشأن ، ورفعة السلطان ، ثم أخنى عليها الذي أخنى على لُبَد ، وجرت فيها سُنَّة الكون، فتداعت أركانها ، وتقوَّضت دعائمها ، وسرعان ما سقطت من حالق العزّ الى حضيض الهوان .

كان فاتحة ما أصابها من الكوارث ، وقعة العِقاب المشؤومة، التي تألبت عليهـــا فيها دول النصرانية بجذافيرها، ودحرتها اندحاراً شائناً ، بسبب ضعف القيادة وعدم اجتماع كلمة الرؤساء والمحاربين من جرَّاء غرور الناصر وخيانة الأندلسيين له . فهو قد اغترّ بكثرة ما حشده من الأجناد ، وجمعه من الأعداد فلم يأبه لمقاتلة الأندلس الذين كانوا أعرف من غيرهم بثغور العدو ، وأبصر بمواطن الضعف من بلاده . وهم حيث لم يستشعر وجودهم ، ولا عرف فضلهم ، عزموا على عدم مناصحته ، وبذْل المعونة له ؛ وهكذا وقعت الكرَّة على المسلمين وبقيت هذه الوقعة عبرةً للمعتبرين .

ثم فشت بعد ذلك جملة امراض في جسم الدولة ، ومات الناصر مكبوتاً مغموماً ، فانتثر بموته عِقْد رجالات الموحدين ، وظهرت خيانة رؤسائهم في إقامـــة ولده المستنصر مقامه ، وكان دون بلوغ ليتمكنوا من الاستبداد به ، والضغط على إرادته ، كذلك ظهرت طماعية الولاة الذين اطلقوا ايديهم في أموال الرعية وأمتعتها ، ونبـغ دعاةُ الفتنة في كل صُقع وقبيل ، وسلك المفسدون الى الشر كلَّ سبيل . أما الأندلس فلا تسل عما نزل بها من الويلات والمحن ، إذ انقسمت على نفسها ، وتغلب الأشقياء فيها على الأطراف ، وانبرى العدو اليها ثانياً يسوم أهلها الخسف والعذاب . وأما إفريقية فقد ابتدأت تستعد للانفصال تحت رئاسة الموحدين الذين كان عبد المؤمن أقطعهم فيها الإقطاعات ، وسوَّغ لهم بها الجبايات فشاءوا الآن أن يجازوه جزاء سِنِمَّار ، بجحد نعمته ، وتفريق وحدة مملكته .

وبالاختصار فقد كثُرت الفتوق في جسم الدولة ، وتعددت الاضطرابات هنـــا

وهناك ، فأعوز رجل حديد الإرادة مثل عبد المؤمن وأين نحن من عبدِ المؤمن وأين عبدُ المؤمن منا ؟ وانت خبيرٌ بمصائر الدول حين تصلُ الى هذا الحد من الاختلال وسوء الادارة ، ولا تجدُ من يأخذ بضبعِها ، ويضطلع بتدبير شؤونها ، فلا أسترسل في الحديث عن ذلك التدهور الفظيع ، والسقوط السريع .

إنما الذي يستوقف النظر ، ويسترعي الفكر ، هو سرعة انقراض هذه الدولة واستيلاء الضعف عليها أعزّ وأقوى ما كانت ، فما هي إلا غدوةٌ الى الأندلس أو روْحة ، حتى قُضيَ كلُّ شيء ، ودخلت دولة الموحدين فجأة في دوْر الاضمحلال والعدم ، فأديل منها بنو مَرين الذين عاجلوها فأجهزوا عليها قبلما تتمكن من رأب صدوعها وعلاج أدوائها .

وفي الواقع إنها لفرصة نادرة اهتبلها هؤلاء البدو النازحون الى المغرب من الصحراء ، قصد الامتيار والتربع بمراعيه الخصبة ، على عادتهم في كل سنة ، حينما تجدب أراضيهم ، وتصوّحُ نباتاتهم . فما ان دخلوا المغرب هذا العام ، حتى وجدوا المعالم قد تبدلت ، والمشاهد قد تغيرت ، وخلت الأوطان من السكان وبقيت الحقول والمسارح هملاً من غير راع ، ولا متعهد، فنمت وربت . وكأنما كانت تعرف ما سيؤول إليه أمر هؤلاء الغرباء ، فأوتهم الى ظلها ، وبسطت لهم أكنافها فنزلوها وتقرّوْها ، وطاب لهم بها المقيل ، فسمع بهم بقيّة إخوانهم ، فنسلوا إليهم من كل حدَب ، وأقاموا معهم مغتبطين بما يصادفونه من الخصب والرّخاء والعيش الرّغد . على هذه الصفة كان دخولهم أولاً الى المغرب ، ولما استقرّ بهم المقام ، ولم يجدُوا من يقف في وجههم ويصدُّ عاديتهم عن البلاد ، شجعوا وأقدموا على شنّ الغارات والإجلاب بخيلهم ورَجلهم على الحواضر والبوادي . ومن هذا الوقت نشأت عندهم فكرة الاستيلاء والتغلب على المغرب ، فاقبلوا يعملون على تنفيذها وتحقيقها . وكذا الحوادث التاريخية الكبرى تبدأ عادية بسيطة ثم لا تزالُ تنمو وتستفحل حتى يعظم قدرُها ويجلّ خطرُها .

ولم تكن هذه القبائل ؛ بنو مرين وزناتة عموماً ، في بلادها فوضى لا نظام لها ولا قانون ، بل كانت خاضعة لأحكام الشرع الشريف في معاملاتها وأحوالها الشخصيّة ، وكانت تقيم على رأسها زعيماً كسائر القبائل ، يسمّى بالأمير تحقيقاً

لاستقلالها الذاتي . وفي حين دخولها للمغرب ، كان هذا الامير هو عبد الحق المريني رأس هذه الدولة ، وأبو الأملاك منها ، وكان رجلاً فاضلاً ديّناً متورعاً ، له نفوذ وجاهٌ في قبائل زناتة كلها ، فظل يجاذب الموحدين حبل الملك زمنـــاً ، ثم قضى وخلفَه أولاده أبو سعيد عثمان وابو معرّف محمد وأبو بكر ، فاستمرّ التنافس بينهم وبين ملوك الموحدين الذين ما كان اكثر عددهم وأقلّ مدتهم على العادة في هذه الفترة التي يعقبها السقوط . ثم لما آذنت شمسهم بالزّوال ، وظلهم بالانقـلاب أوقع بهم بنو مرين في معركة تعرف بيوم المشعلة ، وقعة فاصلة لم يرفعوا بعدها رأساً ولا أبدوا حراكاً ، وجاءت نوبة يعقوب بن عبد الحق رابع الإخوة المذكورين فـلم يكن من الصعب عليه ان يستأصل شأفتهم ويجتثّ جذورهم في سنة ٦٧٤ ، وكذلك خلص له الُملكُ بالمغرب ، فأعلن نفسه سلطاناً وتلقب بالمنصور .

تقلـّص ظلُّ الموحدين من المغرب ، واستتبّ الأمر لبني مرين ، فـــلم يبق من ينازعهم في شيء ، لذلك نرى أن مجال العمل المفيد قد أصبح فسيحاً أمام السلطان الجديد،إنما هو لم يترك بعد ميدان الحرب والسياسة فتقدم الى افريقية يريد استلحاقها، كما كانت في أيام الموحدين ، وهيهات ذلك فقد فات الفوت ، ودخلت تلك البلاد في ملك بني عبد الواد ، وبني حفص القائمين بها ، ولم يبق محل للعملية التي أجراها عبد المؤمن لتحقيق الوحدة المغربية ، وضم أطراف البلاد الافريقية ، فتلك قد اكتنفها من الظروف المؤاتية ما لم يكن منه هنا قليل ولا كثير ، لذلك كان الاقدام على الحرب في هذه الحال مجازفة ، قلمـــا تأتي بنتيجة غير الشر المستطير ، فالذي ينبغي عمله حينئذ هو الاتحاد والتعاون على تشييد صروح العدل والنظام وإصلاح أحوال البلاد ، وتبادل المصالح المشتركة .

وأما الحرب وخصوصاً بين شعبين إسلاميين متجاورين ، فانما تسبب من الضرر والبلاء ما يعسر معَ طول المدة تداركه وتلافيه .

غير أنّ اولئك القوم لم يكونوا يحسبون هـــذا الحساب ، ولا يقيمون لهذه الاعتبارات وزناً. فلذلك لا نعجب من تسابقهم الى تحقيق هذه الغاية ، وهي الاستيلاءُ على بلاد إفريقية مهما كلفهم ذلك من الجهد والعناء ، ومهما كان فيه من إزهاق الأرواح البريئة ، وتقاتـُل المسلمين بعضهم مع بعض . ثم منهم من كان مرابطاً دائماً على معاقل

تلك البلاد ، لا يرفع عنها الحصار أبداً ، ومنهم من كان عكوفه على الحرب فيهـا ، سبباً في نبوغ الثوار عليه ، واختلال شؤون مملكته ، ومع ذلك لم ينقطع طمعهم فيها ، ولم تنثن عزيمتهم عنها حتى جاء أبو الحسن ، فخر هـذه الدولة وأحد عظماء سلاطين المغرب ، فلم يلبث أن فتحت له أبوابها على المصاريع ، ودخل إليهـا حتى وصل الى تونس ، وضمّ المغرب كله بعضه الى بعض ، وأخـذ في تنظيمه وإصلاحه على طريقة تكفل له النجاح والتقدم . لكن أجلاف العربان من بني سُلَيم ، وبقايا بني هـلال إخوتهم[1] الذين كانوا يعيثون في الأرض فساداً ، ويأخذون الاتاوات من الناس ظلماً وعدواناً لما رأوا شدّة شكيمته على أهل البَغي والعناد وجدّه في سدّ أبواب المطامع ، وحسم أصول الفساد ثاروا به وقطعوا عليه خطّ الرّجعة ، فوقع في الشَّرَك وعميَ خبرُه على شعبه .

وجاء الطاعون الجارف فأخلى البلاد ، وافنى العبـاد ، فأرجف الناسُ بموت السلطان ، واختلّت الأمور وكاد اليأس يستولي على النفوس ، فوثب ولدُه ابو عنان وبايع نفسه ، وانتصب على عرش والده المحصور في تونس . فلمـا سمع والده بذلك ركب البحر وقفل راجعاً في اسطوله الذي كان يُنيف على الخمسمائة قطعة ، ولكن الحظ السيىء كتب على أسطول المغرب العظيم أن يتحطّم في البحر ، فتضمحـلّ حينذاك القوة البحرية لهذا القطر الذي طالمـا جال بها وصال ، فذهبت مع أمواج الخِضمّ جميع القواد والأبطال ؛ لكن الخسارة كل الخسارة في العلماء الذين كان السلطان لايستغني عنهم ، ويستصحبُهم في حضَرِه وسفَرِه . وقد كان معه منهم في هذه الوجهة جم غفير فذهبوا ضحيّةَ سياسته الهوجاء ، وهو نفسه إنما نجا على لوح من ألواح بعض السُّفُن المتكسِّرة ، بقي يتخبّط فوقه حتى رماه الموج في أحد شواطىء مملكته ، وكانت هذه النكبة مما ينقطع لها نياط القلب ، ولا يرقأ لها دمع العين .

ولما رجع أبو الحسن ، كان ولده قد ثبّتَ مركزُه ، وأَمرَ أمْرُه فلم يشأ ان يتنزّل له عن العرش فتقاتلا ، وإنه لمن المؤسف ان يقع هذا بين الولد والوالد ، وثبت على عهد الوالد رجالٌ ممن صحّت نِيّاتهُم ، وخلصت ضمائرُهم ؛ لكن الوالد المسكين

---

[1] ــ كان المنصور الموحدي نقل عرب بني هلال من افريقية الى المغرب واوطنهم فيه ، وقد بقيت منهم هناك بقايا هم الذين عاودوا سيرتهم الأولى مع إخوتهم بني سُليم .

كانت أيامه في انصراف، فلم ينشَب ان تُوُفِّيَ رحمه الله. وقد كان بنى فأحسن البناء، إنما لم يُتمّ الله مراده، وقام الولد الشاب وتتبّع خطوات أبيه، فتمسَّك بفتوحاته في تلك البلاد، ونظر في أحوالها بعين الحكمة والسداد، لكن ما لبث الأمر بعده ان رجع الى مبدإه، وعاد لتونس استقلالها وللجزائر سُلطَتها وبقي المغرب قائماً بنفسه في أُخرَيات ايام هذه الدولة.

هذه كانت سياسة المرينيين في إفريقية، وهي كما رأيتَها لا تدل على مهارة وحسن تدبير، بل غاية ما فيها، وتسبَّب عنها فعلاً تفريق كلمة المسلمين الموحَّدة، وبذرُ العداوة بين قلوبهم النقيَّة، زيادة على إضعاف قوتهم المادية والمعنوية، ممـا يسهّل طريق استيلاء العدو عليهم وتمكُّنَه منهم.

ونحن إذا وقفنا محقّين بجانب يوسف بن تاشفين، ودافعنا عن سياسته الناجحة في ضم الأندلس الى المغرب، ورمينا في وجوه خصومه بكل ما تقوّلوه عليه، لا يمكننا هنا أن نقف مُبطلين بجانب المرينيين وندافع عنهم ونعتذر لهم، لأنه شتّان بين عمل يوسف، وعمل المرينيين، ولئن جنى المغرب، وجنت الأندلس من حركة يوسف ما جنَياه من الثمار الصالحة، والنتائج الحسنة، فلم يجنِ المغربُ ولا افريقية من سياسة المرينيين فيها إلا الخسائر المتوالية في المال والرجال. وبالتالي تضعضعَ المركز الدولي الذي كان لهما في العالم وهذا أمر ليس من صالح كلا الطرفين في شيء، بل ليس من صالح الشرق ولا الاسلام ولا العرب. على أن العقل لا يجوّزُ بسرعة إمكان تغلب الدولة المرينية على هؤلاء، وهم مثلهـا دولةٌ ناشئة شديدة الشكيمة، قويّة المراس، فلم يبقَ الا انهم أخطأوا سبيل المصلحة وهو الاتحاد معهم على ردّ عادية العدو بالبلاد الأندلسية، حتى، لا يزيدَ طغيانه على أهلها، ويعلم أن من وراء اتحاد ملوك النصرانية اتحادَ ملوك الاسلام، فيقلّلَ من غُـلوائه، ولا يشتطّ في عدوانه ولو كتب ذلك لكان المسلمون متوطّنين باندلسهم الى الآن، لا ينغّص عيشَهم فيها شيء.

ثم بعد ان تبينا هذه الناحية من سياسة بني مرين، نصرف النظر الى ناحية اخرى من سياستهم، وهي موقفهم بازاء الاندلس، فمنها يظهر لك مزيد اعتنائهم بافريقية، بل ربما يلتَبسُ عليك الأمر في التوفيق بين سياستهم الأولى في افريقية، سياسةِ الفتحْ والغَزو، وسيرتهم الثانية في الأندلس المباينةِ لتلك تمـام المباينة، وذلك أنهم في

الاندلس كانوا قد اتخذوا رُبُطاً وجنوداً لمناوشة الأسبان في القتال ، ودفاعهم عن بلاد المسلمين . وكان أول جيش ذهب منهم إليها ، في أيام يعقوب المتقدم الذكر ، وهو نفسه جاز إلى الأندلس أربع مرات . لا تسأل عن أعماله الحربية فيها ، ومواقفه المشرّفة ؛ فكانوا يستولون فيها على الحصون والمدن العديدة ، لكنهم لم يكونوا يتمسّكون بها أبداً ، انما كانوا يزفّونها هديّةً الى أمراء بني نصر ، أصحاب الأندلس .

وانك لتعجب من هذه السماحة ، وهذا الإيثار ، مما لا علّة له إلا حُسْنُ نياتهم في الجهاد فقط ، كما كانوا يصرّحون هم أنفسهم بذلك . ولا تقل ان ذلك نتيجةُ العجز ، وعدم القدرة على اقتحام الأندلس وضمها الى المغرب ، فان من يجرُؤُ على حرب دولتين فتيّتين من الدول المغربية الصميمة بافريقية ، لا يتهيّبُ حرب بني الأحمر ؛ خصوصاً وقد كانوا في حرب مع المخالفين عليهم من بني جِلدَتِهم ، أو مع الأسبانيين ، ولا تقل أيضاً أن البحر كان هو الحاجز بينهما والمانع من تنفيذ هذه الفكرة ، ولو طافت برؤوس السلاطين من بني مرين ، لأنا نعلم أن أُسطولَ المغرب في ذلك الحين كان من الأساطيل التي تُضرَبُ بها الأمثال ، وقد ذكرنا ان جملة قِطَعِه التي كانت مع أبي الحسن في وقعة افريقية خمسمائة قِطْعة ؛ فلا يجوز أن يُقال إن البحر هو الذي كان حائلاً عن إقدامهم على شنّ الغارة على الجزيرة الأندلسية وانتزاعها من أيدي مالكيها ، والمتصرفين فيها . واذا لم يكن هذا ولا ذاك هو السبب الحقيقي في انصرافهم عنها الى افريقية ، فليكن هذا السبب الذي نذكره ، وهو الذي تُؤيّده وقائع الأحوال وشواهد العِيان ، فالمرينيون خلَفُ الموحدين كانوا يعرفون ما نزل بسلفهم من الضعف والانحلال بسبب ذلك القطر الاندلسي ، ومحافظتهم عليه ، ولئن قيل إنه كان سببَ عزهم ومجدهم فقد يُقال أيضاً انه كان سبب تعْسهم ونحسهم ، فمن المحقّق انه لولا واقعة العقاب لم يتمكن للمرينيين ان يستولوا على المغرب ، ويُقلّصوا ظلّ نفوذ الموحدين عنه . فهذه العِبرَةُ التاريخيّة هي التي كانت تثنيهم عن المغامرة في أخذ الأندلس وانتزاعها من أيدي بني نصر ، ولو فعلوا لنجحوا في ذلك من أول وهلة ؛ لكنهم كانوا ينظرون الى العاقبة فيتخوّفون منها . ولنفرض أنهم أخذوها ، أليس ما يلزمها من التحصين الدائم ، والدفاع المستمر مُنْهِكاً لقواهم ، كاسراً لشوكتهم يوماً ما ، كما سبق ففعل بالمرابطين وبني مؤمن ؟ نعم . فنظرهم هذا سديد ، وأسدّ منه نظرهم الى توحيد افريقية ، لو كان ممكناً إذ ذاك . ولذلك فقد انصرفوا عن الأندلس انصرافَ المختار

لا اليائس،ثم أقبلوا على افريقية فلم يُغنِ حذَرٌ من قدر، وكانت هي السبب في ضعفهم وانحلال قوتهم ، كما لو ذهبوا الى الأندلس فيما كانوا يُقدِّرون . وقولنا انهم انصرفوا عن الأندلس ليس على إطلاقه فقد قدّمنا انهم كانوا يُقيمون فيها الرُّبط والمقاتلين ، بل لقد كان ملوكهم كثيراً ما يعبُرون إليها فيُقيمون فريضة الجهاد خالصةً نياتُهم في ذلك، نقيّةً ضمائرهم. ولقد قاموا باكثر مما يجب عليهم من ذلك، ولاَقوْا من العدوّ الذي كان يُراوِغهم ، ويعبث بالعهود التي يعقدونها معه، أذىً كثيراً ، وكان يتعرض لسَخَطهم فيُنزِلون به أشدَّ أنواع النِّقمَة،وأقسى ألوان العقاب وهم في ذلك محقون ومنصفون ؛ وكلٌّ من عَلِم بُعد الشُّقة ، وتحقّقَ صعوبة ركوب ثَبَجِ البحر في ذلك العصر لأنقاذ المستصرخين ، وحماية الضَّعَفَة من أهل الأندلس ، عذرَ هؤلاء المغيرين إذا أتوا حَنِقينَ غُضابى ؛ فاقتصُّوا منه على قدْر فعله ، وجازَوْه بما يستحق ، فانه كان يتركهم حتى يعودوا إلى مواطنهم بعد أن يكونوا عقدوا معه الهُدنة التي يكون هو الطالب لها ، فينقضُ على جوارِه من المسلمين، ويفعل فيهم الأفاعيل، فما إن يصِلُ الصريخ الى فاس وتأتي النجدة حتى ينفُذ الوعيد ويسبق السيفُ العذَل. وهكذا كان احترام الأوربيين للعهود الدَّوليّة في القرون الوسطى ــ ولا يزال ــ مُعلّقاً بمصالحهم الآنيّة وبما تمليه إمكانيّاتُهم وظروفهم الحربية فقط لا غير .

ولكن دعنا من هذا ، ولننظر في موقف ملوك بني نصر الأندلسيين بإزاء الدولة المرينية لنتعرَّف بعد ذلك على من تقعُ مسؤولية ضياع الأندلس ، فقد رأينا من قبل موقفَ الأندلسيين المرذول ، موقف الفضيحة والعار ، والخيانة والخذلان ، في وقعة العقاب المشؤومة، حتى تسبَّبوا في تصدُّع اركان تلك الدولة الشامخة وأدخلوا الضعف على الأمة المغربية التي لم تكن تعرُفه من قبل . وفي أيام المرينيين، نجدُ أنَّ هؤلاء الذين سمَّوا أنفسهم ملوكاً ، بينما يستنجدون بأسود العَرين من بني مَرين ، فيخفُّ هؤلاء لمساعدتهم وإنقاذهم بدافع الرَّغبَة في الجهاد والذبِّ عن بيْضة الإسلام ، إذ يتحالفون مع الاعداء عليهم؛فلا يكاد جنود المغرب يركبون البحر،حتى يجدوا العدوَّ في أسا[illegible] أولئك المستصرخين كامناً لهم ، معترضاً كالشجى في حلق الزُّقاق،فتنشَبُ الحربُ، ويشتد ضِرامها.فأما حين يُكتب النصر للمسلمين وهو الغالب،فان الناكثين يعتذرون ويقدمون أنفسهم للخدمة ، ولا يعدَمون من وسائل النفاق، وأساليب الخداع ، ما يسترضون به السلطان؛واما في حال غَلبَة العدوّ، فإنهم يُولُّونه أيضاً الأدبار خشيةتقوّيه

عليهم فيرجعون لبني مرين أيضاً، لأنهم ليس لهم عضُدٌ ولا ناصر غيرهم. ولقد حدث مرة أن أرسل السلطان رأس أحد القواد الأسبان ممن أوقع بالمسلمين وقائعَ فظيعة ، أرسله الى مَلِك بني نصر ليُظهره الى المسلمين فيحمَدون الله الذي أمكن من عدوهم اللدود. لكنَّ ملك بني نصر طيّبه وجعله في صندوق مُحَلّى وأرسل به الى ملك الأسبان يتملَّقُه ، فانظر الى التخاذل كيف يكون، والى السقوط من حالق العزّ الى حضيض الهون ... ولا يظن القارىء أنهم كانوا يخافون منهم على بلادهم ، فقد قدَّمنا أن فكرة الاستيلاء على الأندلس لم تدر قط بخَلد ملوك المرينيين ، والا فهم لو أرادوها لم تُعجزهم بحال ، وقد قدّمنا أنهم لما كانوا يستولون على حصن أو بلد ، سَرْعانَ ما يُسلمونه اليهم قاصدين بذلك إزالة النُّفرة من أنفسهم ، وتقويةَ الروابط معهم ، ولم يكونوا يُبقون بأيديهم إلا جبَلَ طارق والجزيرة الخضراء، وجزيرة طَريف ، وهذه إنما يبقونها لربط خيط المواصلة بين العُدوتين ، وإنزال المقاتلة وادّخار المؤونة مما مصلحته عائدة على الأندلس ، لكن أولئك القوم لم يكونوا يراعون هذا الجميل ، وإنما ينظرونه بعين عوراء وأخرى مغمّضة .

وماذا حدث بعد ذلك ؟ حدث ان الدولة المغربية لم تبقَ على شيء من القوة بسبب ما استنفذت من مجهودها هذه الحروب الطاحنة ، ثم قامت قيامةُ بني مرين ؛ بالتهالك على السلطة ، وتنازع الإمارة فانتهى الأمر بسقوطهم ، وانتصاب دولة بني وطاس ، وهم فرعٌ من بني مرين ؛ إلا انهم ليس فيهم غَناؤهم فضعفت الأمة ومرج أمرُها ، واشتغلت بمشاكلها الداخلية، وحروبها الأهلية . فكأنما بُدّلت الأرضُ غيرَ الأرض ، والناسُ غيرَ الناس . وفي هذه الأثناء كانت النداءاتُ على العادة تتوالى من أهل الأندلس على المغرب وهو لا يستجيبُ لنداء ، لانه كما علمت منتحرٌ مضرَّجٌ بالدماء ، نعم كان يتسرَّبُ إليهم آونة بعد أُخرى ، فوجٌ من مُتطوّعة المقاتلين ومتحمسة المجاهدين؛ ولكن كان جهده أن يُبلغ الأخبار ، ويبسط الأعذار ، والعدوُّ إذ ذاك لامٌّ شعثه ، آخذٌ أهبته قويٌّ متّحد ، مُنيخٌ بكلكله على المسلمين ، يُذيقهُم العذاب المهين ، حتى حصلت الكارثة ، ونفذ سهم القضاء ولا حول ولا قوة الا بالله .

قلنا إنّه لما سقطت دولةُ المرينيين خلفتها دولة الوَطّاسيّين ، إلا أن هذه لم يصحبها توفيقٌ فكانت ذنَباً طويلاً للدولة المرينية ، يجري عليها ما يجري على أعقاب الدول ، من مُصاحَبة الفشل ، ومُعاناة العِثار ، وقد بقيت كذلك حتى أخلت المكان للدولة السعدية التي سنتكلم عليها بعد هذه .

في دائرة العروبة والإسلام الصحيح

يقول كثير من المؤرخين ونسّابة المغرب : إن بني مرين فخذٌ من زناتة ، يمتّون في عداد قبيلتهم هذه الى قيس عيلان ، فهم عربٌ خلّص ، لا شك في ذلك ، وقال شاعرهم عبد العزيز الملزوزي في نظم السلوك :

فجاورتْ زناتةُ البرابرا ... فصيّروا كلامهم كما ترى

ما بدّل الدهرُ سوى أقوالهم ... ولم يبدّلْ منتهى أحوالهم

بل فعلهم أربى على فعل العرب ... في الحال والإيثار ثم في الأدب

فانظُرْ كلامَ العرب قد تبدّلا ... وحالهم عن حاله تحوّلا

لا يعرفون اليومَ ما الكلامُ ... وما لهم نطقٌ ولا إفهام

وان تمادَتْ بهم الأحوالُ ... لم تبْقَ في الدهر لهم أقوال

كذاك كانت قبلهم مرينُ ... كلامُهم كالدرّ إذ يبين

فاتّخذوا سواهمُ خليلا ... فبدّلوا كلامهم تبديلا

وهذا ظاهر على القول بعروبة البربر ، والخلاف في ذلك شهير ، فلا نطيل به هنا. وسواء صح ذلك أم لم يصح ، فالواقع أن بني مرين كانوا يعملون للنهضة والتجدّد في دائرة العروبة ، لا يخرجون عنها اصلاً ، فخدموا العربية خدمةً صادقة ، ورفعوا لها مناراً عالياً ، وكفى أنّنا لم نعد نسمع بعد توليتهم الحكم بشيء من التمييز الذي كان للبربر في دولة بني مؤمن ؛ بل كان هذا آخرَ العهد بحياة الفُرقة والعنصُريّة المقيتة . فعلا شعارُ العروبة كلَّ الشعارات ، وضمت الضاد جميع المغاربة في شتى المصالح

والمرافق ، الأمر الذي كان يجب أن يتمّ منذ جلوس أول عربي صميم تولّد من بربريّةٍ صميمَةٍ على عرش المغرب ، وهو ادريس الثاني بن كنزة بنت إسحاق بن عبد الحميد الأوْربي ، بل منذ أن قاد طارق بن زياد وهو البربري الصريح جيش المغرب الذي فتح الأندلس ؛ فركّز فيها راية العروبة فلم تزل فيها عاليةً خفاقةً الى آخر العهد بها .

وهكذا أيضاً كان عمل المرينيين في الناحية الدينية سليماً من أيّ نزعة ، خالصاً من كل بدعة . فاذا كان المذهب الأشعري في العقائد قد تقرر في العصر السابق ، وصار هو الغالبَ على اكثرية المغاربة ، فقد علمت انه تقرر بعيداً عن تأثير الدولة ، وخالياً مما كانت تضيفه اليه من آراءَ شاذة مأخوذةٍ عن المعتزلة وغُلاة الشيعة . على انه قد عمّ العالم الاسلامي ، وأصبح هو والمذهب الماتُريدي[1] المذهبْين العَقَديّين الرّسميَّين السائدين في سائر مملكة الاسلام . وفي الفقه ساد المذهب المالكي نهائياً لكفاح اتباعه المستميت في العصر السابق ، ولمناصرة الدولة الجديدة له . على ان الحرية المذهبيَّة لم تقيَّد قطُّ في المغرب . فبقي أفرادٌ عديدون في هذا العصر وفي العصور التي بعده يميلون الى المذهب السَّلَفي في العقائد ، وآخرون يأخذون بمذهب أهل الحديث في أحكام العبادات . أما الذين يُدرّسون الحديث على انه مادّة الفقه وأصله المتفرّع عنه فكثيرون . وفي بعض الأحيان كانت الدولة نفسُها تناصر المذهب السلفي ، وتشجّع العلماء على النظر والاجتهاد ، كما حصل في أيام السلطان سيدي محمد بن عبدالله في العصر العلوي . وعلى كل حال فان مذهب أهل السنة سواء في الاعتقاد أو الفقه قد توّطد منذ هذا العصر في المغرب . ولم يقُم بعد الموحدين دولةٌ تَنزعُ نزعة مخالفة لِما عليه الجمهور وسواد المسلمين . ولقد أعاد السلاطين من بني مرين الى اذهان الناس ما كان من أُبَّهَة الخلافة الأموية بالأندلس في قصورهم ومصانعهم ورؤسائهم وجنودهم ؛ فكان خروج السلطان لصلاة الجمعة والعيدَيْن ، والمناسبات الأخرى يقع في مشْهد عظيم ، وموكب فخم . وكانت هذه المظاهر الشائقة كثيراً ما تُغري كبار الذوات العلمية والأدبية في الأندلس والمغرَبْين الأدنى والأوسط ، فيفارقون بلادهم غير آسفين عليها ، ويؤمُّوْن الحضرة الفاسيَّة حيثُ يتمتعون في كنَف الدولة المرينية بأسنى مـا كان يتمتّع به رجالات الدول السالفة كالعباسيين والأمويين مما سمعوا به ولم يرَوْه .

١ — نسبة الى مؤسسه ابي منصور الماتريدي امام أهل السنة فيما وراء النهر ، والماتريدية والأشعرية متفقون في اصول العقائد وليس بينهما خلاف إلا في أمور ثانوية .

وكفى بابن خلدون وابن الخطيب وابن الأحمر وابن رضوان وابن مرزوق وابن جُزَيّ والمقَّري وكثيرين غيرهم من العظماء الذين تفيئوا ظلّ هذه الحضرة المرينية، وتقلّبوا في نعمتها لما إنها كانت في عصرها حاميةَ بيضة الاسلام، وموئلَ العروبة، دليلاً على ما نقول.

ولقد سار أُولئك السلاطين في أقامة مراسم الخلافة على سَنَن لاحِب فكانوا يعقدون المجالس للمناظرة والمحاضرة، ويطارحون الأدباء، ويحاورون الشعراء. أما العلماء فلا تسل عن شدّة تقريبهم لهم واختصاصهم بهم حتى ان جمهوراً منهم ذهب ضحيّةَ هذا التقريب والاختصاص في وِجْهة أبي الحسن الإفريقية كما سبق القول. وقد قيل إن عدد من غرق من العلماء في أُسطول هذا السلطان اربعمائة عالم، فما بالك بمن لم يركب الأسطول ونجا؟ فما ظنك بمن لم يصحبْه في تلك الوِجهة؟ وهذا يعني أن العلماء كانوا مُتوافرين بحيث بلغ عدد الذين يصحبون السلطان — ولا يكونون عادةً إلا من جهابذة أهل العلم — ذلك الرقم المرتفع جداً. وهذا يعني أن الدولة كانت في خدمة العلم، بحيث انصرفت الهمَمُ الى طلبه، واشتدّ التنافس في تحصيله، فكثر العلماء نتيجةً لذلك، وفعلاً فان ما عمله المرينيُّون في هذا الصدد يجعلهم حَريّين بلقب دولة العلم الذي يُطْلِقُه عليهم بعض المؤرّخين، ولقد بذُّوا بآثرهم العلمية جميع من تقدّم أو تأخر من ملوك المغرب. فمدارسهم الفنية العديدة لم يستطع أحدٌ أن يأتي بمثلها الى الآن. وخزائنُ الكتب كذلك لا تزال تنطق بفضلهم على الحركة العلمية في هذه البلاد منذ أسّسوها، ولا سيما خزانةُ القرويّين التي أنشأها السلطان أبو عنان وأودعها كما يقول الجزنـّائي في زهرة الآس «الكثير من الكتب المحتوية على أنواع من علوم الأبدان والأديان، واللسان والأذهان، وغير ذلك من العلوم على اختلافها، وتنوُّع ضروبها وأجناسها، ووقفها ابتغاءَ الزُّلفى ورجاء ثواب الله الأوفى، وعيَّن لها قيّماً لضبطها ومناولة ما فيها، وتوصيلها لمن له رغبة. وأجرى له على ذلك جرايةً مؤبَّدة تكرمةً وعنايةً وذلك في جمادى الأولى سنة ٧٥٠.» وأسّس أبو عنان كذلك بالقرويين خزانة مصاحف، احتفل في بنائها وتشييدها بما لم يُسبق اليه، وأعدّ فيها جُملةً كبيرةً من المصاحف الحسنة الخطوط، وكلّف بها من يتولى أمرها على أحسن الشروط. وقبل أبي عنان عقد السلطان يعقوب المنصور صلحاً مشروطاً مع (شانجُه) ملك اسبانيا، كان مما شرطه عليه فيه ان

يُوجّه اليه كتب العلم التي بقيت ببلاده للمسلمين ؛ فوجّه اليه منها ثلاثة عشر حِملاً فيها كثيرٌ من المصاحف وكتب التفسير والحديث والفقه واللغة ، فأرسلها المنصور الى فاس وحبّسها على طلبة العلم . ولقد جاوزت عنايتهم بهذا الشأن بلادَ المغرب الى الخارج . فهذا السلطان أبو الحسن يوقف على المساجد الثلاثة المقدّسة ثلاثة مصاحف كتبها بخطّه ، وجمع لها القراء والخطّاطين والنقاشين ، وأخرجها في حُلّةٍ فريدة من الفن المغربي البديع ، وأرسلها وقفاً كما قلنا الى مسجد مكة ، ومسجد المدينة ، وبيت المَقْدِس ، وأوقف عليها من الضياع والرِّباع ما يقوم بكفاية القائمين عليها والقارئين فيها . وكانت المساجد والمشاهد والمُنشآت التي خدموا بها الدين كثيرة ايضاً ، ناهيك بأن أبا عنان منهم هو أول من نصب صواريَ الصوامع ، ونشر فيها الأعلام[١] في أوقات الصلاة نهاراً والسُّرُجَ ليلاً ، يستدِلُّ بذلك من بَعُد ومن لم يسمع النداء وجعل علم يوم الجمعة أزرق للاستذكار . وفي ذلك اعتناء بأمور الأوقات ، وما يتعلق بها من وجوب الصلوات وما يترتّبُ عليها من وجوه الحقوق في العادات والعبادات وفيه قيل :

نورٌ به عَلَمُ الإيمان مرتفعٌ   للمُهْتَدِين به للحق إرشاد

يأتونَ من كل صَوْبٍ نحوه فلهم   لَدَيه للرُّشْد إصدارٌ وإيراد

وفي الحقيقة إن كل واحد منهم كان مثالا للملك العربي المسلم العامل لعزّ قومه ودينه ، فلا يفتأ يجدُّ ويجتهد في إشادة مجدهما وتخليد مآثرهما ، وبقدْر حرصهم على الوحدة المغربية الذي قدّمنا الكلام عنه وقلنا إنهم أخطأوا الطريق إليه ، كان حرصهم على الوحدة الإسلامية عموماً ، فأنت قد رأيت مقدار تفانيهم في الدفاع عن معقل المدنيّة الإسلامية ، والحضارة العربيّة في بلاد الأندلس ، ومبلغ نُصْحِهم لملوكها ، حتى إنهم كانوا معهم مثل الأَجراء يعملون لهم ، لكن بدون أجرة ، بل هم كانوا يدفعون اليهم المبالغ الطائلة من الأموال والسلاح والعتاد . كذلك كانوا على اتصال دائم بملوك الاسلام في مصر والشرق ؛ فكم كاتبوُهم وهادَوْهم وعقدُوا

١ — ولا نظير لذلك إلا في بعض بلاد الشام خاصاً بالظهر والعصر والمغرب التي يفيد فيها نشر العلم .

أواصر المودّة والائتلاف معهم ، وأوفدوا اليهم الوفودَ والسُّفراء من خيرة رجال المغرب الاداريين ، وذوي العلم والأدب وأهل البيت المالك ، كلُّ ذلك يدلنّا على ما كان لهم من صدق النيّة ، وإخـــلاص الطوية ، في خدمة الدين والوطن ، وتعزيز الروابط الجنسيّة والملية بينهم وبين الدول العربية والاسلامية المعاصرة .

فلا جرم بعد هذا ان نقول إن كل أعمالهم ومآتيهم للنهضة والتجدُّد ، كانت في دائرة العروبة والاسلام الصحيح ، لا تزيغ عنها قيد َفتر ، وإنهم خدموا العربية والدين خدمة صادقة ، ورفعوا لهما منارًا عاليًا ، وما بعد العيان بيان .

الحركة العلمية

إن تأثير الانقلاب المريني على الحالة الفكرية ، لم يكن ذلك التأثير القوي الذي تتبدل معه معالم الأمور وتتغير مجاري الأحوال ؛ لذلك فان الحركة العلمية قد بقيت في نشاطها وتقدمها ، كما كانت على عهد الموحدين . وإن كان قد اعتراها في فترة الانقلاب بطبيعة الحال شبه انقطاع أو فتور ، فانها بعد ان انتصبت الدولة المرينية وتشيدت أركانها قد عادت فاسترجعت ما كان لها قبلُ من القوة والظهور .

نعم لقد استأنفت الحركة العلمية سيرها الى الأمام في ظل الدولة المرينية التي ما فتئت ترعاها وتُشجّعُها بمدّ يد الإعانة الى رجالها وتنشيطهم حتى ينصرفوا لخدمتها ، بل إنّ رجال الدولة أنفسهم كانوا يُقدّمون لها أجلّ الخدمات مما لا يقوم به إلا أجلُّ العلماء . إذ كان الواحد منهم يُكبُّ في نشأته على الدراسة والتحصيل ولا يمنعه ما هو مأخوذٌ به من قيود الملك وأدوات الرياسة ، أن يدأب على النظر في فنون العلم والمعرفة ، حتى يصيرَ من رجالها المعدودين . فقد كان السلطان أبو سعيد عثمان بن يعقوب المنصور من أهل العلم ، وكان أخوه الأمير أبو مالك ممن لهم اليد الطولى في الأدب ، وعارضةٌ قوية في قرْض الشعر ، وكان السلطان أبو الحسن بن أبي سعيد من كبار العلماء . ففي حياة والده كان معدوداً في أطباء الخاصّ ، وفي مدة توَليه الحكم اكثرَ من مجالسة العلماء والأدباء ، ومذاكرتهم ومحادثتهم ، وكان شديد الإلف لهم ، لا يصبرُ على مفارقتهم ، وكلُّ جنسٍ لجنسه إلف . وكذلك أخوه الأمير أبو علي كان محباً للعلم ، مولعاً بأهله ، منتحلاً لفنونه ، وله بصرٌ بالبلاغة واللسان ومَلَكةٌ في نظم الشعر ، وهو الذي تنافس مع أخيه أبي الحسن على الكاتب عبدِ المهيمن الحَضرمي في حياة والدهما حتى كادا يقتتلان عليه فألحقه والدهما بمعيّته . وكان السلطان أبو عنان ابن أبي الحسن فقيهاً يُناظِرُ العلماء الجِلّةَ ، عارفاً بالمنطق وأصول الدين ، وله حظٌّ صالح من علمي العربية والحساب ، وكان حافظاً للقرآن عارفاً بناسخه ومنسوخه ، حافظاً للحديث عارفاً برجاله ، فصيح القلم ، كاتباً بليغاً ، حسن التوقيع ، شاعراً مُجيداً . له مُقطّعات شِعْرية حسنة تورَد في محلها . ومثل ذلك يقال في السلطان أبي العباس

أحمد بن أبي سالم بن أبي الحسن وولده أبي فارس عبد العزيز . فلا غرو أن تنشَطَ الحركة العلمية في هذا العصر ، وهي تحظى برعاية ملوك من هـذا القبيل ، يُمثّلون النشاط الفكري في جميع ميادينه . ولنفصّل الكلام في كل بابٍ بابٍ ، كما فعلنا في عصر الموحدين .

ولعل القارىء لا يزال يذكر أننا قسّمنا العلوم هناك الى ثلاثة أقسام ، فالعلوم الشرعية تليها العلوم الأدبية ثم العلوم الكونية : أمـا العلوم الشرعية ، وهي الفقه والحديث والتفسير وتوابعها فقد نُحِيَ فيها منحى التبسُّط والتفريع . وإن يكن شيء من ذلك قد وقع في العصر قبله ؛ إلا أنه في هذا العصر قـد زاد الأمر زيادة ظاهرة ، وبلغ التوسع في ذلك منتهاه . يدلنا على ذلك كثرة الفقهاء الذين نبغوا في هذا العصر ، والتآليف العظيمة التي وُضعت في فروع الفقه . ونحسب أن ذلك كان نتيجة الضغط على رجال هـذه العلوم في عصر الموحدين والتحرُّش بهم وإن الضغط يعقُبُه الانفجار كما تعلم ؛ فكان هذا هو ردُّ الفعل على تلك الحركة الاستفزازيّة المنافية لاستقلال الناس في أذواقهم ومشاربهم ، وحُرّيّتهم في أعمالهم ومآتيهم . وإذا صحَّ اعتبار هذا السبب هو الباعث على نشاط هذه العلوم من جديد ورواجها هذا الرّواج كله ؛ فلا يصحُّ اعتباره سبب ما طرأ عليها من التضخُّم والنماء ، إلا من طريق غير مباشر ، وهو ما أشرنا اليه من كثرة المشتغلين بهـا ، فكثر البحث والتعمُّقُ في البحث ، فكثر الاستنباط والتفريع في الاستنباط ، فكثُرَتْ مسائل هذه العلوم كثرة لا مزيد عليها . أضف الى ذلك أن الطلبة في هذا العصر ، كانوا لا يستنكفون من الطلب ولو بعد بلوغ المرتبة العليا في التحصيل . فقد كانت هناك طبقةٌ منهم لا يمكن أن يقاس بها أكابر علمائنا الآن ، لا تفترُ عن الطلب ، وهي بعد من كبار العلماء . واعتبر بما حُكِيَ عن الكانوني ، وكان من أئمة الفقه ، الذين لا يُشقُّ لهم غبار ، أنه كان يدرّس المدوّنة بالقرويّين ، ويأتي عليها بابحاثٍ وتعاليقَ وشروحٍ مستجادة ، فكان يجلس اليه أكثر من مائة معمَّم ، وهم حُفاظ المدونة إذ ذاك . وهذا حافزٌ قويّ لما ذكرنا كان من نتيجته أن اتّسعَت دائرة هذه العلوم اتساعاً عظيماً .

ودون هذه العوامل المختلفة ، التي أدّت الى نشاط علم الفروع ، ذلـك النشاط العظيم ، فان هناك عاملاً آخر لا يقلُّ عنها شأناً في هذا الصدد ، وهو ما كان لطلبة

العلم المذكور في هذا العصر من سموّ المنزلة عند الخاصة والعامة ، بسبب وقوفهم مع الحق ، وسيرهم على الجادّة ؛ فكان أن عظمت سلطتهم على النفوس وقوي نفوذهم في رجال الدولة . فالفتوى والقضاء ، ومناصبُ الشرع كلها كانت مستقلة عن التدخُّل الحكومي أو التعرُّض لها من الرؤساء ، وكلمة القاضي كانت نافذةً في أكبر كبير ، كأصغر صغير . وحسبُك أنه لما وقع الشجار بين القاضي أبي الحسن الصُّغَيِّر ، والوزير ابن يعقوب الوَطَّاسي ، بسبب تعقُّب هذا الأخير لحُكم القاضي ، لم يكن من السلطان إلا أن سخِط على وزيره وعزله شرَّ عزل .

وهذه المكانة التي كانت لرجال الدين عند الشعب ، هي التي جعلت العلاّمة عبد العزيز الورياغلي يثور بآخر سلاطين بني مرين ، ويقلبُ الدولة المرينيَّة رأساً على عقب ، لما سوَّل للسلطان أن يوَلّي على فاس رجلاً يهودياً يسوم أهلها سوء العذاب . أرأيت الى أي حدٍّ بلغ نفوذ الفقهاء في الأمة ، فلِمَ لا ينصرفون لخدمة علمهم الذي به رقوا هذه الدرجة من المحبوبيَّة .

ونقول إن هذه النهضة المباركة التي نهضها علم الفروع بسبب الإقبال الشديد على طلبه ، قد أفادت العلم من حيث هو ، وأفادت الأسلوب العلمي اكثر ، حيث قد أدخلت عليه تحسيناً مشهوداً في آثار علماء هذا العصر الممتازة بكثرة الجمع والتحصيل ، وحسن التصرف والتعليل ، وفي دروسهم التي كانت كأنها بحارٌ تزخَرُ بالفوائد ، وترمي بالفرائد ، فهذا أبو محمد عبدالله الورياجلي أحد صدور الفقهاء ، وممن كانت اليه الرِّحلةُ في عصره لأنه كاد يتفرد برتبة الاجتهاد ، وكان يعرف المذاهب الأربعة معرفة جيدة ، فكان يُدرِّسُها ويُرَجِّحُ مذهب مالك ، وكانوا يقيسونه في علمه بالمازَري ولا يعدون به طبقته ، وأجوبته تدل على غزارة معرفته اذ لا يذكر فيها إلا الخلاف العالي. قالوا : وكان من عادته أنه يشتغل بالتدريس في فصل الشتاء والربيع ؛ وفي المصيف والخريف يرابط بالثغور . وهذا ابن الصبَّاغ أملى على حديث « يا أبا عُمَير ، ما فعل النُّغَير » أربعمائة فائدة كلها مما استخرجه بفكره الثاقب من هذا الحديث الشريف .

والغاية في هذا الباب ما روي عن أبي القاسم عبد العزيز بن أبي عمران موسى العبدوسي أحد أفراد بيت العبدوسي الذين ظلوا رجالاً ونساء حاملين راية الفقه والحديث بفاس

والمغرب زمانا طويلاً . وقد رَحل ابو القاسم هذا الى تونس ، ودرَّس بها فقضى التونسيون العَجَب من وعيه للعلوم وكثرة حفظه. وكثير من علمائهم أوقفوا دروسهم وحضروا عنده رغبة في الأخذ عنه ، واتصال السند به . وكان الناس يستبقون الى المسجد ويأخذون مجالِسَهم فيه قبل صلاة الصبح ، وتغُصُّ بهم رحاب المسجد فيجلسون خارجه حتى يكون من بخارجه أكثر ممن بداخله . وكان هو يُسْمِعُ الكلَّ بصوته الجهير . ولما رأوا تفرُّده باتقان علوم الشريعة من فقه وحديث وتفسير ، قالوا إنه لا يحْسِنُ غيرها ، فاقترحوا عليه أن يقدّم لهم درساً في العربية فدرَّسها أيضاً وبهرهم ما شاهدوه مما هو فوق الطاقة ، فأجمعوا حينئذ على إمامته وتفوُّقه في العلوم ، وأنه لا يضاهيه في جمعِه وتحصيله أحدٌ من المعاصرين سواء بافريقيا والمغرب .

وبعد ، فاسمع ما يقوله علماؤها عنه نقلاً عن أحمد بابا : « قال القاضي أبو عبدالله ابنُ الأزرق ، كتب إليَّ أبو عبدالله الزلديوي المفتي بتونس ، يعرّفني بحاله من الحفظ مما يُقضى منه العجب ، أنه ورد علينا في أُخرَيات عام سبعة عشر وثمانمائة ، الفقيه العالمُ الحافظ أبو القاسم بن الشيخ الإمام أبي عِمران موسى العبدوسي بكتاب في يده من قبل الامام أبي عبدالله بن مرزوق يقول لنا فيه ، يردُ عليكم حافظ المغرب الآن ؛ فقلنا هذا من قبيل مبالغات الإخوان في التوصية باخوانهم . فلما اجتمعنا به وأقام عندنا أزيدَ من عام رأينا منه العجب العُجاب من حفظ لا نتوهَّمُه يكون لأحد. ولقد كان عندنا بتونس الشيخ أبو القاسم البُرْزلي ، سلم له معاصِرُوه في حفظ الفقه وأشياخ المدوَّنة والناس دونه في ذلك ، وببِجَاية الشيخ أبو القاسم المشذالي كذلك . وحضرْنا مجالسهم ، فما رأينا ولا سمعنا بمثل العَبدوسي في حفظه وعلمه ، وعلمنا صِدْق ابن مرزوق فيما وصفه به ، وكان كما قال الشاعر :

فلما التَقَيْنا صدَّق الخبرَ الُخبْرُ

بل صغَّرَ الخبَرَ الخُبْر » . ثم قال في وصف درسه : « وكذلك فعلت أنا ، تركت مجلس تدريسي وحضرتُ عنده لآخذ شيئاً من طريقه ، فرأيت شيئاً لا يدرك الا بعناية ربانية ، موقوفٌ ذلك على من رزقه الله الحفظَ ينفق منه كيف يشاء. لازمناه

حضراً وسفراً ، وعلمنا طريقه تفكراً ونظراً ، ولا يقدر على طريقته إلا من رُزِقَ فطنة كاملة الاستواء ممدَّةً من جميع القُوى الروحية والبدنية .

أما إذا أقرأ المدونة فاستمع لما يوحى : يبتدىء في المسألة من كبار أصحاب مالك ، ثم ينزل طبقة طبقة حتى يصل الى علماء الأقطار من المصريين والافريقيين والمغاربة والاندلسيين وأئمة الاسلام وأهل الوثائق والاحكام حتى يكلَّ السامع وينقطع عن تحصيله الطامع . وكذا إذا انتقل الى الثانية وما بعدها ، هذا بعض طريقته في المدونة . وأما إذا ارتقى الكُرسيَّ ، يعني كرسيَّ التفسير ، فترى امرأ معجزاً ينتفع به من قدِّر له نفعه من الخاصة والعامة . يبتدىء بأذكار وأدعية مرتبة ، يكرّرها كل صباح ومساء يحفظها الناس ويأتونها من كل فجٍّ عميق . وبعد ذلك يقرأ القارىء آية فلا يتكلم بشيء منها الا قليلا ، ثم يفتتح فيما يناسبها من الأحاديث النبوية ، وأخبار السلف وحكايات الصوفية وسِيَر النبي وأصحابه والتابعين . ثم بعدها يرجع الى الآية ، وربما أخذ في نقل الأحاديث فيقول الحديث الأول كذا والثاني كذا والثالث كذا الى المائة فأزيد ، ثم كذلك في المائة الثانية ، والشكُّ في الثالثة » .

ثم قال : « وكذلك فعل في إقرائه للعربية ، فبدأ بأصحاب سِيَبَوَيه ، ثم نزل الى السِّيرافي وشُرَّاح الكتاب وطبقاتِ النحويين حتى ملَّ الحاضرون وكلوا . ومازال كذلك حتى ذهبوا ولم يُرَاجع في ذلك، وقد كان قصدُهم اختبارَه وامتحانه» اهـ. بتصرف يسير للايضاح . واذ قد تبينت هذه الظاهرةُ التي كانت غالبةً على علم الفروع في هذا العصر ، فانا نقول انها طريقة منهجية إصلاحية ، اختصَّ علماء المغرب دون غيرهم بالعمل عليها، والدعوة اليها إذ في هذا الوقت ، بدأ العمل بتلك المختصرات العقيمة ، وسرى هذا الداء الوبيل ، داء الاختصار ، الى العلوم الاسلامية عامة، فقلل فائدتها ؛ فكان علماؤنا يُشدّدون النكير على ذلك ، ويَصدُّون الطلبة عن قراءة الكتب التي نحى بها أصحابها هذا المنحى . ويروى عن القبَّاب أنه كان يقول إنَّ ابن بشير وابن شاسٍ وابن الحاجب أفسدوا الفقه . ولما حجَّ اجتمع بابن عرفة في تونس فأطلعه ابن عرفة على مختصره الفقهي ، وقد شرع في تأليفه ، فقال له القبَّابُ ما صنعتَ شيئاً ، فقال ولِمَ ؟ فقال إنه لا يفهمه المبتدي ، ولا يحتاج اليه المنتهي . فتغير وجه ابنِ عرفة حينئذ . قالوا وكان هذا هو السبب الحامل له على بسط العبارة في

أواخر مختصره . ومِثل القبّاب في ذلك اليَزْناسني الفقيه الكبير ، فانه كان صاحب ابن شاس، واستشاره هذا في وضع مختصره الجواهر ، فأشار عليه ألا يفعل ؛ فلم يعملْ ابنُ شاس باشارته . وقد ألمعنا الى الاثر السيء الذي أثرتْه هذه المختصرات في العلوم الإسلامية بالخصوص ، وراجع الفصل التاسع والعشرين من المقالة السادسة من مقدمة ابن خلدون لتعرف تأثيرها في العلوم مطلقاً ، فلا ريب إذا عددْنا ما اتّبعه علماؤنا المغاربة في هذا العصر طريقة إصلاحية منهجية .

هذا وقد تناولنا الكلام على العلوم الاسلامية جملة ، واعطينا عليها من العبدُوسي مثالاً مشتركاً . وان ظهر اننا نخصُّ الفقه بمزيد العناية ، لأنه في الواقع كان اكثرها انتشاراً . ولو ذهبنا نُعدُّ رجاله البارزين الذين ما زالت الفتوى والأحكام منذ هذا العهد الى الآن تدور على أقوالهم واجتهاداتهم لضاق المجال عن استيفائهم ؛ ولكنّ ذلك كله لا يغطي على ما كان لغير الفقه من الظهور ، وخاصة علم الحديث رواية ودراية ، وعلم التفسير وتوابعه. فبالإضافة الى مثال العبدوسي نذكر المحدّث والرحالة الشهير ابن رشيد الفِهري الذي جال في أقطار افريقية ومصر والشام والحجاز ولقي من اعلام الرواية الجمّ الغفير ، وأكثر من هذا الشأن ، وتوسع في الأخذ وذهب في ذلك الى ابعد غاية . وكان له تحقق بعلوم الحديث وضبط أسانيده ، وتمييز رجاله ، ومعرفة انقطاعه واتصاله ، وألف فيه التآليف المفيدة ، وحسبك برحلته الفريدة التي سماها (ملءَ العيبة فيما جمع بطول الغيبة ، في الوجهتين الكريمتين الى مكة وطَيْبة ،) المشحونة بالمسائل الحديثة والأسانيد العديدة ، التي روى بها أُمهات كتب هذا الفن ، والأجزاء المختلفة المؤلفة فيه دليلا على رسوخ قدَمهِ ، وكونه من الحفّاظ الذين يقلُّ لهم النظير مع كمال الثقة ، وشهرة العدالة ، والتمسك بالسنة والعمل بالحديث ، وإن خالف ما عليه الناس مما يعزز ما قلناه في الفصل السابق من أن الحرية المذهبية لم تُقيَّد قط في المغرب ، وإن صار المذهب الرسمي فيه هو المذهب المالكي وكذلك العقيدة السّلفية لم تقطع منه برغم سيادة المذهب الأشعري .

وهذا ابن حجر يقول عن صاحبنا ابنُ رشيد في الدُّرر الكامنة : « وكان على مذهب أهل الحديث في الصفات يُمرُّها ولا يتأول ، كان يسكتُ لدعاء الاستفتاح ويُسِرُّ البسطة . . . » ومن كبار محدثي هذا العصر الرئيس عبدُ المهَيْمن الحَضْرمي الذي جمع الى البراعة في الأدب والعربية

التفَوُّق في علم الحديث حتى حلاه ابن خلدون بامام المحـــدثين ، وله مشيخة حافلة تحتوي على ألف شيخ ، مع أنه لم تكن له رحلة ، ومن ثم قال فيه المقريُّ الكبير : « جمع فأوعى واستوعب أكثر المشاهير وما سعى ، فهو المقيم الظاعن ، الضارب القاطن . » ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الكرسوطي الفـــاسي ؛ كان الى تضلعه بالفقـــه ، محدثا ضابطا عارفاً برجال السند ومراتب الحديث ، يستظهر كثيراً من كتبه المطولات ، وألف فيه تآليف حسنة .

ومنهم الامام الحافظ ، التاريخي ابو عبدالله محمد بن عبد الملك الأوسي الأنصاري المراكشي صاحب الذيل والتكملة ، على تاريخ ابن الفرضي لعلماء الاندلس وصلة ابن بشكوال له ، ومقامه في الحفظ للحديث والأخذ عن المشايخ ممـــا لا يخفى . ومنهم الرّاوية النقادة أبو عبدالله محمد بن محمد بن علي العبدري الحاحي الرحالة الشهير ، وسعة روايته وقوة عارضته مما يعرف بالوقوف على رحلتـــه ، ومنهم الشيخ المحدث الكبير أبو زكرياء يحيى بن أحمـــد السراج الفاسي . كان أيضاً رحالة ، مكثراً من الرواية ، مقتنيا للكتب ، ضابطاً لها . له سماع عظيم وفهرسة جامعة في مجلدين . الى غير هؤلاء ممن يطول ذكرهم .

أما المفسرون فمنهم ابنُ العابد الفاسي الذي اختصر تفسير الكشاف للزمخشري وجرّده من مسائل الاعتزال .

وابنُ البناء العددي الذي له موضوعات كثيرة في التفسير وحاشية على الكشاف، وأبو القاسم السلوي وله تفسير جليل، وأبو علي الشوشاوي وله كتاب الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة ، ضمنه من علوم القرآن فنوناً عديدة وجعله عشرين قسماً ، كل قسم منها يحتوي على مسائل مختلفة ؛ فهو من المحاولات الطيبة لجمع علوم القرآن ، على غرار ما فعل البدرُ الزركشي في كتابه البرهان ثم السّيوطي في الإتقان .

ثم فيما بقي من العلوم الشرعية مثل التصوف والكلام ، لا نرى أنهـــما كانا منتشرين بكثرة لما علم من ان السذاجة التي تخيم مع الفقه حين تدول الدولة له، لا تجامع التصوف ، وأنت قد رأيت الحرب التي قامت بين الفقه والتصوف في العصر المرابطي ، إلا أن النتيجة هنا لم تكن كالنتيجة فيما سبق ، فـــلم يقضِ الفقه على التصوُّف ، ولكنه أخضعه لسلطانه . وقد يقال إن العصر بالنسبة للتصوف كان

عصر تمحيص بسبب هيمنة الفقهاء عليه ، وما أحسن التصوُّف يسير في ظلال الفقه. إذ يكون هو لبُّ الشريعة المكنون ، وسرُّها المصون ، وقد كان من أقطابه في هذا العصر ابنُ عبَّاد الرُّندي الذي قضى أكثر حياته في فاس ، وابن الحاج الفاسي، وأحمد زرُّوق . وكتبهم فيه لا تزال من خير المصادر للتصوُّف الموزون بميزان الشرع .

ومهما تجوَّزنا في الكلام ، وعممنا في الإحكام ، لا يمكننا ان نهمل الإشارة الى علم أصول الفقه وعلم القراءات ، وما نالها في هذا العصر ايضاً من العناية الخاصة ، والأول من توابع الفقه والثاني من توابع التفسير ؛ فالأصول كثر دارسوه ، وظهرت طبقة ممن كادوا يختصون به فوضعت فيه التآليف المهمة ، وطبعته بطابع الفقه المالكي مما لم يتهيأ لغيرهم من قبل .

والقراءة ونعني بها ما يشمل التجويد والرسم والقراءات المأثورة والغريبة وتوجيهاتها ، ما من أحد من صدور فقهاء هذا العصر الا وكان له إلمام بها كلاً أو بعضاً ، وقد وضعت فيها التآليف أيضاً ، إلا أنها على كل حال لم تبلغ في هذا ما بلغته من الذيوع في العصر بعد هذا .

هذا ما يرجع الى العلوم الدينية ، والنشاط الذي طرأ عليها في هذا العصر ، والجهود العظيمة التي بذلت في خدمتها حتى بلغت في الجملة الى المستوى اللائق بها . فلننتقل الآن الى علوم الأدب لننظر كيف كان سيرها في هذا العصر أيضاً . ونقول: انها جارت سنّة النشوء والارتقاء فبلغت الى قمة المجد والكمال ، وكان هذا عصرها الذهبي في المغرب ، والنابغون فيها في هذا العصر كانوا أساتذة من بعدهم ، بل طبقت شهرتهم العالم العربي ، وما تزال ذكراهم فيه حيّة الى الآن . فأما النحو واللغة ، فانها لم ينالا قط من التقدم ما نالا في هذا العصر ، وذلك لأن الدولة عربية الصبغة تقدر مجهود العاملين على رفع شؤون العروبة ، وليس لها التفاتٌ الى غير ذلك مما توحي به العنصرية المتخلِّفة كما سبق القول ، فلا عجب وقد اتحدت وجهة العمل أن ينبغ في هذين العلمين وفي سائر العلوم العربية رجال عظام ممن يفتخر بهم المغرب ، ولا يقلوُّن أبداً عن نظرائهم في بقية العالم العربي . فمن هؤلاء النوابغ ابن أجرُّوم ، وابن المجراد وابن هانىء ، وابن المرحِّل ، وابو القاسم الشريف ، والمكودي ،

وسواهم ، ناهيك منهم جميعاً بابن أجرُّوم ، ذلك الرجــل الذي استطاع أن يخــلد اسمه أبد الدهر بوريقات لا تتجاوز عــدد أصابــع اليد الواحدة ، لا تحتوي على تفكير عميق ، ولا على فلسفةٍ جــديدة ، وإنمــا هي قواعد أوليَّة من عــلم النحو ، مقرّرةٌ لدى الجميع . فما السرُّ في هــذا الخلود الذي أُتيح لهذا الرجل ، حتى لقد فتح لنفسه مجالاً بين جدران مدارس القرن العشرين ، وحتى أطلق الناس اسمه على النحو كأنما هو واضعُه ؟ فقالوا الأجرُّومية ، وأرادوا النحو ، ممّا لم ينله سيبَوَيه نفسُه ؟ ذلك السر هو النبوغ النــادر الذي أوحى اليه بمقدمته على هذا الوضع العجيب . فبينا النحو قد خضع لقوانين المنطق وأصبح دراسة عقلية عقيمة ، إذ طلع ابن اجرُّوم بمقدمته التي يعرض بها أُصول هذا العلم في سذاجة تشبه عقل الطفل ، وترتيب يتوافق وآخر مــا قرَّرته البيداغوجيَّة الجديثــة في أساليب التعليم . فلا جرَم إن علا اسمُه على الأسماء وتمجَّدت ذكراه بين الخالدين . ولقد كان للتقدُّم الذي نالته هذه العلوم في هــذا العصر تأثيرٌ كبيرٌ في تقويم ألسنة العامة ، وتذوُّقهم لأسرار اللغة العربية . أما الخاصة فقد كان جُلُّ كلامهم إن لم نقل كله ، مستقيماً يجري على الضوابط اللغوية .

وهذا الوزير عبد المهيمن الحضرمي يقولون في ترجمته إنَّ كلامه كان كلُّه معرَباً ، وكذلك ابن عبد المنعم الصنهاجي السبتي من كبار اللغويّين والنحاة في هذا العصر ، لم يستظهر أحدٌ في زمانه من اللغة ما استظهره كما قال ابن الخطيب عنه في الإحاطة : « وكان يعرب أبداً كلامه » وألف ابن هانىءٍ اللخميُّ كتاباً فيما تلحن فيه العامة ، فجعل اللحن خاصاً بالعامة ، واستطاع أن يعُدَّ هذا اللحن لما كان قليلاً ، ومــدح كثيرٌ من الشعراء كثيراً من زعماء القبائل المغربيّة ، فكانوا يثيبونهم الثواب الجزيل بسبب تذوُّقهم لجمال هذه الأمداح . وحسبُك بأمداح ابن الخطيب في رئيس جبــل درن أبي ثابت الهنتاني . وربما يكون حديث (اللّظافة) الذي اثبتناه في قسم المنثور من هذا الكتاب أدلَّ من كل ما تقدَّم على تغلغل انتشار العربية وآدابها في الأمة ، وشدّة الاقبال عليها من سائر الطبقات .

وكان العلامة ابن هانىء اللخمي الى إمامته في العربية وتأليفه فيها ، متضلعاً في الأدب بارع الكتابة والشعر ، وألف كتاب الغرَّة الطالعة في شعراء المائة السابعة ، لذي يعتبر كتاب ابن الخطيب المسمَّى بالكتيبة الكامنة في شعراء المائــة الثامنة

كالتذييل عليه ، ومثـــله أبو القاسم الشريف الذي يعرف بالشريف الغرناطي وهو سبتي ، وإنما قيل له الغرناطي لإقامته زماناً بغرناطة ، وتوليه قضاءها وهو من المؤلفين في العربية والأدب وشرحه لمقصورة حازم مـا طبَّقت شهرته الآفاق . ومن أعماله الأدبية المرموقة شرحه للقصيدة الخزرجية المعروفة بالرّامزة في علم العروض ، مفتضاً خاتمها بعد أن استعصت على كثير ممن رامها قبله ، ولذلك سمَّاه رياضـة الأبيّ من قصيدة الخزرجي ، وهو ممّا يدلُّ على حصافة عقـــله وقوَّة فهمه ، بَلهَ دلالته على تمكنه من علم العَروض ورسوخه فيه ... ومالك بن المرحّل فضلاً عن كونه شاعر العصر بـل شاعر المغرب هو ايضـــاً ممّن ألف في اللغـة والأدب كتباً عدة منظومةً ومنثورةً ، منهـــا نظم غريب القرآن لابن عُزَيْـز ، ونظم اختصار إصلاح المنطق لابن العربي ونظم فصيح ثعلب مع شرحـه ، ونظم الثلث الأول من أدب الكتاب لابن قتيبة ، بعد ترتيبه ، وترتيب الأمثال لأبي عبيد ، وأرجوزةٌ في العَروض ، واخترع وزنـاً من أوزان الشعر هو مجزُوءُ الدُّوَبيت المركَّب من فعِلُن مُفاعَلَتُن فَعولن ، ومثلِها بحذف فَعِلُن للجَزء كما ذكره العلامة محمد بن عبد المجيد بن كيران في رسالةٍ له في مبادىء العَروض ، الى غير هذا مما يطول تتبعه من حركة انتشار علوم العربية وازدهارها .

ومن دون العربية ، فان التاريخ قد نال عناية عظمى من أبناء هـذا العصر ، ومن نوابغه فيه المؤرخ العظيم صاحب الفضل على مؤرخي المغرب جمـــلة ، ابن أبي زرْع ، وما أدراك ما ابن أبي زرع ، صاحب القِرطاس وزهر البستان وغيرهما ، ومنهم ابنُ عذارى المراكشي صاحب البيان المغرب الشهير ، وأبو الحسن الجزَّنائي صاحب زهرة الآس في تاريخ بناء مدينة فاس ، وأبو إسحاق التَّاورْتي صاحب تاريخ أبي سعيد عثمان الأصغر ، وفيه كان ابنُ خلدون ولسان الدين ابن الخطيب وابن الأحمر وغيرهم ممَّن أوى الى كنف المرينيين واستظلَّ بظلهم . والتاريخ الخلدوني نفسه مؤلف باسم أبي عِنان وبرسم خزانته ، كما أن فيه أيضاً كان صاحبُ الحلل الموشيَّة في الأخبـــار المراكشية ، وصاحب الذخيرة السنيَّة في تاريـخ الدولة المرينية . ومن كتَّاب التراجم ، ابن عبد الملك المراكشي صاحب الذيل والتكملة وناهيك به . وأبي عبدالله الزَّرْعي الجدْميوي السبتي التاريخي الحافظ ، له تاريخ في نحو من أربعين سفراً مُرتَّب على حروف المعجم في أخبار العلماء والأدباء والتعريف بهم ، وفي ضمن ذلك من بليغ النظم والنثر والحكايات والفوائد والنوادر ما لا يوصف ذكره في بُلْغة الأمنية .

وعلى ذكر المؤرخين ، لا ننسى الرحّالين وبينهم وبين المؤرخين ارتباط كبير . ففي هذا العصر كان ابن بطوطة ذلك الرجل العصامي الذي بقي متجوّلاً في أطراف الكرة الأرضية اكثر من عشرين سنة وعاد الى بلاده متوّجاً بإكليل الغار . وفيه كان ابن رُشيْد صاحب رحلة مِلءِ العَيْبة ، والعبْدري صاحب الرحلة الشهيرة وغيرهم .

وبالجملة فجميع الفنون الأدبيـــة قد ازدهرت في هذا العصر أيَّما ازدهار ، ولا خصوصية بذلك لما ذكرنا ؛ فان غيره مثله ، وما طوينـا ما طوينا إلا لاندراجه تحت المذكور ، ولقصدنا الى الاختصـــار . وفي جدول الكتب المؤلفة في هذا العصر بلاغ للمستزيد .

* * *

العلوم الكونيـة :

وأما العلوم الكونية ، فقد تفهم أن نهضة الفقه قضت عليها وعاقت انتشارها لِما عُلِمَ من تخاصم أهلها وتطاول من أُديل منهما على من دال بحكم قاعدة من عَزَّ بَزَّ . ولكنّ ذلك كان قبل نبوغ ابن رُشد الذي حمل راية الفقه باليمين ، وراية الفلسفة بالشمال ، فكان إماماً فيها معترفاً بتقدمه من الجانبين كليهما ، نعم هي وإن لم يقف انتشارها فلم يعُمّ كما كان في العصر السابق ، أو قل إن وجهة الناس لم تبق مصروفة الى كل مباحثها وأُصولها وفروعها كما كانت من قبل ، بل وقع الاقتصار على ما كانت حاجة الأمة ماسة اليه ومتعلقة به من فروع العلوم الرياضية والطب والكيمياء وما الى ذلك ؛ فان هذه كانت تستفرغ مجهود الباحثين من علماء هذا العصر الذين توفروا على دراستها وتحقيقها ، حتى بلغوا في ذلك شأواً بعيداً . على اننا نرى أن الذي كان يُعْوز هذه العلوم لتطفر طفرة أخرى مثل ما حصل لها أيام الموحدين ، هو تأييد الدولة ، وقيام مَلكٍ محب للفلسفة ، كيوسف بن عبد المؤمن ، يقرّب أهلها ويرفع من قدرهم فيرتفع شأنها ويطّرد نموها ، والا فقد كان هناك رجال ممن شاركوا في جميع فروع التعاليم ، ومنها الفلسفة ، ينتصبون للتعليم ويأخذ الناس عنهم معارفهم المنوعة ، ومنهم بسبتة ابو عبدالله محمد بن هلال إمام التعاليم وشارح المجسطي في الهيئة ، أخذ عنه ابن النجار التلمساني ، وكان مبرزاً في سائر التعاليم . ومنهم بفاس خلوف المغيلي اليهودي ، اختفى عنده العلامة الآبلي لما أكرهه صاحبُ تلمسان على العمل ؛ ففرّ الى فاس ولازم شيخ التعاليم المذكور ، فأخذ عنه فنونها

ومهر فيها ، ثم لحق بمراكش فنزل على ابن البناء ولازمه فتضلع عنه في علم المعقول والتعاليم والحكمة ، ورجع الى فاس فانثال عليه طلبة العلم ، وانتشر علمه بكل مكان .

إنما الذي لا مرية فيه أن معظم النشاط العلمي في هذا العصر كان منصرفاً الى الرياضيات من حساب وجبر وهندسة وفلك ، والنابغون فيها كانوا أكثر من غيرهم ، وكان على رأسهم الإمام ابو العباس بنُ البناء العددي ذلك الفلكي المشهور ، والحاسب المعروف الذي بذَّ أهل عصره ومن بعدهم بكثرة تحقيقه وطول باعه في العلوم الرياضية والاسلامية جمعــاء ؛ فحسب الآتين بعده ، أن يقتصروا على كتبه وما خلّفه من تراث علميٍّ طائل . فكان حاسباً عددياً لا ينافسه في هذا أحد كما أقرَّ له بذلك فطاحل أهل العلم من معاصريه ، وكان فلكياً بارعاً أتى بتحقيقات عديدة خالف بها كثيراً مما تقارَّ عليه أهل الفن قبله . ولا ريب فانه كان مفكّراً جبّاراً لا يؤمن إلاَّ بما يهديه اليه فِكره بعد البحث الدقيق ، والاستنتاج الصَّحيح . وقــد خلّف أكثر من مائة كتاب كلّها مثال التحرير والاتقان ، وشهد ابن خلدون لكتبه الحسابية بالجودة ، وبها كانت الدراسة في عصر ابن خلدون .

وكان هنالك أيضاً الجاديري الفلكي البــارع ، صاحب الروضة التي شرحت بشروح عديدة ، وكانت بها الدراسة في المعهد القروي . وهــذا الفاضل ، له أيضاً عدةُ أبحاث خالف بها المتقدمين من أهل هذا الفن .

وحبذا لو ان أهل الإخصاء من ابناء جــلدتنا تجرَّدُوا لبحث آثار أسلافهم هذه ، والمقارنة بينها وبين آثار المحدثين من علماء الغرب ، إذن لوجدوا كثيراً من النظريات التي يفخر هؤلاء بالاهتداء اليها أوَّلُ . وهي من نتيجة جهود اولئــك الاسلاف .

وكان هناك السطّي صاحبُ جداول الحوفي في الفرائض التي دل بهــا على حسن نظره في الحساب والرياضيّات . وأبو زيــد اللجائي ، وكان له باع طويــل في الهندسة والحساب والهيئة ، وله آلة فلكيّة تذكر في ترجمته ، وغير هؤلاء كثير ممن نبغ في هذه العلوم وألف فيها التآليف المفيدة .

وفي خصوص الطب نبغ أبو الحسن عليّ بن الشيخ الطبيب بن أبي الحسن علي العَنسي المرّاكشي ، وربما كان ولداً أو حفيداً للرياضي الكبير الحسن المراكشي الذي سبق ذكره في العصر الموحدي لأنه اختلف في اسمه : فمنهم من ذكره باسم الحسن ومنهم من ذكره باسم أبي الحسن ؛ فيكون هو جدّ هذا . وله نظمٌ من مجزوءِ الرجز في الأنكحة وصفاتها وما يطلب أو يتجنّب فيها ، والأمراض السرّية وعلاجها وطبائع النساء وما يحمد أو يذمّ منهن ، وضعه برسم خزانة السلطان أبي الحسن المريني . وربما كان مشاركاً في غير الطب من العلوم الكونيّة ، ولكنا لم نقف له إلا على هذا الأثر . وفي الطب والكيمياء القديمة والعلوم العقلية من الفلسفة والتعاليم نبغ أبو العباس أحمـــد بن شعيب الجزنائي الشاعر الكاتب . قال ابن خلدون : « نظمه السلطان أبو سعيد المريني في جملة الكتاب ، وأجرى عليه رزق الاطباء لتقدمه فيه ، فكان كاتبه وطبيبه ، وكذا مع السلطان أبي الحسن بعده . »

وترجم في كتاب بُلغَة الأمنية ومقصَد اللبيب فيمن كان بسبتة من مدرّس وأُستاذٍ وطبيب سبعة أطبّاء فيهم امرأة قائلاً : وقد كان بسبتة في هـــذه الطبقة جماعةٌ من الأطباء والشجّارين — لعله يريد العشّابين — سوى من ذكرناه ، لم يبلغوا في العلم والمكانة مبلغ هؤلاء تركتُ ذكرهم .. فاذا كان هذا عددُ الأطباء العلماء في بلدةٍ واحدة هي سبتة ، فماذا يكون عددُهم في بقيّة المـــدن وخاصةً العواصم كفاس ومراكش ، لا شك أن هذه الطبقة من العلماء الطبيعيّين والرياضيّين والفلاسفة ، ضاعت تراجمُ الكثير منهم ، وضاعت بالتالي أعمالهم العلميّة من كتُب ونظريّات وتجارب . ومعالمُ الحضارة المغربيّة الباقيةُ عن هذا العصر وغيره من العصور تنطق بأنها حضارةٌ مبنيّةٌ على أسسٍ علميّة وفنّية متينة . ولئن كان ملوك بني مرين قـد قصّروا في حماية علم الفلسفة ومدّ اليد الى علماء الطبيعيّات كما فعل ملوك الموحّدين ؛ فانهم ناصروا الفنون الجميلة ، وأخذوا بضبعِها بما كان لهم من ذوقٍ فنّي جميل حتى نهضت نهضتها الكبرى ، ولا سيّما فنُّ العمارة والنقش والزُخرُفة وما اليهـــا من الصناعات التي بلغت في هذا العصر أوْجَ الكمال . وقد بقيت شواهد ذلك ماثلةً للعيان في مباني الملوك المرينيّين من مثل مدرسة العطّارين والصفّارين والبوعنانيّة والأندلس بفاس ، ومدرسة فاس الجديدة ومدارس مكناس وسَلا ومراكُش وغير المدارس من المساجد والزّوايا والرُبُط والقناطر وسِقايات الماء في هذه المدن وغيرها

– وحكاية السلطان أبي الحسن في بناء المدرسة الجديدة بمكناس معروفة ، وهي أنه لمّا رُفع اليه ما صُرف في بنائها استغلى ذلك ، فلمّا وقف عليها وأعجبته أخذ حسابها وغرّقه في صهريجها وأنشد :

لا بَاسَ بالغالي إذا قِيل حَسن   لَيْس لما تَسْتَحْسنُ العَيْنُ ثَمَن

وتلك غايةٌ في تخليد المآثر ليس بعدها غاية ، وقد بلغ ما أنفقه على المدرسة التي بناها بغربيّ جامع الأندلس من حضرة فاس وهو حينئذ وليُّ عهد والده أبي سعيد ما يزيدُ على مائة ألف دينار ، وهي ما هي في ذلك الوقت . ومدرسةُ العطّارين التي هي من بناء والده أبي سعيد ، والمدرسةُ البوعنانيّة التي بناها ولدُه أبو عِنان هما بالخصوص قِطعتان خالدتان تقومان حجّةً على عِظمِ النهضة الفنّيّة في هذا العصر ، وعلى ما كان لبني مَرين من يدٍ بيضاء في هذا الصدد .

وإن ننسَ لا ننسَ هنا الساعة العجيبة المنصوبة على باب المدرسة البوعنانية ، فانها كانت تُعَدُّ آيةً في دقّة الصُّنع وحُسن الوضع ، وآثارُها لا تزال ماثلةً هنالك ، وقد يكون من المفيد هنا أن ننقل لك ما ذكره ابنُ بطوطة في معرض مدح أبي عنان ، وقد ذكر اعتناءه بجبل طارق ونصُّ كلامه : « وبلغ من اهتمامه أيّده الله بأمر الجبل ، أن أمر ببناء شكل يُشبه شكل الجبل المذكور يُمثّل فيه شكل أسواره وأبراجه وحُصونه وأبوابه ودار صنعته – التي أنشأها والدُه أبو الحسن – ومساجده ومخازن عُدده وأهرية زُروعه وصورة الجبل وما اتصل به من التُّربة الحمراء ؛ فصُنع ذلك بالمشْوَر السّعيد[١] – بفاس – وكان شكلاً عجيباً أتقنه الصناع إتقاناً لا يعرف قدره إلا من شاهَد الجبل ، وشاهد هذا المثال . وما ذلك إلا لتشوُّقه الى استطلاع أحواله واهتمامه بتحصينه وإعداده . » فهذا وحده كاف في الدلالة على الرقي الذي بلغته هذه الفنون في العصر المريني . ولكنّ مزيّة هذا العصر ليست في هذا الرقي ، بل في أن علماءه كلّهم مغاربة لا يمتّون بسبب الى بلادٍ غير المغرب ، وقد كان علماءُ العصر السابق أعني فلاسفته جلّهم ان لم نقل كلهم

---

١ – يطلق المشور في اصطلاح المغاربة على البلاط الملكي ، وانظر بحثنا المعنون بعاميتنا والمعجمية في كتاب خل وبقل .

من الأندلسيين فنَضِجت في هذا العصر العقول ، وتفتَّحت الأفكار ، وظهر النبوغ المغربي بأجلى مظاهره في جميع ميادين العلوم ، ولم يبق الشعبُ المغربي عالةً في نهضته العلميّة على سواه ، بل ان أبناءه أصبحوا قدوة غيرهم في الدراسات العلمية المختلفة ، وقبلة أنظار طلاّب المعرفة من جميع الجهات .

المرأة المغربية :

ونختم الكلام في هذا الفصل بالإشارة الى مساهمة المرأة المغربية في بناء صرح النهضة العلمية في هذا العصر ، كما فعلت في غيره من العصور ، تلك المساهمة الفعّالة التي وإن أُغفل الكلام عليها في كثير من المصادر التاريخية ، فإنها تأبى إلا أن تُعلن عن نفسها من وراء وراء . ولنعطِ على ذلك مثالاً في حقل العلوم الدينيّة السيدة أُمَّ هانىء بنت محمد العبدوسي الفقيهة الصالحة أخت الإمام الحافظ عبدالله العبدوسي . قال الشيخ زروق في كنّاشته : كانت فقيهةً ذات علم وصلاح ، طعنت في السنّ الى قرب المائة ، وتوفيت سنة ٨٦٠ ، زاد ابن غازي وهي آخر فقهائهم . ومثلها أختها فاطمة ، وكذلك السيدة أُمُّ البنين الفقيهة الصالحة جدَّة الشيخ زروق ، والسيدةُ رحمة بنت الجنّان ووالدة الشيخ ابن غازي ، والسيدتان عائشة وأمة الله بنتا الحافظ ابن رشيد الذي استجاز لهما المشائخ ، وستُّ العرب بنت عبد المهيمن الحضرمي التي أجاز لها ابن رُشَيد .

وفي الميدان الأدبي نذكر الأديبة أُمَّ الحسن بنت أحمد الطنجالي نزيلة لوشة ، وقد ترجمها لسان الدين ابن الخطيب في كتابه التاج المُحلّى فقال : ثالثة حمدونة وولادة ، وفاضلةٌ جمعت الأدب والمجادة ، وتقلّدت المحاسن قبل القلادة ، وأولدت أبكار الأفكار قبل سن الولادة . نشأت في بيت أبيها ، لا يدخر عنها تدريباً ولا تنبيهاً ، حتى نبض إدراكها ، وظهر في المعارف حراكها ، ودرَّسها الطبّ ففهمت أغراضه ، وعلمت أسبابه وأعراضه ... ولما قدم أبوها من المغرب ، وتكلم بخبرها المُغرب ، توجّــه بعضُ الصُّدور الى اختبارهـــا ومطالعة أخبارها ، فاستنبل أغراضها واستحسنها ، واستطرف لسنها ، وسألها عن الخط وهو أكسد بضاعـة جلبت ، وأشحّ درّة حلبت ، فأنشدَته من نظمها شعراً في الموضوع . وكذلك الأديبـــة

صفيّة العزفية من بيت العزفيين ولاة سبتة المعروفين ، وقد مدحتها الاستاذة الأديبة الشاعرة السيدة سارة بنت أحمد الحلبي بقصيدة مطلعها :

إذا ما ذكرتُ الشرقَ طرتُ له شوقاً . تقول فيها :

ولكن بِمَنْ أضحتْ وَحيدَةَ عصرِها نَسيتُ من الأشواق ما جلَّ أوْ دَقَّا

ومَن مِثلُ ذَاتِ العلم والحِلم والنُّهى لقد سار سَيرَ الشمس مُعْجِزُها الأرْقى

لقد سار سيرَ الشمس فخرُ صَفِيّة ونوَّر ، إكْباراً لها ، الغربَ ، والشَّرْقَا

وصُبحُ جارية أحمد بن شعيب الجزنّائي الفيلسوف الكاتب الشاعر ، كانت تنظمُ الشعر ، ولمّا ماتت حزن عليها أشدَّ الحزن ، ورثاها براثٍ مؤثّرة تُذكر في المنتخبات .

أما في الميدان العلمي فسنُترجم للطَّبيبة عائشة بنت الجيَّار مُكتفين بها ، ونحن على يقين من أنَّ هناك كثيراتٍ من السيدات الفاضلات اللائي كنّ يشاركن في غير ما ذُكر من ضروب المعارف ، ولكنَّ أخبارهنَّ لم تُحفظ بسبب الإهمال الذي مُني به تاريخنا الأدبي سواءً بالنسبة للنساء والرجال ، والله ولي التوفيق .

الهيئة العلمية وآثارها

من العسير جـداً أنْ نحاول تقديم بعض الشخصيّات البارزة من أعضاء الهيئة العلميّة في هذا العصر الى القارىء كما فعلنا في العصر قبله . فلئن أمكن ذلك هناك ، فلانحصار التبريز في أشخاص معيَّنين ؛ أما هنا فالشخصيّات كثيرة ، وكلٌّ مبرِّزٌ في فنّه ، وخصوصاً رجـال الفقه والدين فانّ هؤلاء لا يكادون يُحصون ، وفضلاً عن كثرتهم ، فانهم متكافئون في الرُّتبة ، فماذا نفعل ؟ هل نطوي ذكر هذا الصِّنف من العلماء ونضربُ عنه صفحاً ونأخذُ بقاعدة منع الجميع أرضى للجميع ، أم نذكر بعضاً ونترك بعضاً ، وان غمطنا حقَّ هذا البعض المتروك ؟

لا نظن أن القارىء يوافقُ على طيِّ ذكر الجميع ، ولعلّه يكون أكثر شوقاً الى معرفة بعض المعلومات عن بعض علماء هذا العصر كما في العصر السابق ، فلنذكر بعض أفرادٍ منهم على أنهم نموذجٌ ومثالٌ فقط ، لا على أنهم اللبُّ والخيرة ممَّن لم نذكرهم ، وفي ظنّنا أننا بذلك نخرج من الورطة ونخلُص من التّبعة .

ابو الحسن الصّغير

علي بن عبد الحق الزّرويلي الشهير بأبي الحسن الصُّغيِّر بصيغة التصغير ، فقيهٌ كبير من الصُّدور الحفّاظ ، كان مجلسه من أعظم المجـالس بفاس ، يحضرُه الجمُّ الغفير من خـيرة الطّلبة وعليَة الفقهاء ، ويقصده الناس من أقاصي البلاد . وَليَ قضاء تازة على عهد السلطان أبي يعقوب يوسف ، ثم وليَ قضاء فاس في أيام حفيده أبي الربيع سليمان . وعضّده السلطان فانطلقت يده على أهل الجاه ، وأقـام الحقَّ على الكبير والصغير ، والقوي والضعيف ، من غير مداراة في ذلك ولا محاباة . وقامت بسببه فتنةٌ بين السلطان المذكور ووزيره عبد الرحمن بن يعقوب الوطاسي حيث ان أبا الحسن كان قد اقام حدَّ الشُّرب على أحد سفراء ابن الأحمر ، فاهتاج هذا السفير ،

وقصد الوزير المذكور ، وشكا اليه القاضي . وحجَّته أن هذا مما لا يُعامل به سفراء الدول ، فكاد الوزير أن يوقع بالقاضي لولا أن حال السلطان بينه وبينه . وحمل ذلك الوزير على شقِّ عصا الطاعة ، والائتمار على خلع السلطان ، غير أن كيدَه رجع في نَحره .

أخذ أبو الحسن عن راشد الفاسي ، وعنه الجمُّ الغفير . ودخل الأندلس سفيراً فتهافت الأكابر للأخذ عنه ، وطُلِبَ منه التدريس في غرناطة ففعل ، وبُهت الناس من حفظه . وله كتبٌ منها مجموعة الدر النثير في النوازل والأحكام ، وتقييدٌ على المدونة في عدَّة مجلدات . وكان في أيام طلبه قيَّد على الرسالة تقييداً نبيلاً ، ثم قُيِّدت عنه بمجلسه عليها وعلى التهذيب تقاييدُ كثيرةٌ متداولة بأيدي الفقهاء ، فلذلك ما اختلفت نُسخها وكانت وفاته سنة ٧١٩ هـ .

القبَّابْ

هو الفقيه الامام الحافظ ، أبو العباس احمد بن قاسم بن عبد الرحمن الجُذامي الفاسي شُهر بالقبَّاب ، كان أحد صدور الفقهاء في عصره من حفَّاظ مذهب مالك ، وأئمة الدين والورع. درَّس العلم طول حياته ، وأفتى وألَّف التآليف القيِّمة ، ووليَ القضاء بجبل طارق ، ودخل غرناطة سفيراً . وحجَّ فلقيَ الأفاضل من أهل العلم والصلاح ، وفي وجهته هذه ، اجتمع بابن عَرَفة في تونس ، وأطلعه هذا على مختصره ، فأبدى عليه ملاحظته السابقة الذكر ، وكان بينه وبين الامام العُقباني التلمساني مناظرات جمعها العقباني في تأليف سماه « لباب اللباب في مناظرة القباب » وهي منقولة في المعيار . وللمترجم فتاوى مجموعة أول ما نقل في المعيار منها ، وله أيضاً اختصار أحكام النظر لابن القطان ، أسقط منه الدلائل والاحتجاج ، وله شرحُ قواعد الاسلام لعياض في غاية الاتقان ، وشرح بُيوع ابن جماعة مفيدٌ جداً ، أخذ عن السطّي وابن فرحون والقاضي الفشتالي وغيرهم ؛ وأخذ عنه الامام الشاطبي وابنُ الخطيب القُسَنطيني وجماعةٌ . وكانت وفاته سنة ٧٧٩ .

ابن عبد الملك المراكشي

أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأنصاري ، ثم الأوسي من أهل مراكش ، العلامة الحافظ التاريخي النقَّاد . وُلد سنة ٦٣٤ وتوفي سنة ٧٠٣ ، روى عن أبي الحسن الرُّعيني وصحبه كثيراً ، وأبي عبد الله محمد بن علي بن محمد بن هشام ، وأبي الوليد بن عُفَير وغيره ، وأجاز له أبو جعفر بن الزُّبير صاحبُ صلة الصِّلة ، وكان رحمه الله نبيل الأغراض ، عارفاً بالتاريخ والأسانيد ، نقَّاداً لها ، حسن التهدّي جيِّد التصرف ، أديباً بارعاً ذا معرفة باللغة العربية والعروض ومشاركة حسنة في الفقه. ألَّف كتاباً جمع فيه بين كتابَي ابن القطَّان الفاسي وابن الموَّاق المراكشي على كتاب الأحكام لعبد الحق مع زيادات نبيلة من قبَله . وأما كتابُه الذيـــل والتكملة لكتابَي الموصول والصلة ، فانه العمل العلمي الضَّخم الذي اشتهر به ، وقد استوفى فيه تراجم عدَّة ممن لم يذكره ابن الفرَضي وابن بَشكوال في كتابيهما . وترجم لمن أتى بعدهما من الأعلام تراجم حافلةً مستوعبةً لآثار المترَجمين وأخبارهم ومروياتهم وشيوخهم مع النَّقد للروايات والنظر في تلك الآثار ، مما يدلُّ على اطلاع واسع ، واستحضار نادر وهو في تسع مجلَّدات ، يوجد أكثرها مفرَّقاً في مكتبات العالم . وقد وَليَ ابنُ عبد الملك قضاء مراكش مدةً ثم أُخِّر عنه . وكانت وفاته بتلمسان .

ابن رُشَيد

أبو عبد الله محمد بن عُمر بن رُشَيد الفِهري السَّبتي ، رحَّالةٌ شهير ، ومن الأئمة الحفَّاظ الوعاة والخطباء المصاقع . مولده بسبتة سنة ٦٥٧ ، وبها نشأ وتوفي بفاس في محرم فاتح عام ٧٢١ ودفن بمطرح الجلَّة من القِباب .

كان محدّثاً مسنداً متضلّعاً بالنحو واللغة والعروض ، ريَّان من الأدب ، حافظاً للأخبار والتواريخ والسيَر مشاركاً في الأصلين ، عارفاً بالقراءات السَّبع ، خطيباً مبدهاً كثير الترحال والتجوال في البلاد .

دخل الأندلس في سنة ٦٩٢ فقدّم للخطابة والإمامة بمسجد غرناطة الأعظم،وأقام بها مدةً . ثم قفَل راجعاً الى فاس ، فنال بها أيضاً مراتب عالية تليق بقدره . ورحل الى المشرق مرّتين ، فتجول وأكثر الأخذ عن المشائخ ، ثم عاد والـّف رحلته (ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين الى مكة وطيبة) واستقرّ بفاس حتى توفي . وله غير الرحلة كتب أُخرى تأتي تسميتها ، وله خطب ومقطعات وأخبار أدبية يأتي بعضها في محله .

ابن الحَاج الفَاسِي

أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي المعروف بابن الحاجّ ، أحد جهابذة المتصوفين وأعلام السنـّة الراسخين سمع ببلده من جلـّة الشيوخ . وقدم مصر فصحب الشيخ أبا محمد بن أبي جمرة ، وسمع بها وحدَّث . وكان عارفاً بمذهب الإمام مالك، ومن أهل الزُّهد والخير والصلاح ، واَثرت فيه صحبة أهل القلوب ، فصنـَّف كتابه المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على كثير من البـــدع المحدثة والعوائد المنتحلة . وهو كتـــاب حفيل جمع فيه علماً غزيراً والاهتمام بالوقوف عليه متعين . توفي رحمه الله سنة ٧٣٧ هـ .

الشيخ زَرّوُق

أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي ، شهر بزرُّوق ، الامام الأشهر ، والعارف الأنور . ولد عام ٨٤٦ وتوفي والداه قبـــل سابع ولادته ، فكفلته جدّته الفقيهة أمُّ البنين ، واشتغل بالصناعة فتعلم السِّكافة ، ثم طلب العلم في السادس عشر من عمره فدرس على مشاهير أهل بلده ، ورحل الى المشرق فأخذ به عن جماعة من الأعيان ؛ ثم رجع وقد تضلع بعلوم الشريعة ، واتقنها غاية الاتقان ، ولا سيما التصوف ، فقد انفرد بمعرفته وبجودة التأليف فيه لتحريره له على أصول

ولقي من مشايخها عدةً ضمّنهم ثبَته الذي سماه بالتعلل برسوم الأسناد بعد انتقال أهل المنزل والنّاد . ثم عاد الى مكناس فأقام بها بين أهله وعشيرته زمناً ، ثم انتقل نهائياً الى فاس ، فاستوطنها وبقي بها حتى توفي سنة ٩١٧ هـ .

كان رحمه الله استاذاً ماهراً في القراآت ووجوهها، مُبرّزاً في علوم العربية والفقه والتفسير والحديث وعلم الرجال والسيَر والتاريخ والأدب، درس على القوْري وغيره. وأخذ عنه الجماهير إذ قد تفرد برئاسة الهيئة العلمية في عصره ، ولم ينازعه أحد في ذلك . له شفاء الغليل في حل مقفل خليل ، بيّن فيه هفوات بهْرام والمواضع المشكلة من مختصر الشيخ خليل المالكي ، أجاد فيه ما شاء ، وهو من أحسن الموضوعات عليه وله تكميل التقييد وتحليل التعقيد ، كمّل به تقييد أبي الحسن الصُّغيِّر على المدوّنة ، وحل مُشكل كلام ابن عرفه في مختصره في ثلاثة أسفار . وله غير ذلك مما يذكر في محله .

ابن بُـرّي

أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن محمد بن الحسن التّازي الشهير بابن بَرّي ، أحد المهرة في العلوم العربية والقراءات ، وكان كاتباً بليغاً لغوياً عروضياً متفنناً في كثير من العلوم وله خطٌ بارع ونَظمٌ جيّد . وهو صاحبُ الدُرر اللوامع في قراءة نافع وغيرها من الكتب النحوية والعروضية . وتوفي سنة ٧٣١ هـ .

الخـَرّاز

أبو عبدالله محمد بن محمد بن ابراهيم الأَموي المعروف بالخرّاز ، كان إمامَ القُرّاء بفاس وهو صاحب موْرِد الظمّآن في علم الرسم . وكان يُعلّم الصّبيان وذلك سِرُّ نجاحِ أسلافِنا ، إذ كانوا يُسنِدون الأمور الى أهلِها فلا يظلمونها . وتوفي رحمه الله سنة ٨١٨ هـ .

ابن آجُرُّوم

أبو عبدالله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي الفاسي ، عرف بابن آجرُّوم النحوي المقرىء الشهير . مولده عام ٦٧٢ ووفاته عام ٧٢٣ بفاس . وأخذ عن أبي حَيّان وعنه محمد بن علي الغساني وله من غير المقدمة شرح حرز الأماني في القراءات ونظمٌ في قراءة نافع سماه البارع .

المَكُّودي

أبو زيد عبد الرحمن بن علي بن صالح المكُّودي الفاسي ، إمامُ النحاة في عصره . ونسبتُه الى بني مَكُّود إحدى قبائل هوّارة الذين مستقرّهم فيما بين فاس وتازة . كان بيتُهم من بيوتات فاس العريقة في العلم والجاه وكان لهم زقاق يُعرف بهم . وكان أبو زيد هذا من مفاخرهم ، إماماً في النحو واللغة والعروض وسائر فنون الأدب ، درّس كتاب سيبويه بمدرسة العطارين وهو آخرُ من درّسه بفاس وبعده صار العمل على الفية ابن مالك التي وضع هو عليها شرحه المشهور . ومن كتبه غيرَ شرح الألفيّة شرحُ الأجرومية ، وشرحُ المقصور والممدود لابن مالك والبسطُ والتعريف في علم التصريف ونظم المعرّب من الألفاظ والمقصورةُ في مدح النبي ﷺ ، نحو ثلاثمائة بيت . وقد نكّتَ فيها على حازم وابن دريد ، وتأتي في القسم المنظوم . توفي رحمه الله عام ٨٠٧ ﻫ.

ابن هانئ

أبو عبدالله محمد بن هانىء اللخمي السَّبْتي ، من كبار علماء العربية ، ومؤلّفي الأدب في هذا العصر ، قال ابن الخطيب في حقّه : « عَلَمٌ تشيرُ له الأكفّ ويعمَلُ

الى لقائه الحافر والخُفّ ، رفع للعربية ببلده رايةً لا تتأخر ، ومرج منها لُجّةً تزخر ، فانفسح مجال درْسه ، وأثمرت أدواح غرْسه ، فركض ما شاء ، وبَرح ودوَّن وشرح ، الى شمائل يملك الظرْفُ زمَامها ودعابةٍ راشت الحلاوة سهامَها » .

له كتب مهمة جداً منها شرح التسهيل لابن مالك ، تنافس الناس فيه ، وكتاب الغُرَّة الطالعة في شعراء المائة السابعة ، وكتاب إنشاد الضّوالّ وإرشاد السؤال في لحن العامة ، وهو مفيد ، وكتاب قوت المُقيم ودوّن ترْسيل أبي المُطَرِّف بن عُمَيرة وضمّه في سفْرين . وله لطائف أدبية تأتي في محلها . وقد استُشْهد في حصار جبل طارق في ذي القعدة عام ٧٣٣ ورُثِيَ بقصائد منها قصيدة أبي بكر بن شبرين التي يقول فيها :

قد كان ما قال البَريد فاصْبِرْ فحُزْنكَ لا يُفيد
أَوْدَى أبْنُ هانىء الرِّضى فاعْتَادَني للثُّكْلِ عِيد

ابو القاسم الشّريف

أبو القاسم محمد بن احمد الشريف الحسني السبتي ، القاضي الفاضل ، نخبَة الأدباء في وقته ، كان مُتبحّراً في العلوم الأدبية من تاريخ وأخبار ونحو وبيان وعَروض ، متقدّماً في الفقه والأحكام ، مع توقُّد الذهن وأصالة الإدراك . وليَ الكتابة والخطابة والقضاء عن ملوك بني الأحمر في الأندلس ، وطار صيتُه ونبُه ذكره ، وقد أخذ عن أبيه وعن ابن هانىء وابن رُشَيد وغيرهم ، وعنه ابنُ الخطيب وسواه ، وله تصانيف بارعة منها رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة ، وهو شرح لمقصورة حازِم ، ورياضة الأبيّ وهو شرح على الخزرجية في العروض . وكان أوّل من فكّ خِتامها بعد أن أعجزت نبهاءَ الوقت وشرْحُ تسهيل ابن مالك وديوان شعر ، وسنثبت طرفاً من أدبه في المنتخبات .

مولده بسبتة في ربيع الأول عام ٦٩٧ وتوفي قاضيا بغرناطة فى شعبان عام ٧٦٠هـ.

ولكثرةُ مقامه بغرناطة يُطلق عليه بعضُهم الشريف الغرناطي وليس بغرناطي كما علمت .

ابنُ أبي زرع

أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن عُمر بن أبي زرع الفاسي المؤرخ الثقة ، صاحب أجمع تاريخ للمغرب من لدُن قيام الدولة الادريسية الى وقته ، وهو العصر المريني .. وقد اختلِفَ في اسمه ونسبه اختلافٌ كبير ؛ ولكن الراجح هو ما ذكرنا . ولا نعرف عن حياته إلا القليل ، لأنه ضنّ على قراء تاريخه بلمْحةٍ ولو خاطفةٍ من التعريف بنفسه .. وذكر الحلبي في الدرّ النفيس أنه كان عدلاً يحترف التوثيق بسماط العُدول بفاس ، وذلك مما يدل على تثبُّته ونزاهته فيما نقل من الأخبار عن تاريخ الدول السابقة والدولة التي عاصرها وهي دولة المرينيّين . وعلى كل حال فان كتابه المعروف بالقرطاس واسمُه الكامل (الأنيس المطرب برْوض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس) هوَ أهمُّ مصدرٍ لتاريخنا الوطني منذ انفصال المغرب عن دولة الخلافة العباسية الى هذا العصر ، وقد اعتمده ابن خلدون وذكره ابن الخطيب في الإحاطة وأثنى عليه كثيرٌ من العلماء . وله غير القرطاس تاريخ مُطوَّل يُسمّيه أزهار البستان في أخبار الزمان يُعتبر في حكم الضائع الآن . وكانت وفاته رحمه الله بعد سنة ٧٢٦ .

ابنُ بطّوطه

أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللّواتي الطنجي ، الرحّالة الشهير ولد ونشأ ببلده طنجة . ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره أوحتْ إليه نفسه الكبيرة بالتّرحال والتّجوال ؛ فامتطى صهوْةَ الاغتراب من وطنه وأخذ يذرعُ الأرض طولاً وعرْضاً . وكان خُروُجه من طنجة سنة ٧٢٥ فجال في المغرب وافريقية وطرابلس وبرقة ومصر والشام والعراق واليمن وسواحل افريقية الشرقية وجزائر

بحر فارس ، ودخل الأناضول وجال فيهـا وقدم بلاد القرم وساحَ في جنوبيّ روسيا ودخل الى بلاد البَلْغار والقسطنطينيّة . ثم جال في البلاد الواقعة شرقي بحر الخزَر ودخل خُوارزْم وبُخارى وخُراسان وقندَهار ووادي السِّند وأقام بدهلي حاضرة الهند ونُصبَ على القضاء فيها . ثم ساح في الأقطار الصينيّة والتترية ودخل سَيلان وسومَطرة وجاوه وباكين قاعدة الصين وابتُلِيَ هناك بالأسر وتملّص بعد خطب طويل ، فانقلب راجعاً الى المغرب . وكان قد بارح بلاده منذ ٢٤ عاماً . وما لبث أن وصل الى طنجة حتى عاد الى الرحلة فدخل اسبانيا وتطوف فيها . ثم عاد وقصد السلطان أبا عِنان المريني بفاس فحظيَ عنده وأفاض عليه من عطائه ما أنساه تجشُّم الأسفار واقتحام الأخطار . وذهب رسولاً منه الى بلاد السودان ، ثم عاد الى فاس وبها ألقى عصا التسيار وألف رحلته (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) . ومات سنة ٧٧٧ أو ٧٩ هـ .

ابن البنّاء العددي

أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المراكشي ، العلامة الفلكي والحاسب المشهور ، كان أبوه بنّاءً وطلب هو العلم فبلغ فيه الغاية القصوى . وُلد بمراكش سنة ٦٥٤ وطلب العلم بها ثم بفاس فاتقن العربيّة وآدابها ، وحصّلَ علوم الشريعة وبرَع في العلوم الفلسفية ولا سيّما الرياضيّة ، فكان لا يُدرَك شأوه فيها ولا يُبلغُ مداه . وعلى الأخصّ الهيئة والعَدد منها فان إليه انتهى عِلمُها بالمغرب ، وعنده اجتمع ما تفرّق منها بأيدي قدماء الرياضيّين من إسلاميين وغيرهم ، ولا يُعرف فيمن أتى بعده من تحقّق تحقُّقه بمعرفة أسرار الفلك وحركات النجوم ، وبالعدد والضمّ والتفريق فيه ، وإنما غاية العلماء بعده في ذلك تفهُّم كتبه وتناوُلها بالشرح والتفسير ، مثلما فعل ابنُ هَيْدُور وغيرُه ، فانه شرح تلخيص ابن البناء الحسابي ورفع الحجاب له أيضاً .

وتلخيصُ ابن البناء هذا هو الذي قال عنه ابن خلدون أثناء الكلام على الحساب من العلوم العددية « أنه ضابط لقوانين أعماله مفيد » ورفع الحجاب قال عنه : « هو كتاب جليل القدر أدركنا المشيخة تُعظّمه وهو جدير بذلك » . ولابن البنّاء كتبٌ كثيرة نأتي على ذكرها بعد هذا . وكانت وفاته ببلده سنة ٧٢١ .

ابن البقّال

محمد بن محمد بن علي بن البقال أبو عبد الله العلامة الأصولي المعقولي الفيلسوف ، من أهل تازة ، عرّف به بلديُّه الأستاذ أبو الحسن بن بَرّي فقال : كان من العلماء المحقّقين المحصّلين المشاركين ، أخذ أولاً بتازة علم الفرائض والعدد على أبي عبد الله العبّاس بن مَهدي والنحوَ والكلام على أبي عبد الله التّرجالي واستوطن فاساً ودأب على القراءة واستفرغ وُسعَه في المعقول سنين عديدة ، حتى حصّل التعاليم وأتقنها ثم أخذ أخيراً في التفسير والفقه الخِلافي وكان له حظٌّ وافرٌ من اللغة والأدب والبيان والعروض والشعر والكتابة . وكان آخر عمره كثير التلاوة للقرآن ، محافظاً على صلاة الجماعة ، وله وِردٌ من الليل . وبالجملة ما رئي في وقته من حصّل من علوم الفلاسفة مثل ما حصّله مع الديانة والوقوف مع الشريعة . وأخذ في آخر عمره في تدريس الفقه ، فكان آيةً . وتوفي بفاس سنة ٧٢٥ ودُفِنَ أثر صلاة الجمعة داخلَ باب الفُتوح ، وقد قارب الخمسين . قال في نيْل الابتهاج : وله أجوبةٌ حسنة في التفسير والأصول أجاب بها أبا زيد بنَ العشّاب .

اللّجائي

أبو زيد عبد الرحمن بن أبي الربيع اللّجائي الفاسي ، العالم الرياضي الكبير . كان متحققاً بأجزاء من علم الهندسة والهيئة والحساب . نشأ في حجر والده أبي الرّبيع . وكان من فقهاء فاس ، وممن أخذ عن القَرافي . وهو الذي أدخل مُختصر ابنِ الحاجب الفِقهي الى فاس ، فكان يأخذه بطريقَتِه من قراءة الفقه ، ولكنّه رأى ذاتَ يوم في النوم كأنه صَعِدَ الى السماء وأخذَ يُقلّب نجومها واحداً بعد واحدٍ فقَصَّ رؤياه على أبيه ، فقال له أقصِدْ ابنَ البَنّاء وخُذْ عنه عُلومَه ، قال ابن قُنفُد : « كان اللجائي آيةً في فنونه ، ومن بعض أعماله أنه اخترع أسْطُرلاباً ملصوقاً في جدار والماءُ يُدِيرُ شبَكته على الصّفيحة ، فيأتي الناظرُ فينظر الى ارتفاع

الشمس كم هو وكم مضَى من النهار ، وكذلك ينظر ارتفاع الكوكب بالليل وهو من الأعمال الغريبة ، وقد وقفتُ عليه زمانَ قراءتي بين يديْه » . وتوفي سنة ٧٧٣ هـ .

عَائِشَة بنتُ الجيَّار

هي الطبيبَةُ البارعة عائشةُ بنت الشيخ الكاتب الوجيه أبي عبد الله بن الجيّار المحتَسِب بسبتة ، قرأت الطب على صِهْرها الشيخ الشهير أبي عبد الله الشَّريسي ونبغت فيه . قال في بُلغَة الأمنية : أدركتُها رحمة الله عليها وقد بلغت من السن نحو سبعين سنةً . وكانت امرأةً عاقلة عاليةَ الهمة ، نزيهةَ النفس ، معروفة القدر لمكان بيتها . لها تقدُّمٌ بالطبع وجزالةٌ في الكلام ، عارفةٌ بالطب والعقاقير ، وما يرجع الى ذلك ، بصيرة بالماء وعلامته وتأثل لها بطريقتها صيتٌ شيَّده الأمراء ، فطالما كانوا يجيزونها بالهدايا والتُّحف وغيرها ، لأجل ما خبرُوه من حِرْفتها ، وكانت لها رباعٌ تستغِلـُّها . ولم تزل سيدة محفوظة المنصب الى أن توفيت بعد أن عهدت بتوقيف رباعها في سبيل البرّ وسبُل الخيرات رحمها الله ونفعَها .

* * *

اسمَاءُ الكتبِ المؤلفة في هذا العصْر

وهاك الآن جدْولاً باسماء الكتب المؤلفة في هذا العصر مما وقفنا عليه فقط ، لاننا لا ندّعي إحصاءها جميعاً . كيف وأصحاب الكتب انفسُهم لا يجوزُ أن يدّعي أحدٌ الاحاطةَ بمعرفتهم ، فما بالك بكتبهم ؟ وقد سِرْنا في ذلك على الترتيب الذي توخّيْناه في العصر السابق .

كتب الحديث والتفسير وتوابعها :

ترجمان التراجم في بيان وجه مناسبة تراجم البخاري لابن رشيد ، السنَن الأبين في السنَد المعنْعَن له ، المحاكمة بين مسلم والبخاري له ، تعليق على البخاري لأحمد

زرُّوق ، جزءٌ في علم الحديث له . التعلُّل برسوم الاسناد بعد انتقال أهل المنزل والنّاد لابن غازي ، نظم الطرق العَشْر له ، اختصار فَتْح الباري لابن هلال المتوفى سنة ٩٠٣ ، شرح أحاديث الشّهاب لابن منصور المَغْراوي السجلماسي من أهل هذا العصر ، الروض الأنيق في شرح المُوطأ له ، حلُّ أغراض البخاري المُبهَمَة في الجمع بين الحديث والترجمة له ، شرح الشفا للزَّموري من أهل القرن التاسع ، شرح الشّفا لابن السكاك المتوفى سنة ٨١٨ ، شرح المُوطأ للزناتي المتوفى سنة ٧٠٢ مشيخة عبد المهيمن الحضرمي المتوفى سنة ٧٤٩ برنامج مشيخة أبي محمد بن أبي مسلم الأنصاري القَصْري المتوفى سنة ٧٧٣ ، شرح ابن بَرّي له . تجريد الصِّحاح الثلاثة : البخاري ومسلم والترمذي ؛ لأبي عبدالله الكرسموطي الفاسي المولود سنة ٦٩٠ ، حاشية على صحيح مسلم لابن الشاطّ . أربعون حديثاً في الجهاد لأبي القاسم التُّجيبي السبتي المتوفى سنة ٧٣٠ ، اختصار الكشاف لابن العابد الفاسي المتوفى سنة ٧٦٢ ، تفسير الباء في البسملة لابن البَنّاء العدَدي ، تفسير الاسم فيها له ، تفسير سورة الكوثر له ، تفسير سورة العصر له ، حاشية على الكشاف له ، الدليل في مرسوم خطّ التنزيل له ، المُتشابه اللَّفظ في القرآن له ، كتاب تسمية الحروف وخاصيَّة وجودها في أوائل السور له . تفسير القرآن لأبي القاسم السّلوي من أهل القرن التاسع ، شرح مسلم له ، مورد الظمئآن في رسم القرآن للخرَّاز ، عُمدةُ البيان في الرسم أيضاً له ، شرح الحُصْريَّة في القراءات له ، شرح ابن برّي له ، شرح العَقيلة في القراءات له . الدرر اللوامع لابن بَرّي ، التحفة في القراءات لميْمون الفخّار المتوفى سنة ٧١٦ الدرَّة له ، المورد له ، شرح مورد الظمئآن للشّوشاوي المتوفى سنة ٩٠٠ الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة له ، الأجوبة في التفسير لابن البقَّال المتوفى سنة ٧٢٥ ، النافع في أصل حرف نافع للجَادري المتوفى سنة ٨١٨ على ما في الجذوة ، شرح ضبط القيْسي له ، شرح ابن برّي له ، فهرست له ، نظم التَّيْسير في القراءات لابن المرحّل ، شرح حرز الأماني في القراءات لابن آجرُّوم ، البارع في قراءة نافع له ، الشافي في اختصار التيسير والكافي لابي القاسم بن عمران الحضرمي السبتي المتوفى سنة ٧٥٠ .

كتب الفقه والتصوف وتوابعهما :

شرح مختصر خليل ثمان مجلدات للقَوري المتوفى سنة ٨٧٢ ، المنهل المورود شرح

المقصد المحمود للجنّان من أهل القرن الثامن ، شرح وثائق الغرناطي له ، القواعد الخمس لأبي سعيد الرُعَيني الفاسي المتوفى سنة ٧٧٩ المقدّمات له ، شرحها له ، الجامع المفيد له ، تنبيه الغافل وتعليم الجاهل له ، اختصار مقدمة ابن رُشد له ، الروضة البهيّة في البَسملة والتّصلية له ، المِهاد في الجِهاد له ، الأسئلة والأجوبة له . المسائل الفقهيّة المنوطة بالأحكام الشرعية لابن منصور المغراوي السجلماسي . الغُرَر في تكميل الطُرَر . طرر أبي ابراهيم الأعرج للكرسوطي الفاسي ، الدرر في اختصار الطرر له ، تقييدان على الرسالة كبير وصغير له ، تلخيص التهذيب لابن بَشير له ، تقييد على مختصر الطُليطلي له ، تقييد على المدوّنة لابن أبي يَحيى التَسولي المتوفى سنة ٧٤٩ ، شرح الرسالة له ، شرح التهذيب له ، الأجوبة له ، كتاب المناسك لابن هِلال ، الفتاوى له ، تقييد على المدوّنة لعبد النّور العِمراني ، الفتاوى له ، تحرير المقالة في نظائر الرسالة لابن غازي ، المسائل الحِسَان له ، شفاء الغليل له ، تكميل التقييد له ، إرشاد اللبيب الى مقاصد الحبيب له ، الكلّيّات الفقهية له ، الجامع المستوفي بجداول الحَوفي في الفرائض . رسالة الإخوان من أهل الفقه وحمَلة القرآن لابن ميمون الإدريسي المتوفى سنة ٩١٧ ، مراسِمُ الطريقة في علم الحقيقة لابن البنّاء العدَدي ، شرحه له ، عواطف المعارف له ، عمل الفرائض له ، الفصول في الفرائض له ، مقالة في الاقرار والانكار له ، مقالة في المدبّر له ، رسالة في إحصاء أسماء الله الحسنى له . الدرُّ النثير لأبي الحسن الصُغَير ، تقييد على المدونة له ، تقييد على الرسالة له ، تقييد على التهذيب له ، نظم في الفرائض لعبد العزيز اللمطي ، نظم في التصوّف له . نهاية الرائض في الفرائض للجَدْميوي من أهل القرن السابع ، كفاية المُرْتاض في تعاليل الفرّاض له ، مفتاح الغوامض في أصول الفرائض له ، نصح ملوك الاسلام في تعريفهم بحقوق أهل البيت لابن السكّاك ، تعليق على تقييد أبي الحسن الصغير للتازغدري المتوفى سنة ٨٣٢ ، الوثائق للقاضي الفشتالي المتوفى سنة ٧٧٩ ، الجمع بين كتابي ابن القطان الفاسي وابن المواق على أحكام عبد الحق الاشبيلي لابن عبد الملك المراكشي ، المفيد في الفقه لابراهيم الفِجيجي المتوفى حوالي سنة ٩٠٠ ، تقييد على المدونة لأبي عمران العبدوسي المتوفى سنة ٧٧٦ ، تقييد على الرسالة له ، تقييد على التهذيب له ، شرح المدونة للزّناتي ، شرح الرسالة له ، تقييد على المدونة لأبي موسى الجنَاتي المتوفى سنة ٨٣٠ ، حِلْيَةُ الأعيان في شرح عمدة البَيان وهي مختصر للوَغْلِيسي في فرائض

الأعيان للشُّوشاوي الفتاوى له ، تعليق على المدونة للسطي المتوفى سنة ٧٥٠ ، تعليق على مختصر ابن شاس له ، شرح الحوْفيـة له ، اختصار أحكام ابن القطان للقبّاب المتوفى سنة ٧٧٩ ، شرح قواعد القاضي عياض له ، شرح بيوع ابن جماعة له . تحفة الحكام للزَّقّاق المتوفى سنة ٩١٢ ، المنهج المنتخب على قواعد المذهب له ، معْتَمد الناجب في إيضاح مُبهمات ابن الحاجب لأنقشاب من أهل القرن الثامن، شرح الرسالة له. المجالس في الفقه للقاضي المكناسي المتوفى سنة ٩١٧ ، التنبيه والإعلام فيما قضى به القضاة وافتى به المفتون من الأوهام له . تقييد على الرسالة نُسَخ متعددة لعبد الرحمن الجُزُولي المتوفى سنة ٧٤١ ، غُنْيَةُ الرَّائض في علم الفرائض لابن الشاطّ ، دلائل الخيرات لأبي سليمان الجُزُولي المتوفى سنة ٧٨٠ ، حِزْبُ سبحانَ الدَّائم له ، كتاب في التصوُّف له . المباحِثُ الأصلية ، نظم في التصوف لابن البنّاء السَّرقسْطي الفاسي ، المدخل لابن الحاج الفاسي ، النصيحة الكافية لأحمد زرُّوق ، إعانة المتوجّه المسكين على طريق الفتح والتَّمْكين له ، النُّصْحُ الأنفَع له ، عُدَّة المُريد له ، قواعد التصوف له ، الأصول في الفصول له ، تُحفَة المُريد له ، الروضة له ، مُزيلُ اللبس عن أسرار القواعد الخَمْس له ، شرح الرسالة الكبير له ، شرح الرسالة الصغير له ، شرح الأرشاد له ، شرح القُرطبيَّة له ، شرح الغافقيَّة له ، شرح المباحث الأصلية له ، شرح الحِكَم العَطائية أربع وعشرون نسخة له ، منهاج حزب البحر له ، شرح الحزب الكبير له ، شرح مُشكِلات الحزب الكبير له، شرح حقائق المقَّري له ، شرح قِطَع الشُشْتُري له ، شرح الأسماء الحسنى له ، شرح مَراصد ابن عُقْبة له .

كتب الكلام والمنطق والأصول :

شرح العقيدة القُدْسيَّة لأحمد زَروق ، الاقتضاب والتبيين في علم أصول الدين لابن البنَّاء العددي ، رسالة في الفرْق بين الخوارق الثلاث المعجزة والكَرامة والسِّحْر له ، مُنتهى السُّول من علم الأصول له ، تنبيه الفهُوم على مَدارِك العُلوم في الأصول له ، شرح تنقيح القرافي له . شرح تنقيح القَرافي للشُّوشاوي ، الأجوبة في التفسير والأصول لابن البَقَّال ، أنوار البُروق في تعقُّب القواعد والفروق لابن الشاطّ . اختصار حدُود الشّيرازي للرُعَيْني الفاسي . نظم في الكلام لعبد العزيز اللَّمْطي ، نظم في المنطق له ، نظم في الجدَل له ، نظم في الأصول له .

كتب التراجم والتاريخ والجغرافية :

الغُرّة الطالعة في شعراء المائة السابعة لابن هانىء ، الذيل والتكملة لابن عبدالملك المراكشي ، البيان المغرب لابن عذاري المراكشي . الذّخيرة السّنيّة في أخبار الدولة المرينية ، القرطاس لابن أبي زرع ، أزهار البستان في أخبار الزمان له ، المغرب في صلحاء المشرق والمغرب للرعيني الفاسي ، الرحلة له ، نظم مراحل الحجاز له ، نظم رجال الحلية لابن جابر المكناسي ، الرّوض الهتون في أخبار مكناسة الزّيتون لابن غازي . زهرة الآس في بناء فاس لأبي الحسن الجزنائي من أهل القرن الثامن ، تاريخ أبي سعيد الأصغر للتاوَرتي مات أول القرن التاسع . الإشادة في ذكر المشتهرين من المتأخرين بالإجادة لأبي القاسم العَزَفي المتوفى سنة ٧١٧ ، ملء العيبة لابن رشيد . تحفة النُّظّار لابن بطوطة ، رحلة العبدري الحاحي . تاريخ عبدالله الزّرعي الجذميوي السبتي في ٤٠ سفراً ، كتاب الكوكب الوقّاد فيمن حل بسبتة من العلماء والصلحاء والعُبّاد للحضرمي ، بلوغ الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة من مدرس وأستاذ وطبيب له ، فرغ منه يوم الخميس ٢١ شعبان ٨٢٤ .

كتب الأدب والدواوين الشعرية :

ديوان ترسيل أبي المطرّف ابن عميرة ، لابن هانىء ، رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة لأبي القاسم الشريف ، رياضة الأبي في شرح قصيدة الخزرجي له ، [illegible] وهو ديوان شعر له . إحكام التأسيس في أحكام التجنيس لابن [illegible] ، إيراد المريع [illegible] التسجيع والترصيع له ، وصل القوادم بالخوافي [illegible] ذكر [illegible] له ، جزء في العروض له ، المقصورة المكّودي ، أرجوزة [illegible] لعروض [illegible] من الرجل ، نظم الثلث الأول من أدب الكاتب له ، العشريات [illegible] له ، الوسيلة الكبرى المرجوّ نفعها في الدنيا والأخرى له ، نظم في البيان لعبد العزيز اللمصي . المنفرجة التازية لابن يحبش التازي المتوفى سنة ٢٠[illegible] ، [illegible] روض المريع في صناعة البديع لابن البنّاء العددي ، عيوب الشعر له ، [illegible] قانون في معرفة الشعر له ، قانون في الفرق بين الحكمة والشعر له ، نزهة الناظر لابن جابر ، تسميط البردة له ، القصيدة الصيديّة لابراهيم الفجيجي وهي قصيدة تشتمل على فنون من الوصف والحماسة وتدبير الصيد وغير ذلك مما

يتعلق بهذه الرّياضة الجميلة . شرح المقامات الحَريرية للزّناتي ، النُّصْحُ التـام للخاص والعام . قصيدة في المواعظ والحكم لأبراهيم التّازي المتوفى سنة ٨٦٦ .

كتب النحو واللغة :

شرح التّسْهيل لأبي القاسم الشريف ، شرح كتاب سيبويه لابن رُشَيْد ، نظْمُ فَصيـح ثعلب لابن المرحّل ، شرحه له ، نظم غريب القرآن له ، نظم اختصار اصلاح المنطق له ، الرّميُ بالحصَى والضّربُ بالعَصَا له ، ردّ به على ابن أبي الرّبيع النحوي ، الأجرُومية لابن آجروم ، الكلّيات النحوية لابن البنّـاء العددي ، شرح الألفية للمكتُودي ، شرح الأجرومية له ، البسْط والتعريف في علم التصريف له ، نظم المُعرّب من الألفاظ ، شرح المقصور والممدود له ، تحفة الناظر في غريب الحديث للرُّعَيْني الفاسي ، شرح غريب الشّهاب لابن مَنصور المَغْرَاوي السجلماسي ، شرح غريب البخاري له ، شرح غريب الموطأ له . المذكر والمؤنث للجاديري ، شرح الألفية لابن غازي ، شرح الآجروميّة لأبي عبدالله الشريف من أهل القرن الثامن ، شرح شواهـد الشريف شارح الأجروميّة للدَّقّون المتوفى سنة ٩٢١ ، نظم الآجروميّة لميمون الفخار ، لاميّة الجُمَل المَجْراد المتوفى سنة ٧٧٨ ، شرح جُمَل الزّجّاجي لأبي عبدالله الغافقي السبتي المتوفى سنة ٧٣٠ ، شرحه أيضا لأبي محمد بن مسلم الأنصاري القصري . ألفية في النحو لعبد العزيز اللمطي .

كتب في مختلف العلوم الكونيّة

علم الجَدْوَل لابن البنّاء العدَدي ، شرحه له ، التلخيص في الحساب له ، رفع الحجاب في الحساب له ، مقدمة على أُقْليدس له ، المُسْتَطيل في بيان أحكام النجوم له ، المدخل الى علوم النجوم له ، جزء في العَمل بالرُّومي له ، مِنْهاج الطالب في تَعْديل الكواكب له ، علم الأسْطرُلاب له ، العَمَل بالشكاريّة والدرْقَالية له ، رسالة في ذكر الجهات وبيان القِبْلة له ، جزء في الأنْواء وصُوَر الكواكب له ، كتاب الفِلاحة له ، قانون معرفة الأوقات بالحساب له ، قانون في معرفة فصول السنة له ، قانون في تَرْحيل الشمس له ، طبَائعُ الحروف له ، صناعة الأوْفَاق له ، مقالة في العزائم والرُّقَى له ، مقالة في عمل الطلّسْمَات له ، مقالة في الزّجْر

والفَال والكـَهانة له ، مقالة في خط الرَّمْل له ، اليَسَارة في تقديم السَيّارة له ، رسالة في كـُرِيّة الأرض له ، رسالة في تحقيق رؤية الأهلّة له، الردُّ على من قال إن وقتَ العصر يُعلَمُ بوقوع قُرْصِ الشمس على بَصَرِ القائم مُقابلاً له ، نظم أبي مَقْرَع في علم الهيئة . الدّوْحة المشتبكة في ضوابطِ دار السكّة لأبي الحسن بن يوسف الحكيم المديوني ، شرح تلخيص ابن البنّاء العدَدِي لابن هَيْدور المتوفى سنة ٨١٦ ، شرح رفع الحجاب له ، روضة الأزهار في علم الليْل والنهار للجادِري ، اقتطافُ الأنوار في اختصار روضة الأزهار له ، كتاب في العمل بالاسطرلاب والصّفيحَة الشكاريّة والرُّبُع بالحساب والجَدوَل له ، تنبيه الأنام على ما يحدُث في أيام العــام له ، شرح نظْم أبي مقرَع له ، مُنْيَةُ الحَسّاب في علم الحساب لابن غازي ، شرحها له. السمْلالِيّة، رَجزِيّة في الحساب لإبْرَاهيم السملالي من أهل القرن التاسع ، نظْمُ المَرْقَبَة العُلْيا في تعبير الرؤيا لابن جابر ، كنوز الأسرار ولواقح الأفكار لأنقشاب ، رَجزٌ في علم الأوفاق لعمر بن عبد العزيز الجزنائي ، توفي في أوائل القرن التاسع . موسوعة منظومة تحتوي على نيف وعشرين علما لعبد العزيز اللمطي .

•

الحياة الأدبيّة

قدّمنا أن هذا العصر كان هو العصرَ الذهبيّ للعلوم الأدبية في المغرب . وعليه فيكون هو أزهى عصور الانتاج الأدبي فيه ، لأن هذا الانتاج يتبعُ غالباً تلك العلومَ رُقيّاً وانحطاطاً ، خصوصاً عندما يكون الاعتماد على الدراسة والتلقين ، لا على السَّليقَة والطبع .

وفوق ذلك ، فانّ الوسَط الأدبي في المغرب ، لم يبلُغ من الرُّقي في عصر من العصور ما بلغ في هذا العصر ، فقد اشترك في تكوينه جميعُ الطبقات من الملوك فمَن دونهم الى السُّوقة . أما الملوك فقد علمتَ أن أكثر سلاطين بَني مَرين كانوا من أهل العلم والمعرفة والمُشارَكة في فنون الأدب ، وبالطبع فان وُزَراءهم وحُجّابَهم وقُوّادَهم فضلا عن كتّابهم وقضاتهم كانوا كذلك ؛ إذ يستحيلُ أن يقرُبَ بساطَ الملوك ، إذا كانوا ملوكاً بمعنى الكلمة ، غير أهل الكفاآت النادرة من أرباب المعارف المتنوعة ، وكذلك كنتَ لا تجد في منصِبٍ من مناصب الدولة الا رجلاً كُفوءاً لا يُؤتى من قُصور ، ولا يُعاب من تقصير ، حتى ذَوو البيوتات الذين كانوا يتوارَثون الرياسة في هذا العصر كبَني العَزفي وعبد المهيمن وأبي مَدينَ والمكُّودي والقبائلي ، لم يكونوا على ما عُهدَ في أمثالهم من الاعتداد بالأحساب والاتكال على الأنساب وإنما كانوا كما قيل :

إنَّا وَإنْ أَحسابُنا كَرُمَتْ لسْنَا عَلى الأَحْسابِ نتَّكِلُ
نبني كما كانت أَوائِلُنـــا تبني ونفعَلُ مثلَ مـا فعلوا

هؤلاء ممَّن دون الملوك ، ولكنهم فوق السُّوقة . وأُما السُّوقة فقد أشرنا فيما سبق الى ما أثَرت فيهم نهضة علوم اللسان وما مكـَّنت لهم من تذوُّق أسرار اللغة وفهم أَغراض الأدب ، حتى لِمن كان منهم في طبَقَـة صاحب حديث « اللـَّظافة » الآتي

ولا يخفى أن في هذا العصر استفحَل ذلك الشعرُ العاميّ الذي يتحدّث عنه ابنُ خلدون في المقدّمة ، وهو من نظم عوامّ المغاربة ؛ فيكون من الدلائل القاطعة على تمام استعرابِهم ، وبالتالي على رُقيّ الوسَط الأدبي عندهم ، لأنهم ما نقَلوا الشعرَ من رَطانتِهم الى العربية حتى كان قد تغلغَل الرُوح العربي فيهم الى حدٍّ بعيدٍ جداً . ولا عِبرة بما في ذلك الشعر من ألفاظٍ ركيكةٍ وتراكيبَ ضعيفة ، وإنما العِبرةُ بكونه نظماً على الأسلوب العربي وبألفاظ عربية في الجملة ، يصدر من عوامّ المغرب الذين لم يَثقَفوا علماً ولا أدباً .

والعجَبُ ممّن خَفيَ عليه هذا الأمر ، فراحَ ينعي على المغرب حظّه من اللغة والأدب ، ويَستشهدُ بذلك الشعر الذي هو من قول عوامِّ أهله . ولقد كان خَليقاً أن يستشهد به على قوّةِ انتشار اللغة العربيّة وآدابها في المجتمَع المغربي الذي يقول عامّتُه مثلَ ذلك الشعر ؛ ولكنه لِقُصوره لم يعرفْ أن للمغرب شعراء كأعظم شعراء بلاده ان لم يكونوا أعظمَ منهم . وابنُ خلدون لم يجعل هؤلاء العوامّ هم شعراء المغرب ، وإنما أتى بهم دليلاً على ضُعف الملكَة الشعريّة عند أهل الأمصار ، وخصوصاً الأعجام منهم. ولو زاوَلوا الصناعة بالتعليم ، وهو يُغرِقُ على عادته في هذه النظرية فيتناسى ما لأهل هذه الأمصار من اليد الطُولى على العربية وآدابها خصوصاً في عصره ، وقد كان مُحاطاً بكثير من نُبغائهم الذين لا يقصّرون عن غيرهم في فنٍّ ولا أدب ؛ فجاء مؤلفا كتاب المطرب في أدب الأندلس والمغرب ، ففهَما عنه أن أُولئك العوامّ هم شعراء المغرب ، فانكرا العلم والأدب على المغاربة ، فظلَما المغربَ والتاريخَ الأدبي أشدَّ الظُلم ، وكانا كمن يسمَعُ أزجالَ عوامّ المصريّين فيحكم على مصْرَ بالعُقْمِ الأدبي ناسياً الشَوْقيّاتِ وغيرَها من الآيات البينات[١].

وبعدُ فما نريدُ أن نقوله هو أن هذا الوسطَ الأدبيَّ الطافحَ بعناصر الحياة ،

---

١ – ان مثل هذا الغلط كثيراً ما يقع فيه كتاب الشرق ، وما نبهنا على هذا الكتاب بخصوصه الا لأنه من أحدث ما اطلعنا عليه في هذا الباب . وعلى كل حال فاللوم لا يتوجه عليهم بقدر ما يتوجه علينا نحن الذين أهملنا أنفسنا حتى صرنا كما قال القائل :

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها فلسنا من الأموات فيها ولا الأحيا

كان هو مَهْدَ هذه الحركة الأدبية الذي فيه نشأت ، ومنه درَجَتْ ، فما ظنُّك بما تكون عليه من قوّة المادّة والرُّوح ؟

نعم ، وقد كان هذا الوسط يُغْري كثيراً من ذوي الشخصيّات الأدبية الكبيرة في افريقية والأندلس فيَؤمُّون الحضْرةَ الفاسيّة ، ويستوطِنُونَها ناسينَ بما يلقَونَه فيها من التّجلّة والإكرام ، أوطانَهم الأصليّة ومعاهِدَ شبابهم الأولى ، وعلى رأس هؤلاء ابنُ خلدون وابن الخطيب وابن جُزَي وغيرُهم ممّن سبقت الإشارةُ الى بعضِهم . وقد كان انتقالُهم الى المغرب في هذا العصر طَوْعاً ومن تِلقاءِ أنفسهم ، بل اختياراً وإيثاراً له على أوطانهم لا كما كان في العصر السابق كرهاً واضطراراً ، لأنّ عاصمة الدّولة ومقرّ السلطة المركزيّة كان في مراكش ، فلا مَعْدى لِذوي المصالح وأرباب الكِفايات من اللُّجوء إليها ولا كذلك في هذا العصر ، فان قِيام دولة بني نصْر في غرناطة ، والدولة الحفصيّة في تونس ، ودولةِ بني عبد الوادْ في تلمسان كان حريّاً أن يصرفَ وجْهَ النُّخْبَة من أبناء هذه البلاد عن المغرب ، مع أن الأمر كان كما قُلنا بالعَكس ، فما ذلك إلا دليل على أن الجوّ الأدبي في المغرب هو الذي كان يستميلُهم اليه .

والحاصلُ أن في هذا العصر بلغَ الأدبُ المغربي كمالَه ، فتخلّص من سائر التأثيرات الأجنبيّة عن النفس المغربيّة ، وشقّ لنفسه طريقاً نحوَ الغاية المقصودة ، وهي سَدُّ حاجة تلك النفس الظامِئة الى حياة أدبيّة حُرَّة تتمثّل فيها عواطِفُها ومشاعِرُها وسجاياها ومزاياها مُصوَّرةً بصورةٍ طِبْقِ الأصْل لا رِياء فيها ولا تصنُّعَ ولا ادّعاء ولا تقليد ؛ فبلغ تلك الغايةَ وأوْفى عليها بمَزيد التفنُّن والإبداع ، ولا سيّما في الشعر الذي حمَلَ الطابَع المغربي وحْدَه منذ هذا العصر ، فتَجِدُ الحقيقةَ فيه تسْبِقُ الخيال ، والطّبْعَ يغلِبُ الصُّنْع والقَصْد الى الوُضوح أكثرَ من التعمُّق ، والرّقّةَ والجزالةَ والسهولةَ في غير ضَعْفٍ ولا غرابَة ولا فُسولة ولا نَنْس وصْفَ الشاعر ابن زمْرَك لطريقة أدباء المغرب بأنّها عربيّة ، وهو الذي نقلناه في الكلام على الحياة الأدبية في العصر السابق ، ويكفي أن في هذا العصر نبَغَ ذلك الشاعر الذي يحِقُّ أن يقال عنه ، إنه شاعرُ المغرب الأكبر ، ونعني به مالكَ بن المُرحّل الذي طبّقت شُهرته العالم العربي على رغم ما مُنِيَ به أُدباءُ المغرب من خُمُول الذكر ، والذي لم يسَع ابنَ خلدون إلا أن يعترفَ بشاعريّته

على ما عُلِمَ من تحفُّظه الشديد ؛ ولكن يا أسفي لضَياع شعر هـــذا النابغة الفَذّ وغيره من شعراء هذا العهد ، الذين نعتقد أنه لو وصلَتْ الينا جميعُ آثارهم لمَا بقي من يُنغِضُ رأسا عنـــد ذكر أدب المغرب ، لا من أمثال صاحب رسالة المفاخرة بين العُدْوَتَيْن ، ولا من أمثال صاحِبَيْ كتاب المطرب .

ونذكر الآن مختصَر تراجم النابهين من أدباء هـــذا العصر ، لأن الاتساع في ذلك والاحاطة بجميعهم مما يضيق عنه صدرُ هذا الموضوع .

مالك بن المُرَحَّل

هو أبو الحكم مالـكُ بنُ المرحّل السبتي ، أعظمُ شعراء المغرب شهرةً على الاطلاق ، ولد سنة ٦٠٤ ونشأ بسبتة خامـــلَ الذكر خفيَّ المنزِلة فأنهضَه أدبُه وشعرُه ، وعوَّضاه من الخمول الظهورَ ؛ فكان في عصره شاعرَ المغرب غيرَ مدافَع ، وأطبعَ شعرائه أسلوباً وأرشقَهم لفظاً، وأبلغهم معنىً . استعانَ على ذلك بالمقاصد اللسانية لغةً وبياناً ، ونحواً وعروضاً وقافيةً وحفظاً للجيّد من الشعر ، واضطلاعاً بمعرفة معانيـــه وتراكيبه ؛ فانه كان في ذلك نافذَ الذهن ، شديدَ الادراك ، قويَّ العارضة ، سريعَ البَديهة . وكان قد تلا القرآن بالسبْع ، وذلك مما زاده بصراً بأسرار العربيّة .

كان ابنُ المرحّل يتعاطى صناعةَ التوْثيق ببلَدِه سبتة ، واستُقْضِيَ مرةً ببعض الجهات ، وكان مدّاحاً ليعقوب المنصور المريني ومختصاً به ، وعلى تعميره وتقدُّمه في السنّ لم يضعُفْ في رواية العلْم والشعر والملحِ والفوائد ، بل كان إنما يزداد سعة درْع وانفساحَ بَاع في ذلك ، ومن شعْرِه لما بلغ الثمانين سنةً :

يا أيُّهـا الشيخُ الذي عُمْـرُه ... قـد زادَ عشْراً بعـد سَبْعينا

سَكِرْتَ من أكْوَاسِ خَمْر الصِّبَا ... فحَـدَّك الدهرُ ثمانينـا

وله تآليفُ سبقَ ذكرها ، وأخبارُه وأشعاره تأتي في المنتخبات ، وتوفي بفاس سنة ٦٩٩ هـ .

الملزوزي[١]

هو أبو فارس عبدُ العزيز الملزوزي ، شاعرُ الدولة المَرينية وبُلبلُها الصدّاح ، يأتي بعد ابنِ المرحّل في قوة العارضة وتدفّق الطّبْع والتفنّن والابداع في ضُروب القول . وكان المنصورُ شديدَ التقريب له فرافقَه في جميع حركاته ، ما كان منها بالأندلس أوْ بغيرها ، وصدر منه في وصف تلك الوقائع الحربيّة قصائد فخْمَة ، منها تلك التي قالها بعد عودة المنصور من غزْوته الكبرى بالأندلس سنة ٦٨٤ وهي مَلْحَمَةٌ فريدةٌ في الأدب المغربي تُناهز أبياتها المائتين والخمسين بيتاً ، هنّأهُ فيها بالنصر على العدوّ وعدّدَ أياديه على الرعيّة ، ونوّه بالأبطال من قبائل زناتة ، فاجازه المنصور عليها بعشرة ألاف دينار ، وأعطى مُنشِدها بين يديْه وهو الاستاذ ابو زيد الغَرَابِلي الفَ دينار ، وسنُثْبِتُها في محلها من هذا الكتاب . وللمَلْزُوزي أرجوزةٌ بارعة سمّاها نظم السُّلوك في أخبار من نزل المغرب من الملوك . وقد استشهدنا بأبيات منها فيما تقدم .

ابو العبّاس العَزفي

هو أبو العباس أحمد بن الرئيس أبي طالب اللّخمي من بيت العزَفي الذي تداول رياسة سبتة من لندن أواخر دولة الموحّدين ، كان شاعراً غزِلاً رقيقَ الحاشية ، شفّاف الدّيباجة ، بديعَ التشبيه ، حسن المُقابلة ، وهو فاضلُ أهل بيته في هذا الباب ، على أنه ما فيهم الا فاضلٌ ابنُ فاضلٍ ، ذكرَه أخوه الحافظ أبو القاسم في كتابه (الإشادة في المشتهرين من المتأخرين بالإجادة) فقال في حقه : « هو أخي ، الذي بإخائه أزهى وأنتخي ، وكبيري المُعتمَد باجلالي وتوقيري ، ولولا خوفي من أن يلزَمني ما لَزِمَ مادحَ نفسه ، لأطنبتُ في وصف ما له من المحاسن التي فاق بها

أبناءَ جِنْسه ، مع أنها لم تزَلْ على مَنصّة البيان مَجْلُوَّة ، وبألسِنَة الإبداع مَتْلُوَّة » دخل غرناطةَ سنة ٧٠٥ فلَقِيَ بها كلَّ تجلّة وإكرام ، وبقي بها الى أن توفي في ٢٨ ذي الحجة عام ٧٠٧ هـ .

ابو العبّاس الجزنائي

هو أبو العباس أحمد بن شُعَيْب الجزنائي الفاسي، شاعر كاتب متضلّع في فنون الأدب ، حافظ للجيّد من الشعر ذُكِر أنه كان يحفظ عشرينَ ألفَ بيت للمُحْدَثين . وكان له بصرٌ نافذٌ في نقْد الشعر ، وشِعْرُه مما سابَقَ به الفُحول وكِتابَتُه حسنة وخطُّه جيِّد . وكان كاتباً في ديوان الإنشاء عند أبي الحسن المريني ، وتسرَّى جاريةً روميّةً اسمُها صُبْح من أجمل الجواري وأحسنِهنّ ، ولقّنَها حظاً من العربية ، فنظمت الشعر ؛ وكان شديد الغرام بها فهلكتْ فلم يُطِقْ عليها صبراً ، وقال فيها أشعاراً رائعة هي مثال البلاغة والانسجام .

وكان من أهل المعرفة بصناعة الطب ، والنظر في التعاليم ، وتهتّكَ في علم الكيمياء ، وخلعَ فيها العذار وله فيها موضوعات كثيرة . توفي بتونس في جملة مخدومه أبي الحسن يوم عيد الأضحى سنة ٧٤٩ هـ .

ابو عبد الله المكودي

هو أبو عبدالله محمد بن عبد الرحمن المكودي الفاسي ، شاعر مُبْدِع من أهل الظرف والأدب والانطباع ، بيتُه فيما علمتَ من بيوتات فاس العَريقة في المجد والحسب . نبَغ بالشعر فبَرَّزَ فيه ، واشتغَل بالكتابة في الديوان السلطاني زماناً ؛ إلا أنه شاعراً أكثرُ منه كاتباً . وهو من الشعراء الذين يُعنَوْن بتصوير العواصف

النفسية الدّقيقة ، والتعبير عن الإحساسات القلبيّة العَميقة ، فيكون لشعرهم أثرٌ جميل في النفوس ، ووَقْعٌ حسن في القلوب . وكان قد غلب عليه الشّرابُ واللهْو ، فزَرَى به ذلك ، وحطّ من قدره ، فلم يُلحَظْ بالعَين التي كان يجب أن يُلحَظ بها ، ولم يرتفِعْ ذكرُه ما بين الأدباء والشعراء المعاصرين . ولقد دخل غرناطة فيما يُحدّثُنا به ابنُ الخطيب ، فلم يُؤبَه له ، ولم يُحتَفَل به ، وهكذا الاسترسالُ في مجاهل الهوى يُخِلُّ بالشرف ، ويقدَحُ في المروءة وتوفي سنة ٧٥٣ هـ.

ابنُ عَبْدالمنّان

أبو العباس أحمد بن يحيى بن أحمد بن عبد المنّان الأنصاري الخزرجي من أهل مكناس ، كاتبُ الدولة المرينية الشاعر الأديب ، الوصّاف المُعجب . كتب أولاً لأبي عِنان وله فيه أمداح بارعة ، ثم للسعيد أبي بكر وأبي سالم إبراهيم ، وأبي عُمر تاشَفين، وأبي زيّان محمد ، وأبي فارس عبد العزيز ، وأبي زيّان الثاني، وأبي العباس أحمد المستنصِر ، وصفَه الأميرُ اسمٰعيل بنُ الأحمر في نَثير الجُمان فقال: « به تشرّف المصر وتظرّف العصر ، وحِيطَ الصُّقع ، وخِيطَ الرّقع ، فتباهى الكلام بإقدامه ، وحطّ رأس التطوُّع بين أقدامه ، إن وصَف بَيّن ، وإن حلّى زيّن » . وهي أوصافٌ تُنبىءُ عمّا كان له من الكفاية والاقتدار في المَيدانين السّياسي والأدبي ، وشعرُه مُنوّعُ الأغراض ، ينتقِلُ فيه من فنٍّ إلى فن بغاية السُّهولة ، ولذلك يطولُ نفَسهُ ، ويأتي بالسّابقات الجياد . وهو لطيفُ التصوير ، بليغُ التعبير ، وصَف الساعة العجيبَة التي ركّبها أبو عِنان في مُواجَهة مدرسته بفاس فأحسن الوصف ، وكذلك وصفَ قتلَ الأسد بين يدَي مخدومِه المذكور ، بقَصره من المدينة البيضاء فاس الجديد ، ودُخولَ المُحتال في الأكرَة المُعدّة للتحرُّش بالأسد والشبكة المُعدّة لصيد الأسود في الفلاة وغيرَ ذلك؛ فأجاد في الجميع إجادَةً بالغة . وسنورِدُ هذه الآثار البديعَة في المنتَخَبات ، وتُوفي ابنُ عبد المنّان سنة ٧٩٢ .

ابن جابر المكناسي

هو أبو عبد الله محمد بن جابر الغسّاني المكناسي ، شاعرٌ مجيد عالمٌ بالقراءات وتوجيهها ، متصرّفٌ في فنون العربيّة والأدب ، أكثرُ شعره الوصفُ والنّظم التعليمي . ويمتازُ بالسلاسة والعُذوبة وقوّة التخيُّل . كان له شهرة مُطبّقة في أيام حياته ، وكان في مكناس كعبةَ القُصّاد من الأدباء والطلبة وغيرهم يجدون لديه ما تصبو إليه أنفسُهم من مُذاكرة الأدب ، ومُدارَسَة اللغة ، وكان حلوَ النّادرَة ، بديعَ الحكاية ، فكِهَ المحْضَر ، لا يكادُ جليسُه يسلو عنه . له نُزهَةُ الناظر لابن جابر ، في وصفِ بلدهِ مكناس وله غيرُها . وتوفي سنة ٨٢٧ ﻫ .

وهو غيرُ ابنِ جابر صاحب البديعيّة فان ذلك أندلسي .

●

عصر السعديـين

سياسة الدولة

هذه ثانيةُ دولة عربيّة صريحة قامت في المغرب بعدَ الأدارسة ، بل ثانيةُ دولة علويّة بقطع النظر عمّا أرجَفَ به خصومُها من الطّعن في نسبها . وهي لم تستند في قيامها الى مهدويّة ولا الى عصبيّة ، وإنما من أول الأمر كان نهوضها لتحقيق أُمنية وطنيّة ، هي تنظيمُ القوّات الجهاديّة وقيادتُها لطرْد الأجانب المحتلّين لشواطىء البلاد وذلك بطلبٍ من المجاهدين أنفسهم ، فأشبهت في هذا الأمر الدولة الإدريسية من حيثُ كونُها مطلوبةً لا طالبةً ، وكون نهضتها سياسيّة من أول الأمر لم تُموَّه بشيىءٍ من الدعاوى الكاذبة ؛ وكونُ القائمين بنُصرتها والمنضَوين تحت لوائها هم البَرَبرُ الذين قاموا بنُصرة الأدارسة من قبل ، وانضَوَوا تحت لوائهم . والعَجيبُ هو أنهم نصروهم على دولة بني وطّاس البربريّة ، فلم ينظروا إلى ما تقتضيه عصبيّة النّسب واللغة والقوميّة من الاحتماء لهم والدفاع عن سلطانهم أن يزول ، وفي زواله فشلُ أمرهم وذهابُ ريحهم ؛ لكنها كانت زاغت عن الصراط المستقيم واشتغلت بالتهالُك على طلب السلطة ، وظنّت الملكَ هو هذه المواكب التي يظهرون فيها بمظاهر الفخفخة والاختيال ، من غير نظر في مصالح الرعيّة ولا اهتمام بتحصين البلاد من هجَمات العدو . فسَرعانَ ما اختلّت الأمور ، وتعرّضت الأمة لشقاء الاحتلال وتحكُّم الأجنبي فيها فكثُرت إغارةُ البرتغاليّين على الشواطىء واحتلّوا منها ما احتلّوا وأخذوا يُعدّون العُدّة لضمّ أطراف المغرب بعضها الى بعض ، وتمثيل مأساة عام ١٩١٢ في ١٥١٢ ، فكيف لا يتّحدُ البربر والعرب على رفع هذا العار عنهم وتلافي الخطر المُحيق بهم ؟ وبعدُ فهل تريد دليلاً أقوى من هذا على صِحّة إسلام البربر وصدق إيمانهم وتغلغل الروح الديني والتعاليم المحمدية في نفوسهم ، حيث غلّبُوا الرابطة الدينية على العصبيّة الجنسيّة والأخوّة الاسلامية على النّعرة القوميّة ، فدلّوا بذلك على اتحادهم مع العرب وائتلافهم بهم اتحادَ الروح مع الجسم وائتلافَ اليمين بالشمال ؟ اللّهم إنّ من يزعُم غيرَ ذلك ، ويُكابرُ في هذه الحقيقة الملموسة فانما غرضُهُ السّعايةُ وبثُّ سموم البغضاء بين ذوي القرابات الوشيجَة والأرحام المُشتبكة .

دبّت عواملُ الانحلال في جسم الدولة الوَطّاسية وأخذ الضعفُ منها مأخذاً عظيماً فقصُرَت سلطتها على حواضر المغرب ، ولم يبق لها نفوذ فيما عداها من البلاد النائية ، والقبائل العاتية . وقد استنفذ مجهودَها واستفرغ قوّتها ما كان قائماً بين أفرادها من التنازع على نيْل السلطة والاستبداد بصولجان المُلك ، ثم ما كانت تُعانيه من قتال العدوّ المحتلّ بالثغور ، وخصوصاً القريبة من عاصمة الدولة فاس ؛ فلم يكن لديها قوّةٌ كافيةٌ تُمكّنها من القيام بدور حاسم في السواحل السوسيّة البعيدة حيث طغى سيلُ المستعمرين البرتغاليّين ، لمّا عرفوا أنهم بمنجًى من طلب رجال الدولة وتعقُّب آثارهم ، ولذلك أخذوا في بناء المعاقل والحصون والتهيُّوء والاستعداد لليوم الذي له ما بعدَه ؛ فضاق المسلمون بهم ذرعاً وغصُّوا بمكانهم من تلك البلاد التي هي حلقُ السُّوس وفمُ عاصمة الجنوب .

ورأت قبائلُ المصامدة المباركة ذلك فساءَها أن يكون عبيدُها بالأمس أسيادَها اليوم ، وأن تبلغ القِحَة بأولئك البُلْه الأغرار الى أن يتحدَّوها في بلادها ، ويجرُءوا على خَضْي أُسودِ الشّرى في عرينها ؛ فتقدّموا إليهم بنفوس أبيّة وأنوفٍ حميّة . لكنهم لما كانوا يعرفون أن يدَ الله مع الجماعة ، وأن القوّةَ في الاتحاد ، أخذوا يبحثون عن ذلك الشخص الذي يولّونه قيادَهم ؛ فسرْعانَ ما أُرشدُوا اليه فكان هو الشريف أبو عبدالله محمد القائم بأمر الله وكان مُقيماً بدَرْعة ، فبعثوا اليه فقدِم عليهم . واجتمع فقهاءُ المَصامدة وشيوخ القبائل ، وبايعوه فكان هو واضع الحجر الأساسي في بناء هذه الدولة الشامخ ، ولقد ساعده الحظُّ وكُتِبَ له الظّفَر فأجْلى الأعداء عن أرض الوطن وزحْزَح قدَمهم التي كانت قد رسخَتْ فيها ، فتيمّنَ المسلمون بطلْعته وتفاءَلوا بطائره .

وكان له ولدانِ أُرْضِعا أفاويقَ النّجابة والبراعة ، واقْتَعَدا أسنمةَ النّجدة والشجاعة فدعى الناس الى بيعة أكبرهما وهو أبو العباس أحمدُ الأعرج الذي دخل مراكش سنة ٩٣٠ وحاربَ الوطّاسيّين وجاذَبَهم حبْل السلطة في المغرب زماناً ، حتى تدخل الناس في الصلح بينهما فانبْرَم عقْدُه على أن يكون للأشراف السعديّين من تادلة الى السوس ، وللوطاسيّين من تادلة الى المغرب الأوسط . وكان السّاعي في عقْد هذا الصلح جماعة من العلماء والشرفاء والأعيان. ثم شالَتْ نعامةُ السلطان أبي العباس الأعرج ونهضَ أخوه أبو عبدالله محمد الشيخ المَهْدي ، وكان شهماً ذكيّاً عاليَ

الهمّة ، رفيع القدر ، عالماً مُتفنّنا ، أديباً أريحيّاً سياسيّاً مُحَنّكاً ؛ فذلّلَ الصّعاب وسنّى العِقَاب ، وتغلّب بطولِ أمله وحُسْن مُصابرَته للأمور على جميع المَشَاق ، وكان يقول : « ينبغي للملك أن يكون طويل الأمل ، فان طُولَ الأمل لا يَحْسُن الا منه ، لأن الرعيّة تصلح به » فمهّد البلاد وأخضَع العباد ودَخل فاس سنة ٩٥٠ وأجلى منها آخرَ ملوك بني وطّاس . ثم قضى عليه بعد ذلك وعلى دولته فصفا له مُلْكُ المغرب من أقصاه الى أقصاه ؛ فقعّد قواعده وشادَ مَبانيه ، وأحْيى مَراسِم السّلْطَنة الدارسة ، ومعالِمَها الطامسة ، وكانت سيرتُه وسياستُه كلها مثالَ الحزْم والضبط ودليل الحِكْمة والاقتدار .

ثم تلاه ابنُه عبدُالله الغالب فاقتفى أثرَه في حُسْن السّيرة ، وكان محبوباً من الشعب بجميع طبقاته . ونشِطَت الحركةُ الاقتصادية في زمانه ، وكثُر البُنيان ، واسْتَبْحَر العُمْران ، وكانت أيامه كلُّها أيام دَعَةٍ وأمْنٍ ورَخَاءٍ وعافية ، ولما توُفي قام على العرش ولدُه محمد ، وكان للغالب أخَوان تغرّبا بالجزائر مُدّةَ توْليَته المُلْك خوفاً على أنفسهما منه ، وهما الغازي أبو مَرْوان عبد الملك المُعْتَصِم بالله ، وأبو العباس احمد المنصور الذّهَبي . فحين سمِعا بوفاة أخيهما واستيلاء ابنه على الملك ، وانتزاعِه تُراثَ أبيهما من أيديهما ، لم يرْضَيَا بالدّنيّة ، ووثبا وثْبةَ الأسد الهَصُور ؛ فلم يهدأ لهما بالٌ حتى دَبّرا بيْنهما خُطّة الدفاع عن حقّهما المُغتصب ؛ فسافر الغازي أبو مروان الى القسْطنطينيّةِ العُظمى ومَثُلَ بين يدي السلطان سليم الثاني وطلب إليه أن يَمُدّه بجيشٍ يدخلُ معه المغرب فينتزع الملك من ابن أخيه ، فلم يُجِبْه الى طلبه لاشتغاله بأمر تونس التي كان الاسبان يُهاجمونها في ذلك الحين . فبقي هناك حتى جهّز السلطانُ حملةَ سِنان باشا التي انتزعتْ تونس من أيدي الأسبان فصَحِبها أبو مروان وأبْلى فيها بلاء حسناً ، ثم كان هو أولَ من أبلغَ بشارة الفتح الى السلطان فجازاه على ذلك بأن أمر كتيبةً من الجيش التركي الجزائري يبلُغ عددُها أربعة آلاف رجل ، فدخلتْ معه الى المغرب بعد أن اشترطت عليه أن يُعطيَها عشرة آلاف عن كل مَرْحَلة .

وما إن شارَفَ فاس حتى خرج اليه ابنُ أخيه ، لكنّ جيشَ هذا انْضَمّ الى عمه . وكان الغازي يُكاتِبُ القواد والوزراء أيام مُقامه بالجزائر ويَعِدُهم ويُمنّيهم . فلما جاء كانوا كلُّهم على هواه ، فانقادُوا اليه ، وهكذا رجعَ المُلْك الى نِصَابه

فاستقلَّ به أبو مروان ناهضاً بأعبائه ، مُضطلعاً بشؤونه ، وكانت تلك المــدَّة التي قضاها مُشرَّداً عن بلاده ووطنه قد عملت عملها في تنشئته وتدريبه على السعي المحمود والعمل النافع . كما أن تجوُّلاته ومشاهداته قد اكسبته خبرةً واسعة بجميع الشؤون ، ودُرْبةً سياسية نادرة ، فأدخلَ عدَّةَ إصلاحاتٍ مهمةً على الإدارة والسياسة ، أهمُّها ما كان مختصّاً بتنظيم الحربيّــة ، حيث اقتبس سائرَ نُظُم الجُنْدية العثمانية . وسار بالجند المغربي في سبيلها حتى بلغ النهاية ، فلم تحُلّ واقعةُ وادي المخازن حتى كان لديه جيشٌ مُنظّم مُدرَّب على أصول الحربيــة الفنيّة يندُر وجُودُ مثله في ذلك الحين عند الممالك المعادية كالاسبان والبرتغال ، وهما إذ ذاك من أعظم شعوب أوربا قوةً وأمضاهم شوكةً .

وقد شاهدْنا نتيجةَ هذا الاصلاح العَمَلي للجيش في قهره أكثرَ من مائة الف جُندي أرادَ ملكُ البرتغال أن يستذل بهم المغرب ويُخضعَه لحكمه ؛ فساءَ فالـُه ، وخاب أمله ، وكان كالباحث عن حتفه بظلفه ، والجادعَ مارنَ أنفه بكفّه ؛ إذ وقع مُتردّياً في هاوية البَوار ، وباءَ هو وجُيوشُه الكثيفة بالدَّمار ، وذلك في واقعة وادي المخازن الشهيرة التي جرت يوم الاثنين مُنسلخ جمادى الأولى سنة ٩٨٦.

نعَمْ شاهَدْنا هذه النتيجة السارَّة ، وان لم يُكتَب لبَطَلها العظيم ان يُشاهدها مع الأسف حيث انه تُوفيَ أثناء المعركة محمُوماً . لكنّا نُؤمن أنه ما أغمض عينَيه حتى أغمضها عن يقينٍ ثابت ، واعتقادٍ راسخ بالنّصر والغلبة ، حيث عرف أنه قد بنَى وأحسَن البناء فاطمأن قلبُه ، وهدأ روْعُه ، وصَعِدت رُوحه الى الملأ الأعلى تُشرفُ من بَرْزخها على مَيْدان القتال ، وتُبارِكُ المجــاهدين وتستقبِلُ أرواحَ الشهداء في عِلّيِّين .

ولما انكشفت المَوْقعَةُ عن انْدحَار العدو وانكِسَاره ، نظر الناسُ فوجدُوا سُلطانهم قد تُوفي ، فما كان بأسرع منهم الى بَيْعَة أخيه وخليفَته ورَفيقه في غُرْبته السلطان أبي العباس أحمد المنصور الذَّهَبي . وإنه ليَوْمٌ عظيم وعيد فخْم حيث خرج الناس من الموقعة وهم سُكَارى بنشوة النصر . وزاد فرحَهم انتصاب هذا الملِك الهمام على عرش آبائه الكرام لِمَا كانوا يعرفُونه من نجدته وشجاعته ،

وجُوده وحِلمه وأخلاقه العَالية التي لا يُمكِن تَعدادُها هنا ، فناهيك به من يوم ٍ اجتمعت فيه أسباب الفرح ، وغابتْ عنه مُوجبَات التـرح .

وماذا أُحدِّثُك بعدُ عن سيرَة هذا السلطان وما بلغه المغربُ في أيامه السعيدة من القوة والعظمة والحضارة والرقي والرَّفاهية والعُمران ؟ لقد كان المنصورُ بحقٍّ وَاسطة عِقْدِ الملوك السعديّين ، وقد رأيت أنه لم يكن فيهم الاّ فاضل ابنُ فاضل ، ومن يُنشِدُ معَ القائل :

إذَا سيِّدٌ منَّا خَلَا قامَ سيِّدٌ قَؤُولٌ لِمَا قال الكرامُ فَعُول

فالمنصور كان عالماً الى درجَةِ الاجتهاد ، والى أن جَزم علماءُ عصره بأنـهُ المجدّدُ في القرن العاشر . وكان أديباً شاعراً كاتباً سابَق فُحول الصِّناعتَيْن من أدباء دولته ، وكان سياسياً مُحنّكاً وقائداً شجاعـاً وإداريّا مُنظّماً ومُصلِحاً اجتماعياً كبيراً . وبالجملة فلقد اجتمعت فيه أوصافُ الزَّعامة وأشراطُ الإمامة ، حتى لقد كان دماغ الأمة المفكـر وقلْبَها النابض ويَدها العامِلة .

يكفيك أن تنظرَ الى مشاريعه العِظام ومآتيه الجِسام ؛ فمن فتْحِ السُّودان وُتواتَ وتيكـُرارين ، حتى أصبحتْ الصحراءُ الأفريقيةُ كلُّها في قبضة يده وتحت تصرُّفه ؛ فاتَّسعَتْ دائرةُ نفوذِه الى ما لم يبلـُغْه قبلـَه في هـذه الجهة سلطانٌ واكتسَت المغربُ بذلك جلالةَ قدر ورفعةَ شأن ، وجعَـلَ يتقلـَّبُ في النـَّعماء كيف شاء ؛ إذ لا يخفى أن هـذه البلاد الشاسعة كانت تحتوي على منابع الثروة الطائلة ، وكنُوزِ الغِنى الوافر ؛ فقد كان الذهب يُجْبى اليه منها بالأحمال ، وكان في دار سَكـَّةِ المنصور أربعَ عشْرةَ مائة مِطرَقة كلَّ يوم تضربُ الدينارَ الوَهّاج ، وهذا غَير المَصُوغات والحُـلِيّ ، ولذلك سُمِّي المنصورَ الذَّهبيَّ -إلى إحيائه سُنَّةَ المشُورة وجعْلِه الحكومةَ شرعيةً أشبَه شيء بالحكومات الدُّسْتُورية النيّابية ، وذلك بفتحِه للدِّيوان الشُّوري الذي كان يعقِدُ مجالِسَه كلَّ يوم أربعاء من الأسبوع ، ويحضُرُه وجُوه الأمة وسُراتُها فيتفاوضون في شؤون المملكة وتدبير سياستها ، فلا يقطعُ في أمر بدون أن يعرف رأيَ الأمة فيه — الى بنائه للقصور التاريخيَّة العظيمة كالبديع ، وغير القُصور من الحُصون والجُسور — الى إعادته تنظيمَ الجُنْد من جديد

مُوَفّقاً بين النظام المستَعجِم الذي جنَحَ له أخوه المعتصِم ، وكرِهَهُ الناسُ وقوفاً مع العوائد ، والنظام العربي الذي كان قبْله ؛ فجاء في غاية مـا يكون من النظام والترتيب . وسيأتي وصفُه في قصائد شعرائه في قسم المنظوم — الى تنشيطه للصنائع الوطنية بأنواعها وإدخال ما لم يكن معروفاً منها قبلُ ، وتعضيده للفلاحة الذي أتى بأحسن النتائج ، حتى في أنواع المزروعات التي لم يسبق للبلاد بها عهد ، كقَصَبِ السكّر الذي نجحَت زراعتُه نجاحاً كبيراً ، مما أدّى الى إنشائه لمعاصِر السكّر العديدة في بلاد سُوس ومراكش والغرب ، حتى كثُرت هـذه المادّة الضّروريّة بالمغرب ولم يبقَ لها ثمن ، فكانت أكثرَ صادراته الى أوروبا وغيرها . وكان يُبادِلُ الايطاليّين بها الرُّخام — الى غير ذلك مما يطول تتبُّعه .

ولا يمكننا أن نأتيَ في هذه النُّبذة عـلى وصفِ ضخامة ملك أبي العباس المنصور وحُسن سيرته ، وإنما حسبُنا أننا أشرنا الى لُمَعٍ من ذلك . ويقال بالجملة إن أيامَه كانت غُرَّةً في جبين التاريخ المغربي ، وإنّ الدولة السعدية لو لم تُنجِب إلا إيّاه لكفاها فخراً . على أن الدهر الخؤون لم يلبَث أن أعلن حربه عليهـا بعد وفاة المنصور فتردَّت من ذلك العلو الشاهق الى الحضيض الأسفل .

ومن السُّخف أن يُحاول الانسان الكلام على حياة هذه الدولة بعد وفاة المنصور وإن امتدَّت الى حين . وكذلك نحن ننتهي هنا ، وفي اعتقادنا أننا أعطينا القارىءَ صورةً مُصغّرةً من سياسة هذه الدولة وسيرتِها في رعيتها التي أولتها قِيادَهـا وسلّمت لها أمرها عن رضًى وطيب خاطر منها ؛ فلم تُخيِّب فيها ظنّها ، وأتت بما يتناسُب مع طيب عُنصُرِها وشرفِ أصلِها ، إلا ما كان من أفراد قليلين لا يُمكنُ أن يُؤخَذ الأبرياءُ بذنبهم ، وهم فوق ذلك شبّانٌ أغرار لم يصدُروا في شيءٍ من أعمالهم عن خبثِ نية أو سوءِ قصد .

الحركة العلمية

لو صحّ ناموسُ النشوء والارتقاء وكان كلُّ شيءٍ في هذا الوجود مطّرداً مستمرّاً يتّصلُ أوّله بآخره، وترتبطُ أطرافُه بعضُها ببعض، لكان للمعارف اليوم في بلاد المغرب شأنٌ غيرُ هذا الشأن؛ إذ قد رأيت ما كانت عليه من التقدم والانتشار في عصر المرينيّين، فما ظنُّك لو بقيَتْ سائرة نحو غايتها القُصْوى من التكمُّل والنَّماء منذ ذلك العهد الى الآن؟

ولا نقصِدُ أنها في هذا العصر تقصُر عمَّا كانت عليه في العصر السابق أو تقلُّ عنه شأنا، وانما نتأسّفُ للوقوف الذي اعتراها في تلك الفترة التي كانت الدولةُ الوطّاسيةُ مُسَيطِرةً فيها على المغرب والتي لم تذق البلاد فيها طعْم السلم والراحة، حتى كاد اليأسُ يستولي على النفوس، لولا أن تدارك الله هذه الأمة بضَمّ شمْلها واجتماع كلمتها على يد زعيم هذه الأسرة السعديّة المباركة كما سبق القول.

وحينئذ بعد استقرار الأحوال ورجوع الأمن الى نصابه، عاد لكلّ شيءٍ رَوْنقُه وبَهْجتُه، وأقبل كلٌّ على شأنه. ورجالُ العلم أيضاً أخذُوا في إحياء ما اندَثَر وجمع ما تبَعْثر من سالف ذلك المجد العلْمي والتاريخ الأدبي؛ فلم تَنْشَب حركة العلوم والآداب أن عاودَها النشاط والانتعاش، وخصوصاً بعد ما أنسَتْ من الملوك السعديّين وعلى رأسهم المنصور الذهبي ذلك التعضيدَ الذي سبقت الإشارةُ اليه.

بيد أنها إن كانت نهضَتْ من جديد فانها لم تَعْدَم ما يقعُد بها عن استئناف السير الى الامام، نتيجةً للرُّكود العام الذي أصاب الحياة الفكْرية، فمنذُ هذا العهدِ في سائر بلاد الاسلام؛ فقد أصبح العلماءُ وأكثرُهم نشاطاً وأعظَمهُم اجتهاداً هو من يقف عند الغاية التي وصل اليها مَن قبلَه في هذا العِلْم أو ذاك ومن يجتَرُّ المقررات التي وقع الفراغ منها قبله. فان أظهر براعةً وأبدى تفوُّقاً ففي هذه

الظاهرة التي عمّت فأعمَت ، وهي ظاهرة الاختصار والتعمّق فيه التي أشرنا في العصر السابق الى مضارها الجسيمة ، حتى أفضَى الأمرُ الى أن أصبحت العلوم في حالةٍ من الغموض والإبهام تصُدُّ عنها كثيراً من الطلاب . وهذا الأمر إن لم يكن أخّرها كثيراً ، فقد عاقَها عن التقدم والانتشار طوَال المدة التي بقيت فيها قيْدَ الإنشاء والاعادة .

العلوم الشرعية :

ويُقال بالجملة ان العلوم الشرعية كالفقه والحديث والتفسير قد كانت منتشرةً بكَثْرة على نِسْبَة ترتيبها هذا ، الذي ذكرناه ؛ وإنما الذي ظهرت عليه آثارُ التحوُّل هو الفقه ، فالغالب ان كتبَه التي كانت مُستعملَة في العصر المريني قد اطرِحَتْ الآن ولم يبق منها الا القليل ، وأُخِذَتْ كتبٌ أُخر مختصرةٌ عِوضاً عنها وظهر نشاطٌ كثير وتنافسٌ في شرح هذه المختصرات والتعليق عليها .

وإن نَنْس لا ننس ما جَدَّ في هذا العصر من كثرة الإقبال على عُلُومِ القراءة وشدَّة العِنَايَة بها ، حتى لقد تخَصّص بها علماء كثيرُون لا يُزاولُون غيرها من العلوم ، كما شارك فيها سائرُ العلماء ، بل كان وصفُ العَالميّة لا يَكمُل الا بها . ويمكننا أن نقول إن هذا كان عصرها الذّهَبي في افريقية كلها ، الذي بلَغتْ فيه الى أوْج الكمال . وحسبُكَ دليلاً أن وَقْفَ القرآن الذي وقع الاجماع عليه وجرَى العمل به في المغرب منذ ذلك الوقت الى الآن ، إنما وُضِعَ في هذا العصر وكان واضعُه هو الاستاذ الصهاجي .

أما الكلام فقد قامت له ايضاً دولته ، إذ وُجِدَ ما حفَزَ الهِمَم للاشتغال به ، وهو تلك المناظرة العنيفة التي قامت بين الشيخين الخرُوبي واليَسيتْني أولاً ، وبين هذا الثاني والشيخ الهبطي ثانياً ، في مسألة الهيللة ، هل الحق سبحانه وتعالى مما يدخُل في النفي بلا ، وهل تنتفي بها أُلوهيَّةُ الصنم وغيره مما عُبِدَ من دونه باطلاً أم لا ؟ وقد استمرت هذه المناظرة زماناً طويلاً وثار بسببها شَرٌّ كبير بين العلماء حتى تدخَّل السلطان نفسُه فيها ولم يُجْدِ ذلك شيئاً . وبقيت المسألة على حالها الى أن تأدَّتْ الى العصر العلوي ، فلم تعدَم من يروِّجُها من الطلبَة . ثم تصدَّى لها

أبو علي اليوسي فلم يترك مقالاً لقائل على عادته ، وقطعَتْ جهيزَةُ قولَ كلِّ خطيب .

ولم تكن هذه المناظرة هي الوحيدة من نوعها فقد قامت بين اليَسيثني ايضاً ، والشيخ عبد الوهاب الزقاق مناظرة أخرى في مسألة خُلفِ الوعدِ من الله تعالى ، فقال الزقّاق ان ذلك يَصِحُّ منه ، وخالفه اليسيثني . وألّف كلٌّ منهما في المسألة مُنتصراً لرأيه ، مما يدل على زيادة اعتنائهم بهذا العلم وكثرة اشتغالهم به .

وأما التصوّف فقد كان طغى عليه سيلُ التدليس والتلبيس ، فقيَّض الله له مثل ابن خجو والهبطي ، فهذباه ونقّحاه . وكان الشيخ أبو العبّاس الصّومعي ، حاملِ رايتِه علماً وعملاً ، وممّن لم يستغِلَّ مقامه وجاهَه ولا استغلّه أحدٌ على كثرة هذا الصِّنف في المُتصوِّفة بهذا العصر .

هذا ما يرجِعُ الى علوم الشريعة . وأما علوم الأدب فالنحو بالخصوص مما ظهر عليه أثرُ التحوُّل جَلِيّاً واضحاً ، فاقتَصر طُلاّبُه على اثنين أو ثلاثة من الكتب المختصرة أو المنظومة لا يُجاوِزونها الى غيرها أبداً ، وقد نشط العلماء في شرح هذه الكتب والتعليق عليها نشاطاً لا مَزيدَ فوقه .

وأما علوم البلاغة فانها كانت نافقةً جداً ، إلا أن أثرها في الألفاظ كان أقوى منه في المعاني ، وعلى الأخص عند بعض الأدباء الذين شُغِفوا بالبديع فأكثروا منه الى حدّ الإغراب . وقد كان على رأسهم المنصور الذهبي الذي هو في ملوك المغرب كابن المُعتزّ في ملوك المشرق إلا أن هذا لم تُدرِكه حُرفةُ الأدب كما أدركت سَلَفَه .

وأما علم التاريخ فهو الوحيد من علوم الأدب الذي ازدَهَر في هذا العصر ازدهاراً كبيراً إذ رُزِقَ رجالاً أكفاءً انصرفوا لخدمته ووجّهوا اهتمامَهم اليه ، وبالخصوص تاريخ السعديّين الذي لولا هذه العناية لظلَّ محجوباً عن الباحثين ، كتاريخ الوطاسيّين قبلَه ، مُحاطاً بالغموض الذي يُحوِجُ المؤرّخَ الى الرَّجم بالظنون وافتراض الفروض ولعل هذا الاهتمام كان منشأهُ تعضيدَ الأشراف السعديّين للمؤرخين وعلى الأخص المنصور الذي اجتمع في بلاطه عدد كبير منهم كالعلاّمة المقّري صاحب نفحِ الطّيب وأزهارِ الرياض وغيرِهما وأبي العبّاس بنِ القاضي وعبد العزيز الفشتالي ومحمد بن علي

النسّب ومحمد بن عيسى الكاتب وغيرهم . ناهيك بفدائه لابن القاضي المذكور لمّا وقع في أسر الافرنج بألوف الدنانير الذهب .

العلوم الكونية :

وهذا في العلوم الأدبية . وأما العلوم الكونيّة فما كان ممّا تقتضيه في الجملة ، طبيعة العُمران البشري وخلّة الاجتماع الإسلامي فانه كان منتشراً بكثرة ، وذلك كالهندسة والهيئة والطب وما إليها . وما عدا ذلك فلم نقف له على خبر .

أما الطب فقد كان للدولة مزيدُ اعتناء بأهله واهتمام بشأنه ، وحسبُك ما أسداه المنصور لطبيبه الخاص أبي عبد الله محمد الطبيب ، وما خلع عليه هو ورجالُ دولته ، لما استقلّ من مرضه المخوف وتداركه الله على يد الطبيب المذكور عام ٩٨٧ وكان هناك أطباء كثيرون منهم أبو القاسم الوزير صاحبُ كتاب المفردات المشهور وأحمد المريد وابنُ سعيد المرغيثي وغيرهم . ومما يدل على ارتقاء شأن الطب في هذا العصر ما وصفه المنصور من أنواع الوقاية والعلاج في كتابه الذي بعثه الى ولده بمراكش عند ظهور الوباء ونصُّ المراد منه : « والى هذا أسعدكم الله أولُ ما تبادرون به قبل كل شيء هو خروجكم إذا لاح لكم شيء من علامات الوباء ولو أقلُّ القليل حتى بشَخْص واحد ، ثم لا تغفُلوا عن استعمال التِّرْياق أسعدكم الله ، فالزموه واذا استشعرتم بسلامة بحرارةٍ وتخوّفتُموها فاستعمِلوا الوصف من الوزن المعروف منه ولا تُهمِلوا استعمالَه . وأما ولدُنا حفظه الله لمكان الشبيبة فحيث يمنعه الحال من المداومة على الترياق فهنا هي الشُّربة النافعة لذلك قد تركناها كثيرة هنا لكم عند التونسي فيكون يستعملُها هو والأبناء الصغار المحفوظون بالله ، حتى اذا أحسّ ببَرْد المَعِدة من أجلها تَعطوه التِّرياق فيعود اليها . والبراءةُ التي تَرِدُ عليكم من سوس أو من عند الحاكم أو من عند ولد خالكم أو من عند غيرهما لا تُقرأُ ولا تدخُل داراً بل تُعطى لكاتبكم هو الذي يتولى قراءتَها ويُعرّفكم مُضَمَّنها . ولأجل أن الكاتب يدخُل عليكم ويُلابِسُ مقامكم فلا يفتحها إلا بعد إدخالها في خلّ ثَقيف وتُنشَر فتيبس وحينئذ يقرأها ويُعرّفكم بمُضَمَّنها إذ ليس يأتيكم من سوس ما يستوجبُ الكتمان » .

ومما في هذه الرسالة مما يتعلق بالبَيْطَرة وهي طب الحيوان قوله : « وأوصيكم

أعزكم الله أن تتفقدوا فرسنا الأحمر الصغير ولا تتركوهم يعطونه القصيل لئلا يكثر لحمه ويزاد ألمه ، بل انظر من يركبه كل يوم ، بل لا ينزع السرج بالكلية عن ظهره بياض النهار كله وأعطوه لصاحب روض المسرة يركبه في ذهابه وايابه للمسرة أو لداره وأوصوه أن لا يركبه غيره . »

وأما الهيئة فقد كان لها فضل انتشار أيضاً ، لمكان الحاجة اليها في معرفة أوقات الصلاة والامساك والافطار في الصوم وغير ذلك ، وقد ألفت فيها وحدها ومع الحساب كتب عديدة . ومن علمائها المشهورين : البوعقيلي والمرغيثي وغيرهما .

وفي غير ما ذكر نقول أنهم ذكروا في ترجمة المنصور كدليل على نبوغه وعبقريته أنه قرأ كتاب أقليدس الهندسي وفك جداول له بنفسه من غير استعانة على ذلك بأحد لفقد « من يحسن ذلك الشأن في عصره » . وهذا لا يتوافق مع ما عرف عن هذا العصر من استبحار العمران وكثرة البنيان وشيوع فنون الزخرفة من النقش والتزويق وغير ذلك مما لولاه لما أمكن بناء قصر البديع العديم النظير وغيره من الحصون المنيعة والقناطر الرفيعة التي تحتاج في وضع تصميماتها وبنائها الى جهود الجبابرة ، وعقول الجهابذة من رجال الفن والهندسة المعمارية .

وفعلا فاننا نرى أنه كان هناك رجال ممن يحسنون « ذلك الشأن » أو على الأقل ممن شارك فيه نظرياً مثل ابن القاضي الذي ألف كتاب المدخل الى الهندسة ، وأبي القاسم الغول الذي ألف كتاب كيفية قسم المياه على قواديس الديار . ولا بد ان يكون هناك آخرون لم نعرفهم وعنهم اخذ هذان وغيرهما ، فبإضافة هؤلاء الى الرجال العمليين الذين كانوا موجودين بكثرة يتضح ما في قولهم لفقد من يحسن ذلك الشأن في عصره ، من المبالغة . إنما الواقع أن الاشتغال بهذه العلوم كان نسبياً وبمقدار مع طغيان الاقبال على العمل دون النظر ، والأول وإن كان هو الأجدى والأنفع إلا أن الثاني له خطره ومزيته في حفظ الذماء العلمي وصون التراث الفني .

ولا نظن الكلام على الآثار الفنية الرائعة التي تخلفت عن هذا العهد وأخصها قصر البديع بمراكش وما توحي به من رسوخ قدم الصانع المغربي في فنون المعمار وعمل

المُقرْبَصات والزَّلّيــج والنقش على الجِبْص والخشب والتّلوين والتذهيب وما الى ذلك – إلا من الكلام المُعاد ، لا سيما وهذه مقابرُ السعديين بمراكش ما زالت ماثلةً العيان تغني مشاهدُتها عن كل بيان. أما قصرُ البديع فقد نُقِضَ مع الأسف الشديد، ولم تبقَ الا أوصافُه المعجِبة المطرِبة مُسجَّلةً في الأشعار البليغة التي قيلتْ فيه ، وكُتِب على جدرانه ، ويتضمن قسمُ المنظوم من هذا الكتاب جملة صالحة منها.. لكن الذي ينبغي تسجيلُه في الكلام على الحياة الفنّيّة في هذا العصر هو النهضة الموسيقيّة التي تتمثّل في المحافظة على الطرب الأندلسي بجميع ألحانه ونغماته. وقِطعه وأدواته، ثم تجديده وتكميله بما هو منه بسبيل كإضافة بعض الآلات وتوليد بعض الطبوع ، ومن ذلك طبْع الإستهلال الذي استنبطه الحاج علي البَطَلة ، من أهل فاس ، على عهد السلطان عبد الله الغالب بن محمد الشيخ المهدي وهو خارجٌ عن شجَرة النغَمات الأصول والطبوع المتفرّعة عنها ، التي وضعَها الموسيقيون لذلك . ولكنَّ الغالبَ عليه أن يكون فرعاً من الذّيل كما في كتاب الحايك الموسيقار المشهور . وإلى هذا فان ضُروباً من الزّينة في اللباس والفِراش والأثاث على العموم قد ابتُكِرت في هــذا العصر ، مما يدل على ذوق فنّي رفيع . ونذكر على سبيل المثال من ذلك المنصوريّة التي يُقــال إن المنصور الذهبي أولُ من لبِسها ، وكذلك الحائطي ، ويُطلَق على السُّتور المزخرفة التي تُزيَّن بها جدرانُ البُيوت وقاعاتُ الجلوس . وللشعراء فيه أوصاف جميلة . ومِن الجدير بالذكر أن المرأة كان لهـا يَدٌ طولى في هذا الصدد ، فقد سجّل المؤرّخون أن العَريفة بنت خَجُّو – وأسرةُ خَجُّو أسرةٌ معروفة بالعــلم والفضل – هي التي هذّبت حواشيَ مُلكِ السعديّين وخاصةً في داخل قُصورهم وحالاتِهم في الطعام واللباس وعاداتهم مع النساء وما الى ذلك ، إذ كان قيامُهم أولاً من البادية ، فلم يكونوا يتقيّدون بآداب الحضارة وسِيَر أهلها .. وعلى ذكر المرأة لا ينبغي أن نُنهيَ الكلام في هذا الفصل حتى نُشيرَ الى ظاهرةٍ حَريّةٍ بالتّسجيل في مَيدان النّشاط النِّسْوي المغربي ألا وهي مساهمةُ المرأة في الحكم والسياسة أواخِرَ أيّام بني وطّاس وأوّلَ عهدِ السعديّين ، إذ شاهَد الناسُ لأول مرّةٍ على دَستِ الحكم في مدينة تطوان السيّدة عائشة بنتَ علي بنَ راشد ، وهي سيّدةٌ من بيت شريف ؛ فإنّ والدها السيّد علي بن راشد كان شخصيّةً لامعةً في الجهاد ، وترأّس بناحية غُمارة واختطّ مدينة شَفشاوُن بقصد تحصين تلك الناحية من نَصارى سبتَة. وكانت ابنتُه هذه التي اشتهرت بالحُرّة ذاتَ ذكاء ودهاء ومعرفةٍ وسياسة ، تزوّجت

بالسيد المنظري الصغير حاكم مدينة تطوان وحفيد القائد أبي الحسن المنظري الكبير مجدد بنائها وحاكمها الأول . فلما توفي زوجها تولت هي حكم المدينة وضبطتها أحسن ضبط ؛ ثم تزوجها السلطان أحمد الوطاسي وبنى بها في تطوان في شهر ربيع الأول سنة ٩٤٨ . ونجحت في السفارة السيدة سحابة الرحمانية والدة عبد الملك المعتصم بطل معركة وادي المخازن ؛ فانها كانت أول من أبلغ بشارة فتح تونس الى السلطان العثماني بالقسطنطينية وطلبت منه كمكافأة لها على ذلك مساعدة ابنها بجيش الجزائر على استعادة ملك والده ، فأجاب طلبها ، الأمر الذي لم ينجح فيه عبد الملك نفسه من قبل . وفي الميدان الحربي أثبتت السيدة مريم أخت عبدالملك هذا كفاءتها في قيادة ثلاثة آلاف جندي من الرماة تركهم أخوها بمعيتها في قصبة مراكش فامتنعت بها على ابن أخيها محمد أثناء انتزاع ملك والدهما منه . ولم يكن نبوغ المرأة المغربية في هذا العصر قاصراً على الناحية السياسية والحربية ، فقد اشتهرت في ميدان العمل الاجتماعي السيدة مسعودة الوزكيتية والدة المنصور الذهبي ، ومن منشآتها الخالدة بمراكش المسجد الجامع بباب دكالة منها وجسر وادي أم الربيع وغير ذلك من أعمال البر والإحسان الكثيرة . واشتهرت بالعلم والتقوى والصلاح السيدة عائشة بنت أحمد بن عبد الله بن عمران والدة ابن عسكر المؤرخ السياسي المعروف . وكان لها في المجتمع المغربي مقام محترم جداً . على أن النساء من هذه الطبقة كثيرات في هذا العصر فلا نطيل بذكرهن .

الهيئة العلمية وآثارها

نذكر هنا على جاري العادة ملخص تراجم المشاهير من علماء هذا العصر ، ونتبعها ببيان أسماء الكتب التي أُلِّفت فيه في مختلف ضروب المعرفة ، تتميماً للفائدة وإحاطة بالموضوع من جميع جوانبه .

سُقَيْن

هو أبو محمد سُقين السُّفياني العاصمي القَصْري أحد مشاهير رجال الحديث بالمغرب ، روى عن الشيخ زرُّوق وابن غازي وأبي الفرج الطنجي وأبي مهدي الموساوي وغيرهم . ورحل الى المشرق سنة ٩٠٩ فحجَّ وسمع بمصر من أصحاب ابن حجَر كالقلقشندي وغيره ، فحصلت له رواية واسعة لم يحصِّلها غيره ممن كان في وقته ، ثم آب الى السُّودان ودخل كنو وغيرها فعظَّمه أهلها واكبُّوا على الأخذ عنه . وبقيَ يتجوَّل مدة ، ثم رجع لفاس سنة ٩٢٤ فتولى الخطابة بجامع الأندلس والفتوى وأقبل على قراءة الحديث ، حتى توفي سنة ٩٥٦ وكان قد خرج لضريح مولاي بو سلهام فجلس ذات يوم على شاطىء البحر يقرأ دلائل الخيرات فخرجت فيه إحدى سفن الافرنج ، فقاتل حتى قُتِلَ شهيداً مبروراً رحمه الله .

وقد قيّد بخطه كثيراً من فوائد الحديث وجمع كثيراً من الكتب ، وكان مشاركاً في الطب أقرأ ألفية ابن سينا وعنه أخذها النّاسُ .

القَصَّار

هو أبو عبدالله محمد بن قاسم القيْسي الفاسي عرف بالقصَّار الفقيه المحدث النسَّابة ، ولد بفاس سنة ٩٣٨ وأخذ بها عن مشائخ عدَّة . وبرَّز في الحديث فصار

إماماً فيه مُقدَّما على غيره تُضربُ أكبادُ الإبل للأخذ عنه والسماع منه . وكان نسَّابةً واعية ، عارفاً بتشعُّب الأنساب ومحل افتراقهـا واجتماعها حافظاً ثقةً عدلاً ضابطا شديد الاتباع للسنَّة ، ظاهرَ الخَشية والورع على قـدم السلف الصالح . وليَ الفتوى على عهد أبي العباس المنصور والخَطابة والإمامة بمسجد القرويّين . وسعى الحسَدةُ في تأخيره عن هذه الوظائف عند خليفة السلطان على فاس؛ فكتب السلطان من مراكش بتجديد عهد الولاية له قائلاً إننا لا نُبدِّله بمن هو مثله فضلاً عمن هو دونه .

ووليَ أيضاً نظارة أحباس الضُّعفاء والمساكين ، وكان لا يولاّها إلا ذوو الدّين المتين من العلماء العارفين بقسمة الأرزاق العادلين فيها مثل يحيى السرّاج الذي كان ناظرَها قبل القصار .

وبقي القصار حاملاً رايةَ العلم بفاس والمغرب ، ناهضاً بأعبـاء ما كلِّف به من الوظائف ، حتى اخترمتْه المنيّة في رمضان ١٠١٢ ؛ فانتقل الى الدار الآخرة بعد ان جدّد معالمَ الدين الدارسة ، وأحيى مراسمَ العلم الطامسة . وطار له صيتٌ عظيم في بلاد المشرق والمغرب، فحدّث الشيخُ عبد الواحد بنُ عاشر أنه لقيَ بمصر في رحلته الحجازيّة الشيخَ عبدالله الدّنوشري فسأله عن أشياخه فذكر منهم القصّار فقـال الدنوشري يمدحه :

قـد حاكَ شقَّاتِ العلوم أيمَّةٌ وكَسَوْا بها بالفضل مَن هو عَار
رقَّت حواشِيها وراق طِرازُها لكنَّهـا تحتـاجُ للقَصَّار

وقد ضاع بفقده علمٌ كثير ، لأنه لم يُؤلف كتاباً قطّ ، ولم يُخلِّف بعده أثراً يذكر ما عدا فِهرستَه وانظامه الكثيرة ومُهوَّداته التي بِيعَتْ وزْناً بالأرطال .

أحمد الفاسي

هو أبو العباس احمد بن يوسف الفِهْري الفاسي الحافظ الثقـة ، ولد سنة ٩٤١ بالقصر الكبير وطلب الحديث بفاس فبرَّز فيه حتى كان يحفظُ أحاديث الصحيحين

جميعها ، ويستحضِرُ ما اتّفقا عليه وما انفرد به أحدُهما عن الآخر ، وما خالف في مَتْن أو سَنَد ، تُصحّحُ نُسخُها من لفظِه . وضمَّ إلى ذلك المعرفة البليغة بالرجال والعِلل وكل ما هو من وظيفة المحدث . وبوَصْف ديانته الكاملة أيضاً صحَّ أن يُطلق عليه الحافظ الضابطُ الثّقة .

وله تآليفُ منها شرح العُمْدة لعبد الغني المَقْدِسي في الأحكام ، وحاشية على شرح الصغرى للسنوسي في الكلام ، ورسالةٌ في حُكم الذكر جَهْرةً وأخرى في حكم السّماع ، وأخرى في وزن الأعمال وَتكْفير النّيات وأخرى في أولاد المشركين ، وغير هذا وكانت وفاته عام ١٠٢١ هـ

السـرّاج

هو أبو زكرياء يحيى بن محمد السرّاج الحِمْيَري الفاسي ، حفيدُ يحيى السرّاج المحدّث الكبير المتوفى في العصر السابق . كان هذا فقيهاً مُقدّماً فيه ، وَلِيَ الفتوى بفاس والامامة والخطابة بمسجد القرويين ، وولي أيضا نظارَة أحباس الضعفاء والمساكين ، فقام بها خير قيام ، وكان يُدرِّسُ المدونة بمدرسة العطارين ويستحضر ما قيد عليها ، وله حاشيةٌ على مختصر خليل وفتاوى تشهد بمزيد فضله ، ولد بفاس سنة ٩٢١ وتوفي سنة ١٠٠٨ هـ .

ابن عاشر

هو أبو مالك عبد الواحد بن احمد بن علي بن عَاشِر الأنصاري الفاسي ، أحد القرّاء والفقهاء المشاهير ، وُلِدَ بفاس سنة ٩٩٠ وقرأ على الجلّة من علماء عصره ، وكان أستاذاً عارفاً بالقراءات وتوجيهها وبالضبْطِ والرّسم وجميع ما هو من وظيفة المُقرىء . فقيهاً مُشاركاً في الأصلَين والحديث والتفسير والتصوّف والنحو والعروض والبيان والمنطق والطب والهَيْئة والحساب . على قدَم السّلفِ في الزُّهد

والورع والقيام بوظائف الدين حتى الغَزو والرّباط في سبيل الله، نزيهاً متواضعاً شديد الإنصاف يأخُذ العلم عمّن هو دونه ، ويتولى جميع أموره بنفسه .

له النظم المعروف بالمرْشد المُعين على الضروري من علوم الدين ، جمع فيه بين العقائد والفقهيّات والتصوف وهو من الكتب التعليمية النافعة . قال ابن الطيب القادري : «وسمِعْنا أنه ابتدأ نظمه حين أحرم بالحج فنظم أفعال الحج مرتبةً بقوله:

وإنْ تُرِدْ تَرْتِيبَ حجّك اسْمَعا بيانَهُ والذِّهنَ منك اسْتَجْمِعا

ثم لما انفصل عن حجّه كمّل ما يتعلق بالقواعد الخمْس من الضروري الذي لا يسعُ المكلّفَ جَهْله » وله شرح مَوْرد الظمْآن للخراز في الرسم ، ونظم في العمل بالرّبْع المجيّب وغير ذلك ، وتوفي رحمه الله عام ١٠٤٠ ه .

ميّارَه

هو أبو عبدالله بن أحمد ميّارة الفاسي من أعلام الفقه في هذا العصر ومشاهير المؤلفين فيه ، ولد ببَلَدِه فاس سنة ٩٩٩ واشتغل بطلب العلم ؛ فمَهر وظهر وبرّز في علم الفقه ، فكان راسخ القدم في الأحكام مستحضراً للنقُول ذاكراً للنوازل ، عمْدةً في ذلك . وما تزالُ كتبُه من أهمّ المراجع الفقهيّة وكُتبِ الدراسة المختَارة في هذا الباب . له شرح المُرْشد المعين على الضروري من علوم الدين كبير وصغير ، وشرح تحفَة الحكّام وشرْحُ لاميّة الزّقّاق ، وتكميل المنهج وشرحُه ، كمّل به المنهج المنتخب في قواعد المذهب للزقاق واختصر شرْح الحطّاب على مُختصر خليل في ثلاثة مجلدات وسماه زُبْدةَ الأوطاب في اختصار الحطاب وله أيضاً نصيحةُ المغترين في الرد على ذوي التفرقة بين المسلمين ، وهو تزْييفٌ للنظرية العُنْصُريّة التي نبغ دعاتها في هذا العصر خاصّةً بمدينة فاس . وأخذ عن ابن عاشر وأبي العباس المقّري وعبد الرحمن العارف وأبي الحسن البطّيوي وغيرهم . وكانت وفاته سنه ١٠٧٢ .

الصُّمَاتي

هو أبو عبـــدالله محمد بن أبي جُمُعَة الصُّماتي الهبْطِي ، الأستاذ المقرىء صاحب تقييد وقف القرآن الذي جرى عليه عملُ أهل المغرب عموماً من لَدُن زمن واضعه الى الآن . توفي بفاس سنة ٩٣٠ ﻫ .

اليسّيثني

هو أبو عبد الله محمدبن أحمد بن عبد الرحمن اليَسيثني الفاسي، الفقيه المتكلم النظار، ولد سنة ٨٩٧ ونشأ حريصاً على طلب العلم مجتهداً فيه . أخذ بفاس عن مشاهير أعلامها ، ورحل الى المشرق سنة ٩٣٠ فأخذ عن أهـل تلمسان وقسنطينة وتونس ومصر ومكة ، فاتسعت دائرة معارفه ، وكثر تحصيله . ثم رجع الى فاس فتولى بها الفتوى ، ودرّس الفقه والأصول والنحو والبيان والحديث والتفسير وكان زاهـداً ورعا متفانياً في النصح والارشاد ، وألف تآليف محرّرة ، منها رسالة في تصحيـح قبْلة فاس وأخرى في طهارة بَوْلِ المريض غير المتغير وأخرى في مسألة خُلفِ الوعيد من الله تعالى وأخرى في مسألة الهيللة وأخرى في حقوق الملك والرعية وغير ذلك . وتوفي سنة ٩٥٩ ﻫ .

المَنجُور

هو أبو العباس أحمد بن علي بن عبد الله المنجور الفاسي ، علامة داهية متفنن . انفرد في عصره برياسة الفقه والأصول والكلام والمنطق والنحو والبيان والعروض والتاريخ ، وكان موسيقياً بارعاً ، وكان أحد الأبطال في لعب الشّطرنج والنـَّرد .

خدم العلم مدّة حياته فبرَّز في صناعة التدريس والتأليف وبذَّ أقرانه بسلامة

الذّوق وصفاء الذّهن وصحّة الفهم ، حتى كان يقال عنه إن فهِمَه لا يقبَلُ الخطأ .
وصار في الأخير رئيس الهيئة العلميّة بالمغرب غير مُدافَع . وكان أبو العبّاس المنصور يُجلّه ويكرمه ويحضّه على التأليف كثيراً ، ويُعطيه العطايا السنيّة ، فحدّثنا الإفرانيُّ عنه أنه كان يقول : ما عهِدنا بذل المِئين إلا في أيام الأشراف السعديّين ، وما عهدنا بذل الألوف إلا في أيام المنصور .

له في الكلام شرح مقاصِد ابن زكرى ، وفي الفقه شرح المنهج المنتخب للزقاق ، وفي النحو شرح الألفية وضَعَه بأمر المنصور وغير ذلك . ولد سنة ٩٢٦ وتوفي سنة ٩٩٥ هـ .

الهَبطي

هو أبو محمد عبد الله بن محمد الهَبطي الطّنجي ، العالم العامل الناصح المُخلِص .
قال في الدوحة : « كان رضي الله عنه آيةً من آيات الله تعالى في أرضِه وعبادِه ، قائماً على قدم الجِدّ في الزهد واتباع السنّة ، والانزواء عن الدنيا وتعليم العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . لا يترك أحداً من أهله وبنيه وأصحابه يَخرُجُ عن التقشُّف وينقطِعُ في الدنيا ولم يُرَ أحدٌ من الرجال والنساء بزاويته إلا أن يكون تالياً لكتاب الله أو ذاكراً لأسمائه ومتعلّماً لمعرفته الى أن لقيَ الله تعالى على ذلك . »

قال : « وكتبتُ من خط الشيخ أبي الحسن الأغزاوي المعروف بالحاجّ ، قال أبو زيد عبد الرحمن بن شُرَيْح أن الله تبارك وتعالى يبعَثُ لهذه الأمة عند رأس كل مائة مَن يُجدّدُ لها دينَها الحديث ، ولا يبعُد أن يكون منهم الشيخ سيدي أبو محمد الهَبطي رضي الله عنه . » قال : « وقد قال هذا القولَ كثيرٌ من الأعلام ، وكان الشيخ أبو القاسم بن علي بن خجُّو يقول هو غزّاليُّ هذا الزمن . ولقد منّ الله به علينا وعلى المسلمين . » وناهيك بها شهادةً من مثل ابن خجُّو . ثم قال :

« وكان أحرص الناس على تعليم الله ، ويأمرُ من يلقى بتعليم الأهل والأولاد والعبيد والخُدّام والإماء عملاً بقوله ﷺ » لأن يَهديَ اللهُ على يدِك رجلاً واحداً خيرٌ

لك من حُمرِ النَّعَم » . وكان كثيراً ما يحُضُّ على فهم مدلول الشهادة بل اتخذ ذلك هِجِّيرَاه ، لما رأى من استيلاء الجهـل على الخلق ، وألّف في علم الهللة أجزاءً كثيرة أكبرُها جرماً وأكثرُها فائدةً كتابُ الإشادة بمعرفة مدلول كلمة الشهادة ، وكانت سيرتُه الذكرَ والذّكرى وبذلَ النصيحة لـكافّة الورى . »

وله أيضاً ألفية عامرة الأبيات بالنصح والارشاد وذمِّ البدع الشائعة في الوقت وما عليه مُتصوِّفةُ الزمان من المنكرات والمحظورات ، ونظمٌ في العدة معروف وغير ذلك . وتوفي عام ٩٦٣ ﻫ .

ابن خجّو

هو أبو القاسم بن علي بن محمد بن خَجُّو الخَلُوفي الحسَّاني ، الفقيه شيخ السنة وأحد العلماء الناصحين . درس بفاس على مشاهير العصر كالعلامة ابن غازي والشيخ زروق وأضرابهما ، وكان صوفياً فاضلاً مُتورّعاً سالكاً نهجَ الحقّ شديد الشّكيمة على أهل البدع ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، باذلاً في نُصرةِ السنة غايةَ مجهوده لا يُبالي مَن خالفه ، مُنصِفاً عديم المثال في جدّه واجتهاده وعِلمه وعمله .

له كتبٌ غايةٌ في التحرير والاتقان ، وكلُّها تدور على مِحوَر الاصلاح الديني والارشاد التعليمي والنصح المَمحوُض ، منها كتاب الغنيمة وكتاب ضياء النهـار وكتابُ النصائح وشرحُ نظم الهبطي في العدة وشرحُ نظم بيوع ابن جماعة للسّنوسي وغير ذلك . وفي شرحه لنظم البيوع ذكر جملةً من البدع الشائعـة في عصره فاستغرق ما ينيفُ عن الأربعين صفحةً في عدّها واستنكارها .

وكان السلطانُ محمد الشيخ السعدي ، لما صفا له مُلكُ المغرب ودَخل فاس بَعث الى سائر أهل الفقه والعلم أن يحضُروا عنده ، فـكان من جُملةِ من حضَر أبو القاسم فأعجبَ به السلطانُ كثيراً وأجلّه وأكرمه ، ورغِبَ اليه في الاقامة بفاس فاجاب طلبه وقال فيه : (ما رأيتُ أفضلَ منه علما وصلاحا .) وتوفي سنة ٩٥٦ هـ .

أحمد الصومعي

أبو العباس أحمد بن أبي القاسم بن سالم بن عبد العزيز بن شعيب الشعي الهروي الزمراني دفين الصومعة من بلاد تادلة ، الشيخ الصوفي الراسخ القدم في طريق القوم علماً وعملاً ، وصفه الحافظ أبو العباس المقري وكان قد لقيه بمراكش فقال : « هو نفع الله بعلومه آية من آيات الله في المجاهدة لا يكاد يفتر عن ذلك أصلاً . استغرق نهاره وليله في انواع الطاعات من صلاة وذكر وقراءة قرآن وإقراء علوم الحقيقة . شاهدته وكثير من تآليفه تقرأ بين يديه ، وشاهدت من كثرة حفظه لحكايات الصالحين عجباً ، يذكر بكل محل ما يناسبه ، وله ولوع باقتناء الكتب ، حتى لقد ترك يوم موته ما يقرب من ألف وثمانين مجلداً . وقد قصده الناس لزيارته من البلاد الشاسعة ورأيته يوم الجمعة بجامع الكتبيين والناس يزدحمون على تقبيل يده وطلب الدعاء منه ، حتى لا يخلص منهم إلا بعد جهد جهيد ، وكانت له زاوية بالصومعة يطعم بها الطعام ، ثم سكن مراكش وترك بعض بنيه بالزاوية مقتفياً سنته » له مؤلفات عديدة اكثرها في التصوف كشرح الحكم في أربعة أسفار ومختصره ومختصر مختصره ، وشرح المباحث الأصلية ، وشرح منازل السائرين للشيخ الامام الهروي ، وغير ذلك . قال المقري لما استجزته رحمه الله أخرج لي ستين مجلداً كلها من تصنيفه . وتوفي ببلده الصومعة في سنة ١٠١٣ .

ابن القاضي

هو أبو العباس أحمد بن القاضي المكناسي ، نسبة الى قبيلة مكناسة لا الى مدينة مكناس ، الفاسي ولد عام ٩٦٠ وزاول قراءة العلوم ببلده ، ثم رحل الى المشرق فدرس به على المشاهير ، ثم انقلب راجعاً الى فاس فأسره بعض قرصان الافرنج وفداه أبو العباس المنصور بمال جزيل .

وكان مُتضلـّعاً من علوم الفقه والحديث والعربية والتاريخ . وهو الغالب عليه، بله الحساب والفرائض ، واستقضي بسلا ردحاً من الزمان ثم آب الى فاس فأكبَّ على التدريس ، وكان مشغوفاً بنشر العلم وبثـّه فلم يزل كذلك حتى توفي عـام ١٠٢٥ وخلـّف عدّة كتب نفيسة خدم بها التاريخ المغربي خدمة تذكر أبـد الدهر فتشكر ، وهي المنتقى المقصور على محاسن ابي العباس المنصور ، وجـذوة الاقتباس فيمن كان من الاعلام بفاس ودُرّة الحجال في أسماء الرجال ذيل به تاريخ ابن خلـكان وغير هذه مما يأتي ذكره .

القــدّومي

هو أبو العباس أحمد بن قاسم الغسّاني الشهير بالقدُّومي ، إمام العربية وشيخ الإقراء في عصره . كان عارفاً بالنحو معرفة تامة ، وعليـه المدارُ فيه ، متحققا بالقراءات وتوجيهها وبالضبط والرسم وجميع ما هو من وظيفة المقرىء وألف حاشية على شرح الألفية للمُرادي وهي نفيسة للغاية . وكانت وفاته سنة ٩٩٢ ه .

الزيّــاتي

هو ابو عـلي الحسن بن يوسف الزياتي النحوي المقرىء ، ولد عام ٩٦٤ وطلب العلم بفاس فنبـغ في علوم العربية والقراءات من نحو وتصريف ورسم القرآن وضبطه ، أخذ عن القدُّومي وغيره وألف شرح الجمل للمجراد وحاشية شرح الضبط للتنسي وغير ذلك . وتوفي سنة ١٠٢٣ ه .

البُعقيـلي

هو أبو زيد عبد الرحمن البُعْقِيلي الجزولي ، العالم الفلـكيُّ البارع له تعقبات على المنجمين تدل على تضَلعه بالفن وهو الذي أحدث الساعة الرخاميّة بالجامع

الأعظم بتَار ُودانت • وله شرْح روضة الأزهار وشرح اليسارة وغير ذلك . وتوفي سنة ١٠٠٦ قال أبو عبدالله ابن المبارك الأقاوي : « لم أتأسف على موت فقيـــد تأسفي عليه ، لانقراض علوم الهيئة بموته ، ولم يخلف مثله فيها . »

أبو القاسم الوزير

هو أبو القاسم بن محمد بن ابراهيم الغسَّاني الفاسي المعروف بالوزير ، أحد مَهَرة الأطبَّاء في هذا العصر ، خدَم في أطبَّاء الخاصّ عند أبي العبّاس المنصور وألّف كتباً منها شرح نظم ابن عَزرون في الُحمّيات ، وحديقة الأزهـــار في شرح ماهية العُشْب والأزهار المعروف بمفردات الوزير وغير ذلك . ولد عام ٩٦٠ وكان حياً عام ٩٩٤ هـ .

الغول الفشتالي

هو أبو القاسم المعروف بالغول الفشتالي ، الفقيه القاضي المتطبب المشارك في كثير من التعاليم ، له رسالة في الطوّاعين ، ونظم جيد في الطب ، ورسالة في كيفية قسم المياه لقواديس الديار وغير ذلك . وتوفي عام ١٠٥٩ .

* * *

اسماء الكتب المؤلفة في هذا العصر[٧]

وإليك الآن بيانَ الكُتب المؤلَّفة في هذا العصر ، مُضافاً اليها ما ذكرناه في هذه التراجم لتتألّف من الجميع قائمةُ المجموعةِ النفيسة التي ضُمّت من جديـــد الى المكتبة المغربية :

كتب الحديث والتفسير وتوابعهما :

اللُّباب في تفسير الكتاب للحاج الشُّطَيبي المتوفى سنة ٩٦٠ ، حاشية على تفسير الزمخشري وغيره للمنصور الذَّهَبي . الفتح النَّبيل في أسماء العَددِ في التنزيل لابن القاضي ، الدُّرُّ الأزهَر في مُناسَباتِ الآيات والسُّوَر لعبد الله بن طاهر الشريف المتوفى سنة ١٠٤٥ ، نظمُ اصطلاح الحديث له ، حاشية على تفسير الجلالين لعبد الرحمن العارف المتوفى سنة ١٠٤٦ ، تفسير الفاتحة له ، حاشية على البخاري له ، نظمُ نُخبة الفِكَر لابن حجر في الاصطلاح للعربي الفاسي المتوفى سنة ١٠٥٢ ، تفسير القرآن لعلي بن عبد الواحد الأنصاري السِّجلماسي المتوفى سنة ١٠٥٤ ، نظمُ اصطلاح الحديث له ، شرح ابن بَرِّي له ، إتقان الصَّنعة في قراءة السَّبعة لأحمد بن شُعيب المتوفى سنة ١٠١٥ ، حاشية على شرح الضَّبط للزَّياتي ، شرح الخرَّاز لابن عاشر .

كتب الفقه والتصوّف وتوابعهما :

شرح العُمدة في الأحكام ، لعبد الغني المقدسي ، لأحمد الفاسي ، شرح الرَّائيَّة للشَّريشي في التصوّف له ، رسالة في حكم الذكر جهرة له ، رسالة في حكم السماع له ، رسالة في وزن الأعمال وتكفير النيّات له ، رسالة في أولاد المشركين له . شرح الرسالة المسمَّى بالإيضاح لأحمد بن علي الشتوكي المتوفى سنة ٩٦٥ ، المرشد المعين على الضروري من علوم الدين لابن عاشر ، حاشية على شرح التَّتَائي الصغير على المختصر له ، زُبْدَةُ الأوطاب في اختصار الحطّاب لميارة ، شرح تحفة ابن عاصم في الأحكام له ، شرح تحفة الزقَّاق فيها له ، شرح المرشد المعين نسختان كبير وصغير له ، تنبيه المغترين على حرمةِ التَّفرقة بين المسلمين له ، حاشية على مختصر خليل للأبار المتوفى سنة ١٠٧١ ، الفتاوى له ، شرح تحفة ابن عاصم لعلي بن عبد الواحد ، نظم أصول الفقه له ، حاشية على المختصر لعبد الرحمن العارف ، حاشية على المحلّي في الأصول له ، حاشية على المختصر للسَّراج ، الفتاوى له ، حاشية على خليل للجَنَّان المتوفى سنة ١٠٥٠ ، حاشية على خليل لأبي محمد التَّمَجْرُوتي المتوفى سنة ٩٨٠ ، الرَّوض اليانع في فوائد النكاح وآداب المجامع له ، نيلُ الأمَل فيما به جرى العَمل لابن القاضي . تنبيه الصَّغير من الوِلدان في الردّ على زاعم الفتوى آجليان للكُلالي المتوفى سنة ١٠٤٧ ، المسألة الإمليسيَّة في الأنكحة الإغريسيَّة له ، نظم أحكام العِدَّة

للهبطي ، ألفية في النصائح الدينية له . شرح نظم العدة لابن خجو ، شرح نظم بيوع ابن جماعة له ، كتاب الغنيمة له ، كتاب ضياء النهار له ، كتاب النصائح له ، كتاب اللائق لمعلم الوثائق لأحمد بن عرضون المتوفى سنة ٩٩٣، مقنع المحتاج في آداب الأزواج له ، اختصاره له ، كتاب في آداب الصحبة له ، نظم في أحكام الزكاة للعربي الفاسي ، شرح الرسالة لحسن بن داود الرسموكي ، شرح التلقين له ، مدارج الراغب في شرح مختصر ابن الحاجب له ، شرح نظم بيوع ابن جماعة له ، كشف قناع الالتباس عن البدع الشائعة بفاس للعقيلي المتوفى سنة ١٠٧٦ ، سلاح أهل الإيمان في محاربة الشيطان للعثماني المتوفى سنة ١٠٢٧ ، بداية السلوك الى بساط ملك الملوك له ، شرحه له ، تنبيه الغافل على مرتبة العامل له ، الانتباه في صدق عبودية العبد لمولاه له ، نظم الشهداء له . وصلة الزلفى في التقرب بآل المصطفى للشيخ أحمد وعلي المتوفى سنة ١٠٤٧ ، بذل المناصحة في فعل المصافحة . فلك السعادة في فضل الجهاد والشهادة للهادي السجلماسي المتوفى سنة ١٠٥٦ ، تصحيح البداية وتحقيق النهاية للصومعي المتوفى سنة ١٠١٣ ، الدرر في فضائل الأدعية له ، لباب اللباب في معاملة الملك الوهاب ثلاث نسخ له ، بداية المريد نسختان له ، مصباح السالكين له ، مفتاح السعادة له ، نور المصباح له ، نتائج الأفكار له ، نصيحة الراغب له ، وسيلة الصديق له ، الزهرة العالية له ، شمس المواسم له ، حزب الوسيلة له حزب الفتح له ، شرح منازل السائرين له ، شرح الحكم العطائية ثلاث نسخ له ، شرح حزب البحر له ، شرح الشريشية له ، شرح المباحث الأصلية للحاج الشطيبي ، شرح المشيشية للتجيبي المتوفى سنة ١٠٣٠ ، شرح المباحث الأصلية له، شرح الشريشية له ، شرح المشيشية للزياتي .

كتب المنطق والكلام

الإشادة بمعرفة مدلول الشهادة للهبطي ، مراصد المعتمد في مقاصد المعتقد للعربي الفاسي ، الطالع المشرق من أفق المنطق له ، تلقيح الأذهان بتنقيح البرهان له ، العقيدة الكبرى لعبدالله بن طاهر الشريف، العقيدة الصغرى له، شرح مقاصد ابن زكرى في التوحيد للمنجور ، حاشية على شرح كبرى السنوسي في التوحيد له ، شرح المقاصد لعبد الواحد الفلالي المتوفى سنة ١٠٠٣ ، شرح الكبرى

للحَفْصِي المتوفى سنة ١٠٣٧ ، شرح صغرى السنوسي في التوحيد له ، نظمٌ في المنطق له ، حاشية على الصغرى لأحمد بن علي الشريف العلمي المتوفى سنة ١٠٢٧ حاشية على الصغرى للزَّياتي ، شرح صُغْرى الصُّغرى للسنوسي في التوحيد للسَّكْتاني المتوفى سنة ١٠٦٢ ، حاشية على شرح الصغرى له ، حاشية على شرح الصغرى لعبد الرحمن العارف ، حاشية على مختصر السَّنُوسي في المنطق لعلي اليَاصلُوتي المتوفى سنة ١٠٣٩ .

كتب النحو والتصريف والبَيَان وما اليها

حاشية على مُطَوَّل السعد في علوم البلاغة لعلي اليَاصلُوتي، مَراقِي المجد في آيات السعد للمَنْجور، شرح ألفية ابن مالك له، حاشية على شرح المرادي للألفية لعبد الواحد الفلالي ، إعرابُ أوائل الأحزاب لداود بن محمد السَّمْلالي، نظمٌ في تصريف الأفعال لحسن بن داود الرَّسْموكي ، حاشية على شرح المُرادي للقَدُّومي ، حاشية على شرح المكودي للالفية لِمَجْبَر المتوفى سنة ٩٨٥ ، شرح لامية ابن مالك للمَكْلاتي المتوفى سنة ١٠٤١، شرح جُمَل المَجْراد للزياتي، حاشية على شرح المَكْلاتي له ، حاشية على شرح الألفية للمكودي له ، حاشية على شرح الشريف على الأجرومية له ، شرح النصف الأول من توضيح ابن هشام له ، شرح الجُمل للرَّسْمُوكي المتوفى سنة ١٠٤٩ ، حاشية على المكودي له ، شرح الأجرومية لعلي بن عبد الواحد ، نظمٌ في التصريف له ، شرح الألفية لقاسم ابن القاضي المتوفى سنة ١٠٢٢ ، شرح تصريف المكودي له ، حاشية على شرح الشريف له ، نظم الأجرومية للعَرَبي الفاسي ، شرح نظم الضَّرير المراكشي في البيان لإبْراهيم ابن محمد التَّمَنَارتي .

كتب التراجم والتاريخ والرحلات :

كتاب الجُمان في تاريخ الزَّمان للحاج الشُّطَيْبي ، دوْحةُ الناشر لِمحاسِن مَن كان بالمغرب من أهل القرن العاشر لابن عَسكَر المتوفى سنة ٩٨٦ ، مَناهِلُ الصَّفَا في تاريخ دولة الشُّرفا لعبد العزيز الفشتالي ، الممدود والمقصور من سَنَا أبي العباس المنصور لمحمد بن عيسى المتوفى سنة ٩٩٠ ، نظمُ وفياتِ ابن قُنْفُذ لمحمد بن علي الفشتالي ، ذيلُ نظمِ الوفيات للمَكْلاتي ، المُنتقى المقصور على مآثر أبي العباس

المنصور لابن القاضي ، دُرّة الحِجال في أسماء الرجال له ، جَذوة الاقتباس فيمن حلّ من الأعلام بفاس له ، غُنيةُ الرائض في طبقات أهل الحساب والفرائض له ، دُرّةُ السُّلوك فيمن حَوى المُلك من الملوك له ، لَقط الفرائد من حقائق الفوائد له ، الإلمام ببعض من لَقيتُه من علماء الاسلام لعبد الواحد الفلالي ، الفوائد الجَمَّة في إسناد علوم الأمة لعبد الرّحمن التمَنَارتي المتوفى سنه ١٠٧٠ ، التّعريفُ برجال البخاري لعلي بن عبد الواحد ، نظْمُ السِّيرَة له ، المَعزى في أخبار أبي يَعزَى للصّومعي ، مِرآةُ المحاسن للعربي بن الفاسي وهي ترجمة والده ، أنوار الزّمان بقدوم مولانا زيدان لقاسم ابن القاضي ، النَّفحَة المِسكيَّة في الرحلة التُّركية لأبي الحسن التّمَجْروتي المتوفى سنة ١٠٠٣ .

كتب الأدب والشعر :

شرح لاَمِيَّة العَجم للماغوسي ، مُقدّمةٌ لديوان المتنبِّي مع ترتيبه على حروف الهجاء له ، مَدَدُجَيش التّوشيح لعبد العزيز الفَشتالي ، مُقدّمةٌ لديوان المتنبي له ، شرح مَقصورة المكّودي له ، شرحُها أيضاً لعبد الواحد الفلالي ، ديوان خُطب لعلي بن عبد الواحد ، ديوان شِعر لعبد الرحمن التّمَنَارتي ، ديوان شعر لعبدالله ابن طاهر الشريف ، شرح ديوان المتنبي للنّابِغة الهَوْزَالي .

كتب الطب والهيئة والحساب وما الى ذلك :

حديقةُ الأزهار في شرح ماهِيَّة العُشُبِ والأزهار لأبي القاسم الوزير ، نظم ابن عَزْرون في الحُمّيات له ، أُرجوزة في الطب للغُول الفشتالي ، رسالة في الطواعين له ، رسالة كيفية قَسْمِ المياه لِقَواديس الديار له ، نظم في الطب لعلي بن عبد الواحد ، نظم العمل بالربع المُجَيَّب لابن عاشر ، تصحيح قِبلة فاس لليسيتني ، شرح روضة الأزهار للبُعْقيلي ، شرح اليسارة له ، البرق الوامض في الحساب والفرائض لقاسم ابن القاضي ، شرح سِلك اللآلي في المُخَمَّس الخالي له ، مُحاذي على قصيدة ابن لَيُون في التّكبيس له ، مُحاذي على الروضة له ، شرح جداول الحَوفي لابن القاضي ، شرح الروضة لأحمد معنيوب ، المُقْنِع لابن سعيد المرْغيثي المتوفى سنة ١٠٨٩ ، شرحان عليه كبير وصغير له ، اليَواقيت في الحساب والفرائض

والمواقيت للعُقَيلي ، شرح المُنيَة له ، شرح الروضة له ، المُقرَّب في الربع المُجَيَّب لاحمد بن حُمَيدة المطرفي المتوفى سنة ١٠٠١ ، شرح الروضة له ، كتاب في الكيمياء للحاج الشُّطَيبي ، كتاب في السياسة للمنصور الذهبي .

الحيَـاة الأدبيَّـة

كانت الحركةُ الأدبية في عهد بني وطَّاس قد وقفَتْ وقوفاً كلِّياً إذ لم تجــد مُضطرباً في ذلك الجوّ المضطرم بأعاصير الفِــتن والحُروب . فلمـا قامت الدولة السعدية واستَتَبَّ الأمن والراحة بدأ الأملُ يَتجدَّد في نهضة الأدب وانتعاشِ روحه من جديد ، لا سيَّما وقد ظهَر من تَنْشيط الملوك السعديين له وأخْذهم بضَبْعِه مـا قوَّى ذلك الأمل ، وبالفعل فمـا جاءت أيام المنصور الذهبي حتى عاد لدولة الأدب سالفُ مجدِهـا وسابقُ عزِّها ، فصِرْنا نرى أفواجَ الشعراء تمُوجُ في بَلاط ذلك السلطان وبُلغاء الكتَّاب يَغَصُّ بهم ديوانُه ، وعُدْنا نشْهَد مُساجلةَ السلطان لأهل مجلِسه ومُطارحتَه ايَّاهم اللطائفَ الأدبية .

وانك لتَعُدُّ من نوابغ أُدباء هذا العصر الذين زانوا طلعتَه ، وطرَّزوا حُلَّتَه ، ولا تعُدُّهم لأنهم كثير . لكن قيْدومَهم على الاطلاق وزعيمَهم باتفاق هو فخرُ الدولة السعدية وذُخْرُها إمامُ النظم والنثر ، عبد العزيز الفَشْتالي الذي كان المنصور يقول في شأنه : « نفتَخِرُ به على ملوك الأرض ، ونباري لسانَ الدين بنَ الخطيب . » وفي الحقيقة إنه من حسنات هـذا العصر ، ومن أفضل أدباء المغرب الذين برَّزوا في الصِّناعتَين ، وكان مُتَولياً في دولة المنصور رئاسة ديوان الإنشاء ، فكان الكلُّ يعترفُ برياستِه ويُقرُّ بفضله .

وهناك أديبٌ فشْتالي آخَر هو الوزير ابنُ علي . وكان كاتباً شاعراً ايضاً . ومن الأدباء ايضاً النابغـــةُ الهَوْزالي الذي كان يُعتَبر بحقّ شاعرَ الدولة ، وهو متنبِّي النَّزْعة ، فخمُ الألفاظ ، جَزْلُ المعاني ؛ إلا أن آثاره ضاعت ولم يصِلْ الينا منها غيرُ النزْر اليسير .

أما غير هؤلاء فهم ممن يُمثلون المدرسةَ الأندلسيَّة في رقَّة الشعر وسلاسته وانطباعه ، وناهيكَ بأبي الحسن الشامي والقاضي الشاطبي والوزير الشيَظمي من ثالوثٍ شعْريّ جميل .

وهناك طائفةٌ من الشعراء كانت تمزجُ الجِدَّ بالهَزْل ، وتنفخُ في الفنّ روحَ الفكاهة ، مستَقِلَّةً بهذا المذهب ، تجيءُ فيه وتذهب ، وكان المنصورُ يُعجبُه ذلك منها ويُثيبُها عليه كثيراً ، وقد انفرَد عصْرُه بهذا اللون من الأدب أو كادَ إلاّ انه لم يتمكّن من القوة والظهور ، لأن وفاةَ المنصور قضت عليه في مَهْده . ومن أفراد هذه الطائفة ابن عمْرو الشاوي ورابحُ بن عبدِ الصمد ، وأبو اسحاق الزَّرْويلي ، ولسنا في حاجة الى ذكر العلماء والقضاة والرؤساء الذين كانوا يتعاطَونَ الأدب ويطلعون بين آونة وأُخرى على الجمهور بنتائج أفكارهم ، خصوصاً في الأعياد والمواسم والحفَلات العديدة التي كان المنصور يُقيمُها لغَير مناسبة ، ولهاً ، فان هؤلاء أكثرُ من أن يُحْصَوا . بَلهَ الأدباء غيرَ المغاربة ممَّنْ أَوَوْا الى حرَمِ المنصور ، وتفَيَّئوا ظلَّه من شاسع البُلدان ، ونازح الأقطار ، إذ كان يَرْفع أقدارَهم ويُنزلهم منازلهم . وفي مقدمة هؤلاء أبو العباس المقَّري صاحبُ نفح الطيب .

ولقد انتظم في مجْلِسه يوماً وفدٌ عمْدته ثلاثة أشخاص مكّي ومدَني ومقدسي؛ فقام المكيُّ وقال يا أمير المؤمنين إن المساجدَ الثلاثةَ التي تشَدُّ اليها الرِّحال قد شدَّ أهلُها اليك الرِّحلة وأنشد :

إنَّ أَمِيرَ المُؤمنين أحمدُ   بحرُ النَّدى وفضلُه لا يُجْحَدُ
فَطَيْبَةٌ ومَكَّةٌ أَهلُها   وَالمسجِدُ الأقصى بذاكَ تَشْهَدُ

ثم قال : نصرَكَ الله إنه لم يتَّفِق مثلُ هذا لِملك قَصِدتَ إيالتُه ، قال المقَّري وهو رَاوي الحِكاية ، فتبسَّم لذلك أيَّده الله وأجزلَ لهم في العطاء وإجراءِ النفقة عليهم كما هو دأبُه بكل وافِدٍ عليه من أي بلد كان .

على أن المنصور نفسَه حَريٌّ بأن يُعَدَّ في شعراء هذا العصر ، فهو من ملوك

المغرب كابن المعتز في ملوك المشرق كما تقدم ، وقد كان كلفاً مثله بالبديع من جناس وتورية وتفريع ؛ وفيما ثبت من آثاره بقسم المنتخبات دلائل ناطقة بطول باعه وقوة عارضته . ومثله ولده زيدان وابنا أخويه محمد المتوكل بن عبد الله الغالب ، والأمير محمد بن عبد القادر بن محمد الشيخ المهدي في البراعة الأدبية ونظم الشعر البليغ ، وسنورد لكل منهم بعض الآثار في محلها ، وإذا كان لنا أن نستخلص من هذا الواقع التاريخي بعض الحقائق فهي أن الحياة الأدبية تتأثر بالحياة السياسية الى أبعد حد ؛ ذلك أنه لما تدهورت سياسة البلاد في آخر عصر المرينيين وعلى عهد الوطاسيين كان الأدب يعاني حالة من الركود كاد لا يبقى له معها وجود ، ثم لما أذن الله بانبعاث القوات الشعبية وزحفها لتدارك الحالة تحت قيادة الأشراف السعديين دبت الحياة في النفوس ، وانتعشت الأحوال فهب الأدب من مرقده ، وكان تشجيع رجال الدولة لأهله معيناً على نموه وازدهاره .

وقد أعطيناك هذه الصورة المصغرة عن الحياة الأدبية في هذا العصر ، ولعلك تتشوف الى تراجم بعض الأدباء سالفي الذكر ، فدونك ما يقتضيه المقام ، من ذلك.

عبد العزيز الفشتالي

هو الوزير صاحب القلم الأعلى ، أبو فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالي الفاسي ، ولد سنة ٩٥٢ ودرس بفاس على العلامة المنجور ، وأبي العباس الزمّوري والقاضي الحميدي وعبد الواحد الشريف وغيرهم ، وبرع في فنون الأدب والتاريخ والسياسة ؛ فعلت رتبته عند المنصور وزهت به دولته ، حتى قال المنصور عنه كلمته السابقة .
وقال صاحب سلافة العصر في حقه : « كاتب المنصور ، وربيب تلك الدولة المشيدة القصور ، وخادم سناها الممدود والمقصور . المعترف لسان البراعة عن حصر مناقبه بالقصور . فاضل زهت به الأقلام والأعلام ، وأقرت بفضله العلماء الأعلام وخضعت لأدبه سماسرة الكلام . وأضاءت بأنوار بلاغته حنادس الظلام . فهو إذا نثر أفحم الورقاء ذات السجع ، وإذا نظم أخجلت أفكاره دراري السماء ذات الرجع ؛ فجاء بما شاء وكيفما شاء ، من محاسن الأشعار والإنشاء .. » الخ ، أما

منزلته في الكتابة فانه طبقة عصره غير مدافع ، وأما في الشعر فانه متين السبك محكم الرصف ، ناصع الألفاظ حسن التصرف في جميع فنون الشعر ، لا سيما الوصف الذي أجاده وتقدم فيه بشاهد قصائده العديدة التي قالها في قصر البديع الذي بناه المنصور بمراكش فنقشت على جدرانه وسقوفه ، وطرزت بها فرشه وأروقته مما يأتي طرف منه في قسم المنظوم ، وله تصانيف منها مناهل الصفا في تاريخ دولة الشرفاء، أي السعديين، مشتمل على تاريخ هذه الدولة منذ نشأتها الى وقته ، وعلى نبذة من محاسن المنصور في عدة مجلدات . ومنها مدد الجيش ، ذيل به جيش التوشيح لابن الخطيب ، قال في النفح : (استهله بقوله « الحمد لله الذي أمد جيش محمد بعترته ») وأتى فيه بكثير من موشحات أهل العصر من المغاربة وضمنه من كلام أمير المؤمنين المنصور ما زاده حسناً ورونقاً ، ومنها مقدمة في ترتيب ديوان المتنبي على حروف المعجم ، ومنها شرح مقصورة المكودي ، وبالجملة فهو من مفاخر هذه الدولة كما قال المنصور عنه ، وكانت وفاته سنة ١٠٣٢ .

النابغة الهوزالي

أبو عبدالله محمد بن علي الهوزالي شاعر الدولة الرسمي ، كان شديد الاتصال بالمنصور والقرب منه يقوم عنده في الاحتفالات الرسمية والمواسم والأعياد ينشده ويعجب هو بشعره كثيراً ، ويصله ويخلع عليه .

وكان قوي المراس على المعاني الشعرية فخم الألفاظ نابه المعاني ، جيد النظم رائع الأسلوب ، متضلعاً من اللغة والأدب ، بصيراً بمواقع الكلم ، متصرفاً في ضروب المدح أحسن التصرف ، ووصفه الشيخ عبد الواحد الشريف فقال : « الفقيه المتفنن ذو الفهم القويم والادراك المستقيم ، قائد العويصات بنواصيها ومستنزل عصم القوافي من صياصيها ، شعلة الذكاء الذي يزرى سناه بنور ذكاء » وقد علمت أنه كان يلقب بالنابغة ولا ندري ما اذا كان مرادهم بذلك الوصف أو التشبيه ، وله شرح على ديوان المتنبي ، وكان يلي قضاء المدينة المحمدية أعني تارودانت . وتوفي بمراكش في شعبان سنة ١٠١٢ .

ابن عيسى

هو أبو عبدالله محمد بن احمد بن عيسى الصنهاجي ، كاتب سِرّ المنصور ، وأحد أعيان أدباء دولته ، له تضلع بعلوم العربية ومعرفة كبيرة بالتواريخ وأيام الناس وسِيَر الملوك ، وقلمُه في الكتابة بارع ، وعارضتُه في الترسُّل قوية وله شعر قليل ، وألَّف كتاب الممدود والمقصور من سنا أبي العباس المنصور ، قال المقري ، : وهذه التسمِيَةُ وحدها مُطْربة . توفي في سِجْنِ مَخدُومه بفاس سنة ٩٩٠ .

ابن علي الفشتالي

أبو عبدالله محمد بن علي بن ابراهيم الفَشْتالي ، أحـــدُ وزراء المنصور ، ومن صدور الأدباء في عصره ، كان كاتباً مُجوّداً ماهراً في الصناعة ، شاعراً بارعاً متفنناً في ضروب النظم . قال صاحب الرَّيْحانة في حقه : « وَزيرُ مولاي أحمد ، أديب فاس ورَيْحانةُ فضلائها الاكياس . تقدَّم فيها مُتقلّداً قِلادَةَ إنشائها ، فائقـاً برَسائله على سائر أدبائها ؛ وله ماءُ شِعْرٍ تشرَبُه أفواهُ الأسمـاع ، ورِياضُ منثور تُغَرِّدُ حمائمُ قوافيه بمُطرِب الأسجاع » .

من مآثره الأدبية اللامية التي نظم فيها ما تضمَّنه تأليفُ ابن قنفذ في وفيات الاعيان من زمن البعثة الى تمام المائة الثامنة ، وزاد عليه الى تمام الف سنة رامزاً الى التواريخ بنَقْط الحروف الابجديَّة على ما شاع عند أدباء العصور المتأخرة ، وقـد ذيَّلَ على هذه القصيدة الأديبُ المكلاتي وأشار الى وفاة المترجم بقوله :

« شكَى » الدرُّ فقْدَ ناظِمٍ وبكَى له بُكاءَ مُحِب بانَ عن مُتَرَحِّـــل

وذلك في سنة ١٠٢١ .

أبو الحسن الشامي

هو أبو الحسن علي بن أحمد الخزرجي الشامي ، به شهر قومه لأن من الشام كان قدوم سلفهم ، وهم من بيوتات فاس ، وكان لهم مع أبي العباس المنصور مصاهرة ، وكان ابو الحسن هذا أحد شعراء دولته والمقربين منه، وهو شاعر مفن كلف بادخال البديع والمحسنات اللفظية في شعره ؛ لكن حيث لا يظهر عليها أثر التكلف والصنعة ، يحكم الوصف ويجيده وأبدع من وصفه غزله الذي يستثير عاطفة الحب من مكامنها في القلوب .

له لطائف أدبية نظماً ونثراً سنأتي على ذكرها في محلها ، ومن وصفه عند ابن معصوم : « أديب له في الأدب مذهب ، طرازه بحسن البلاغة مذهب ، وشعره ألطف من دل الحبيب ، وأسحر من مقلة الشادن الربيب ؛ يتصور فيه ولا يتكلف ، ويتقدم ولا يتخلف ؛ فهو اذا تغزل أهدى نفحات نجد ، واذا تذكر أورى لفحات شوق ووجد ، على أن عليه من الجزالة ديباجة ، تفوق عبقري الوشي وديباجه ، ولا يشينه من الكلام حوشيه ولا يلم بساحة أنسه وحشيه » . توفي سنة ١٠٣٢ .

ابن عمرو الشاوي

أبو عبدالله محمد بن عمرو بن أبي القاسم الشاوي . قال الشيخ عبد الواحد الشريف في وصفه : « الفقيه الأديب الكاتب الذي ارتفع صيته في مقامات الأخلاق وسما ، وغدا بين النظراء في عذوبة الشمائل علما . وحصل من الأدب اليانع على حظ وافر ونصيب ، ورمى الى غرض الإجادة في منازعه بالسهم المصيب ، وتدرع من حسن الخلق جبة لا تلقيها رياح الانزعاج والغضب ؛ فنسلت القلوب الى محبته من كل حدب ، فلأن ، ابقاه الله تضرب به في لين العريكة الأمثال ، وتتهاداه لفضائله وفواضله الملوك والأقيال ، وأناله من الخير الجزيل كل منال . »

ويظهر من هذا ، ومن بعض نوادره مع المنصور أنه كان ظريفاً خفيفَ الروح حُلوَ الحديث ، فلم نَعْدُ به طورَه حين عددناه في شعراء الفكاهة ، بل إن منزعه هذا في شعره شديدُ الوضوح ، بحيث لا يحتاج الى من يُنبِّـــه عليه ، وهو مع ذلك فصيحُ العبارة لطيف الاشارة ، لا يتكلّف ولا يتعمّق ، فيكادُ يكون كلامُه مرآةً تتمثّل فيها سهولة خُلُقِه التي يتحدث عنها الشيخُ عبد الواحد الشريف . وقـــد اثبتنا في المنتخبات نبذةً من آثاره كغيره من أدباء هذا العصر ..

عصر العلويين

الدّولة الشريفة

انتشَر عقـْدُ الدولة السعدية وتقلـّص ظِلـُّهـا من المغرب ، إثرَ اشتداد النّزاع وشبُوب الحرب بين أولاد المنصور الذهبي في طلب العرش والفَوْز بصَوْلجان الملك .
وكان قـد أمِرَ أمْرُ الدّلائيّين أهل الزاوية التي أسسها الشيخ أبو بكر الدّلائي[1] ؛ فاشتهرتْ بإيواء الطلبَة ونشْرِ العلم وإحياء رسوم الدين زيادةً على بـذْل الطعام للصادر والوارد واعانة المحتاجين واغاثة الملهوفين ؛ فاغتنم رئيسُها في هـذه الاثناء الشيخ محمد الحاج الدلائي حفيدُ الشيخ أبي بكر المذكور ، فرصةَ ضعف نفوذ الدولة وشغلها عن حكم البلاد فلفّ لفـّه ، وزحف الى مكناس وفاس فتملـّكهما ، ولم يلبث أن أسس الدولة الدلائية التي قاومها المولى محمد بن الشريف رأس الملوك العلويين .
ولكنه لم ينل منها مالاً إذ حصَل الصلح بينه وبين الرئيس الدلائي، على أن ما حاذى الصحراء الى جبل بني عَيـّاش فهو للمولى محمد بن الشريف ؛ وما دون تلك الى ناحية الغرب فهو لأهل الدّلاء .

ثم لما تُوفّيَ المولى محمد بن الشريف وتولـّى أخوه مولاي رشيد لم يرْضَ بهذه القِسمة الجائرة ، فتقدم واستولى على جُلّ بلاد المغرب ، ثم حارَب الدلائيين فظهر عليهم وتتبـّعهم حتى كاد يُفنيهم . وقصَد زاويتَهم فأوقعَ بها الواقعة الحاسمة ، وشرّد بأهلها فصفا له مُلكُ المغرب ، ولم يبق له منازع فيه وذلك سنة ١٠٧٩ .

ولما توفي تولى أخوه السلطان المظفّر أبو النصر إسماعيل بن الشريف ثالثُ سلاطين هذه الدولة وأعظمُهم شُهرةً وأجلـّهم قدراً ، كان عاملاً لأخيه على بلاد المغرب ، ومتَوَطـّناً بمدينة مكناس التي صارت عاصمتَه من بعدُ . فلما تمّتْ مبايَعةُ الناس له ، نهَض لتمهيد البلاد وإخضاع من كان خارجاً عن الطاعة من أهل السوس وقبائل

[1] ـ لا يعرف بالضبط موقع هذه الزاوية الآن وإنما المحقق أنها كانت تقع بناحية . وادي أم الربيع قريباً من تادلة . ولعلنا لا نخطىء إذا عيّنا لها بلاد تامسنا المعروفة اليوم بالشاوية ، ومن ثَمّ شُهِر بعض الدلائيين بنَسَب المسناوي .

البربر ؛ فاستنزلهم جميعاً من صَياصيهم ، ولما طلبوا منه الأمــان أجابهم الى ذلك ليتَفرَّغ الى منازلة الأجانب المحْتلِّين بشواطىء المغرب ، والمستولين على أهم ثغوره منذ اضطراب أحوال الدولة السعدية .

فسار الى المَهْدية واستخلصها من يد الاسبان ، ثم أرسل جيشاً كثيفــاً لحِصار العَرائش وأصيلا ، وكانتا بيدهم ايضاً فطردهم عنهما . وفي ذلك الوقت ورَد الخبرُ بإخراج الانكليز من طنجة ، فتمَّ بذلك سرورُ المواطنين وعظُم فرَحُهم ، وأقاموا الاحتفالات في كل مكان ، وقد كانوا من فرْطِ البَثِّ والحُزْن على أخذ العرائش في أيام الفتنة قد لبِسوا الأحــذية السُّودَ ؛ فبقيت في أرجلهم حتى افتتحها مولاي اسماعيل ، فانتزعوها حينئذ ولبسوا هذه النعال الصُّفر .

ثم وجَّه المولى اسمعيل عزمَه الى فتح ثغرَي سبتَة ومليلة وشدَّد عليهما الحصار مدةً طويلة ، وانصرف الى الصحراء فدخل بلاد السودان ، واستولى عليها فامتدت حكومتُه اليها جَنوباً ، وشرقــاً الى بَسْكرة من بلاد المغرب الأوسط ، وبذلك اتسعت مملكتُه ، وعظُم صيتُه ، وهابَه ملوكُ أوربا فمَن دونهم .

وكان مولاي اسماعيل قد عُنِيَ بجمع عبيد المغرب ، واتخَذَ العَصبيَّة منهم ، فأعَدَّ عسكراً قوياً شديداً من جنْس السَّواد بلغَ في حياته الى مائة وخمسين ألفــاً مُفرَّقةً في القِلاع التي بناها بجميع أنحاء المغرب للحِراسة وتأمين السُّبُل ، وبَنى بازاء كل قلعَة منها فندُقاً لإيواء التجار وعابري السبيل ، فجاء هذا العمل دليــلاً على مزيد حزمه وحُسن تدبــيره ، إذ أَمِنَ بذلك انتقاض القبائل على حكومته ، ووطَّدَ دعائِم السلم الذي هو أساسُ الحضارة وأصل التمدين .

وهكذا سَاد الأمن وعمَّ العدل ، ففاضت الخيرات ، وكثُرت النعم مع الرخاء المفرط ، فلا قيمة للقمح ولا للماشية ، والعُمَّال تَجبي الأموال ، والرَّعية تدفـع بلا كُلفة . وأقام السلطان مولاي إسمعيل مشتغلاً بتجديد عاصمته مكناسة الزيتون ، وكان لا يَبغي بها بديلاً ، فلا تسَل عمّا شيَّده فيها من الآثار الهائلة والمصانع الضخمة ممّا يكِلُّ لسان البليغ عن وصفه ، ولا يتصوّره على حقيقته إلا من وقف عليه .

هذا قُلٌّ من كُثر مما عمِله مولاي إسمعيل لصالح المغرب ، الى أن رفع رأسه

عالياً ما بين البلاد . وما أن انتقل الى رحمة الله حتى قام خلفاؤه فنَسفوا بتنازعهم ذلك البُنيان الشامخ نسفاً ، وبدّلوا أمنَ البلاد خوفاً وقوّتها ضُعفاً ، فكادت تصير الى ما كانت عليه قبلُ من الفوضى والاختلال ، لولا أن تداركها الله بولاية المولى محمد ابن عبد الله فخر هذه الدولة ، وباعث مجد المغرب من بين الأنقاض . وقد اجتمع الناس عليه بعد وفاة أبيه مولاي عبد الله بن اسمعيل ؛ فبايعوه لِما كان ظهر منه أيامَ ولايته على مراكش ، في عهد أبيه ، من حسن السياسة وكمال النَّجدة وجودة الرأي ، فلم يلبَث أن ضربَ على أيدي أهل الفساد ، وساح في أنحاء البلاد متفقِّداً لأمورها ، مستصلحاً لأحوالها ، فاجتمعت على محبته القلوب ، وأخلصت له الضمائر .

ثم أخذ يُجدِّد ما درَس أو كاد من آثار عظمة المغرب، فحصَّنَ العواصم والثغور، وشيَّدَ بها الأبراج والمعاقلَ المنيعة ، وشحَنَها بالمدافع والعساكر القويّة ، واستكثر من إنشاء السُّفُن الحربية وتدريب البحَّارة على العمَل فيها بتلك المُناوراتِ التي كان يُقيمُها من حين لآخر في عَرض بحر الزُّقاق وسواحل المحيط .

وبَنى مدينة الصَّويرة ، واعتني بها غاية الاعتناء ، فكان بناؤها من حسن سياسته إذ أبطل بها حِصنَ أكَدير ومرساه الذي كان الثوّار يتداوَلونه ويُسرِّحون منه شحن السلع افتياتاً على الدولة ، فانقطع بالصويرة أملُهم في ذلك ، لا سيما وقد جاء مرساها غايةً في حسن البناء .

ونظر المولى محمد بن عبد الله في علاقاته مع الدول نظرة توفيق وسداد ، فعقد عدّة معاهدات مع ملوك أوروبا وغيرها كلُّها في صالح بلاد المغرب . أما الدولة العثمانيّة فقد كان من أعظم أنصارها وأصدق محبّيها ، تقدَّم فخطب وُدَّها في أيام السلطان مصطفى الثالث ، إذا أرسل اليه رسولين ، ومعهما هديّة فاخرة فيها خيل عِتاق وسُروج مُحلاّت بالذهب وسيوف مُرصَّعة ، فقوبلت هديّته بالسرور ، وأرسل اليه السلطان المذكور مركباً مُثقَلاً بالمدافع والقنابل والبارود وكثير من أدوات الحرب .

ثم لما وقعت الحرب بين الروسيا والدولة العثمانية مدّة السلطان عبد الحميد الأول الذي تولّى بعد السلطان مصطفى الثالث ، بادر المولى محمد بن عبد الله فأرسل الى والي الجزائر أربع سُفُن حربيّة مُثقَلَة بالهدايا وآلات الحرب ، ورغِبَ اليه أن

يرسلها الى القسطنطينيّة ؛ فأساء ذلك الوالي الوَساطة وردّ عليه ردّاً قبيحاً، فلم يمنعه ذلك من المُضيّ في سبيل التقرّب من الدولة العثمانيّة ونُصرتها ؛ فبعث الى السلطان سفيراً بهدايا نفيسة ، وعرض عليه استعدادَه لكل ما يطلب منه من المعونة ، وبيَّنَ له أسفَه من تقاطُع ملوك المسلمين لا سيَّما في ذلك الحين . وأعجَبُ من ذلك أنه طردَ سفير الروسيا الذي كان بطنجة وقتئذٍ لمَّا بلغه خبر الحرب المذكورة ، فكان حادثاً ديبلوماسيّاً خطيراً .

والغايةَ في هذا الباب أنه كان مرةً في سفَر فوافق يومَ عيد الأضحى في الطريق قال الكنسوس : « فخطب السلطان بنفسه ودعا للعثماني » وهذا من انصاف الملوك الذي هو مَلِكُ الانصاف . ومن دلائل حرصه على تمتين الرابطة الدينية بينه وبين ملوك الاسلام أنه زوَّجَ ابنتَه للشريف سرور أمير مكَّة فجهَّزها بمائة الف دينار وزفَّها اليه في موكِب عظيم وأرسل برُفقتها من الهدايا والتحف الى أمير طرابلس ومصر والشام شيئاً كثيراً . فهذا الاهتمام من المولى محمد بن عبدالله بتمكين أواصر المحبَّة بينه وبين ملوك الاسلام، هو من أعظم فضائله في نظرنا ، ولو لم يكن له مَنقَبةٌ الا هو لكفى . فان من المعلوم ان ملوك الاسلام لو جرَوا على هذه السنَّة المحمودة وراعَوْا هذا الواجب الأكيد لما وجدَ العدو أبد الدهر سبيلاً الى استعبادهم والتحكُّم فيهم .

ولما توفي المولى محمد بن عبدالله اضطربت الأمور أيضاً ولم يَلِ بعده خيرٌ من مولاي سليمان الذي كان مثالاً مُجسَّماً للعدل والديموقراطية الاسلامية إلا أنه كغيره ، لم يكن مُوَفَّقاً في سياسة الدولة وتثبيت السلم .

أمَّا مِسْكُ الختام ولَبِنةُ التَّمام فهو السلطان المرحوم مولاي الحسن الذي تولى بعد وفاة أبيه المولى محمد بن عبد الرحمن سنة ١٢٩٠ ، وقد كان العُتوُّ والفساد ضاربَيْن أطنابهما في قبائل المغرب جميعاً ؛ فتمكن بحكمته وحسن سياسته من تأليف تلك القبائل وإعادتها الى حظيرة الطاعة ، واجتهد في اصلاح البلاد والسير بها في طريق الرُّقي المادي والأدبي ، خصوصاً فيما تشتدّ إليه حاجةُ الدولة لحفظ استقلالها وضمان سلامتها؛فأرسل فَوْجاً من الطلبة الى أوربا بقصد التخرج في فنونها الصناعية، وأسَّس معملاً كبيراً للسلاح بفاس ، واقتنى مراكبَ بخاريَّةً كان يَصِحُّ جعْلُها نَواةً

لعِمَارةٍ بحريَّة مُهمَّة ، وكان في علاقته مع دول الغرب دائمَ التيقُّظ والحـذَر لم يُسْلِسْ قِيادَه لواحدة منهن على ما كـُنْ يُبدينَه من التودُّد الزائد .

وكان لا يفتُر من الجَـوْس خِلال المملكة ، وفي هذه الفكرة السديدة من توطيد الأمن وغيره ما لا يخفى . وكان لعامَّة الشعب تعلـُّق كبير به ، وحبٌ زائد على حبهم لأنفسهم وذلك دليل على شفقتِه وغيرته على الدين والوطن ، وكان عازماً على رَبطِ أنحاء مملكته بخطوط السكة الحديدية وإنشاء التلغراف وغير ذلك ؛ إلا أن المَنيَّة عاَجلـَتْه قبل أن يحقق أملَ رعيته فيه فتوفي مأسوفاً عليه سنة ١٣١١ وكان رحمه الله قد بنى فأحسن البناء ولكنَّ لسانَ الحال يُنشِد :

أرَى ألْفَ بانٍ لا يَقُومُ بِهادمٍ   فكَيْفَ بِبَانٍ خَلْفَه ألْفُ هادِمِ ؟[1]

---

١ – الى هنا انتهينا بالتاريخ السياسي للدولة الشريفة في الطبعة الأولى ، ولم نزد عليه شيئاً الآن ، لأنه في الحقيقة نهاية عهد الاستقلال وابتداء عهد التدخل والحماية أي العصر المقدم ، ومن أراد من القراء [illegible]

الحركة العلمية

فتَرت الحركةُ العلمية في المغرب بعد وفاة المنصور الذهبي فُتوراً كبيراً ، لا سيما عند ما أراد السلطان المأمون بن المنصور الملقبُ بالشيخ من العُلماء أن يوافقوا على احتلال العَدوّ لمدينة العرائش فلم يرتضوا ذلك ، وخرج الكثير منهم فارّين بدينهم الى البَوادي ؛ فكان لذلك من التأثير السيء على الأوساط العلمية في المدن المغربية وخصوصاً فاس ما لا يخفى .

ولكن من الألطاف الخفية أن ظهرت الزّاوية الدلائية في ذلك الحين ، وكأنما بعثها الله لحفظ تراث العلوم والآداب الذي كاد أن يضيع ، فقامت عليه خير قيام . وما هي إلا مدة قليلة حتى صارت مركزاً مهما لنشر الثقافة العربية بين قبائل المغرب ، ومأرزاً حصينا للعلوم الاسلامية بالبلاد ، وقد تخرَّج فيها عددٌ لا يحصى من العلماء الفطاحل ، والأدباء الأماثل ، يكفِي أن نذكر منهم علامة المغرب في هذا العصر أبا علي اليُوسِي . والواقع أنه لو لم يقضِ عليها مولاي رشيد ذلك القضاء المُبرَم لكان للمعارف اليوم بالمغرب ، وخصوصا القبائل ، شأنٌ غير هذا الشأن . ولكن ما يشفع لمولاي رشيد هو أنه بعد تخريب الزاوية ، نقَل أهل العلم من رجالها مُكرَمين الى فاس ، حيث عكفوا على التعليم والتذكير من غير خوف ولا نكير . وكان كثيراً ما يتعهدهم ببِرّه وألطافِه ، بل إن منهم مَن كان من جلسائه وخواصّ أهل حضرته وهو العلامة أبو عبدالله المرابط من أفاضل أهل بيته في النحو واللغة .

ولا مفهوم لهؤلاء ، فانَ ذلك كان شأنه مع أهل العلم قاطبةً ، وفيما يحدّثنا المؤرخون أن مجلسه كان لا يخلو منهم ومن رجال الدين وأهل الخير والصلاح ، وهو لا يزال يُسْني لهم العَطيات ويغْدِق عليهم الصّلات .

ومِن مآثره العلمية الباقية بفاس مدرسة الشرّاطين المُحْكمةُ البناء الجميلة الشكل الأنيقَةُ الوَضع ، وقد أسسها لدراسة العلم وسكنى طلابه ، وجعلَها ثلاث طبقات تشتمل على مائتي بيت واثنين وثلاثين بيتاً وقبّةٍ للصلاة .

وهو الذي أحدث نُزْهة الطلبة الرَّبيعيَّة التي يُقيمونها سَنَويّاً على ضِفاف وادي الجواهر بمدينة فاس ويمثلون فيها أدواراً هزْلية ترْويحاً للنفس من عَناء الدَّرس ، وتشارك فيها السُّلطة ويحضرها الأهالي وتدوم مُدَّةَ أسبوع وربما حضرها السلطان نفسه اعتناءً بأمر الطلبة . وكانت همة المولى اسمعيل مصروفة في الغالب الى تقوية الدولة والتشييد والعمارة والبناء ، ولكنَّ ولدَه ووليَّ عهده كان — المولى محمد العالِم أقام سوقاً نافِقة للعلم والأدب ، وجمع عليه من أهل الفضل والنباهة كلَّ عالم نحرير وأديب شهير ، وفي أيام خلافتــه عن والده بإقْليم سُوس ، قصدَتْه الوفود من تلك النواحي النائية الضاربة في جَنُوب المغرب وصحرائه ولا سيما إقليم شَنْجيط ، وكان هذا الاقليم يتمخضُ عن حركة أدبية قوية ، فمدحه شعراؤُه بما طال العهدُ بمثله من الشعر الفحل ، واطَّلع الناسُ بسبب ذلك على ما كان بجنوب المغرب من نهضة علمية مباركة ، وخاصةً في علوم اللغة والآداب . وفي الحقيقة ان مولاي محمد العالم كان شخصية أدبية فذَّة ، وله آثار شعريةٌ ونثرية فريــدة ، ولولا خلافه على أبيه الذي أوْدَى بحياته لكان أسدى الى المغرب أياديَ بيضاء من حيثُ البعثُ والتجديدُ في ميدان المعارف والفنوْن .

وعلى هذا السَّنن جرى المولى محمد بن عبد الله الذي كان دائم الاستصلاح للحالة العلمية والاستنهاض لهمَمِ العلمــاء ، كي يجاروا الزمن في تطوُّره ، ويَلبَسوا لحالِه لَبوسَها ؛ بل كان قد مضى الى أبعدَ من هذه الغاية فأراد أن يمثِّلَ دورَ يعقوب المنصور الموحدي في القضاء على عِلم الفروع ، وعِلم الكلام معاً ، والعنايةِ بنَشرِ كتُب السنة وتعويضها من كتب الفقه .

وبالفعل فقد بعثَ بأوامره في هذا الصدد الى كافة علماء المغرب،وألزمهم باتِّباعها والتدقيق في تنفيذها ، الا انه لم يشتَطَّ في ذلك اشتطاطَ يعقوب المنصور فلم يُحرِقْ الكتب التي أمر بنبذها ، ولم يُحرِّم النظر في كتب الخلاف عموماً، وانما أمر بالرُّجوع الى الأمَّهات التي منها الاستمداد ؛ وعليها الاعتماد مع عدَمِ الاقتصار عليها والإعراض عن كتاب الله وسُنَّةِ رسوله اللذين هما المرجعُ الأول والأخير لأحكام الشريعة .

وألَّف بنفسه عِدَّة كتب زاوج فيها بين الأصول والفروع والنصوص الفقهيــة والحديثية ، منها كتاب مَسانيد الائمة والفُتوحات الإلهية ، وذلك لينهــجَ للعلماء

طريقَ العمل سواء في التدريس أو التأليف ، وكان يَصِفُ نفسَه في أوائل كُتُبِه ؛ فيقول المالكي مذهباً الحنبلي اعتقاداً مؤكِّداً عدم أخذه بطريقة الأشاعرة في العقائد، وكانت هي الطريقة المعتمَدة في المغرب منذ العصر الموحدي ، وفي الأوامر التي كان يُصدِرُها بشأن تنظيم الدراسة في القرويين كثيراً ما أشار الى الاقتصار في علم الكلام على عقيدة ابن أبي زيْد القيْرَواني التي ضمَّنها رسالته المعروفة ، وهي عقيدةٌ سلفيَّة خاليةٌ من التأويل الذي يجنَحُ اليه الأشاعرةُ كما نبَّهنا على ذلك مراراً .

ولنثْبِتْ هنا نصَّ المنشور الذي أصدره بهذا المعنى سنة ١٢٠٣ لتتمثَّل في ذهن القارىء صورةٌ جليَّة عن حالة التعليم في أوائل هذا العصر التي لا تختلفُ عما وجدناها عليه في زماننا هذا ، وما كانت تتطلَّبُه من الاصلاح الذي أدخل عليها المولى محمد بن عبدالله كثيراً منه قبل النهضة الحديثة بنحو المائة والخمسين سنة ، ولفظه بعد الافتتاح: « ليَعلم الواقفُ على هذه الفصول ، أننا أمرنا باتباعها والاقتصار عليها ولا يتعداها الى ما سواها :

الفصل الأول : في أحكام القضاة ، فان القاضي الذي ظهر في أحكامه جوْر وزور وما يقرُب من ذلك من الفتاوى الواهية مثلُ كَوْنها من كتب الأجْهُورية[1] ولم يبلغ سَنَدُها الى كتب الأقدمين فان الفقهاء يجتمعون عليه ويعزلونه عن خطة القضاء ولا يحكم على أحد أبداً .

الفصل الثاني : في أئمة المساجد ، فكلُّ إمام لم يرْضَه أهلُ الفضل والدين من أهل حوْمَتِه[2] يعزلونه في الحين ويأتون بغيره ممن يَرْضوْن امامتَه .

الفصل الثالث : في المدرسين في مساجد فاس ، فإنا نأمرُهم أن لا يدرسوا الا كتابَ الله تعالى بتفسيره وكتابَ دلائل الخيرات في الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن كُتُب الحديث المسانيد والكتبَ المُستَخرَجةَ منها والبخاري ومسلماً من الكتب الصِّحاح ، ومن كتب الفقه المدَّونةَ والبيان والتَّحصيل ،

---

١ المراد بها شروح المختصر الخليلي للشيخ على الأجهوري وتلامذته الخرشي والشبرخيتي ، والزرقاني فقد حذّر الفقهاء من الاعتماد عليها لكثرة أغلاطها الا ما سلم حشوها .

٢ أي اهل حيه الذي يسكنه .

ومقدمةَ ابن رُشد والجواهرَ لابن شاس والنوادرَ والرسالةَ لابن أبي زيد وغيرَ تلك من كتب الأقدمين، ومَن أرادَ تدريس مختصر خليل فانما يدْرسه بشرح بهرام الكبير والموّاق والحطّاب والشيخ علي الأجهوري والخرْشي الكبير لا غير . فهذه الشّروح الخمسة بها يُدرس خليل مقصورا عليها ، وفيها كفاية ، وما عداها من الشراح كلّها يُنبذُ ولا يدرس به ، ومن ترك الشرّاح المذكورين ، واشتغل بالزرقاني وأمثاله من شراح خليل يكون كَمَن أهرَق الماء واتبَع السراب . وكذلك قراءة سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم كالكَلاعي وابن سيّد الناس اليَعْمُري ، وكذا كتب النحو كالتسهيل والألفية وغيرهما من كتب هذا الفن ، والبيان بالإيضاح والمطوّل ، وكتب التصريف ، وديوان الشعراء الستة ، ومقامات الحريري ، والقاموس ولسان العرب وأمثالها مما يُعِينُ على فهم كلام العرب لأنها وسيلة الى فهم كتاب الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وناهيك بها نتيجةً . ومن أراد علم الكلام فعقيدةُ ابن ابي زيد رضي الله عنه كافية شافية يستغني بها جميعُ المسلمين . وكذلك الفقهاء الذين يقرأون الأسْطرلاّب وعلم الحساب فيأخذون حظّهم من الأحباس لما في تلك من المنفعة العظيمة والفائدة الكبيرة لأوْقات الصلاة والميراث ، وعلى هذا يكون العمل ان شاء الله .

ومَن أراد أن يخوض في علِم الكلام والمنطق وعلوم الفلاسفة وكتب غُلاةِ الصوفية وكتب القَصص فليتعاطَ ذلك في داره مع أصحابه الذين لا يدرُون بأنهم لا يدرون ، ومن تعاطى ما ذكرنا في المساجد ونَالتهُ عقوبة فلا يلُومَنَّ الا نفسه ، وهؤلاء الطلبة الذين يتعاطون العلوم التي نهيْنا عن قراءتها ما مُرادُهم بتعاطيها الا الظهور والرّياء والسُّمعَة ، وأن يضلّوا طلبة البادية فانهم يأتُون من بلدهم بنيَّة خالصة في التفقه في الدين وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحين يسمعُونَهم يدرسون هذه العلوم التي نهيْنا عنها يظنون أنهم يُحَصّلون على فائدة بها فيتركون مجالس التفقه في الدين واستماعَ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم واصلاحَ ألسنتهم بالعربية فيكون ذلك سبباً في ضلالهم . » اهـ باختصار وتصرف يسير

وبالتأمّل في فصول هذا المنشور يظهر ما كان للمولى محمد بن عبدالله من النية الحسنة في إصلاح حالة التعليم مما لو استمرّ العمل به الى الآن لكان له نتائج طيبه ، لكن أبطله من بعده وَلدُه مولاي سليمان لاختلاف وجهة نظره عما كان برا

والِدُه ، فرجع ما كان الى ما كان . ثم عاد المولى عبدُ الرحمن بنُ هشام فجدَّدَه في الجملة بمنشور آخر وان لم يكن له مفعول في صرف العلماء عن طريقتهم وكتبهم المفضلة ، وعلى كل حال فقد كان لهذا المنشور تأثيرٌ ظاهر في إحياء علوم التفسير والحديث ، وإذكاءِ الرغبة فيهما لا سيما وقد كان للمولى سليمان غبطة كبيرة في التفسير مما كان باعثاً على مزيد الاعتناء به . وفي أيامه نبغ المفسر الكبير الشيخ الطيب بن كيران . كما نبغ في الحديث الحافظ أبو العلاء العراقي ، وتأثر الفقه أيضاً بروح المنشور فانتعش بعد الانتكاس ، وسرت فيه نسْمةُ الحياة فلم يبق قاصراً على نصوص الفقهاء المجرَّدة ، وأقوال الخلافيّين غير المسندة ، وذلك بفضل انتشار كتب السلف والاطلاع على آثار الأقدمين مع حسْنِ النظر في الكتاب والسنة . والفقهاء النابغون في هذا العصر لا يأخذهم الحصرُ ، إنما نحن نشير لمن كانت لهم يدٌ ظاهرة في تجديد رسوم الفقه ، ولا يزالُ تأثيرهم على العقول قوياً ظاهراً حتى وقتِنا هذا كأبي علي بن رَحَّال والبنَّاني والرُّهُوني .

وهؤلاء هم ممن ثبتت لهم المشاركة في باقي علوم الشريعة أيضاً ، فلا يُفهم من كلامنا أنهم كانوا قاصرين على الفقه ، ولا حاجةَ الى القول انهم كانوا متضلعين في العلوم الآلية أيضا ، انما لا بد من القول إن هناك آخرين كانوا في هذه العلوم مَقْطُوعي القَرين ، وممن تلقَّى رايتها باليمين وهؤلاء كأحمد بن مبارك اللمطي وأبي العباس الهلالي وأبي حفص الفاسي ؛ وفي اللغة والنحو بالخصوص نبغ أفراد كثيرون لا يقصرون عن نبغاء العصور المتقدمة في هذين العلمين ناهيك بابن الطيِّب الشرقي وابن بُونة وابن زكرى .

أما فيما عدا ما ذكِر من العلوم الأدبية ، فان التاريخ والجغرافية لم يكن حظُّهما من الانتشار بأقلَّ من أي علم آخر ؛ فالكتب التي ألفت في تاريخ الدولة الشريفة وتراجم علماء هذا العصر تعدُّ بالعشرات وكذا الرِّحْلات وكتُب الأنساب . وإذا ذهبنا نعُدُّ مَن كتَب في هذا الموضوع طال بنا المجال فلنقتصر على تسمية بعض الأفراد كالإفراني وابن الطيب القادري والزَّياني والكَنْسوس .

بقي الكلام في العلوم العقلية ونقول انها كالسابق ، كانت منتشرةً بمقدار وبعض الرياضيات كالحساب والهيئة كان الاعتناء بها أكثر ، وألِّفتْ فيها كتب عديدة .

والطب ايضاً لم يَعْدم من كان مَعْنياً به ، ومَن ألف فيه من رجال هذا العصر ، وقد كان من المبرّزين في العلوم العقلية والكونية على العموم أبو زيد الفاسي وابنُ سُليمان الرُّوداني وأحمد بن مبارك اللمطي وبرع في الطب بالخصوص عبد الوهاب أدَرَّاق وعبد القادر ابن شقرون وعبد الله بن عزُّوز المراكشي .

ولا ننسى أنه في هذا العصر وقَع تسْجيلُ الموسيقى الأندلسية باعتناء المتفنِّن البارع محمد بن الحُسَين الحائك الذي ساءه ما آل اليه حالُ هذه الموسيقى من الضيَّاع ، فعمِل على انقاذها بوضْع كنَّاشته الشهيرة باسمه ، الحاوية لجميع الأغاني التي تتكوَّنُ منها النوباتُ أي القِطعُ الموسيقية الإحدى عشَرةَ التي بقيت من الطرب الأندلسي ، وهي رمل الماية ، الاصبهان ، الماية ، ارَصْد الذَّيل ، الاستهلال ، الرَّصد ، غريبة الحُسَين ، الحِجاز الكبير ، الحجاز المشرقي ، عراق العَجَم ، العُشّاق . ثم نظّمها بحسب تلك النوْبات وأشار في ملاحظات هامة الى بعض الفروق والاختلافات بين تلك الأغاني وكيفيّة استعمالها ، فحفظ بهذا العمل الهيكل العام لهذه الموسيقى وكان ذلك هو التسجيل الأول لهذا الفن الأندلسي الرفيع .

ومـا دُمنا أشرنا الى الفن وبعض مظاهر نشاطه ، فلنذكر أنه في هذا العصر ايضاً وقع تفنُّن كبير في تحْسين الخط المغربي وما يرجعُ اليه من الزُّخْرفة الكتابية وجدْوَلة الكتب الملوَّنة والتنمُّق في وضْع التراجم المذْهَبة . وتقرَّرت الأصول الفنِّية لأنواع الخطوط حتى وُضعَت لها الأسماء الأعلام التي تُمَيز بعضَها عن بعض كالمبْسوط الذي تُكتَبُ به المصاحف القرآنية ، والمُجَوهَر الذي يُستعمل في كتابة المراسيم السلطانية ونَسخ كتُب الحديث الشريف وما الى ذلك والمُسْنَد الذي تُنسخُ به الكتب العلمية وغيرُها . وقد امتازت بجوْدة الخط وجماله بعضُ المدن كفاس ومكناس وَسلاَ وبعضُ القبائل كالأخماس التي عُرفَ أهلُها بحُسن الخط ، وكتبوا المؤلفات العديدة التي بقيتْ شاهداً على ما كان لهذه القبيلة من ماضٍ علميّ زاهر . ويلحقُ بالخط المغربي الأرقامُ الحسابيةُ المعروفة بالغُباري وبحرف الغُبار وهي التي تسميها الكتب الافرنجية الأرقام العربية (*Les chiffres arabes*) ولا تُستعمل الا في بلاد المغرب من الوطن العربي على أنها منتشرة في جميع أقطار العالم .. ويُقال إن أول من أدخلها الى اوربا هو البابا سلْفِستر الثاني وكان ممن أخذ العلم ببلاد الأندلس والمغرب . ومع العلم بأنها عربيةٌ قطعاً لا ندري أول من استعملها ولعلها من اختراع

عربِ المغرب ، ولعـل الغُباري الذي تـَحمِلُ اسمَه هو مُخترعُها ، وأقدمُ نصّ رأيناه ذكرها بهذا الاسم كتابٌ لابن الياسمين تقدم ذكره في العصر الموَحّدي . ونحن انما أشرنا اليها هنا على سبيل جمع النـَّظائر ، فهي والخطُّ المغربي مما تتشخَّصُ به الثقافة العربية في هذه البلاد ، وللقول بأن هناك أرقاماً أخرى كانت تـُستعمل عند الموَثـَّقين خاصةً في قـَسم التـَّرِكات وحساب الُمخَارَجات ؛ وربما استعملت في المحاسبات العادية وترقيم صفحات الكتب ، ويقال لها القلَمُ الفارسي . ولئن لم نجزِم بأنَّ حرف الغُبار من اختراع أهل المغرب فلا نشكّ في أن القلم الفاسي من ابتكار المغاربة وأهـل فاس بالخصوص وهو لذلك يُشبِهُ الخطّ المغربي في أشكاله الهندسية ويُسايرُه في جمال الوضع وحسن الهِندام . ويقال إنه مأخوذ من القلم الرُّومي القديم ، ذكرَه الشيخُ أحمد سُكـَيْرج في تآليفٍ له في صفـة أشكال القلم الفاسي . على أن القلم الرومي نفسَه يُشبه في بعض أشكاله الخط المغربي ، فأمْرُه مُشكِل . ونظنُّ أنه دخلَه أيضاً تحويرٌ ليحصل الانسجامُ بينه وبين الكتابة العربية للعِلم بأن الأرقام الرومانية كانت من الكثافة بحيث تركها أهلها لِحرف الغُبار .

والذين ألـّفوا في القلم الرومي ممن اطلعنا عليهم كالعلامة أبي عبدالله محمد ابن أحمد الصباغ لم يذكروا شيئاً عن كيفية اقتباسه وإنما كان وكـْدهم أن يطبقوه على العمليات الحسابية المعروفة والمعدودات المغربية من الرُّطل والأوقية والمِثقال وما الى ذلك .

والخلاصة أننا بازاء ثلاثة أنواع من الأرقام : (الغُباري) وهو الشائع المأخوذ به في عموم الأعمال ومن جميع الطبقات (والفاسي) وكان خاصاً ببعض الأعمـال وبعض الطبقات (والرُّومي) وقد انقرض قديمـاً وخلـَفه الفاسي . والموضوع بحاجة الى دراسة فنـّية من بعض فوائدها الوقوف على ما كان لأسلافنا رحمهم الله من رسوخٍ في العلوم الرياضية وابتكارٍ في أساليبها ونظرياتها .

وفي أعقاب هذا العصر وبالضبط في أيام السلطان محمد بن عبد الرحمن أُسـِّسَتْ المطبعة الحجرية بفاس وجعلت تُخرِجُ كتب العلم القيـّمة بخطوط ممتازة وتصحيح كامل ، وهي التي ما تزالُ لحد الآن قيْدَ البصر وبهجةَ النظر تتَنافسُ فيهـا الناس ، ويكفي أن يقول الشخص ان هذا الكتاب مطبوع بالمطبعة المحمدية ليُصبِحَ عِلـْقَ مَضَنـّة وذخيرةً من ذخائر الخزائن العلمية المعدودة .

هذه خلاصة الكلام عن الحركة العلمية في هذا العصر ، وترى أن ليس بينها وبين ما كانت عليه في العصر السابق كبير فرق إلا في التوسع الذي يقتضيه طول هذا العهد ، ولذلك اختصرنا الكلام فيها على أن هذه النبذة مع اختصارها حاوية لأهم ما تجب معرفته من ذلك ، وبقي الكلام على مساهمة المرأة في هذه الحركة وهي مساهمة تامة برغم ما ينقصنا من معلومات في هذا الشأن .

وأول من نذكر من السيدات المبرزات في ميدان المعارف الاسلامية السيدة خناثة بنت بكار زوج السلطان مولاي اسمعيل وأم ولده السلطان مولاي عبد الله ، كانت فقيهة عالمة ، بارعة أديبة ، خيرة دينة ، لها كتابة على الإصابة في معرفة الصحابة ، لابن حجر ، وكان لها كلام ورأي وتدبير مع السلطان ومشاورة في بعض أمور الرعية فانها كانت له وزيرة صدق وبطانة خير كما قال الوزير الإسحاقي في رحلته . وكانت قد توجهت الى الحج في أيام ولدها مولاي عبد الله ، وصحبها حفيدها سيدي محمد بن عبدالله وحاشية كبيرة من جملتها الوزير المذكور الذي كتب رحلته بهذه المناسبة ، فقوبلت بحفاوة عظيمة من أهل الحرمين الشريفين وفرقت هناك على المحتاجين وذوي البيوتات ما يزيد على مائة الف دينار وأكرمها العلماء ومدحها الشعراء . ومن جملة ما مدحت به قصيدة للشيخ محمد بن علي بن فضل الحسيني الطبري إمام المقام الابراهيمي استهلها بقوله .

غنّى على عودِ السُّعود هَزارِي وشدَا على الأوتار بالأوطار

ويقول في أثنائها :

فاحَتْ بها أرْجاءُ مكة رغبةً ومحبّةً من سائر الأخيار

وهْي الحقيقةُ بالجلالة في الورى فجلالَةُ الأضياف ليس بعار

توفيت رحمها الله بفاس سنة ١١٥٩ . ثم نذكر السيدة زوج الشيخ سيدي المختار الكنتي التي كانت أيضاً من العالمات الفاضلات ، وقد ختمت المختصر الخليلي الذي كانت تدرسه للنساء في اليوم الذي ختمه زوجها بجهة أخرى حيث كان ...

مجلسه للرجال ، وألّف ولدُهما أبو عبد الله محمد في ترجمتها كتابَه الطَّريفة والتّالِدَة في مناقب الشيخ الوالد والشيخة الوالدة .

ونبغت في نظم الشعر السيدة مريم الشّقراوية الشّنجيطيّة ، واشتهرت به وكانت تمدح أكابر العلماء ويمدحونها حتى بكّتَها أحدُ الشيوخ فأمسكت .

وفي مَيْدان التعليم الأوّلي كان هناك معلّمات يقُمن بتعليم البنات والأولاد الصغار الكتابةَ والقراءةَ والقرآن الكريم ومبادىءَ العلوم الضرورية ، فلم يكن يخلو حي من أحياء المدن الكبيرة من « دار َفقيهَة » ُتعتبَر بمثابة مدرسة أولية ، ولقد أدركنا نحن منها العشرات مما يدلُّ على ما كانت المرأة المغربية تقوم به من َدور عظيم في نشر المعرفة وتثقيف النشء .

وهناك نوعٌ آخر من التعليم وهو التربية الدينية ، وكان للنساء بها اهتمام كبير ، إذ كان بعضُهُنّ ينتَصِبْنَ لتلقين النساء المتقدّمات في السنّ واجباتِهن الدينية ، ويندُبنَهُنّ الى التوبة ويعلّمنَهُنّ بعض الأدعية والأذكار ممّا يقومُ به شيوخ التصوُّف ، وقد أدركنا نحن الكثيرات من السيدات اللائي كنّ ينهَضن بهذه المهمة الرُّوحية خيرَ نهوض ، وبذلك كان النساء على جانب عظيم من العفاف والطهارة وحُسن التبعُّل ، وكانت السعادة الزوجية تغمُر البيتَ والأسرةَ والمجتمَع بالرّضى والطمأنينة والُحبور ، ولله عاقِبَةُ الأمور .

●

الهيئة العلمية وآثارها

لا يتسع لنا المجال للاتيان على تراجم أعيان علماء هذا العصر كلهم ، لأن عددهم كثير ، فنكتفي بأكبر عدد يمكن ذكره في هذا المختصر متعللين بأن بين يدينا مجالاً فسيحاً في كتاب (ذكريات مشاهير رجال المغرب) وكتاب (شخصيات مغربية) حيث نوفيهم جميعاً حقهم ، ونكفر عن ذنب إغفال من لم نذكره ها هنا والله سبحانه الموفق . وقد سرنا في ترتيبهم على حسب سني وفياتهم لا على ترتيب العلوم ، لأن ذلك أدعى لعدم ظن التحيز وما اليه ، فليغتفر لنا القارىء المنصف ذلك .

ابن ناصر

أبو عبد الله محمد بن ناصر الجعفري الزينبي دفين درعة ، الإمام جبل السنة وشيخ أهل العلم والعمل في عصره . كان له مشاركة في علوم الشريعة وعلوم العربية ، وله قدم راسخ في التصوف ، شديد الاتباع للسنة في سائر أحواله ، حتى في لباسه وطعامه ، سالكاً في ذلك سبيل المرجاني وابن أبي جمرة وابن الحاج صاحب المدخل . وقام بمهمة الإرشاد والتعليم فهدى الله به خلقاً لا يحصون ، وكان لاخلاصه ونصحه إذا وعظ أثر وعظه في النفوس ، وإذا تكلم انتقش ما تكلم به في قلوب سامعيه .

وقد سافر للحج مرتين فكثر الآخذون عنه شرقاً وغرباً وهو ممدوح أبي علي اليوسي بقصيدته الدالية المشهورة . وله رسائل جامعة لوصايا ونصائح غالية من غير تكلف ولا تعمل ، وغير ذلك . وتوفي عام ١٠٨٩ رحمه الله .

عبد القادر الفاسي

أبو محمد عبد القادر بن علي بن يوسف الفهري ثم الفاسي ، به شهر هو وأهل بيته ، الإمام العالم العلم ، بركة فاس وحجة المغرب في عصره ، ولد بالقصر

الكبير سنة ١٠٠٧ وبه نشأ ، ثم رحَل الى فاس في طلب العلم واستقر بهـا وتصدَّر للتدريس فعظـُم النفع به ، وكثـُر الأخذ عنه ، وقد وقـَع الأطباق من مشائخ عصره على تحقـُّقه بسائر العلوم . ولا تجد عالماً أو متعلـّماً إلا وهو من تلامذته أو تلامذتهم .

وكان متمسـّكاً بالسنـّة ، وَرِعاً زاهداً ، له قدَمٌ راسخ في العبادة وقيام تامٌ على نوافل الخير . ومع سعة علمه وطول باعه في الفنون ، لم يؤلـّف كثيراً وإنمـا ترك بعض آثار هي بالنسبة لِعلمِه الغزير كغيض من َفيض ، و ُنقطة من بحر ، وهي العقيدة والفقهيـّة المشهورتان ، وأجوبَةُ مسائله ، ونحو ذلك ، وتوفي سنة ١٠٩١ هـ .

الـرّودَاني[١]

أبو عبد الله محمد بن سليمان الرُودَاني السُّوسي ، العلامة الجـامع الفيلسوف الفلكي البارع . وُلِدَ بتارودانت سنة ١٠٣٧ وبها نشأ . وحين بلغ سن الرشد تاقت نفسُه للتعليم فخرج وقرأ بدَرعَة. ثم رحل الى سجلماسة ومراكش فأتقن طرَفاً من علم الحكمة والهيئة والمنطق ، إلا أنه لم يقض وَطرَه من ذلك ؛ فرحل لفاس بقصد تتميم الدراسة ،ثم سار الى الجزائر فأخذ بها عن شيوخها وحج وجاور بالمدينة المنورة وأخذ عن علماء مصر والشام ؛ فامتلأ وطابه من المعارف ، وأصبح كما يقول المُحِبي في الخلاصة فرْد الدنيا في العلوم ، المالك للمجهول منها والمعلوم وكانت له يدٌ صَنَاعٌ في كثير من الحرف والصنائع ، كالطـَّرْز العجيب والتسفير والخِرَازة والصِياغة وجـبر قوارير الزُّجاج المكسـَّرة وعمل الاسطرلاب ، وابتدع آلةً نافعة في عـلم التوقيت والهيئة لم يُسبَق اليها ، وهي كرة مستديرة الشكل مُنعَمَةُ الصَّقْل مدهونة بالبياض المموَّه بدهن الكتان يحسبها الناظر بيضة من عسجد لاشراقها مسطرة كلـّها دوائر ورسوم ، قد رُكـّبت عليها أُخرى مجرَّفة منقسمة نصفين ، فيها تخاريم وتجاويف لدوائر البروج وغيرها ، مستديرة كالتي تحتها مصقولة مصبوغة بلون أخضر ، فيكون لها ولما يبدُو من التي تحتها منظر رائـق وهي تغني عن كل آلة في فن التوقيت والهيئة ، مع سهولتها لِكوْن الأشياء فيها محسوسةً والدوائر المتوهمـة مشاهدة وتخدم لسائر البلاد على اختلاف أعراضها وأطوالها . وقد ألف هو رسالة

بيّن فيها كيفية استعمالها وكيفية صنعها فراجعها إن شئت في الرحلة العياشية

وبالجملة فهو أحد حكماء الاسلام وجهابذة الأعلام ، وبقدر ما كان مَتضلّعاً في العلوم الحكميّة كان متمكنا في علوم الأدب والشريعة ، وألف كتباً مفيدة منها منظومة في علم الميقات خالف فيها كثيراً من مذاهب أهل هذا العلم وشرحها ؛ ومنها صِلةُ السلف بوصول الخلف وهو فهرس جامع قلّ أن يكون له نظير . وتوفي بالشام عام ١٠٩٥ .

عبد الرحمن الفاسي

هو أبو زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفِهْري الفاسي العالم المشارك المتفنن ، مفْخَرةُ بيته ونادرة وقته ، ولد سنة ١٠٤٠ ونشأ في حجر والده فحفظ القرآن في سنّ مبكرة جداً . ثم أكب على تعاطي العلم فلم يلبث أن صار فرداً متحققاً بسائر العلوم العقلية والنقلية التي تدرس في القرويين ؛ ففضلاً عن علوم العربية والأدب والفقه والحديث كان له مشاركة في العلوم الفلسفية والطبيعية والرياضية من حساب وجبر وهندسة وطب وكيمياء ومنطق وما الى ذلك ، وألف في هذه العلوم كلها كتبا منظومة ومنثورة ، وضمّن المنظومة منها كتابه المسمى بالأقنوم في مبادىء العلوم الذي يُعدّ دائرة معارف العصر ، تكلم فيه على نحو مائة وخمسين علماً ؛ فاستوفى حدودها ، واستوعب نظرياتها بأوجز عبارة وأحسن اشارة . وله في الفقه نظمُ العمل الفاسي وهو مجهود قيّم تمم به ما كان الامام الزقاق قد ابتدأه في لاميته ، من جمع المسائل التي جرى العمل بها في الأحكام الشرعية ، مراعاة للاعراف والظروف ، وان لم تكن من الراجح ولا المشهور ، فأربى عليه واتسع في ذلك بما لا غاية بعده . وفي السيرة له مفتاح الشفا ، ذيل به شفاء القاضي عياض وجوّدَه وأتقنه جداً . وله غير ذلك مما يذكر في موضعه . وتوفي سنة ١٠٩٦ .

ابو علي اليوسي

أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي ، نسبة الى أيت يوسي ، قبيلة في عِداد

بربر ملوية ؛ نابغةُ علماء هذا العصر ومن أفضل المتحققين بالعلوم العقلية والنقلية على سبيل العموم . تخرج بأهل الدلاء وجال في المغرب ؛ فدخل سجلماسة ودرعة وسوس ومراكش ودكالة وأخذ بها عن مشائخَ عِدّة ذكرهم في فهرسته ؛ ثم القى عصا التسيار بالزاوية الدلائية ، فعكف فيها على نشر العلم حتى أوقع مولاي رشيد بأهلها ، فنقله الى فاس . وهنالك أقبل اليه طلبة العلم وتزاحموا على بابه ، فتصدّر للتدريس بالقرويّين فلم يتخلف عن مجلسه الا القليل من مُنافسيه .

ثم خرج الى البادية فاستوطن قبيلته ، ودرّس بها العلوم الدينية والأدبية ، فانتشرت عنه فنون المعارف في قبائل المغرب ، ولم يألُ جهداً في التعليم والارشاد والاصلاح والتذكير ، إذ كان على قدَم السّلف الصالح في حُسن الهَدي واقامة شعائر الدين حتى قال فيه عَصْرِيُّه العلامة أبو سالم العيّاشي :

مَن فاته الحَسَنُ البَصْرِيُّ يُدْرِكُه فلْيَصْحَبِ الحَسَنَ اليُوسِيَّ يَكْفِيه

وكان أبو علي أديباً عبقرياً راويةً للشعر ،يستحضرُ ديوان المتنبي وأبي تمام والمعرّي وقصائدَ كثيرة لغيرهم ، كل ذلك على طرَف لسانه . وهو نفسُه شاعرٌ مُجيدٌ مُكثِر ، الشّعر عندَه أسهل من النّفَس ، بل كان يقول : لو شئتُ أن لا أتكلمَ الا بالشعر لفعلتُ . وديوانُ شعره معروف ، وقد عملنا مُنتخباً منه . وله كتاب المحاضرات وزهْر الأكَم في الأمثال والحكم والقانون في ابتداء العلوم ، وكلها كتب نفيسه مفيدة وغيرها . وتوفي سنة ١١٠٢ هـ.

المسْناوي

أبو عبدالله محمد بن أحمد المَسْناوي الدّلائي الفاسي العلامة الكبير أحدُ اركان الكلية القروية وممن نفَخ فيها روحَ التجديد ، وقام بنهضة علمية صحيحة ، كان راسخَ القدم في علوم العربية والفقه والحديث والتفسير والكلام ، آيةً في الحفظ والأتقان ، قد أُعطِيَ الملكة العجيبة في التدريس والعارضة القويّة في الفتوى فأصبح الحجّة الذي لا يُنقَضُ قوله ، ولا يكون الرجوع إلا إليه ، على أنه كان يتحرّى الجوابَ

في مسائل النكاح والطلاق تورُّعاً منه وخِيفةَ التورُّط في أمر استحلال الفروج ، وإنما كان غالبُ أجوبته في مسائل الاعتقاد واحوال المعاش والمعاد ، وانتصر لسنّة القبض في الصلاة في ذلك الوقت الذي كان جُلُّ الاعتماد فيه على الفرعيّات المنقولة عن علماء المذهب ، من غير رجوع الى الأصول الثابتة والسنة الصحيحة ؛ فكان ذلك من أعلام تجديده وترفُّعه عن التقليد والأخذ بالمسلّمات . أخذ عن عبد القادر الفاسي والحسن اليوسي وعبد السلام القادري وأضرابهم وأخذ عنه ابن الطيِّب الشرقي وكثيرون غيره . وكان عظيم الهيْبة حسَنَ السَّمْتِ ، باديَ الوَقار ؛ كريم الأخلاق ، متحببا الى الناس بهيَّ الطّلعة ، يود رائيه أن لا يحدر منه طرْفَه . ألف رسالة نصرة القبض والرد على من زعم عدم مشروعيته في النفل والفرض ، وصرف الهِمَّة الى تحقيق معنى الذمّة ، والقول الكاشف عن حكم الاستنابة في الوظائف وغير ذلك . وكانت وفاته عام ١١٣٦ .

أبو علي بن رحّال

أبو علي الحسن بن رحال المَعْداني المكناسي ، حافظ المذهب المرجوع اليه في الفتوى والقضاء . كان له اتساع عظيم في النوازل ، وعارضة قوية في الفقه ، تولّى تدريس المدرسة المتوكلية من طالعة فاس فكان يجلسُ عند طلوع الشمس ويتمادى الى الزوال ، لا يضجَر ولا يملّ مع كثرة ما يُلقى اليه من الاسئلة والأبحاث ؛ فيُجيب لا يعجزه شيء من ذلك ، حتى دُعيَ صاعقَةَ العلوم ، وقد وَلِي قضاء فاس الجديد وقضاء مكناس وبها توفي في رجب سنة ١١٤٠ هـ . له شرح عظيم على المختصر في ستة عشر مجلّداً وحاشية على شرح الخرشي عليه ، وحاشية على شرح ميارة على التُحفة ، وكتب أخرى في مسائل مختلفة وهي كلّها في غاية التحرير والاتقان والجمع والتحصيل . ويحدّثُنا ابن الطيِّب القادري عن أخلاقه فيقول : إنه كان كثير الإنصاف ، شديد التواضع ، سليم الصدر ، كريم النفس ، بعيداً عن التصنُّع ، مصيباً في كلامه ، مفضالاً جواداً ؛ وكان كثير العيال والأولاد ، لأنه مِطلاقاً مِزواجاً ، عظيمَ النفقة لذلك ، رحمه الله .

الإفراني[1]

أبو عبد الله محمد الصغير الإفراني المراكشي ، العلامة المؤرخ الأديب ، صاحب المنن على التاريخ المغربي والأدب بتآليفه المفيدة ، التي منها نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي ؛ وهو في تاريخ الدولة السعدية وصدر دولتنا العلوية ، ومنها صفوة ما انتشر من أخبار أهل القرن الحادي عشر في تراجم الأعيان ، ومنها المغرب في أخبار المغرب والمسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل وغيرهما . والحق أن كتبه سدت ثلمة في التاريخ المغربي ، لولاه لبقينا منها في حيرة شديدة، فهو من أولئك الأفراد الذين بلغوا للاحفاد مآثر الأجداد بأمانة واجتهاد . توفي رحمه الله في حدود سنة ١١٤٠ هـ .

ابن زكري

أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن زكري الفاسي العلامة المحقق المشارك المدقق . كان في أول نشأته يمتهن الدباغة ، وكان يحضر مجالس العلم الليلية ؛ فيعي كل ما يسمع ؛ ثم تفقده شيخه في بعض الأيام فقال إني تأخرت في دار الدبغ فقال له لا تعد اليها ، ورغب الى أبيه أن يحرص على تعليمه فانه أولى له ؛ فأكب على الدرس حتى أدرك ما أدرك ونبغ في العربية نبوغاً فائقاً وفي الفقه والحديث والتفسير والتصوف والأدب فلم يكن يقعقع له بالشنان في كل ذلك . وألف تآليف محررة تشهد بطول باعه وكثرة اطلاعه ، منها شرح الفريدة للسيوطي في النحو ، جوده غاية ، وشرح البخاري ، وشرح النصيحة الزروقية ، أبدأ فيه وأعاد . وله الهمزية التي عارض بها همزية البوصيري في المديح وشرحها في جزءين ، وكتاب في ذم النظرية العنصرية من قبيل كتاب ميارة في الموضوع ، سماه الفوائد المتبعة في العوائد المبتدعة وغير ذلك .

وكان لابن زكري ثروة طائلة فكان يواسي بها الفقراء ، ويكثر من صنائع

المعروف عند الناس ، وكان له جُلساء من ذوي اليسار ، فكان يحضُّهم على الصدقة وفعل البرّ كثيراً ، وترجمتُه واسعة ، وللزّبادي فيه كتاب سماه العَرف الشّحري في بعض فضائل ابن زكري . ومما مُدِحَ به قولُ العَلويّ شاعر شنجيط :

وَأَنْتَ ابنَ زكْرِيٍّ إمامٌ محقِّق   تفردتَ في العليا بِدُون شَبِيه

إِذَا غُصْت في بحث خلَصْتَ بدُرِّه   وخلَّيْتَ عن سَفْسَافِه ورَدِيه

يمدُّك في اتقان علم تبُثُّه   قياسُ أُصوليّ ونصُّ فقيه

وَقَاكَ الذي أبداكَ كالنجم يَتَّقِي   به الغَيَّ من يبغِي الْهدَى وَيعِيه

توفي ابن زكري سنة ١١٤٤ هـ .

عبد القادر بن شقرون

هو أبو النَّصْر عبد القادر بن العربي بن محمد بن علي بن شَقْرُون المكناسي ، الطبيب الماهر المتفنن . كان ذا براعة في صناعة الطب ، متصدِّراً للتعليم والعِلاج ، أقرّ له الجميعُ بالتفوق في ذلك وحُسن التصرُّف ، فلم ينازعه أحد. وهو في الأدب فاضل مجيد ، ينظم الشعر البليغ ، ويُرَسِّل ترسُّلاً حسنا - . رحل الى المشرق فحجّ وجال في تلك الديار مُتطلّعاً مستفيداً ، ثم رجع واستقرّ ببلده مكناس حتى توفي . وألّف كتاب النفحة الوردية في العشبة الهنديّة ، وكتاب منافع الأطعمة والأشربة والعقاقير ، ونظم الرَّجَزيَّة المعروفة بالشّقْرُونيَّة في الأغذية والأدوية وهي مشهورة ، ونظْمُها سلسٌ ، وتقع في زُهاء ٧٠٠ بيت ، والمهمُّ أنها تتناول الكلام على طبيعة الأغذية المغربية المعروفة ، وتصِفُ العلاج بناءً على ذلك فهي من الأعمال الطِّبية الصادرة عن دراسة وخبرة تامَّتَيْن . وللمترجم لطائف أدبية نثبت بعضَها في المنتخبات .

عبد الوهاب أدرّاق

هو الطبيب النطاسي الأديب أبو محمد عبد الوهاب بن أحمد أدرّاق بفتح الهمزة والدال وتشديد الراء بعدها الف ثم قاف ، وهو لقبُ أُسرته الذي عُرفَت به ، وكانت أسرة نبغ منها عدد من الأطباء واصلها من فاس . والمترَجمُ هو أكبرهم قدراً وأشهرهم إسماً ، انتهت اليه رياسة الطب في زمنه ، وبلغ في الصناعة مكانة عالية وكانت الملوك تجلّه وتعظمه ، وكان الى معرفته بالطب أديباً بارعاً ونحوياً متمكّناً وفقيهاً نظّارا .. أخذ عن اليوسي وطبَقَتِه ، وألف في الطب العلمي والطب الشّرعي تآليفَ منها أرجوزة ذيّل بها أرجوزة ابن سينا المعروفة في الطب ، وأرجوزةٌ في حبّ الافرنج وهو الداء الزّهري المعروف . وكتاب هزّ السَّمهَري على من نفى عيبَ الجُذري . وله تعليقٌ على كتاب النُّزهة للشيخ داود الأنطاكي وغير ذلك . وتوفي رحمه الله عام ١١٥٩ وممّن يُذكرُ من أطباء هذه الأسرة والدُ المترجَم أحمد وقريبُه محمد الذي دخل طنجة في عهد احتلالها من الانكليز بقَصد مُلاقاة الأطباء النّصارى ورُؤية الشخص الذي صوّروه لتعلُّم التشريح مُعاينةً .

ابن عبد السّلام بنّاني

أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بناني النّفزي الفاسي الفقيه العلامة المُحدّث القُدوة ، كان ذا مشاركةٍ تامّة في العلوم ، وله إقبال عظيم على التعليم ، رحَل الى المشرق وتقلّب في البلاد فحصلَت له روايةٌ واسعة ، وكان مائلاً الى التصوّف حَسن الهدي حَسن السّمت ، وكثُر الانتفاع به وتخرّج على يده المشائخُ الكبار كابن الحسن نسيبه والشيخ التّاودي والعلاّمتين قصّارة وبردلّة وغيرهم . ألّف شرحَ الاكتفاء في ستّة أسفار فطار كلَّ مطار ، واشتهر أيَّ اشتهار ، وألف غيره ، ولو لم يكن له إلا هو لكفاه . وبالجملة فقد كان من الرجال الكاملين والعلماء العاملين ، وقد أفرِدَت ترجمتُه بالتأليف . توفي رحمه الله سنة ١١٦٣ هـ .

ابن الطَّيِّب الشَّرقي

أبو عبد الله محمد بن الطيب الصَّميلي الشَّرقي الفاسي الإمام اللُّغويُّ الشهير، ولد بفاس سنة ١١١٠ وأخذ عن جِلَّة عُلمائها كالمسْناوي والوَجّاري وبنّاني المذكور قبْلَه وغيرهم، وبرَع وفضل وصارَ إمامَ أهل اللغة في عصره غيرَ مُدافَع . وكان له مُشارَكة في سائر العلوم ورواية واسعة . رحَل الى المشْرِق فحجَّ ودرَّس بالحرَم النَّبوي ودخل الى الرُّوم من طريق الشام، ورجَع من طريق مصر وأخذ عنه في الشام ومصر خلْقٌ كثير . وله تآليف خدَم بها اللغة خدْمةً جُلَّى، ورفع بها لبلاده مناراً أسْنى من النجم وأعلى، منها حاشيَتُه العَديمةُ النظير على القاموس في أربع مُجلَّدات التي منها كان استِمدادُ الشيخ مرتضى صاحب تاج العَروس فإنَّه أحدُ تلامذته الذين أخَذوا عنه بالمشرق، وهو يعترفُ في أول شرحه أن تخْريجَه في هذا العِلم كان على يد مُترجَمِنا . وله شرحُ نظم الفصيح لمالك ابن المُرحَّل، وشرحُ كفاية المتحفِّظ، وشرح المُزْهِر في علوم اللغة للسيوطي سمّاه المُسْفِر عن خبايا المُزْهِر، وله ضَوءُ القابوس في زوائد الصّحاح على القاموس، وشرح ديوان الستَّة، وحاشية على دُرَّة الغوّاص للحريري وغير ذلك مما هو مذكور في غير هذا المحل . وتآليفُه تنيف على الخمسين، وكلُّها مضرب الأمثال في التحرير والاتقان . وله شعر كثير، وعلى الجملة فهو كما قال المُحِبِّي عنه في خُلاصَة الأثر فرْدٌ من أفراد العالم فضلاً وذكاءً ونُبلاً . وكانت وفاته بالمدينة المنورة سنة ١١٧٠ ودفن عند قبر حَليمة .

الهِلالي

أبو العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي السِّجلماسي، أحدُ الأئمة في الفقه والحديث والبيان واللغة والمنطِق والحِساب والهندسة . درَس على أعلام سجلماسَة وفاس وفاق جميع أقرانِه في تحقيق هذه العلوم؛ فكان لا يُدرَك شأوه، ولا يُبلغُ مداه فيها . وألَّف كتباً جليلة كفتح القدُّوس في شرحِ خطبة القاموس، وإضاءة

الأدْموس من اصطلاح صاحب القاموس ، ونور البَصر في شرح خطبة المختصر ، أبْدأ فيه وأعاد ، وأبان عن رُسوخ قدمِه في مقام الاجتهاد . وله الزَّوَاهر الأفقيّة في شرح الجواهر المنطقية وهو على شرح المنظومة المعروفة بالقادرية في المنطق لأبي الفضل عبد السلام القادري؛ وشرحُها هذا قلَّ أن يكون له نظير ، استقى من بحره من أتى بعده . وله أيضاً الياقوتة الفريدة في نظم لُبِّ واجب العقيدة وهي تسعةُ أبيات ضمَّنها العقائد الواجبة كلَّها بدلائلها العَقْليّة من غير رمز ولا لغز فجاءت آية في البلاغة ، وله النصيحة المشهورة التي يقول في أولها :

يا أيُّها الانسان هُبَّ مِن كَرَاكْ واصْحُ من السُّكْر الذي قد اعْتَراكْ
إن الرَّحيلَ يا أخِي قَرِيبُ وكُلُّنا مُسافِرٌ غَرِيب

وقد رحل الى المشرق مرَّتيْن وألف رحلة مفيدة . وتوفي عام ١١٧٥ هـ .

أبو العلاء العِراقي

أبو العلاء ادريس بن محمد بن ادريس بن حمدون الحسيني العراقي الفاسي ، شُهِرَ هو والسادة أهل بيته بالنسبة الى العراق لقُدوم سلفهم منه ، هذا كان حافظ المغرب في عصره ، حصَل على رياسة الحديث فلم ينازع فيها . وكان قد انصرف اليه بكليته منذ ابتداء طلبه ، فلم ينْشَبْ ان بلغ فيه الغاية حفظاً ورواية ودرايةً ، ومهَر وبهَر ودرَّس ورأس حتى أقرَّ له بالفضل في تلك شيوخه فمن دونهم ؛ فكان يلقَّب بسيُوطي زَمانه ، وقال عنه شيخه أبو حفص الفاسي إنه أحفظ من ابن حجر . وسأله أحمدُ بن المبارك صاحبُ الإبريز وهو من شيوخه عن طريق بعض الأحاديث ، فذكر له على البديهَة ستَّ طرُق فقال له لله درُّك ، لقد تعبَ ابنُ حجَر ولم يُخرِّج له الا طريقَين ، وبالجُملة فهو من مفاخر هذا القطر السعيد في العصر العتيد ، له المُستَدرك على الجامع الكبير للسيوطي فيه نحو العشرة آلاف حديث ، وفتْحُ البصير في التعريف بالرجال المُخرَّج لهم في الجامع الكبير ، والدُّرر اللوامع في الكلام على أحاديث جمع الجوامع ، وتكميلُ مناهِل الصَّافي تخريج أحاديث الشِّفا ،

وتخريجُ أحاديث الشِّهاب للقُضاعي وشرحٌ على شمائل الترمذي ، وشرح إحيـــاء المَيْت للسيوطي ، وشرحُ الثُلُثُ الأخير من المشارق للصَّغاني بأمر مَوْلوي ، وقد أكمَله ولدُه عبدالله . وكان أيضاً محدثاً فاضلاً ، وله غيرُ ذلك . وفي كتُبه هذه حرَّر الكلام على كثير من الأحاديث وبيَّن ما هو الحقُّ فيها وناقش كبارَ الحفاظ بكلام كافٍ واضح شاف . توفي رحمه الله عام ١١٨٣ هـ .

ابن الطَّيِّب القَادِري

أبو عبدالله محمد بن الطيِّب بن عبد السلام القادري الحسَني الفاسي العلامة المؤرخ النسَّابةُ الواعية . ولد سنة ١١٢٤ وكان طويلَ البـــاع ، واسعَ الاطِّلاع ، مقيِّداً للأوابد ، جمَّاعاً للشَّوارد ، له قلم بارع في الانشاء وتصرف في العلوم الشرعية والأدبية مع التقلُّل من الدنيـا والزهد والورع والاطمئنان والسَّمت الحسَن . من آثاره نشرُ المَثـَاني في أخبار أهل القرن الحادي عشر والثاني وهو نسختان طُبِعت إحداهما ، والمخطوطةُ أوسع من المطبوعة ، والتِقاط الدُرر في أخبار أهـل المائتين الحادية والثانية عشر ، والإكليل والتـَّاج في تذييـــل كفاية المحتاج للشيخ أحمد بابا ، والزَّهر الباسم في مناقب سيدي قاسم أي الخصاصي وغيرُها. أخذ عن ابن المبارك وابن عبد السلام بناني وابن قاسم جسُّوس وغيرهم . وتوفي في شعبان عام ١١٨٧ هـ.

التّاوُدي بْنُ سُودَه

هو أبو عبدالله التاودي بن الطالب بن سودة المُرِّي الفاسي، الإمام العالم العلاَّمة شيخُ مَشائخ المغرب جُملة ومُجدِّد سندِ التعليم في القرن الثاني عشر . كان مُقدَّماً في كل العلوم لا سيَّما التفسير والحديث والفقه والتصوف والكلام والمنطق والأصول . أخذ عن جِلَّة مشائخ عصره ، وأخذ عنه الجَمُّ الغَفير الذي يستحيلُ عَدُّه . ولمـَّا حجَّ درَّس بالحرمَيْن الشريفَين ومصر فتسارع النَّاسُ للأخذ عنه لِما رأوْه من حفظه وإتقانِه ، وقد تمَّم اللهُ عليه النعمة بطول العمر فتخلَّف عمَّن كان معه في عصره ،

وحازَ رياسةَ العلم بفاس والمغرب كلّه ، فما بقيَ أحدٌ ممن ينتمي الى العلم بالمغرب الا وله به صلة . وقد جمعَ مع ذلك الاجتهادَ في العبادة والسَّخاءَ وحسنَ الخُلُق والمحبَّة العظيمة لآل البيت ، والاعتناءَ بأمور الناس ، وخصوصاً الضعفاء منهم ، فتمالأت القلوب على محبته ، واجتمعت الألسن على مدحه ، وله تآليف عظُم النفع بها ، وتنافس الناس فيها . منها حاشية على البخاري في أربعة أجزاء وحاشية على الزرقاني كذلك ، وشرح التحفة لابن عاصم ، وشرح الزقاقية . وشرح الأربعين النووية ، وشرح جامع الشيخ خليل وغير ذلك . توفي رحمه الله سنة ١٢٠٩ هـ .

الطيّب بن كيران

أبو عبدالله الطيب بن عبد المجيد بن كيران الفاسي العلامة المَعْقولي النظّار المفسّرُ الكبير . ولد سنة ١١٧٢ وأخذ عن الشيخ التاودي والمحشّي بناني وأضرابهما ، وعنه الفقيه ابنُ عبد الرحمن والكُوهَن وغيرُهما . وقد تفرّد في وقته بالجمع بين علمَي المعقول والمنقول ، والفُروع والأصول ، وله في العربية باعٌ مديد ونظمٌ سديد . وكان يُدرّس التفسير بالقرويين ، يستحضر أقوال المفسّرين جميعاً ويقابلُ بينها ويناقشها ويردُّ الزائف منها بالدلائل القويّة والحجج البيّنة . وكان يحضُر مجلسَه أعيانُ الطلبة والسُّلطانُ فمَن دونه من رجال الدولة ، وبالجملة فهو من أفذاذ العلماء الذين لا يجودُ الدهر بواحد منهم إلا في الفَينَة النَّادرة . وترجمتُه لا تقتضي الاختصار ، فهذا الكلام لا يفي بأقل القليل من حقه ، له تفسير جليل من سورة النساء الى حم غافر ، وكتب أخرى تنيفُ على العشرين مُحرَّرة جدَّ التحرير . وكانت وفاته سنة ١٢٢٧ هـ .

ابن بُونَه

هو العلامة النحوي الكبير ، مَفخَرةُ شنجيط أبو عبد الله محمد المختار بن بُونَة الجكَني الشنجيطي . كان ممّن طلب العلم وهو كبير ، بسبب أن امرأةً ضرب

ولدَها فخاصمته وعيَّرته بالجهل ، فأنفَ لذلك وسار من غير علم أبويه يريد العلامة المُختار بن حَبيب فوصل اليه وشرع أولاً في قراءة الأجروميّة عليه . ولم يزل يترقّى به الحال حتى بلغ ما بلغ من المكانة العالية في علم العربية ، وصار رُحلَة وقتِه وإقليمه ، فكان الناس ينثالون اليه من كل وِجهة وَقبيل . وأخذ عنه مَن لا يُحصى عدداً ، وتنافست القبائل في إقامته عندها لِينشُرَ فيها ما عنده من العلم وخاصةً علمَ النحو والكلام ، لأنهما كانا بضاعتَه المتوافرة . وكان الطلاب قبلَه لا يتجاوزون ما في ألفية ابن مالك ، وشروحِها مع عدَمِ معرفة الخطَّة التي يمكن بها للطالب أن يخزُن في ذهنِه بها ما يكون قريبَ التناوُل عند الحاجة الى ذلك ، حتى نظَم لهُم ما تخلَّف عن الألفية ممّا تضمَّنَه التسهيل ، وألصَقَ كلَّ شَذَرة بما يُناسِبُها ، وضمّ الى ذلك طُرَّته المُفيده ، وأتى على كل مسألة بالشواهد من كلام العرب . وهذا النظم هو المعروف بالاحمِرار لأنه مزَجه بالألفية مزجاً جيِّداً وكتبَه بالحُمرة للفَرق بينه وبين نظم ابن مالك واستدرك عليه أبواباً عدَّة كالقَسَم وجوابِه ، والتسمية بلفظ كائناً مَن كان وتتميم الكلام والإلحاق ومخارِج الحروف والهجاء وغير ذلك ممّا جعَل عددَ أبياته ضِعْفَ عددِ الألفية ، وزيادةَ مع إحكام النظم وتنسيقه بحيث تحسِبُه من الأصل لا فرقَ بينه وبينه . ولابن بُونَة كتب أخرى غير الإحمِرار ، وكان حيّاً في أوائل القرن الثالث .

الرُّهوني[1]

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الرُّهوني الوَزّاني ، الإمام العلامة الحافظ المُتقِن . اشتَغل بقبيلته رُهونة ، ولما أكمَل دراستَه طلبَ التعليم بوَزّان فبَقيَ هناك مدّة ، ثم ذهب الى فاس لِمواصلة القراءة بها فتخرَّج في الفقه على مشاهير رجالها . ورجع لوَزّان وبها ألَّف حاشيتَه المشهورة على بناني ، مُحَشّي الزرقاني . قال في الفكر السّامي : « وهي أهمُّ كتُبه ، دلَّت على فضله وتمكُّنِه من علم الفقه ، فضلَ تمكُّن فلقد أجادَ فيها كلَّ الإجادة ، وأفاد أحسنَ الإفادة ، وسلَك في التحقيق طريقاً صريحاً ، ومَهيَعاً صحيحاً ، ينقُل كلامَ المتقدمين الذي هو الأصل بلفظِه ممّا دلَّ على نشاطه في الإطلاع وثُقُوبِ حفْظِه ، وبسبَب ذلك

فضَحَ أغْلاطـاً كثيرة وقعَتْ لِمَن قبله في الاختصار والتلخيص ، أفسَدُوا بهـِما كلامَ المتقدمين ، وَغيّروا الفِقْه عن مواضِعه ، فهي ممّا ادَّخَره للمتأخرين فكانت حجةً على المتقدمين ، فجزاه الله خيراً عن علمه وحرية فكره ووضوح طريق نقده . وأعانه على ذلك ما عثَر عليه من الكتب المهمة ، في المذهب ، التي لم يظفر بها الأجاهِرةُ ومن ناقشَهم كالرّماصي وبنّاني والتاودي وأمثالهم . غير أن الحاشية طالت فجاءت في ثمان مُجلدات لكونها تجلب في المعارك الكبرى نصُوص المتقدمين بالحرف الواحد ؛ ولذلك جاء شيخ شيوخنا سيدي الحاج محمد كنـون واختصرها بحذف النصوص وحلاها بفوائد يأتي بغالبها أول الأبواب ، كأصل الباب من السنة أو الكتاب أو نحو هذا مما لا يخلو من فائدة وقرب على المطالع ما عسى أن يطول عليه من استيعاب نصوص الرهوني ، وقد طبع الاختصار بهامش الأصل » ا هـ . منه بتصرف يسير . ونقول هنا انه قد سقط من الاختصار في النسخة المطبوعة الشيء الكثير الذي لا نُبْعِدُ ان قلنا انه قَدْرُ العُشر أو أكثر منه ، وذلك كلُّ ما كان يلحقه المختصر في هوامش النسخة المخطوطة التي وقع عليها الطبع . ومن رأى كتبه رحمه الله عرف أنه كان كثيرَ الالحاق فيها حتى ليساوي الملحق الأصل في بعض الأحيان . ومن كتب الرهوني التحصُّن والمَنْعَة ممن اعتقد أن السنة بِدْعة في اثبات أن السنة السكوت عند تشييع الجنائز ، وله غير ذلك . وتوفي رحمه الله سنة ١٢٣٠ هـ .

حمدون بن الحاج

أبو الفيض حمدون بن عبد الرحمن ابن الحاج السُّلمي المِردَاسي ، العلامة الأديب بُوصِيريُّ عصره وخَفاجيُّ مِصره ، ولد ونشأ بفاس وتلقى دروسه العلمية بالقرويين عن الشيخ الطيب ابن كيران وغيره . وما عتّم أن صار له الشأو الذي لا يُلحق في العلوم الدينية والأدبية معاً . وكان شاعراً مجَوّداً بارعـاً ، طلع في أفق السلطنة السُّلَيْمانية بدراً لا معا ، وشهاباً ساطعا .

ألف تآليف عديدة منها نظمُ مقدمة ابن حجَر وشرْحُه سماه نفْحَة المِسْك

الدّاري لقارىء صحيح البخاري وحاشية على تفسير أبي السعود ومتبوعه البيضاوي وأخرى على مختصر السعد وقصيدة ميمية في السيرة في نحو ٤٠٠٠ بيت وشرح عليها في خمسة أسفار ، وجمع شعره الذي مدح به السلطان مولاي سليمان في ديوان سماه السليمانيات وحلاّه بشرح نفيس وله غير ذلك .

وكان قد وَلِيَ الحِسْبة بفاس ثم المظالم بناحية الغرب ، فبالغ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورفع الظلامات عن الناس ، وكان أهم الأمور عنده الصلاة ، فكان يُقيم الناس من دكاكينهم لأدائها . وتوفي رحمه الله سنة ١٢٣٢ .

الزّياني

هو ابو القاسم بن احمد بن علي بن ابراهيم الزّياني الفاسي ، من صدور كُتّاب الدولة الشريفة ووزرائها المشاهير كان له معرفة بالتاريخ والأدب والتنجيم وغير ذلك . وله قلم حديدي ولسان سليط ، وفيه جرأة وصرامة . لعب أدواراً مهمة في السياسة المغربية ، وتقلبت به الأحوال ، وعانى كثيراً من الأهوال ، وأوفده السلطان سيدي محمد بن عبدالله سفيراً الى الاستانة ، فقام بالمهمة خير قيام ، وألف رحلته المشهورة ؛ وكان في احدى الحادثات قد أصيب رأسه بضربة سيف فطارت جمجمتُه فجعل مكانها طرَفاً من القَرْع فاحتف به اللحم وتماسك وعاش طويلاً فناف عمره على المائة ، وقد قضى حياته الطويلة في الخدمة السلطانية كاتباً ووزيراً ومُشيراً وسفيراً . وألّف عدة كتب منها التُّرجمان المُعرِب عن تاريخ دول المشرق والمغرب وألفية السلوك في وَفيات الملوك ، والحادي المطرب في رفع نسَبِ شُرفاء المغرب . وكانت وفاته سنة ١٢٤٩ .

محمّد كنّون

هو العالِم السَّلَفي الفقيه الحافظ المُتقِن أبو عبدالله محمد بن المَدني بن علي بن عبدالله كَنّون بفتح الكاف المعقودة وتشديد النون المضمومة ، اسم بربري معناه

القمر ، كان لُقِّب به القاسم بن محمد بن القاسم بن ادريس الحسني فجرى على عَقِبه ، وهم يقطنون بقبيلة بني مَستارة ، وكان الذي انتقل منهم الى فاس هو عبدالله الجد الثاني للمترجم ، ولذلك يُزاد في نسَبه المستاري الفاسي . وُلِد ونشأ بفاس ، واشتغل على كبار علماء عصره مثل الفقيه ابن عبد الرحمن ، واحمد المرنيسي ، والطالب ابن الحاج ، والوليد العراقي ، وعبد السلام بو غالب . وما لبث أن صار فرداً يشار اليه في تحقيق مقاصد العلوم ، المنطوق منها والمفهوم ، وحصل على رتبة الاجتهاد أو كاد وطار صيته في البلاد ، وعمَّ النفع به القاصيَ والدان ، وتفوَّق على الكثير من أشياخه فضلاً عن الأقران . وصفه في الاستقصا بعالم فاس والمغرب ، وجزم كثيرون بانه مجدِّدُ القرن الثالث عشر ، وقال لنا غير واحد من أشياخنا إن وصف الفقيه في عصره صار علَماً بالغلبة عليه ، لا ينصرف إذا أطلق إلا إليه . وقال في الفكر السامي : « هذا الشيخ من أكبر المتضلِّعين في العلوم الشرعية الوَرِعين المُعلِنين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وخاتمهم في المغرب شيخ شيوخنا وشيخ شيوخ جُلِّ المغرب ، رأس علمائه في القرن الثالث عشر بلا منازع . كان فقيهاً محدِّثاً نحويّاً لغويّاً مَعقولياً مُشاركاً محقِّقاً نزيهاً قوّالاً للحق ، مطبوعاً على ذلك ، غير هيَّاب ولا وَجِل ، مِقداماً مهيباً عاليَ الهمة ، دَءُوباً على نشر العلم والإرشاد والنهي عن المناكر والبدع التي تكاثرت في أيامه ، لا يخشى في الحق لومة لائم ، يحضُر مجلسَه الولاة والأمراءُ أبناءُ الملوك وغيرُهم وهو يُصرِّح بانكار أحوالهم وما هم عليه ، مبَيِّن لَهناتهم ، غير مُتشدِّق ولا متصنِّع ، بل تعتريه حالٌ ربّانية ، ولكلامه تأثير على سلطان النفوس ، رُزِقَ في ذلك القبول والهيبة على نحول جسمه . ووصلته بذلك إذاية وسجن ، لكن بمجرَّد سِجنه اعتصب الطلبة وقامت قيامة العامة فأطلِق سبيله ، لذلك فهو أحق ما يُقال في حقه مجدِّد لكثرة النفع به وانتشار العلم عنه ، وعن تلامذته وقيامه بالنهي عن المناكر وقتَه .

وكان شديداً على أهل الطُّرُق ، وما لهم من البِدَع التي شوَّهت جمال الدين ، والمتصوِّفةِ أصحاب الدعاوى التي تُكذِّبها الأحوال ، وما كان أحد يقدِرُ على الرد عليه مع شدة إغلاظه عليهم وعلى غيرهم وسلوكه في ذلك مَسلَكَ التشديد بل التطرف في بعض المسائل ، ومع ذلك هابه علماءُ وقته ولم يجرُؤُوا على انتقاده لأنه كان يتكلم بالحال لا بالمقال ، وتحققوا خُلوص نيته ومطابقَةَ سرِّه لعَلانيته » اهـ منه بلفظه . له كتب كثيرة ، منها الاختصار وتقدم الكلام عليه في ترجمة الرهوني ، وله

تعليق على الموطأ مشحون بالفوائد الحديثة ، وساذج الفقه ، وله حاشية على شرح فرائض المختصر للشيخ بنيس ، وكتاب الزجر والاقماع عن آلات اللهو والسماع ، وكتاب التسلية والسلوان لمن ابتلي بالاذاية والبهتان ، ونصيحة النذير العريان في التحذير من أهل الغيبة والنميمة والبهتان ونصيحة ذوي الهمم الأكياس فيما يتعلق بخلطة الناس ، والدرر المكنونة في النسبة الشريفة المصونة ، والدرر المستنيرة بشرح حديث لا عدوى ولا طيرة ، والنوازل وخلاف ذلك من الكتب في مسائل فقهية خاصة ، والرسائل في مواضيع إصلاحيّة دينيّة وسياسيّة . وترجمتُه رحمه الله أوسعُ بكثير من هذا ، وقد استوفى الجانب الديني منها الشيخ مصطفى المشرَفي في كتاب الدرّ المكنون . ونحن لم يكُن في نيّتنا أن نترجمَ له في هذا الكتاب ، ولكن صديقنا المرحوم فقيد الوطن السيد الحاج عبد السلام بنونه ألحّ علينا كثيراً في ترجمته لمَّا رأى الكتاب خالياً منها قائلاً : إن مثل الفقيه كنون لا يجوز أن يخلوَ من ذكره كتاب يُوضَع بين يدي الناشئة لتذكيرها بمجدها الطارف والتليد ، وعظمةِ تاريخها القريب والبعيد ، فنُزولاً على رأيه ذكرنا هذه الترجمة المقتَضَبة من أقوال الناس فيه ، وكانت وفاته رحمه الله ليلة الجمعة فاتح ذي الحجة الحرام عام ١٣٠٢

ولنكتَفِ بهذا القدر ، فاننا لو تتبّعنا تراجم العلماء في هذا العصر لما وَسعَنا هذا الكتابُ كلُّه ، وقد أتينا على جملة من أعيانهم ومَن بقي منهم نعوِّضُ عن تراجمهم ذكرَ مؤلفاتهم ، وان كنا لا نذكر أيضاً إلا المهمَّ من تلك المؤلّفات ، إذ لو قصدنا الى استيعابها لأوقعنا القارىء في الملل الذي لا نشكُّ في عدم احتماله إياه ، وكفاك من القِلادَة ما أحاطَ بالعُنق .

كتب التفسير والحديث وتوابعها :

البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة المتوفى سنة ١٢٢٤ ، حاشية على الجامع الصغير له ، التفسير الكبير لابن سعيد الدّمناتي ، تفسير القرآن للشيخ الطيب ابن كيران ، شرح حديث إنما بقاؤكم فيمن سلف من الأمم كما بين صلاة العصر الى غروب الشمس له ، شرح حديث لا يدخل الجنة ولدُ زِنىً ولا وَلدُ وَلدِه له ، شرح ألفية العراقي في علم الحديث له ، قال في الاسناد : له تفسير القرآن لأبي الحسن الدّمناتي المتوفى سنة ١٣٠٦ ، حاشية على البخاري له ، حاشية على مسلم له ، حاشية

على النسائي له ، حاشية على أبي داود له ، حاشية على الترمذي له ، حاشية على ابن ماجه له ، حاشية على تفسيري أبي السعود والبيضاوي لحمدون بن الحاج ، نفحة المسك الداري لقارىء صحيح البخاري له ، شرح البخاري للحضيكي المتوفى سنة ١١٨٩ ، شرح الشفا له ، شرح نظم نخبة الفكر في اصطلاح الحديث له ، حاشية على البخاري لعبد القادر الفاسي ، زاد المجد الساري الى قراءة صحيح البخاري للتاودي ابن سودة ، حاشية على سنن أبي داود له ، شرح المشارق للصغاني له شرح الأربعين النووية له ، شرح أول ترجمة من البخاري للكوهن المتوفى سنة ١٢٥٤ ، شرح آخر ترجمة منه له، إمداد ذوي الاستعداد الى معالم الرواية والاسناد له، شرح الموطأ للحريشي المتوفى سنة ١١٤٨ ، شرح الشفا له ، شرح منظومة ابن زكرى التلمساني في الاصطلاح له ، شرح الموطا للسدراتي المتوفى سنة ١٢٥٣ ، شرح الموطا لمحمد كنون ، الدرر المستنيرة في شرح حديث لا عدوى ولا طيرة له ، المستدرك على الجامع الكبير لأبي العلاء العراقي ، الدرر اللوامع في الكلام على أحاديث جمع الجوامع له ، تكميل مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا له ، تخريج أحاديث الشهاب له ، شرح شمائل الترمذي له ، شرح الثلث الأخير من المشارق بأمر سلطاني له ، تكميل شرح المشارق لولده عبدالله المتوفى سنة ١٢٥٤ ، الجمع بين الكتب الخمسة والموطا للرداني ، الأوليات له ، صلة الخلف بوصول السلف له ، اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر لأبي سالم العياشي المتوفى سنة ١٠٩٠ ، اتحاف الاخلا بأسانيد الأجلا له ، شرح الشمائل لابن قاسم جسوس المتوفى سنة ١١٨٢ ، شرح الشمائل لبدر الدين الحمومي المتوفى سنة ١٢٦٦ ، شرح الشمائل لابراهيم التادلي المتوفى سنة ١٣١١ ، شرح الحصن لمحمد بن عبد القادر الفاسي المتوفى سنة ١١١٦ ، شرح نظم النخبة له ، حاشية على شرح الحصن للتمَّاق المتوفى سنة ١١٥١ ، شرح الأربعين النووية للعلماء الأربعة أحمد التاودي ابن سودة المتوفى سنة ١٢٣٥ وعبد القادر بن شقرون الفاسي المتوفى سنة ١٢١٩ ومحمد بنّيس المتوفى سنة ١٢١٤ والشيخ الطيب ابن كيران . عشرة أحاديث لكل عالم على ترتيبهم المذكور بأمر سلطاني ، شرح تيسير الوصول الى جامع الأصول للقاضي عبد الهادي العلوي المتوفى سنة ١٢٧١ ، شرح الشفا لمحمد بن عبد الرحمن الدلائي المتوفى سنة ١١٤١ ، شرح الشفا لابن عبد السلام بناني ، مفتاح الشفا لأبي زيد الفاسي ، استطابة التحديث بمصطلح أهل الحديث له ، اللمعة في قراءة السبعة له ، شرح الفية الاصطلاح للعراقي لأحمد

أحُوزي فهرسة له ، سمّاها قِرى العَجْلان ، حاشيةٌ على الجعْبري شارح حِرْزِ الأماني للمنجَرة المتوفى سنة ١١٧٩ ، حاشية على شرح الخرّاز لابن عاشر له ، شرح الداليه في وقْف حمْزَة وهِشام على الهمْزة له ، حاشية على الجَعْبري لابن عبد السلام الفاسي المتوفى سنة ١٢١٤ ، شرح الدالية له ، التوضيح والبيان في مَقْرأ نافع بن عبد الرحمن للبدْراوي المتوفى سنة ١٢٥٧ ، حاشية على الجعبري له ، شرح الدالية له ، إعراب القرآن للحسن الباعمراني ، حاشية على تفسير الجلالَين لعبد الرحمن الحائك المتوفى سنة ١٢٣٧ .

كتب الفقه والتصوف وتوابعهما :

شرح المختصر لأبي علي بن رحّال ، حاشية على الخرشي له ، حاشيةُ علي ميّارة على التحفة له ، الارتفاق في مسائل الاستحقاق له ، كشف القِناع في تضمين الصُّناع له ، رفعُ الالتباس في شركة الحمّاس له ، شرح المختصر للمجْلِدي المتوفى سنة ١٠٩٤ ، أُمُّ الحَواشي له ، كتاب الحِسْبَة له ، اختصار المعيار له ، شرح المختصر لابن عبد الصادق الدكالي المتوفى سنة ١١٧٥ ، شرح المرشد له ، شرح المختصر لإبراهيم التادلي، شرح الرسالة له ، شرح تحفة ابن عاصم له ، شرح الزقاقية له ، شرح فرائض المختصر له، شرح المرشد له، شرح خطبة المختصر للهلالي، شرح فرائض المختصر لِبَنّيس ، حاشية على شرح الموّاق للمختصر لعبد الرحمن الحائك ، حاشية على شرح أبي الحسن للرسالة لعلي بَركة المتوفى سنة ١١٢٠ ، الدّرَر الحِسَان فيما يخاطب به الانسان من الاسلام والايمان والاحسان له ، العَلَم المبسوط في حكم بيع المضغُوط لأحمد أحُوزي ، فتح العلاّم على قواعد الاسلام له ، نوازل فقهية له ، الدرر في نظائر المختصر لِعُمر الكَسَرْسيفي ، رجزٌ في قَسْم التركات وشرحه له ، رسالة في تحرير الصّاع النبوي له ، الكوْثر الثّجاج في نظم مختصر المدخل لابن الحاجّ له ، حاشية على الخرشي لمولاي سليمان المتوفى سنة ١٢٣٨ ، حاشية على الخرشي للفقيه ابن عبد الرحمن المتوفى سنة ١٢٧٥ ،حاشية على الخرشي للمهدي ابن سودة المتوفى سنة ١٢٩٤، حاشية على الزرقاني شارح المختصر لابن الحسن بناني المتوفى سنة ١١٩٤ ، حاشية على الزُّرقاني للتاوذي ابن سودة ، شرح التحفة له ، شرح الزقاقِية له ، النوازل له ، حاشية الرهوني على الزرقاني وبناني ، التحصُّن والمنعة ممن اعتقد أن السنة بدعة له ، اختصار حاشيه الرهوني لمحمد كنسُّون ، حاشية على بنّيس على الفرائض له ،

رسالة في النشوز له ، رسالة في الشهادة والقضاء والفتوى له ، النوازل له ، شرح التحفة لأبي حفص الفاسي المتوفى سنة ١١٨٩ ، شرح الزقاقية له ، شرح الزقاقية للشدادي المتوفى سنة ١١٦٣ ، حاشية على ميارة على التحفة له ، النوازل له ، شرح الزقاقية لابن عبد السلام بناني ، شرحها أيضاً لأبي عبد الله الوَرْزَازي المتوفى سنة ١١٦٦ ، حاشية على ميارة على التحفة للرغاوي المتوفى سنة ١١٥٠ ، البهجة في شرح التحفة للتُّسُولي المتوفى سنة ١٢٥٨ ، شرح الشامل له ، حاشية على شرح التاودي على الزقاقية له ، النوازل له ، رجز فيما انفرد به ابن عاصم عن خليل لابن طاهر الهوّاري المتوفى سنة ١٢٢٠ ، شرح فرائض الرسالة لمحمد الحامدي ، شرح الزقاقية له ، تهدئة النفوس المرتبكة بتحرير ما يحل وما يحرم من التركة لمحمد بن علي الشتوكي ، نظم العمل الفاسي لأبي زيد الفاسي ، نظم العمل المطلق وشرحه للرباطي المتوفى سنة ١١١٤ ، شرح العمل الفاسي له ، نصرة القبض للمسناوي ، القول الكاشف عن حكم الاستنابة في الوظائف له ، صرف الهمة الى تحقيق معنى الذمة له ، النوازل له ، إزالة الدلسة في أحكام الجلسة للتماق ، النوازل له ، الوثائق الفرعونية لبناني فِرْعَون المتوفى سنة ١١٦١ ، النوازل لبَرْدلّة المتوفى سنة ١١٣٣ ، فتح المغيث في حكم اللحن في الحديث للافراني ، شرح المرشد لبدر الدين الحمومي ، شرح الحكم العطائية له ، شرح الوظيفة الزروقية له ، شرح المشيشية له ، حاشية على ميارة على المرشد للطالب ابن الحاج المتوفى سنة ١٢٧٣ ، شرح رائية ابن ناصر في قواعد الاسلام للتجموعتي المتوفى سنة ١١١٨ ، معونة الاخوان بمعرفة أركان الأيمان والاسلام والاحسان لعبد السلام القادري المتوفى سنة ١١١٠ ، تتميم الافراح بتنعيم الأرواح له ، نظم بيوع ابن جماعة لأبي سالم العياشي ، شرحه له ، القول المحكم في عقود الأصم الأبكم له ، تحرير الكلام في أمر النبي صلى الله عليه وسلم في المنام له ، تنبيه ذوي الهمم العالية على الزهد في الدنيا الفانية له ، نظم أصول التصوف لزروق له ، رسالة في تزاور أهل الجنة وتحشرهم للطيب ابن كيران ، شرح كتاب العلم من الإحياء له ، شرح الحكم العطائية له ، شرح المشيشية له ، شرح النصيحة الهلالية له ، تحريك الهمم العوال الى مراتب الكمال له ، الزجر والإقماع عن آلات اللهو والسماع لمحمد كنون ، التسلية والسلوان لمن ابتلي بالإذاية والبهتان له ، نصيحة النذير العريان في التحذير من أهل الغيبة والنميمة والبهتان له ، نصيحة ذوي الهمم الأكياس فيما يتعلق بخلطة الناس له ، ايقاظ المفتون المغرور ممن تذم عواقبه يوم

النشور له ، رسالة في الرؤيا له ، اختصار رسالة العَجيمي في الطرق الصوفية له ، شرح النصيحة الزروقية لابن زكرى ، الفوائد المتبعة في العوائد المبتَدعة له ؛ اختصار شرح النصيحة الزروقية لأبي مدين الفاسي المتوفى سنة ١١٨١ ، الابريز لأحمد بن المبارك المتوفى سنة ١١٥٦ ، ازالة اللبس عن المسائل الخمس له ، اختصار المدخل لابن عجيبة ، شرح الحكم له ، شرح المباحث الأصلية له ، شرح الحزب الكبير لابن عبد السلام بناني ، شرح المشيشية له ، شرح الحزب الكبير لأحمد الوزير المتوفى سنة ١١٤٤ ، شرح المشيشية له ، شرح دلائل الخيرات ثلاث نسخ للمهدي الفاسي سنة ١١٠٩ تبصرة العامل وتذكره الغافل للطيب المريني المتوفى سنة ١١٤٥ ، مُرقي الأنام الى غُرف دار السلام لعبد السلام جَسُّوس المتوفى سنة ١١٢١ ، رسالة الصوفي للصوفي لا بن عزُّوز المراكشي المتوفى حوالي سنة ١٢٩٥ ، الأسئلة والأجوبة له في الفقه ؛ كتاب استنشاق الفرج بعد الأزمة للمدني بن جلون المتوفى سنة ١٢٩٨ ، العَزيمة في سلوك الطريق المستقيمة للأزاريفي ، القَمْع في تهذيب الطبع له ، وَرْدة الجيوب في الصلاة على النبي المحبُوب لمحمد بن عبد العزيز الرَّسْموكي ، كتاب نزهة الناظر وبهجة الغُصْن الناضر لأحمد بن عبد القادر التَسْتاوتي ، المتوفى سنة ١١٢٧ ، شوارق الأنوار وطوالعُ الأسرار له . المزايا فيما حدث من البدع بأم الزوايا لابن عبد السلام الناصري المتوفى سنة ١٢٣٩ .

كتب المنطق والكلام والأصول

القَادِرِيَّة في المنطق لعبد السلام القادري ، النَسيم المعبق في توجيه الخلاف الوارد في المنطق له ، تنبيه المُعْرِضين عن آيات السموات والأرَضين له ، الخريدة في المنطق لحمدون ابن الحاج ، الحلل في علم الجدَل لأبي زيد الفاسي ، شرح الطَالِع المُشرق في علم المنطِق له ، المستَفاد في أصول الاعتقاد له ، رجَزٌ في المنطق لابن طاهر الهوَّاري ، اللئالي المنثورة في مُناقشة سعيد قدُورة ، شارح السُلَم له ، رجز في الكلام له ، شرح مختصر المنطق له ، مناهج الخلاص لليوسي ، شرح السلَّم له ، شرح المقاصد لابن يعقوب المتوفى سنة ١١٢٨ ، حاشية على المحلّي له ، حاشية على مختَصر المنطِق له ، حاشية على الكُبرى لأبي حفص الفاسي ، حاشية على مختصر المنطق لابن الحسن بنّاني ، شرح السلَّم له ، حاشية على شرح قدُورة على السلَّم لأحمد بن المبارك ، ردّ التشديد

في مسألة التقليد له ، حاشية على شرح قدُّورة لابن منصور الشفشاوني المتوفى سنة ١٢٣٢ ، حاشية على بنّاني على السلّم له ، حاشية على المحلّي له ، حاشية على قدُّورة له ، حاشية على بنّاني على السلّم له ، حاشية على قدُّورة لأقصبي المتوفى سنة ١٢٥٠ ، حاشية على بنّاني على السلّم للمهدي بن سودة ، حاشية على المحلّي له ، القول المُسلَّم على نظم السلّم لابراهيم التادلي ، شرح مختصر المنطق له ، شرح الصغرى له ، شرح الجوهرة له ، شرح جمع الجوامع له ، شرح القادريّة للهلالي ، الياقوتة الفريدة له ، شرح الخريدة لمحمد بن حمدون بن الحاج المتوفى سنة ١٢٧٤ ، شرح الخريدة للطيب ابن كيران ، رسالة في المقولات العشر له ، شرح توحيد الرسالة له ، شرح توحيد المرشد له ، شرح رسالة مولاي سليمان في الكسب له ، رسالة في الرد على الوهّابيّة ، رسالة في قول الغزالي ليس في الأمكان أبدع مما كان له ، رسالة في المطالب السبعة للمدني بن جلّون ، الحكم بالعدل والانصاف فيما بين علماء سجلماسة من الاختلاف لأبي سالم العيّاشي ، الدرّة السنيّة الفائقة في كشف مذاهب أهل البدع من الخوارج والروافض والمعتزلة والزنادقة للزّيّاني ، معراج الوصول الى سماوات الأصول لابن زاكور ، مراقي السُّعُود نظم جمع الجوامع لأبن السُّبكي وشرحُه لعبد الله بن ابراهيم العلوي المتوفى سنة ١٢٣٠ ، الأسئلة والأجوبة في الأصول لابن عزُّوز المراكشي ، نظم الورقات لمحمد الحامدي .

كتب النحو واللغة والبيان :

شرح التسهيل للمُرابط الدّلائي المتوفى سنة ١٠٨٩ ، شرح الألفية له ، شرح البَسط والتّعريف في علم التصريف له ، شرح كافية ابن مالك لابن الطيب الشّرقي ، شرح الاقتراح له ، شرح لامية الأفعال له ، حاشية على المرادي له ، حاشية على التسهيل له ، حاشية على المُغني له ، حاشية على القاموس له ، ضوء القابوس في زوائد الصحاح على القاموس له ، شرح نظم الفصيح له ، شرح كفاية المتحفظ له ، المُسفِر عن خبايا المُزهر له ، حاشية على دُرّة الغوّاص له ، إقرار العين في إقرار الأثر بعد ذهاب العين ، جمع فيه من تصانيف اللغة شيئاً كثيراً له ، شرح شواهد الكشّاف له ، شرح شواهد البيضاوي له ، شرح شواهد التوضيح له ، شرح شواهد التلخيص له ، شرح الأجرومية لابراهيم التّادلي ، شرح الألفية له ، شرح

فريدة السيوطي له ، شرح كافية ابن الحاجب له ، شرح القَطر له ، شرح الأزهرية له ، شرح الشُذُور له ، شرح لامية الأفعال له ، شرح جُمَل المجراد له ، رسالة المجاز وشرحها له ، شرح التلخيص للقزويني له ، حاشية على السَّعد له ، شرح الألفية لأبي نافع المتوفى سنة ١٢٦٠ ، شرح الألفية للطرُنباطي المتوفى سنة ١١١٤ ، شرح الفريدة لابن زكرى ، شرح خطبة القاموس للهلالي ، إضاءة الأدموس من اصطلاح صاحب القاموس له ، شرح لاميَّة الأفعال لابن يعقوب ، شرح التلخيص له ، شرح خطبة السعد له ، حاشية على المكودي لأحمد بن الحاج المتوفى سنة ١٣١٠ ، حاشية على الأزهري على الأجروميّة له ، حاشية على التسهيل للرُّوداني ، حاشية على التوضيح له ، مختصر التلخيص وشرحه له ، حاشية على المكودي الهَرنيسي المتوفى سنة ١٢٧٧ ، حاشية على المرادي للمَنجرَة ، حاشية على المكودي لابن جلُّون المتوفى سنة ١١٣٦ ، حاشية على التصريح لابن منصور الشفشاوني ، حاشية على السعد له ، حاشية على المغني لأبي حفص الفاسي ، حاشية على مَجراق للطالب ابن الحاج ، حاشية على التوضيح لابن الحسن بنّاني ، حاشية على المكودي للعربي بن سودة المتوفى سنة ١٢٢٩ ، حاشية على لاميّة الأفعال له ، حاشية على المكودي لعلي بَرَكة ، شرح الأجروميّة له ، شرح شواهد ابن هشام لمحمد بن عبد القادر الفاسي ، نظم الموضح لمحمد بن حمدون بن الحاج وشرحه له ، ابتهاج الأرواح في أصول النحو لأبي زيد الفاسي ، ذات الحلل في الجمل له ، القَطف الدّاني في علم البيان والمعاني له ، إحكام المعروف من أحكام الظروف لعبد السلام القادري ، الجود بالموجود في المقصور والممدود لابن زاكور ، الحسام المسلول في قصر المفعول على الفاعل والفاعل على المفعول له ، رسالة في لو الشرطيّة للطيب ابن كيران ، رسالة في ما أنا ضربت إلا زيداً له ، رسالة في مثلُكَ لا يَبخَل وغيرُك لا يَجود له ، رسالة في الهمزة المسهّلة له ، رسالة في توجيه «إنما يخشى الله من عباده العلماءَ» على قراءة مَن رفَع اسم الجلالة ونصَب لفظ العلماء له ، رسالة في النكرة واسم الجنس وعلمه والمعرف بلام الحقيقة ولام العهد له ، رسالة في مبحث الجامع الخيالي له ، نظم الاستعارة له ، نظمُ الاحمرار وطرَّتُه لابن بونَة ، نور الأقاح وشرحه له . فيض الفتاح في علوم البلاغة لعبد الله بن ابراهيم العَلوي الشنجيطي ، نظم المغني لابن هشام لعبد العزيز الرَّسمُوكي ، كافية النهوض في صناعة

العَروض له ، حاشية على صَحاح الجوهري له ، شرح الجوهر المكنون لأحمد بن محمد الفاسي ، شرح نظم المغني لمحمد الأدوزي ، شرح خطبة الألفية للكَردودي المتوفى سنة ١٢٦٨ ، حِليَة العروس في نظم اصطلاح صاحب القاموس له ، مختصر القاموس للوجاري المتوفى سنة ١١١٤ ، نزهة الُجلاّس في أنواع الجناس لابن طاهر الهواري ، شرح نظم الاستعارة للبُوري المتوفى سنة ١٢٤٣ ، شرح نظم الاستعارة لأقصبي ، حاشية على السعد للمهدي ابن سودة ، حاشية على السعد لحمدون ابن الحاج .

كتب السير والتراجم والأنساب

العِقد الُمنضَّد بجواهر مفاخر محمد للمهدي الفاسي ، كفاية المحتاج من خبر صاحب التاج له ، َفخرُ الثَّرى بسيّد الورى لمحمد بن عبد الرحمن الدّلائي ، َزهرُ الحدائق في ِسيَرة خير الخلائق له ، ُدرّة التيجان وُلقَطة اللؤلؤ واَلمرجان في أنساب شرفاء المغرب له ، شرح الاكتفاء له ، نفائِسُ الدرر في سيرة سيّد البشر لمسْعود َجمُّوع المتوفى سنة ١١١٩ ، الروضة ، ُوسْطى وصغرى في السّيرة له ، ذخيرة المحتاج في سيرة صاحب اللّوَاء والتّاج في خمسينَ مجلّداً للمُعطي ابن الصّالح الشرقاوي المتوفى سنة ١١٨٠ ، ميميّةُ السيرة في أربعة آلاف بيت وشرحُها لحمدون ابن الحاج ، الهمزية وشرحُها لابن َزكرى ، شرح الاكتفاء لابن عبد السلام بنّاني ، شرح البردة له، شرح سيرة ابن فارس لابن الطيب الشّرقي، شرح سيرة ابن اَلجزَري له ، الأنيس الُمطرب فيمن لقيتُه من أدباء المغرب له ، حاشية على الاكتفاء لأحمد الوزير ، شرح همزية البوصيري له ، شرح البردة له ، شرحُها أيضاً لأحمد بن محمد الفاسي ، َجلاءُ القلب القاسي في التعريف بالمهدي الفاسي له ، شرح الهمزية لبَنّيس، مُعجَم أسماء الصحابة لعبد الرحمن العراقي ، اختصار الِحليَة لعبد الله العراقي المتوفى سنة ١٢٣٤ ، الَمقْصَد الأحمد في التعريف بأحمد بن عبد الله لعبد السلام القادري ، العَرْف العاطر فيمن بفاس من أبناء الشيخ عبد القادر له ، الإشراف على نسَب الأقطاب الأربعة الأشراف، الجيلاني وابن مشيش والشاذلي والجزولي له ، ُمعتَمَد الرّاوي في مناقب أحمد الشاوي له ، نيل القُرُبات بأهل العَقَبات له ،

رجاءُ الإجابة بالبَدْريين من الصحابة له ، عِقْد اللئَّال فيما له صلى الله عليه وسلم من الآل له ، مَطْلِع الإشراق في الأشراف الواردين من العراق له ، نشر المثـــاني في أخبار أهل القرن الحادي عشر والثاني لابن الطيب القادري ، التقـــاطُ الدُّرَر في أخبار أهل القرن الحادي عشر له ، الإكليلُ والتاج في ذيل كِفَاية المحتاج له ، الزَّهْر الباسم في مناقب قاسم الخصاصي له ، الاستشفاءُ من الألم في التَلذُّذ بذكر صاحب العلم لابن زاكور ، جُهْدُ المقِلّ القاصِر في نصرة الشيخ عبـــد القادر للسناوي ، نتيجة التحقيق في بعض أهل النسب الوَثيق له ، البُدور الضاوية في ذكر أهل الزاوية الدلائية لسليمان الحَوَّات المتوفى سنة ١٢٣١ ، الروضة المقصودة في مآثر بني سُودة له ، قُرَّةُ العُيون في الشرفاء القاطنين بالعُيون له ، السر الظاهر في أولاد الشيخ عبد القادر له ، الأنيس المطرب فيمن لقيته من أدباء المغرب لابن الطيِّب العَلَمي ، أعيان الأعيان لمحمد بن أحمد الفاسي المتوفى سنة ١١٧٩ ، شرح درة التيِّجان له ، العَرْف الشَّحْري في بعض فضائل ابن زكري للزَّبَادي المتوفى سنة ١١٦٣ ، التعريف بابن عباد له ، أزهـــار البستان في طبقات الأعيان لابن عجيبة ، صفوة ما انتشر من أخبار أهل القرن الحادي عشر للافراني، طَلعَة المشتري في التعريف بالزمخشري له ، تكملة التكملة للديباج ، لِبَاب بن أحمد بيب الشِّنْجِيطي ، طبقات الحضيكي لمحمد بن أحمد الحَضِيكي ، مختصر الاصابة له ، سنَا المُهتدي الى مفاخر الوزير اليَحْمَدي لعلي مصبَاح ، روض البهار في ذكر جملة من شيوخنا الذين فضلهم أجلى من النَّهار للطالب ابن الحاج ، رياض الوَرْد فيما انتهى اليه هذا الجوهر الفَرْد له ، وهو في ترجمة والده حمدون بن الحاج ، الإشراف على بعض من بفاس من مشاهير الأشراف له ، نظم اللئَال في شُرفاء عقَبـــة ابن صَوَّال له ، الفية السلوك في وفيات الملوك للزياني ، الحادي المُطرب في رفع نسب شرفاء المغرب له ،الدر النفيس في بني محمد بن نفيس للوليد العراقي المتوفى سنة ١٢٦٥ ، تحفـــة الاخوان ببعض مناقب شرفاء وزان للطاهري المتوفى سنة ١١٩٣ ، شذور الذهب في خَيْر نسب للتهامي بن رحمون ذكر فيه الأشراف الادارسة عامـــة ، الأنجم الزاهرة في الذرية الطاهرة له ، جعله خاصاً بالأشراف العلميين ، فتح العليم

الخبير في تهذيب النسب العلمي بأمر الأمير لمحمد بن الصادق بن ريسون ألـَّفه بأمر السلطان سيدي محمد بن عبدالله .

كتب التاريخ والرّحْلات

المُغرِب في أخبار المَغْرب للافراني ، نزهَة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي له ، الترجمان المعرب عن تاريخ دول المشرق والمغرب للزّياني ، الروضة السّلمانية في الدولة الاسماعيلية وما تقدمها من الدول الإسلامية له ، البستان الظريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف له، التاج والاكليل في مآثر السلطان الجليل له ، الترجمانة الكبرى في أخبار العالم براً وبحراً له ، رحلة الحذّاق لمشاهدة البُلدان والآفاق له ، الجَيْشُ العَرَمْرم الخماسِي في دولة أولاد مولانا علي السِّجلماسي للكَـنْسُوس ، المُعرب المُبِين عما تضمنه الأنيس المطرب وروضة النِّسرين لابن زاكور ، نشرُ أزاهر البستان في الرحلة الى الجزائر وتِطْوان له ، الدر المنتخب المُستَحْسَن في تاريخ دولة مولانا الحسن لأحمد بن الحاج ، ماء الموائد وهي رحلة الحجاز لأبي سالم العياشي ، رحلة الحجاز لأحمد بن ناصر المتوفى سنة ١١٢٩، رحلة الحجازلابن الطيب الشرقي، رحلة الحجاز لابن عبد السلام الناصري، بلوغ المرام بالرحلة الى بيت الله الحرام للزبادي، رحلة الوزير في افتكاك الأسير لأبي عبدالله الوزير المتوفى سنة ١١١٩، نتيجَة الاجتهاد في المُهادَنةِ والجهاد وهي رحلة الى اسبانيا لأحمد الغَزّال المتوفى سنة ١١٩١ ، رحلة حجازية للتّجاني بن باب الشنجيطي ، نزهة الإخوان في تاريخ تطوان لعبد السلام سكيرج المتوفى سنة ١٢٥٠ ، المعارج المُرْقية في الرحلة الشرقيَّة للرافعي التطواني .

كتب الأدب ودواوين الشعر .

عُنوان النفاسة في شرح ديوان الحماسة لابن زاكور ، مِقْباسُ الفَوائِد في شرح ما خَفِيَ من القلائد له ، الصَّنيع البديع في شرح الحِلِّيَّة ذاتِ البَديع له ، تفريجُ الكُرَب بشرح لامية العرب له ، النَسَمات البنَفْسَجيَّة في شرح الخزرجية له ،

أنفعُ الوسائل في أبدع الخطب وأبرع الرسائل له ، الروض الأريض في بديع التوشيح ومُنتقَى القَريض له ، المسْلكُ السَّهْل في شرح توشيح ابن سهـل اللافراني ، شرح بانت سعاد لابن الحسن بناني ، المحاضرات لليوسي ، زهرُ الأكَم في الأمثال والحِكَم له ، شرح الدالية له ، ديوان شعر له ، تحفَةُ الأريب ونزهـــة اللبيب لأبي مَدْيَن الفاسي ، المحكم في الأمثال والحكم له ، ديوان خطب له ، سراجُ الطلاّب في أدب طلب العلم للمَسَّاري ، نُضار الأصيل لعبدالله شطيِّبر المتوفى سنة ١٢١٤ ، ديوان شعر لمحمد بن يعقوب التطواني ، القصائـد العشرة في التشوُّق الى البقـاع المطهَّرَة للعَلمي ، مقصورة في المديح لأحمد الوزير ، ديوان خطب للرهوني ، ديوان خطب للبَدْراوي ، ديوان شعر لأبي سالم العياشي ، ديوان شعر على طريقة الصُّوفية لابن عجيبة ، ديوان السُّلَيمانيّات لحمدون ابن الحـاج ، ديوان شعر للرافعي التطواني ، ديوان شعر لعبد السلام القادري ، ديوان شعر للزياني ، كتاب الأنيس المغني عن الجليس له ، الشمَقْمقيَّة لابن الوَنان ، ديوانُ شعر على طريقة أهل التصوف للحرَّاق المتوفى سنة ١٢٦١ ، ديوان شعر للتّجاني بن باب الشنجيطي ، شرح مقصورة ابن دُرَيْد للشيخ سيدي الأبْيِيري ، ديوان شعر لعلي مصباح ، أنس السمير في نوازل الفرزدق وجرير له ، اليواقيت الأدبية بجيد المملكة المحمدية لأحمـــد الغزال ، الأطروفة الهندسية والحكمة الشطرنجية الأنسية له ، نتيجة الفتح المستنبطة من سورة الفتح له ، اليواقيت الأدبية في الأمداح النبوية له .

كتب في مختلف العلوم

القَانون في ابتداء العلوم لليُوسي ، الأزهار الطيِّبة النَّشر في المبـادِي العَشر للطالب بن الحاج ، الأقنُوم في مبادىء العُلوم لأبي زيد الفاسي ، المختار في حِساب الغُبار له ، قلائد العَسْجَد في علم العَـدد له ، النتائج الحِسِّية في المعَالم الهَندسية له ، تمهيد السّلاسة في علم السِّياسة له ، توْطِيَةُ الشَّراسة في علم الفِرَاسة له ، مَطالِع الضِّيَّا في علم الكِيمِيَّا له ، القُطوف في أسرار الحروف له ، الإغراق في علم أسرار الأوفاق له ، تحفة الأثير في عـلم التّكْسِير له ، عَرُوس الصَّباحة في عِلْم المساحة له ، كشفُ الحجاب في علم الاسطرلاب له ، الجوْهر المنظوم في علم النُّجوم له ، الكامل في الاستغناء عن الجداول له ، المطلَب في

الرُّبع المجيَّب له ، الغرّة في بيت الإبْرة له ، النيل في خط الرَّمل له ، الرَّقمة في علم الحكمة له ، المناهج في استنطاق الزَّايارج له ، الاشارة في علم الشَّطارة له ، تحفة الاخوان والأولياء في صنعة السيمياء للزياني ، كشف أسرار المحتالين الأشقياء الذين يزعمون علم الكيمياء له ، رسالة في الحساب لابراهيم التـــادلِي رسالة في العمَل بالرُّبع المجيَّب له ، شرح المقنع له ، زينة النَّحْر في علم البحر له ، أغاني السِّيقَا في علم الموسيقى له ، نظم في علم الميقات وشرحه للرُّودَاني ، ذيل ارجوزة ابن سينا لعبد الوهاب ادرّاق ، رجزٌ في حبِّ الافرنج له ، هزّ السمْهَري على مَن نفَى عيْبَ الجذري له ، تعقُّبات على الشيخ داود في النزهة له ، الشّقْرُونية في الطب لعبد القادر بن شقرون ، النفحة الوَرْديّة في العُشبَة الهنـدية له ، ذهاب الكُسوف في الطب لابن عزُّوز المراكشي ، الأسئلة والأجوبة في الطب له ، إثمِدُ البَصائر في معرفة أحكام المظـــاهر له ، كشفُ الرموز في العقاقير والأدوية له ، بحرُ الوقوف على أسرار الحروف له ، حلُّ المعقُود وعقـد المحـــلول له ، السر الوافي والترتيب الكافي له ، رسالة في ابطال الكيمياء للمدَني بن جلُّون ، شرح المقنع في التوقيت لأبي عبدالله للوَرْزازي ، أجنحة الرّغاب في معرفة الفرائض والحساب وهو شرح للسملالية وتكملتِها لأحمـــد الرسموكي ، شرح القَلْصَادي له ، قطْفُ الأنوار في شرح روضة الأزهار في التوقيت لعبد الرحمن البوعقيلي ، شرح اليَسارة له ، كتـــاب في الحساب بالقلم الرومي لمحمد بن أحمد الصباغ .

الحيَـاة الأدبيَّة

لم تكـُن عِنايةُ الدولة الشريفة بنهضة الأدب ورُقيِّه ، بأقلَّ من عناية غيرها من الدول السابقة الذكر ؛ فقد بذَل رجالُها جهوداً تُذكر فتـُشكر في سبيل تقدّمه وتنشيط أهله حتى قامت الحركة الأدبيَّة على قدم وساق ، ونفقَت سوقُها أشدَّ النـَّفاق ، فلو أننا نظرنا الى أوّل ملك مهَّد البلاد وأخضع العباد وهو مولاي رشيد لوَجدناه قد أجاز بألفَين وخمسمائة دينار على بَيْتَيْن من الشعر مُدِحَ بهما وهما :

فاضَ بحرُ النَّوالِ في كل قُطر　　من نَدَى راحَتيْك عَذْباً فُراتا
غَرِق ٱلنَّاسُ فيه فالْتَمَسَ ٱلْفَقْرُ خَلاصاً فلم يَجِدْهُ فماتا

وكذلك المولى محمد بن عبد الله أجاز ابنَ الوَنـان لمـَّا مدحه بقافيته المشهورة بألف دينار ، ومولاي سليمان كان كثير العطاء ، عظيم السخاء ، ولا تسَلْ عمّا وصل منه الى شاعره ومُخلـِّد مآثره الشيخ أبي الفيض حمدون ابن الحاج من الهِبَات والصِّلات .

وبفضل هذا التشجيع نبغ كثير من الأدباء كتـّاباً وشعراء ممّن ازْدان بهم هذا العصر ، وكانوا مفخرة هذا القُطر ، وقد يأتي في الرَّعيل الأوّل منهم الوزير اليَحمَدي وعليّ مِصباح وابن زاكور وابنُ الطيِّب العَلـَمي صاحب الأنيس المطرب ، وابن الوَنـَّان ومحمد بن الطيِّب سكيرج والطيِّب بن صالح الرزيني والوزير ابن ادريس العَمراوي والكـَنسوس بلهَ غيرهم ممّن لم يصِلوا الى مرتبتهم ، فإنهم كثير لا يسعُنا ذِكرُهم في هذه الكلمة الوجيزة ، وإن كنـَّا سنذكرهم مع بعض مآثرهم في الجزء الثاني والثالث .

وهؤلاء المذكورون هم ممّن عُرِفوا بالقُدرَة على التعبير والتفنـُّن في أساليب

التّحبير نظماً ونثراً مع متانة القول وإحكامه والذّهاب في أغراض الكلام مذاهبَ الموهوبين من أدباء العربيّة الكبار . فلم يُؤثّر عليهم ما عُرف عن هذه العصور المتأخرة من ضعف الملكات اللّسانيّة بسبب ضعف الحركة العلمية واتّجاهها ذلك الاتّجاهَ العقيم المتردّد بين الاختصار أو الشّرح أو التّعليق إلا فيما ندر ، بل كان أن شقّوا لأنفسهم طريقاً الى المجد وسط تلك الدّروب الملتوية ، فأبانوا عن نبوغهم وعبقريّتهم ، وكان الشعر في أوائل هذا العصر أسبقَ الى النهوض من النثر وخاصةً في الكتابة الدّيوانيّة ، ولذلك نعثُر على رسائلَ رسميّة من مُستوى إنشائي ليس بذاك ، في حين أن القصائد الشعريّة التي قيلت في مولاي إسمعيل وابنه مولاي محمد العالِم ولا سيما من شعراء شنجيط ، كانت في مستوى عالٍ من البلاغة والانسجام ، ثم فيما بعد دولة سيدي محمد بن عبد الله ارتقت صناعةُ الكتابة ، ولا سيّما النثرُ الفني الى المكانة التي قال فيها العلامة محمد بيرم الخامس في كتابه صفوة الاعتبار : « لعمْري إنّ صناعةَ الإنشاء في الدول العربية كادت تكون الآنَ قاصرةً على دولة مراكش » ولا نشكُّ أن للوزير ابن ادريس ومن أتى بعده من بلغاء الكتّاب يداً طولى في ذلك .

وان ننسَ لا ننسَ الزواية الدّلائيّة وما لها من يد على الحركة الأدبيّة في هذا العصر ، فانها التي أنعشت روحَ الأدب بعد خمودها بأثر سقوط الدولة السعدية . وقد نبغ من أهلها زيادةً على المتخرجين فيها كثيرٌ من الأدباء كالشّرقي بن أبي بكر ومحمد ابن المسناوي ومحمد بن أحمد بن الشّاذلي الدّلائيّين وغيرهم . وقد لبثَ الأدبُ المُعاصر يحملُ طابعَها الخاص زمناً غيرَ قصير ممثّلاً في أسلوب اليوسي القويّ الرّصين ، ومُتأدّياً الى ابن زاكور بطريق شيخه اليوسي ، واليوسي من أعظم المتخرّجين في الزاوية المذكورة كما سبق القول .

ونتخلّصُ الآن الى ذكر تراجم زعماء الحركة الأدبية في هذا العصر تتميماً للبحث واحاطةً بالموضوع من جميع جوانبه :

ابنُ زاكُور

هو أبو عبدالله محمدبن قاسم بن محمد بن عبدالواحد بن احمد بن زاكور الفاسي الأديب المتفنّن الرحّالة شيخ الأدباء في عصره صاحبُ اليراع المرهَف ، والفكر المثقّف ، المحرّر الذي برّزَ على أقرانه وفاق أهل زمانه بكثرة اطلاعه وشدة اضطلاعه بالفنون الأدبية ، والعلوم العربية وغيرها ، فكان كاتباً بليغاً ، وشاعراً مُبدعاً ومؤلفاً مُجوّداً من أكبر مؤلفي الآداب من المغاربة . قال عنه في الأنيس المطرب :

« وحيدُ البلاغة ، وفريدُ الصِّياغة ، الذي أرسخَ في أرض الفصاحة أقدامَه ، وأكثرَ وثوبَه على حلِّ المقفَلات وإقدامَه ، فتصرَّف في الإنشاء ، وعطَف إنشاءَه على الإخبار ، وإخبارَه على الإنشاء ، وقارَع الرِّجال ، في ميادين الارتجال ، وثار في معتركِ الجدال ما شاء وجال ، فهو الذي باسمِه في الأوانِ هتِف ، وهو الذي يعرفُ في كل العلوم من أين توكَل الكتِف » الخ .

أخذَ بفاس عن جماعة منهم العلامة أحمد بن الحاج الكبير ، وعبد السلام القادري ، وأبي علي اليوسي ، ورحل فأخذ بتطوان عن علاّمتها الشيخ علي بركة ، وبالجزائر عن مفتيها محمد بن سعيد قدُّورة وغيره .

وله مؤلّفات مُرصَّعات مفوّقات جزْلَةُ العبارة لا يشُقُّ فيها أحد غُباره ، منها عنوان النفاسة في شرح ديوان الحماسة في ثلاثة أسفار ، ومقباس الفوائد في شرح ما خفيَ من القلائد ، قلائد الفتح ابن خاقان وتفريج الكُرَب بشرح لامية العرب ، وديوانه الذي أسماه الرَّوض الأريض في بديع التوشيح ، ومنتقى القريض وقد عملنا منه مُنتخباً ونشر منذُ زمان . وغير ذلك ، وكانت وفاته بفاس سنة ١١٢٠ .

عَبداللهالعَلويْ

أبو محمد عبدالله بن محمد بن عبدالله بن الطالب العلوي نسبة الى قبيلة إدَوَعِلي من إقليم شَنْجِيط ، الأديب الكبير الشاعر البليغ لِسانُ قومِه المُعرِب عن مَغربيَّتِهم وعربيَّتهم العريقتَين . وَصفَه في كتاب الوسيط فقال : « العــالم النِّحرير المُقدَّم على أهل قطره من غير نَكِير ، كَلَّ عن مداه كلُّ جواد، يعترفُ بذلك الحاضرُ والباد، وانتشر صيتُه في تلك الصَّحارى والأقطار حتى صار كالشمس في رابعة النهار » طلب العلم حتى تضلَّع منه ، وكانت له مشاركة في علم الفقه والمنطق والرياضيات ، فضلا عن علوم العربية والأدب وطمحَت نفسُه الى الاتصال بالأعتاب السلطانية ، وكان ذلك في اقبال الدولة العلوية ؛ فاتَّصل بالسلطان مولاي اسمعيل فحظِيَ عنده، وكان ذلك في وقت نبوغ المولى محمد ابن مولاي اسمعيل المعروف بالعالِم الذي اشتهر علمه وفضله ، فكان من خاصَّتِه ، وكان يُكرِمُه اكراماً بالغاً، فكان يَفِدُ عليه ثم يرجع الى بلاده. وكلما تذكر تلك الشمائل العالية والأيادي الحاتمية تـَتَصاغرُ عنده الصحراء وأهلُها فيرجع الى الحضرة السلطانية ويبقى في كنَف الأمير ورعايتِه الى ما شاء الله ، حتى حصلَ منه ما هو معلوم من الخـُرُوج على والدِه فانقطع عنه . وله فيه وفي السلطان مولاي اسمعيل قصائدُ طنَّانة، ويكفي أن نقول أن نفَسه في شعره نفَسٌ شَنجِيطيٌّ؛ فإنَّ تفوُّقَ أهل شنجيط في علوم العربية والنبوغ الذي ظهر منهم في هــذا العصر وخاصةً في نظم الشعر العربي المتين ممَّا لا خفَاءَ به على أحد . وكان المترجم حيّـاً في صدر القرن الثاني عشر .

ابن الطيِّب العلمي

أبو عبدالله محمــد بن الطيب الشريف العَلمي اليُونسِي ، وُلِدَ ونشأ بفاس ودَرَس على أعلامها ، وتخرَّج في الأدب بابن زاكور ، وهو من أكبر أدباء العصر ،

وأصحاب البراعة في الصِّناعتين . له في الشعر طبعٌ متدفّق رقيق ، وفي الكتابة أسلوبٌ راق منسجم ، والفاظه فصيحة ومعانيه واضحة ، وروحه مرحٌ نشيط ، حتى إنه ليعْدي قارئه من فرْط الخفّة والسهولة ، وكان لأهل فاس افتتانٌ عظيم بشعره . وألّف الأنيس المطرب فيمن لقيته من أدباء المغرب ترجم فيه اثني عشر أديبا من أهل عصره بقلم فتحيٍّ شائق ونفس خاقانيٍّ رائق ، وقد ضمّنه مع ذلك كثيراً من شعره الفائق ، فجاء ديوانا أدبيّاً ممتعاً يدلُّ على رسوخ قدم مؤلفه في صناعة الانشاء وقرْض الشعر ، وله أيضاً القصائد العشرة في التشوّق الى البقاع المطهرة ، وكان كثيراً ما يهتفُ بديار الحجاز ، ويتشوّقُ الى زيارة ساكنها عليه الصلاة والسلام فشرّق عام ١١٣٤ فمات في طريقه اليها بمصر رحمه الله .

علي مصباح

أبو الحسن علي بن أحمد بن قاسم بن موسى مصباح ، به عُرفَ هو وقومه ، وهم من بني يصلُوت من قبيلة الأخماس . أديب ماهر كاتب شاعر ، نبغ في أيام الدّولة الاسماعيلية ، واختصّ بالوزير اليحمَدي ، فكان كاتبَه ومُساعده، وله فيه أمداح بليغة ضمّنها كتابه الذي ألّفه فيه وسمّاه سنا المُهْتدي الى مفاخر الوزير اليحمدي ، وهو كتاب قال عنه أكنسوس (ملأهُ مؤلفُه آداباً غضّة ، أنصعَ من جوهري الذّهب والفضّة) وله أيضاً كتاب أُنس السّمير في وقائع الفرزدق وجرير ، وديوانُ شعر جمَعَه بنفسه وأثبت بآخره مجموعةً من رسائله الأدبية ، وبالجملة فهو من أعلام الأدب في هذا العصر ، وشعْرُه منوّعُ الأغراض، رقيقُ الدّيباجة ، عذبُ الألفاظ ، وقد أثبتنا بعضَ آثاره في المنتخبات. وكانت وفاته بعد عام ١١٥٠ .

ابن الونّان

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن الونّان المُلُوكي الفاسي ، شاعر فحل ، صاحبُ قريحة سيّالة ، وخاطر متدفق وفكر نقّاد ، كان والدهُ مُتعلّقاً بالسلطان محمد بن عبدالله ، وكان صاحبَ نوادر ومُلَح ، فكنّاه السلطان المذكور أبا الشمقمق ، ثم توفي فعَمِلَ ابنُه أرجوزتَه الشهيرة وقصَد بها السلطان ؛ فتعذّر عليه الوصولُ اليه ، فتحيَّن خروجَه في بعض الأيام واعترضَه في موكبه وصَعِدَ على نشزٍ عالٍ من الأرض ونادى بأعلى صوته :

يا سيّدي سِبْطَ النَّبي أَبُو الشَّمقْمَقِ أَبي

فعرفه السلطان وأمر باحضاره الى منزله فحضر وأنشدَ الارجوزة المذكورة فوقعتْ منه المَوقِعَ الحسن ، وأجزل صِلتَه ورفع منزلته ، وقد عُرِفت أرجوزتُه هذه بالشمقمقية ، واشتهرت بين أدباء المغرب اشتهاراً لا مزيد عليه ، وهي تحتوي على كثير من الفنون الأدبية والأغراض الشعرية ، مثل الغَزل والنسيب والوصف والحماسة والمدح والهجاء والحِكَم والأمثال وأيام العرب وأخبارها وعوائدها وأحوالها ، مما يدلُّ على غزارة عِلْمِه فضلاً عن تدفُّق قريحته وقوة ملكَتِه ، وهي قافيةٌ في نحو ثلاثمائة بيت ، وله نظمُ مسائل ابن خَمِيس وغيره . وتوفي سنة ١١٨٧ .

ابن إدريس العَمراوي

هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن عبد الله العَمراوي ، من أهل فاس وأشرافها الأدارسه ، كان أديباً ماهراً له باع مديد في الإنشاء ، ومَلَكَة قويّة في الشعر ومُشارَكةٌ نبيلة في الفنون . وكان من ذوي الهِمَم الطامحة الى العلوّ والرياسة ؛

فاتصل بالسلطان المولى عبد الرحمن بن هشام فحظِيَ عنده وترقّت به الحال فتولّى الوزارة ، فكان كما قال عنه الكنسوس : « عِصام الدولة وحِليَة جمالهــا ، ومَجلى محاسنها ومظهَر كمالها ، فبآثاره تزري دولةُ بني مولانا هِشام ، بدولة بني مَروان بالشّام ، ساعدته أحكامُ السّعود ، وعاملته بإنجاز الموعود ، فأدرك في ظِلال دولة السلطان المؤيّد مولانا عبد الرحمن من الجاه والعِزّ والصولة ، ما لم يُدركه الوزير المُهَلّبي مع مُلوك الدّيلم ومُعزّ الدولة ؛ فضحِكت له الأيام بعد عُبُوس ، وأركبته أعز المراكب ، وألبسته أفخرَ الملبوس ، وبيتُه في فاس منبِتٌ طيِّب ، وأصلُه الأصيل ناشىء عن واكِفٍ من الأصالة صَيِّب الخ » . توفي سنة ١٢٦٤ .

أكنسوس

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد أكَنْسُوس المراكشي . العلامة المؤرّخ ، الأديب المتفنن صاحب التاريخ العامر عن الدولة الشريفة المسمّى بالجيش العَرَمرَم الُخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي ، وكان بينه وبين الزّيّاني مُنافَسة حمَلته على انتقاصه ونقده بحقّ وغيره في مواضعَ من تاريخه المذكور . انفرد بالرياسة الأدبية في عصره ، فلم يُنازَع فيها ، وهو خاتِمَةُ الأدباء الفُحول الذين اشتملتْ عليهم هذه الدولة في عهدها الأخير ، وكتابته عالية النفَس ، وشعرُه من النوع السّهل المتَنَع . هذا مع تضلّعه في علوم الشريعة ، ورسوخ قدمه في كثير من الفنون وله غيرَ التاريخ كتبٌ أُخرى في مواضيع شتى . وكانت وفاته بمراكش سنة ١٢٩٤ .